تاريخ الأدب الصيني



تاريخ الأدب الصيني

ترجمه إلى العربية: أ.د. سامي مسلم

الناشر:

عمادة البحث العلمي

جامعة القدس المفتوحة

الماصيون- رام الله/فلسطين

ص.ب: 1804

هاتف:2984491-2-970+

+970-2-2952508

فاكس:2984492-2-970+

بريد الكتروني:Sprgs@qou.edu

تصميم وإخراج فني:

أ. نور صالحية

الجامعة غير مسؤولة عن المواد المنشورة بالكتاب، حيث أنها تمثل رأي الباحث (المؤلف).

تاريخ الأدب الصيني

بقلم

هيربرت أ.جايلز.

حاصل على الماجستير، ودكتوراة في الحقوق، (جامعة إبردين).

CHARLES E. TUTTLE COMPANY

Rutland,Vermont and Tokyo,Japan

الطبعة الأولى 1901 وطبعة (تاتل) الأولى 1973

المحتويات

تمهيد

بقلم أ. د. سامي مسلم

ولد هيربرت الان جايلز Herbert Alan Giles في 1845 وتوفي في عام 1935 عن عمر ناهز التسعين عاماً. وقد خلف لنا مجموعة من الكتب والدراسات والقواميس التي شكلت اللبنات الأولى في مدماك المعرفة باللغة والآداب الصينية.

عندما وقع كتاب جايلز "تاريخ الأدب الصيني" بين يدي جذبني إليه. ولم أنفك عن قراءته حتى انتهيت منه فأصبح مرشداً لي في الأدب الصيني وذلك منذ عصر الإقطاع حتى عام 1901 العام الذي نشر به هذا الكتاب لأول مرة. وقد سحرني بأسلوبه اللغوي بالإنكليزية لسلاسته وبساطته، مع أن جايلز خريج المدرسة الفيكتوريانية التي سادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. واتسمت بالجمل المعقدة والكلمات الرنانة.

كان هذا الكتاب سهل المنال. فهو مقسم إلى ثمانية كتب، كل كتاب مقسم إلى فصول، أطولها كان الكتاب الأول الذي تضمن ستة فصول اشتلمت فيما اشتلمت عليه كنفوشيوس، ومنسيوس والطاوية، والكتاب الثاني اشتمل فيما اشتمل عليه على فصل عن البوذية، ومن هنا نلاحظ أن الديانة المسيحية والديانة الإسلامية لم ينتشرا في الصين مثلما كان نصيب تعالم الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية التي تدجنت وانتشرت في الصين.

يقف الكاتب في تاريخ الأدب الصيني عند سنة 1900، ودفع بالكتاب للطباعة في سنة 1901. والكتاب مقسم بعد ذلك إلى السلالات التي حكمت الصين كالتالي

الفترة الاقطاعية، وسلالة الهان، ثم السلالات الصغيرة، ومن بعدها سلالة تانغ، وهي أعظمهم جمالا في الشعر والأدب، ثم سلالة سونغ وهي أكثرهم متانة، وسلالة المنغول ثم سلالة مينغ وأخيراً سلالة المانشو.

التحق جايلز بالخارجية البريطانية، فأرسل في 1867 إلى الصين كمساعد قنصل عام ثم ترقى إلى قنصل عام، وبقي في هذا المنصب حتى أنهى عمله في الصين في عام 1892 حيث عاد إلى إنجلترا.

كانت الدراسات الصينية في ذلك الوقت تعتبر من الدراسات غير الجذابة بالنسبة للطلبة فلم يتعدى عدد الطلاب الذين التحقوا بالدراسات الصينية أصابع اليد الواحدة. أما كرسي الدراسات الصينية في جامعة كيمبردج فقد وقع على جايلز في عام 1897 الذي قبله في السنة نفسها.

وهنا لا بد من ذكر الأستاذ توماس فرانسيس وويد Thomas Fransis Wade الذي ولد في 1818 وتوفي في 1895. وأهمية السيد ويد تنبع من أنه أول من اهتم باللغة الصينية وقدم لها مع جايلز لغة مبسطة معروفة بـ Wade – Giles ويد – جايلز وهي اللغة السابقة للغة **البن ين Pin Yin.** وكان أول من شغل كرسي الدراسات الصينية في جامعة كيمبردج حتى وفاته في 1897. ومن بعده، عرض الكرسي على الأستاذ جايلز فقبله. وقد استفاد جايلز من الكتب التي تركها ويد لدائرة الدراسات الصينية وعددها 4304 أربعة آلاف وثلاثمائة وأربع مجلدات من الأدب الصيني.

كان جايلز مولعاً بالدراسات الصينية وبالتأكيد بالصين نفسها. فبعد أن استلم الدراسات الصينية في الجامعة المذكورة انبرى ليثبت جمال الثقافة الصينية وعمقها، بعيداً عن الصور المقولبة التي كانت شائعة عن الصينيين في ذلك الوقت من أنهم سائقوا درجات النقل ومن أنهم يوضعون في مصاف الكلاب كما ظهر في إعلان علق على باب مطعم من المطاعم "ممنوع دخول الكلاب والصينيين." فكان جل اهتمام جايلز هو أن يؤنسن الصين بشكل إنساني.

إن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية هو صرخة ضد المترجمين الذين بالتأكيد رأوا الكتاب أو وقع في أيديهم فأشاحوا وجوههم عنه، ونحن، كما يثبت التاريخ كان توجهنا دائماً كخلافة عربية إسلامية، إلى الشرق. ففتحت كثير من الدول حتى وقفنا على بوابات فرغانة أي سينج يانج على حدود الصين الشرقية. ونحن أضعنا فرصة هامة في باب تلاقح الثقافات كما جاء في القول المشهور "أطلبوا العلم ولو في الصين."

كما أن هذا الكتاب الذي وضعه جايلز هو الأول من نوعه الذي يؤرخ ببساطة والتزام لتاريخ الأدب الصيني بشكل سلس وكما بيّنّا أعلاه. حتى تاريخ إصدار هذا الكتاب في 1901 لم يكن هناك أي كتاب يجمع بين دفتيه الحوادث الأدبية من اكتشاف الكتابة، والشعر والأدب والفنون، ومسرحيات الأوبرا وغيرها، والدّرامه مثل حلم المقصورة الحمراء، The Dream of The Red Chamber، والقواميس واكتشاف الطباعة وتأليف الموسوعات والقصة القصيرة، فازددتُ بها شغفاً. وسألت في عدد من المكتبات أو أصحابها، وفي مراجع كشافات الكتب القديمة، عن الكتاب فلم أجد لترجمته إلى العربية أي وجود. فقررت ترجمته. وهكذا يكون هذا الباحث قد ترجم عدداً من الكتب الصينية التي تعتبر أنها أسدت للشعب الصيني خدمة جليلة للتعريف بالوجه الحضاري للثقافة الصينية. وهذه الكتب هي:

1. أغنس سميدلي، الطريق العظيم: حياة تشو ده وعصره، ترجمة د. سامي مسلم، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية 1982.

2. الدكتور هاشم بهبهاني، سياسة الصين الخارجية في العالم العربي 1955 – 1975، ترجمة د. سامي مسلم بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984.

3. لاو تسه / تشانغ تسه، كتاب التاو، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، 2002. راجع د. سامي مسلم الكتاب الأول من هذا النص بعنوان تاو تسي تشينغ لاو تسه.

يضاف إلى ذلك، أن الكاتب كتب العديد من المقالات العلمية والأكاديمية عن الصين. وقام بتقريظ أي مرجعة عدد من المقالات عن بعض الروايات الصينية المعاصرة.

ومن أجل ذلك كله عرضتُ ترجمة هذا الكتاب التي قمت بها على أ. د. يونس عمرو، رئيس جامعة القدس المفتوحة. فرحب بهذا الإقتراح ورآها مهمة جليلة خاصة لقلة المراجع العلمية في هذا المجال باللغة العربية، ووافق كذلك على نشر هذا الكتاب بترجمته العربية. فله الشكر على إتاحة هذا العمل للقراءة والاستفادة من قبل الطلاب والأساتذة في الجامعة وفي غيرها.

وأود أن أشكر كل من السيدة سناء الشعيبي لطباعة المخطوطة المترجمة، والسيدة نور صالحية على المونتاج والتصميم الذي قامت به، كما وأشكر كلاً من السيد عصام الديك على التدقيق الذي أجراه على نص الترجمة والسيد أحمد نجم لتدقيقه المخطوطة.

مقدمة تيرينس بارو

كل حقل من حقول المعرفة العلمية المتبحرة لديه عمل كلاسـيكي رائد ملهم، لا يمكن أن يكون مندثراً. فكتاب **تاريخ الأدب الصيني**، بقلم البروفيسور هيربرت ألان جايلــز، هو كتاب من هذا النوع. منذ طباعتــه أول مرة في عام 1901 أصبح حتى هذا الوقت التاريخ الرسمي الوحيد للأدب الصيني باللغة الإنكليزية. فالكتاب غني بالحكمة الناقدة وبالحقائق. فقد تم تأليفه كملخص ممنهج في ثمانية كتب، كتاب لكل فترة كبيرة من الأدب الصيني.

إن اليأس من تطبيق العدالة في اسـتعراض أدبهــم الضخم، وإنجاز هذه المهمة بطريقة ترضي مواطنيهم، كانت عملية أما ثبّطت الأدباء الصينيين أو أنهم لم يشعروا أبــداً بالحاجة إلى منظر بانورامي. ومهما تكن الحقيقة، فإنها بشــكل عام صحيحة من أن الباحثين الأجانب يمكنهم أن يتجاسروا في الدخول إلى دراسات الثقافات التي لا تخصهم بثقة قلما تجدها لدى الباحثين المحليين الذين يكونون مربوطين بتراثهم مما يمنعهم من اتخاذ نظرة أوسـع. يقوم جايلز بنجاح باستكشــاف سلسلة طويلة من الأدب الصيني في كتاب صغير واحد تماماً مثلما فعل مجايله دبليو. جي. استون قبل سنتين في 1899 بكتابه **كتاب تاريخ الأدب الياباني.**

إن تحصيــل المعرفــة الصيني بعد أن تم تأسيســه قبل 2500 ســنة، اتبع طريق الاســتقرار الكونفوشــيوسي، وحتى قدوم شــيوعية القرن العشريــن أقيم النظام الاجتماعي عــلى الروابط الأسرية. والأخلاق الطهرانية كانــت دائماً قوية، كما هي الآن في الصين الحديثة إلا ان المذهب الجنسي في الآداب والفنون الصينية له تراث طويل مع فترات من الإزهار مثل ســلالة مينغ كما هو مبين ومصور في كتاب **فنون المذهب الجنسي الصيني** بقلم بوردي لاي وغيره).

جرت العادة أن يتم أولا اختبار المرشحين لامتحانات الدولة في موضوع شخصياتهم

ثم يتم إعطاؤهم أوراق امتحان كتابية أو خطية يشـكل فن الخط والأسلوب فيها أهمية قصوى. وكانت الشهادات تمنح لهم على ثلاث مستويات من التحصيل تماماً مثل منح درجات البكالوريوس والماجسـتير والدكتوراه في الجامعة العصرية. لكن في الصين القديمـة كان التحصيل الأدبي يضمن للدارس مركزاً حكومياً، وأكثر الأفراد موهبـة يحصل على أعلى المناصب. وفي عيـون الصينيين لا توجد مكانة تقارن مع مكانـة العالم ورجـل الآداب، والإداري الحق كان دائماً رجـل تعليم. إن تأثير هذا الـتراث كان لجـذب الموهوبين لـلإدارة من كل طبقات الشـعب بغض النظر عن غناهم أو فقرهم. إن الشـعب الصيني بما عليه من أمور عملية على وجه الأرض، أدرك أن الموهبة تخترق جميع مسـتويات المجتمـع، وأنه يجب إعطاؤها الفرصة، وهنـا وجدت ديمغرافية الإدراك التي أثمرت أكثر الثمار تنويعاً وأطولها حياة في أي آداب عالميـة. (للتعـرف على اختيارات مفيدة من الكتابـات الصينية. أنظر كتاب **وليـام ماك نوتـون** بالإنكليزيـة: **الأدب الصيني: مقتطفات مختـارة من الأزمنة الغابرة حتى الوقت الحاضر).**

لم تحظ كل الكتابات على الموافقة الرسمية، وبالفعل فقط تلك التي تم الموافقة عليها حظيت بالأهمية، أي المقالة الرسمية (**تشوان تشي Chuan Chi**) والمناقشات الفلسـفية (**بينغ هوا Ping Hua**). القصص والحكايات لم تعتبرا من الآداب وكان المثقفـون يعتبرونها تحويلة عن مسـتوى القصة الشـعبية. إن تأليـف الرواية أو القصص القصيرة لم تفد أبداً أي إنسـان لمنصب حكومي. وكان البروفيسور هيربرت جايلز من بين قلة أدركت الأهمية الأدبية للحكايات الصينية وعلى وجه الخصوص كـما ظهرت في **لياو تشي (Liao Chi) لـِ بو سـونغ لينج (Pu Sung Ling)** ذاك الرجل من سلالة مانشو الذي شكل في زمانه فشلاً أكاديمياً بسبب «إهماله للطريق المتبع في الدراسات الأكاديمية.»)

ولـد هيربرت جايلز في أكسـفورد، إنجلترا، في عام 1845 بعد ثماني سـنوات من اعتـلاء الملكة فيكتوريا العرش حيث حكمت حتى مماتها في 1901. كان دم جايلز دماً فيكتوريا عبر عن الدراسـة العلمية الجامعة لعصر كان واثقاً ومجتهداً ومهتماً بجميع مناحي الإمبراطورية البريطانية. إن أسس التعليم الجامعي الشرقي المعاصر

وضعها فيكتوريون عظماء ممن فيهم **السير إدوين أرنولد Sir Edwin Arnold** ، **السير ريتشارد ف بيرتون Sir Richard. F. Berton** **بويس ماذرز Powys Mathers**، **دبليو ج استون W.G.Aston**، **هـ. أ. جايلز، H.A. Giles** وغيرهم من الرجال الذين زاوجوا بين العمل الدبلوماسي والمتابعات العلمية.

في 1867، بينما لا يزال شاباً، ذهب جايلز إلى بكين (باي جينغ) للالتحاق بالعمل القنصلي البريطاني، بعد ذلك عين نائب قنصل في جزيرة باغورا (1880) وشنغهاي (1883) وبعدها عين قنصلاً في تام سوي (في تايوان 1885)، ونينغ بو (1891). ثم غادر الصين عائداً إلى إنجلترا عام 1892. السنوات التي امضاها في الصين كانت هادئة على وجه العموم، فقد انتهت حرب الأفيون وثورة التاي بنغ بينما لم تأت بعد ثورة الملاكمين أو ثورة اللبوكسرز. والشيوعية كانت بحاجة إلى خمسين سنة أخرى حتى تأتي. جرب جايلز الصين القديمة بطريقة حميمة حيث كانت الأخلاق التقليدية ومدونة السلوك كما هي منذ ألفي سنة. فاليوم لا ندرك كم كانت الصين متخلفة تكنولوجياً خلال القرن التاسع عشر. إن العقود المتأخرة من القرن الذي كان يعيش فيه جايلز تمتعت بهدوء مضطرب في البلد الذي كان تاريخه يسجل القلاقل بدلاً من السلام.

إن الميزة الفريدة **لتاريخ الأدب الصيني** وترجماته الدقيقة يمكن أن تعزى لتجربة جايلز العملية والحميمة مع الصين والصينيين بالإضافة إلى خبرته النادرة مع اللغة الصينية. هذه التجربة وهي سلاسته باللغة الصينية وأسلوبه الأدبي المباشر بالانكليزية، سمحا له أن يصل إلى الدقة اللغوية ونقل روح النص الأصلي. عندما توفي جايلز في سن التسعين في كيمبريدج في 1935 كان قد صرف خمسين سنة وهو يكتب عن موضوعات صينية. فقد خرجت من قلمه الخصب كتب عن كيف تدرس أو تتعلم اللغة الصينية، وكاتالوجات عن الكتب الصينية، وأعمال عن الديانة التقليدية الصينية وعن الفولكلور وعن كلمة تشوناغ تسو (Chuang Tsu). وهو معروف أيضاً بالكتاب المعجمي ويد - جايلز Wade – Giles صاحب كتابة رومنة Romanization المقاطع الصينية (أي كتابتها بالأحرف الإنكليزية).

زود القــدر بالفعل جايلز بفــرص غير اعتيادية لمتابعة الدراســات الصينية. لقد جرب الصين في الأزمنة الجيدة، وعندما عاد إلى إنكلترا حصل على كرسي الدراســات الصينية في جامعة كيمبريدج – وهي فرصة ســمحت له التركيز والكتابة. لم يحصل جايلز على مردود مالي في البداية، لكنه حصل بعد ذلك على أجر بســيط فقط لأنه في هذه الســنوات كان التدريس العلمي لا علاقة له بالمال. كل من لم يســتطع إلى ذلك ســبيلا لا يمكنه أن يصبح استاذاً لمواضيع مغمورة. كان التلاميذ قلة – لم يعطِ أيٌ منهم أهمية للدراسات الصينية – وبالتالي كان وقت الفراغ لديه واسعاً لكي يقرأ ويكتب في أجواء من الســلام الأكاديمي لبلدة جامعية أخاذة. كان الأســتاذ السابق لجايلز، وهو السير ت.ف ويد، قد ترك للجامعة مجموعة كبيرة من الكتب الصينية والتــي كانت ذات فائدة كبيرة لجايلز. في ذلك الوقــت، بالفعل لم يوجد أي مكان في العــالم، بما فيه الصين، يمكن لــه أن يتبع رغبات عالم متمرس ذو خبرة ليكتب في الموضــوع الصيني. وعلى ضفاف نهر كام (نهر يخترق مدينة كيمبريدج – المترجم)، كان بإمكانه التأمل دون إزعاج في عظمة الصين وفنونها. ومما تراث من الدراســات الصينية في كيمبريدج أنتج موســوعة جوزيف نيدهام **العلوم والحضارة في الصين،** هذه المجلدات التي تتحدث بسلطة عظيمة، وغيرها من الأعمال الثمينة.

إن الافتتــان بالصين نزل عــلى الغرب بعد أن قام ماركو بولــو، في القرن الثالث عــشر بوصــف الثراء في بلاط كوبلاي خان. لقد عرف العــالم الغربي عن الصين قبل ماركــو بولو بفترة طويلة مــن خلال الحرير، والتوابل، والبورســلان (الخزف) التي وصلت الشرق الأوســط من خلال طرق الجمال الصعبة عــبر المناطق الداخلية في آســيا. أن ثروات الصين الثقافية هي ذات منفعة دائمة للإنســانية، إلا أنها ظهرت مؤخــراً في الغرب. حتى دخول القرن التاســع عشر لم تجــر أي ترجمات جوهرية، وكان البروفيســور جايلز من بين الرواد الذين فتحوا الطريق لفهم الأدب العظيم. وقــد تبعه في ذلك عصبة مميزة من الرفاق بمن فيهم **آرثر ويلي Arther Waley، جيمس لج James Legge، ت.ل. كرانمر بينغ T.L. Cranmer – Byng لورانس بينيون Lawrence Binyon، بيرتون واتسون Barton Watoon**، وغيرهم الذين عملوا على جبهات عريضة من الفــن الصيني. وقام الآن العلماء ومؤرخوا الفنون،

وعلماء الآثار بوضع صورة أخاذة لفنون الصين كحضارة مستدامة لأكثر من 4000 سنة، إذ أخذنا بعين الاعتبار بدايتها قبل سلالة شانغ. وعلم الآثار قد كشف لنا أن المزيد قادم.

إن فنون الصين كثيرة، لكن آدابها هي التي تحترم تقليديا. إن طبقة المثقفين في الصين، خلال معظم تاريخها، استمتعت برعاية الأباطرة والنبلاء الذين كلفوهم بتصنيف كتب في الشعر والرسم، والجغرافيا، وغيرها من المشاريع، في أغلب الأوقات لكي يدخل اسمهم التاريخ كرعاة للثقافة. إلا أن هناك أوقاتاً من المد والجزر في التاريخ الأدبي الصيني، مع وجود اتفاق عام أن سلالة سونغ (1270-960) تمثل العصر العظيم في الأدب الصيني الذي يقارن بالمعية اليونان الهيللينية، وانكلترا الاليزابيثية والعصور العظيمة للآداب الهندية. فالهند ساهمت كثيراً بالحضارة الصينية بطريقة مباشرة، وخاصة من خلال إرسال فلسفة البوذية والتي تم إرسالها بدورها إلى اليابان. فالبوذية وصلت الصين قبل ألفي سنة لكن كان لوصول الراهب الهندي **بودي دارما Bodhidharma** عام 520 بعد الميلاد أن وضعت أسس لمدرسة **تشان Chan أو زن Zan** في الصين، والتي كان لها عبر اليابان تأثير على الفكر الغربي في القرن العشرين. لقد ساهمت الصين بالاختراقات الكثيرة في العالم التي جعلت من الحضارة شيئاً ممكناً، على وجه الخصوص الورق، أنواع الطباعة المنقولة والبارود.

حتى السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية كان الغربي العادي يعتقد أن الصينيين يشكلون أمة من العتالة – رجال صفر، ومبهمون لا تقدر أن تكون أفضل من خدم كجنس بشري من الصبيان الذين يجرون العربات ومن الطباخين. ويقال أن النوادي الخاصة الكولونيالية والمطاعم في شنغهاي علقوا إعلانات تقول: ممنوع دخول الكلاب والصينيين. لكن الزمان تغير في العقود الأخيرة. إن تفوق الإنسان الغربي في الغرب كما في الشرق لم يعد مقبولاً في حياة الشرق الأوسط أو في الشرق الأقصى. بالحقيقة قد يكون من الممكن أنه مثلما انتمت القرون الخمسة الماضية للإنسان الغربي فالقرن الحادي والعشرين سينظر إلى الإنسان الشرقي في صعود من خلال نهضة الصين واليابان. مثل هذا الانتقال للسلطة يمكن أن يكون سليماً

إن كان هنــاك تفاهم متبادل خاصة في هذه المنطقة التي للكتب فيها دور فريدة. إن الانتقال العام للســلطة الاقتصادية والعســكرية، من أمم العالم القديم لأوروبا إلى أمــم العالم الجديــد (للمحيط) الهادئ، قد تم بالفعل أمام أعين كل من تخطى أربعين سنة فما فوق وقد هز الثقة السابقة لكثير من الغربيين في مستقبل ثقافاتهم المعنية.

عــلى وجه الخصوص تمثل الصين مشــكلة للديمقراطيــات الغربية التي تفاجأت أن تكــون بلد لها مثل هــذه الثروة من الأدب والفنون والفلســفة تتجه إلى الحل الشــيوعي. لكن التغــيرات الحقيقية التــي حصلت في الصين لم تكــن جذرية. إن طريقــة الحياة الشــيوعية ما هي إلا واحــدة من ثلاث أنماط عظيمــة من الفكر الصيني أي: التطابق الكونفوشيوسي مع الاحترام الكريم لأرواح الأسلاف، والصوفية الطاوية مع حرية الاختيار الفردية المطلقة والمدرسة الواقعية في القانون التي تقوم «على الحقائق الواقعية في العالم كما هي موجودة الآن» لكي نقتبس من **هان فاي تســو Han Fei-Tzu**. هذا النمــط الأخير هو الصيغة الشــيوعية القديمة للنظام الاجتماعــي حيث يقوم فيــه المواطن الفرد بالتنازل عن مصالحــه الخاصة لصالح رفاهية الدولة. بهذا المعنى فإن الشــيوعية في الصين ليست جديدة. مثلاً إن كتاب «**كتــاب اللورد شــانغ** The Book of Lord Shang » يصف «مجتمعاً يكون فيه الناس مســؤولين بشكل متبادل عن بعضهم البعض.» إن الشيوعية الصينية كيفت نفســها مع تعاليم كارل ماركس والتطبيقات الروســية للمجتمــع الذي تم إعادة تشــكيله لكن النماذج الأساســية موجودة في أدب العترات التي انقضت. إن المثل الواقعيــة القديمة تم وضعها في أطر حديثة مع إضافــات القرن العشرين بالطبع. إن السيطرة الأجنبية والفوضى الاقتصادية وتقاليدهم الاستملاكية القمعية حولت هذه النقلة إلى نمط قديم. إن صفة الواقعية تقع في أســاس الشخصية الصينية. في أي مجتمع باسيفيكي من الجزر البعيدة في البحر الجنوبي إلى أي بلدة ميناء ومدينة في أســيا ترى الصينيين المجتهديــن يعملون بينما الآخرون نيــام وترى الصينيين لا يهتمون بملذات الحياة العادية.

يرى البروفيســور جايلز بوضوح الإنجازات النســبية لكل من العترات المتعددة.

فيصف سلالة سونغ بالعصر الذهبي للأدب الصيني مع التحفظ على أن شعر سلالة تانغ يتفوق على أفضل شعر لسلالة سونغ. أما سلالة مانشو التي عاش فيها جايلز فهو يدينها في كتابه **جواهر الأدب الصيني-Gems of Chinesc Litera-ture** (الصادر في شنغهاي 1922). على أنها بالكاد تمر من حدود المقالة والأبيات الشعرية المتكلفة مما يعطي الانطباع من أنه كان نوعاً ما غير متسامح طيلة الوقت مع زمنه. إن حكمه النقدي مع أنه غالباً ما يكون قاسياً، في أغلب الأوقات، لا يزال صحيحاً حتى الآن. إن التسلسل الزمني للعترات الذي وضعه أصبح بالياً وذلك بسبب التقدم في علم الآثار على مدار السبعين سنة الماضية. وبناءً على سلطة **الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica** الصادرة في 1970 وعلى أساس البحث التاريخي فإن التواريخ التالية ستخدم بشكل أفضل قارئ هذا الكتاب:

تشانغ Chang أو ين Yin: حوالي 1776-1123 قبل الميلاد.

تشو Chou: حوالي 1122-256 قبل الميلاد.

تشين 221-207 :Chin قبل الميلاد.

هان 202 : Han قبل الميلاد – 221 بعد الميلاد.

العترات الستة 221-589 Six Dynastiesم.

سوي 618-889 Suiم.

تانغ 618-906 Tangم.

السلالات الخمسة والدول العشرة.907-960 Five Dynasties and Ten States.

سونغ 966 -1279 :Songم.

يوان 1280-1368 :Yuanم.

مينغ 1368-1644:Mingم.

تشينغ 1644-1912 Chingم.

ملاحظات بيبلوغرافية

ولد هيربرت ألان جايلز في أكســفورد، إنجلترا عــام 1845، وبعد عمر مديد دام حتى التســعين من عمره توفي في كيمبريــدج في 1935. كتب عن المواضيع الصينية لمدة خمسين عاماً التي كان أسسها على معرفته الصحيحة للغة الصينية وربع قرن من الخبرة الشخصية عاشها في الصين.

وفي ريعان شــبابه التحق جايلز بالخدمة القنصليــة البريطانية في بكين في 1867 وبعدها خدم في كثير من المواقع حتى عام 1892 عندما عاد إلى إنجلترا.

كانت الدراســات الصينية في أدنى مســتويات الســلم (الأكاديمي) في الجامعات البريطانية خلال أواخر القرن التاســع عشر، لكن الاســتذة كانت موجودة وبالتالي أخــذ جايلز كــرسي اللغة الصينية في جامعة كيمــبردج في 1897. كان عدد الطلاب قليلا لكن الكتب كانت كثيرة. كما أن الحياة المتروية لبروفيسور في كيمبردج منحت جايلز فرصة غير محدودة للكتابة. الكتب تدفقت من قلمه. إن معرفته الراســخة باللغة الصينية وطلاقته باللغة الإنكليزية أعطيا بعضاً من أوضح وأرشق الترجمات في الأدب الصينــي. في 1922 منحــت الجمعية الآســيوية الملكية جايلــز الميدالية الذهبية التي كانت تمنحها مرة كل ثلاث ســنوات وقد حملت معها تقريظاً يقول «أكثر من أي عالم حي قام بأنسنة الدراسات الصينية.»

عمل البروفســور جايلز عن حق ليكشف للشعوب الناطقة بالانكليزية في العالم عمق وجــمال الثقافة الصينية. ففي عصر كان يعتــبر الصينيين مخلوقات غرائبية وبالتــالي مبهمين وســخفاء فقد حقق جايلــز فهماً أفضل لعظمــة الصين على مر العصور. إن كتاب **تاريخ الأدب الصيني** هو واحد من أكثر الإنجازات الأدبية الباقية لجهوده وبالتأكيد هو مســاهمة فريدة في الدراسات الصينية. إن عمل البروفسور جايلز سيعطى دون شك اهتماماً متجدداً كلما كسب دور الصين في العالم الحديث أهمية متزايدة.

الدكتور تيرينس بارو

استهلال هيربرت أ. جايلز

هــذه هي المحاولة الأولى التي جرت في أي لغة، بما فيهــا الصينية، لإنتاج تاريخ للأدب الصيني.

إن العلماء المحليين، بانتقاداتهم التي لا تنتهي وتثمينهم للأعمال الفردية، يبدون كأنهم لم يتصوروا مطلقاً أي شيء من هذا النوع، مدركين بلا شــك يأســهم المر، من وجهــة نظــر صينية بإحراز أي نجاح مقارن في مســح تاريخي عام حول الموضوع. إن الصفة الضخمة للأدب التي كانت قائمة قبل قرون ســتة قبل العصر المســيحي واســتمرت دون انقطاع حتى هذا التاريخ قد تكون أعطت فترة اســتراحة للكتاب الذيــن يهدفون للكمال. أما بالنســبة للطــلاب الأجانب فهم يبدأون من أســاس مختلف. يمكن ان يقال دون إجحاف، أن أي عمل قد يكون غير كاف لمتطلبات أي جمهور محلي، يسلَّم لقراء الإنكليزية كمقدمة في الحقل الضخم الذي يمتد بعيداً.

عملاً باقتراح السيد غوس Gosse الذي أدين له بكثير من الإيماءات الثمينة فإني خصصت قسمًا كبيراً من هذا الكتاب للترجمة وبالتالي فقد مكنت الكاتب الصيني من التحدث عن نفســه حينما ســمحت بذلك الترجمة. وقــد أضفت هنا وهناك، ملاحظــات للكاتب المحلي حتى يتمكن القــارئ من تكوين فكرة حول وجهة نظر يقيِّم الصينيون منها انتاجهم.

يبقى لي أن أقول أن الترجمات ترجماتي، باســتثناء بعــض الفقرات من كتاب لجّ Legge «الكلاسيكيات الصينية Chinese Classics» وقد أشرت لها حينما وردت.

كيمبردج، أكتوبر (تشرين الأول) 1900

هيربرت أ. جايلز

الكتاب الأول

عصر الإقطاع 600-200 قبل الميلاد

الفصل الأول

العصور الخرافية – الحضارة الصينية الأولى – بداية الكتابة

إن تاريخ بداية كل الأشياء تمت حسابته بشكل جميل، من قبل المؤرخين الميقاتيين الكرونولوجيين الصينيين. قبل كل شيء كانت هناك فترة حيث كان فيها اللاشيء موجوداً، مع أن بعض المتحمسين حاولوا العمل بفترة تسبق ذاك. تدريجياً، أخذ اللاشيء على نفسه شكل ومحدوديات الوحدة، يمثله نقطة في مركز الدائرة. وهكذا نشأ الجوهر الفرد، السبب الأول، الهالة، أو روح العصر، أو أي شيء يريد الفرد أن يسميه.

بعد عصور لا تحصى، صرفها على ما يبدو بعمل لا شيء، فإن الجوهر الفرد انقسم إلى مبدأين اثنين، واحد ناشط والآخر ساكن، واحد إيجابي والآخر سلبي، الضوء والظلمة، الذكر والأنثى. إن تفاعل هذين المبدأين الاثنين نجم عنه انتاج كل شيء كما نراه نحن في العالم حولنا قبل 2.269.380 (مليونين ومائتين وتسع وستين ألفاً وثلاث مائة وثمانين سنة). هكذا كانت باختصار نظرية خلق الكون.

إن المؤرخين الصينيين الأكثر رزانة يكتفون بالبدء بإمبراطور خرافي بدرجة كافية حكم قبل 2800 سنة قبل التقويم المسيحي. إن مزاولة الزراعة، واختراع المركبات ذات العجلات والفنون الأكثر بساطة للحضارة الأولى يتم نسبتها إلى هذه الفترة، أما بالنسبة للطالب الأوروبي المتجرد فهي فترة خرافة واسطورة؛ بالحقيقة نحن لا نعرف الكثير عنها. وكذلك لا نعرف الكثير، في المعنى التاريخي، عن الحكام المتعددين الذين تظهر أسماؤهم وتواريخهم في الجداول الزمنية للألفيتين السابقتين. وبالواقع حتى قدوم القرن الثامن قبل الميلاد لا يمكننا التحدث عن التاريخ.

لأسباب سوف نوضحها حالياً أن القرن السادس قبل الميلاد يشكل نقطة بداية مريحة لطلاب الآداب الصينية.

في ذلك الوقت، كانت الصين محصورة في مســاحة صغيرة نسبياً تقع في معظمها بين النهر الأصفر شــمالاً ونهر اليانغ تســه جنوباً. لا أحد يعلم من أي مكان ينحدر الصينيون. البعض يقول بالنظرية الساحرة بأنهم كانوا مهاجرين من **أكاديا Acca-dia** التي تقع في مملكة بابل القديمة؛ وغيرهم، نسبوهم إلى قبائل إسرائيل الضائعة. ويبدو أن لا أحد فكر من أنهم قد أتوا، ربما، من السهول الخصيبة الموجودين فيها. وعــلى مــا يبدو بالفعل أنها قد تكون مســلّمة اثنولوجية من أن كل جنس أتى من مــكان ما خارج أرضه. وعلى كل حال فصين القرن الثامن قبل الميلاد تشــكلت من عــدد من الدول الإقطاعية، يحكمها النبلاء، ويظهــرون الولاء للدولة المركزية التي كان على رأسها ملك. والعلامة الخارجية للخضوع كانت البيعة والجزية، لكن الولاء قــد يكون أكثر لفظياً منــه حقيقة، كل دولة هي عملياً مملكة مســتقلة، إن هذا الوضع كان الســبب وراء الغيرة المتبادلة. وفي كثــير من الأحيان كان وراء الحروب الدموية، التي كانت فيها الدول تكره بعضها البعض تماماً بطريقة شديدة مثل أثينا وسبارطة.

وبخــلاف ذلك، كانت هناك حضارة ملموســة عظيمة في الــدول القديمة في تلك الأيــام الأولى. وكان مواطنوها، عندما لم يشــتغلوا في قطع رقــاب بعضهم البعض ينعمون بأمن معقول لحياتهم وممتلكاتهم. عاشــوا في بيوت ذات بناء جيد، لبسوا الحرير أو الأقمشة المنسوجة في البيت، لبسوا الأحذية المصنوعة من الجلد، وحملوا الشمســيات والمظلات. جلسوا على الكراسي أو استخدموا الطاولات، ركبوا العربات وعربــات بدولابــين، وتنقلــوا بالقوارب، وتناولــوا طعامهم من الصحــون والأواني الخزفية، ربما كانت خشــنة لكنها كانت تفوق الصواني الخشبية التي كانت دارجة الاســتعمال حتى زمن قريب في أوروبا. وقاســوا الزمن بالمِزولة وكان لهم في العصر الذهبي شــجرتان للتقويم شهيرتين وصلنا منهما أشــكال تمثيل استعاراتية منحوتة تاريخها يعود لحوالي (150) ســنة قبل الميلاد. إحدى هاتين الشــجرتين كانت تنتج ورقة كل يوم لمدة خمســة عشر يوماً بعدها كانت تســقط الورقة يومياً على مدار الخمسة عشر الأخرى. ومع نمو هاتين الشجرتين في ساحة الدار كان من الممكن أن يعرف المرء بنظرة واحدة ما هو اليوم من الشــهر وما هو الشــهر من السنة، لكن

الحضارة أثبتت أنها لم تكن ملائمة لنموها واندثر هذا النوع كلياً.

في القرن السـادس قبل الميـلاد كان الصينيون يملكون لغة مكتوبـة كافية تماماً لأكثر التعابير المتعددة للفكر الإنسـاني، وبالحقيقة كانت مشـابهه لخطهم الحالي، مما سـمح بـين أمور أخرى لتعديلات محددة في الشـكل نجم عـن إحلال الورق والفرشـاة المصنوعة من وبر الجمال محل ألواح البامبو وأقلام سـتايلوس القديمة **Stylos**. إن المراحـل الفعليـة التي تم التوصـل لها في هذه النقطـة بعيدة جداً وغـير معروفـة لدينا. كان للصين كادموسـها[1] الخاص بها في شـخصية فرد ما قبل التاريخ المسـمى **تسـانغ تشـييه (Tsang Chieh)** الذي قيل عنـه أنه كان لديه أربعـة أعـين وأخذ فكرة اللغة المكتوبـة من علامات مخالب الطيـور التي تتركها على الرمال. وعندما أنهى مهمته أمطرت السـماء قمحاً وخلال الليل نامت الأرواح الشريرة. وقبل هذه الأحداث، لم يكن لدى الإنسانية أي نظام غير الطريقة البدائية لربـط الحبال أو تثليم العصي ليسـجلوا الأحـداث أو للتواصل مع بعض عن بعد.

فيما يتعلق بأصل اللغة المكتوبة للصين فإن الاختراع بعيد كل البعد عن الصحة. يبدو من المحتمل أنه في عصور ما قبل التاريخ كان الصينيون، مثلهم مثل الشعوب الأخرى، قد بدأوا يرسـمون رسومات بدائية للشمس والقمر والنجوم، للفرد نفسه، للشجر وللنار والمطر، ويبدو أنهم اتبعوا ذلك بصور (إيديوغرام) من أنواع مختلفة. ما هي المسـافة التـي قطعوها في هذا الاتجاه لا يمكننـا إلا تخمين ذلك. بالمقارنة يوجـد أفراد مصورون بوضوح وصور يمكن إيجادها في كتابات الألفيتين الماضيتين: لكن التحقيقات التي أجراها لسنوات كثر السيد **ل. سي. هوبكينزL.C. Hobkins** قنصل جلالتها في **تشى فو Che Foo** ويقترب الآن من الانتهاء منه، تشير أكثر فأكثر إلى حقيقة أن اللغة المكتوبة سيعترف بها يوماً ما على أنها تطورت من رموز مصورة. وعلى أي حال، من المؤكد أنه في تاريخ مبكر عقب الفترة الخرافية «للحبال المربوطة» و«التثليـم» نجد في الوقت الذي لا تـزال فيه الرموز التصويرية قليلة نوعاً ما أحد المنظمين العباقرة قد وصل إلى تخوم المبدأ اللفظي أو النطقي التي هي النقطة التي انطلق منها التطوير السريع للغة المكتوبة، كالتي نجدها الآن، ستكون مسألة سهلة.

1 أي الشخصية الخرافية وهو كادموس مؤسس مدينة طيبة اليونانية/ المترجم.

الفصل الثاني
كونفوشيوس - الكلاسيكيات الخمسة

ولد كونفوشيوس في سنة 551 قبل الميلاد. ويمكن اعتباره مؤسس الأدب الصيني. خلال السـنين التي قضاها بالوظيفة كخادم حكومي، والسـنين التي قضاها يعلم ويتجـول كمنفي، وجد الوقت لينقذ للأجيال القادمة عدداً من المِزَن الأدبية الثرية تعـود للعصور القديمة جداً وأن ينتج على الأقل كتاباً أصلياً له. إن من غير الممكن التأكيـد أنه قبل زمانه كان هناك شيء ما بالمعنـى المفهوم بالأدب العام. يبدو أن اللغة المكتوبة كانت تسـتخدم أساسـاً لأهداف الإدارة. لكن كثـيراً من التعبيرات، مـن الأيـام الأولى، حتى لا نقول من أيـام الخرافة، كان الحـكام ملزمون بالكتابة في وقـت ما، ومثـل هذه التي كانت مفقودة تم جمعهـا بعناية وحررت من قبل كونفوشـيوس وشـكلت ما هو معروف لدينا **بكتاب التاريخ أو شو تشينغ (Shu Ching)**. الوثائـق التي شـكلت هذا العمل كان عددها مـا مجموعه مائة وثيقة وكانت تغطي فترة امتدت من القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثامن قبل الميلاد. إنهـا تعطينا ومضـات عن العصر الذي سـبق كونفوشـيوس إن لم يكن في الواقع أبكر من ذلك مثلما يدعون. أول وثيقتين، مثلاً، تشـيران إلى الإمبراطورين **ياو Yao وشون Shun** الذين امتد حكمهما من 2357-2205 قبل الميلاد الذي يسمى العصر الذهبي للصين. وإننا نقـرأ فيه كيف أن الملك الأول «وحد الأجزاء المتعددة تحت حكمه بروابط من السلام مما مكن أن تسود اتفاقيات المصالحة بين الشعوب ذوي الشعر الأسود.» وكان هذا قد تنازل لصالح **شون** الذي وصف على أنه حكيم عميق جداً، وذكي، ومخلص. إضافة إلى ذلك فنحن نعلم كذلك إلى أنه تم اختياره بسـبب بـره العظيم بوالديه مما مكنه من العيـش بتناغم مع والد غير مبدئي وزوجة أب مراوغة وخادعة وأخ غير شقيق متعجرف، وفوق كل ذلك أن يؤثر بمثله في الإصلاح المقارن لشخصياتهم المتعددة.

بعد ذلك نأتي إلى شخصية مشهورة جداً أسست سلالة **هسيا Hsia** في عام 2205 قبل الميلاد ويعرف باســم **أو العظيم Great Yu**. انه هو الذي نجح، في فترة حكم الإمبراطور شون، بالتعامل مع طوفان مدمر، كان يشار له بطوفان نوح والذي قيل عنه في (كتاب) **تســو تشــوان Tso Chuan**، «كم هي إنجازات (أو) عظيمة، وكم هي طاقته الممجدة بليغة! ولولا **(أو)** لكان يجب أن نكون سمكا». التالي هو نصه (ترجمة **لج Legge**):-

«كانــت ميــاه الطوفان تبدو على أنها تهاجم الســموات، ومن خلال مســاحتها الشاســعة ضمت الجبال وغطت التلال مما جعل الناس مندهشين ومغلوبين على أمرهم، لقد ركبت وســائل النقل الأربعة الخاصة بي (العربة والقوارب والزلاجات، وحذائي ذي المســامير) وقمت في كل التلال، وأنا ســائر، بقطع الغابات، وفي الوقت نفســه أطلعنا، مع **(أو)** الجمــوع كيف يمكنهم الحصول عــلى اللحم من أجل أن يأكلوا. وفتحت ممرات للجداول على طول المقاطعات التســع وأدرت مجراهم إلى البحــر. وعمقت القنوات والأقنية وأدرت مجراها إلى الجداول، وفي الوقت نفســه، قمــت إلى جانب **تشي Chi** ببذر القمــح وأطلعت الجموع كيف يمكنهم الحصول على طعام الجد والعمل بالإضافة إلى اللحوم حتى يأكلوا. وحثثتهم أيضاً على تبادل مــا عندهم مع ما ليس عندهــم وأن يتخلصوا من مخزونهم الذي جمعوه. وبهذه الطريقة حصل الناس كلهم على القمح ليأكلوا وجميع الدول بدأت تخضع للحكم الرشيد.

جزء بسيط من **كتاب التاريخ** مكتوب شعراً:-

«الناس يجب أن يكونوا معززين ولا يجب أن يكونوا مضطهدين.

الناس هم جذر البلد،

وإذا كان الجذر ثابتاً سيكون البلد آمنا.

*****

القصر (مكان) جامح للشهوة.

والبلد (مكان) جامح للصيد.

نبيذ غني، وموسيقى ساحرة.

وأسقف مرتفعة وحوائط منحوتة،

إذا أعطيته واحدة من هذه

فلا يمكن أن تكون النتيجة إلا الدمار.»

من تاريخ تأسيس سلالة **هسيا Hsia** تم تناقل عرش الإمبراطورية من الأب إلى الأبن، ولم يعد هناك تنازل لصالح الحكماء الشرفاء. يعالج القسم الرابع من **كتاب التاريخ** انحطاط حكام هسيا واستبدالهم النهائي عام 1766 قبل الميلاد من قبل تانغ الكامل، مؤسس سلالة شانغ، بحلول 1122 قبل الميلاد سقط ملوك شانغ كذلك من المزايا الملوكية لمؤسسهم إلى درجة أكثر انخفاضاً من الذل والرذيلة. ثم قام واحد من أكثر الابطال نقاءً وأكثرهم احتراماً في التاريخ الصيني، عرف شعبياً باسم التطويب الخاص به، **ون وانغ Wen Wang**، كان حاكماً وراثياً لإمارة تقع في **مقاطعة شانسي Shensi** الحديثة وفي 1144 قبل الميلاد، تمت إدانته بالخطورة على العرش، تم القبض عليه، وزج به بالسجن، حيث أمضى سنتين، منشغلاً **بكتاب المتغيرات Book of Chages** ، الذي سنرجع إليه حالا. وبعد فترة استسلم الإمبراطور إلى تدخلات الناس متراجعاً أمام هدية محظية جميلة وعدد من الأحصنة البديعة، فأطلق سراحه وعهد إليه بشن الحرب على القبائل الحدودية، حتى يومه الأخير من حياته، لم يتوقف أبداً عن الاحتجاج على قسوة وفساد العصر، ولا يزال اسمه معتبراً كأحد أمجد الناس في تاريخ الإمبراطورية. وقد كان من نصيب ابنه، الذي كان يعرف باسم **وو وانغ Wu Wang** الانقلاب على سلالة تشانغ وتقلد العرش كالملك الأول لسلالة شانغ التي كانت لها الديمومة لمدة ثمانية قرون. التالي هو خطاب من قبل الأخير أمام تجمع كبير من النبلاء الذين كانوا يميلون ضد أسرة شانغ. إن الخطاب محفوظ، بين أمور أخرى، في **كتاب التاريخ**، وتم تأريخه في العام 1133 قبل الميلاد (ترجمة لج):-

إن السماء والأرض هي الوالدان لكل المخلوقات، ومن بين كل المخلوقات فالإنسان

أكثرها موهبة. ومن بين الرجال يصبح المخلص والذكي والألمعي ملكاً عظيماً، والملك العظيم هو والد كل الناس. أما الآن، فإن **شــو Shou**، ملك شــانغ لا يحترم السماء العليا وينزل المصائب بالشــعب. وقد ترك نفسه للســكر والتهور في الشهوة. وقد جرؤ على ممارســة الظلم القــاسي. بالإضافة إلى جميع المجرمــين فقد عاقب أيضاً جميــع أهلهم. لقد وضع الناس في مناصبهم على أســاس مبــدأ الوراثة. وقد عمل في ســعيه للحصول على القصور، والأبراج والمقصــورات والكبارى، وأحواض البرك، وكل هــذا التبذير وغيره الجرح الأكثر إيلاماً لكــم، أنتم الناس الذين لا تعدون ولا تحصون، وقد قام بحرق وشواء الوفي والجيد. وقد قام بتمزيق النساء الحوامل. لقد أصاب ذلك الســماء العظيمة بالغضب وأولت والدي المتوفى **ون Wen** باحترام أن يظهر عظمتها، إلا أنه توفي قبل أن يتم العمل.

«وعلى هذا الأساس، أنا، **(فا) (Fa)** الذي لا يزال طفلاً صغيراً، قمت، من خلالكم، أيها الحكام الوارثون للدول الصديقة، بتأمل حكومة شانغ؛ ولكن **شو Shou** ليس لديــه أية رحمة في قلبه. إنــه يبقى مقرفصا على كعبيه، لا يخــدم الله أو الأرواح في الســماء والأرض، مهملا كذلك معبد الأجداد وتقديــم القرابين فيه. إن الضحايا والتابعــين من الأمــة يصبحون جميعاً الضحية للصــوص الأشرار، وبالرغم من ذلك فإنــه يقول: هؤلاء الناس ملكي، والأوامر هي لي، دون أن يحاول أبداً تصحيح عقله القمىء، الآن، الســماء، من أجــل حماية الناس الأقل حظاً، نصبــت عليهم حكاماً وحملــت كذلك لهم مدربين حتى يتمكنوا من مســاعدة الله وتأمين الطمأنينة في أرجاء الإمبراطورية الأربعة. فيما يخص من هو المجرم ومن ليس كذلك، كيف أجرؤ أن أتحدث عن رغباتي الخاصة.

«حيث توجد القوة بشــكل متســاوٍ، فقس فضيلة الفرقاء، وأينما توجد الفضيلة بشكل متساو، فقِسْ برَّهم. '**شو Shou** عنده مئات الآلاف من الوزراء الذين لا حصر لهم ولكن هم أيضاً عندهم مئات الآلاف من عقول لا حصر لها: أنا عندي ثلاثة آلاف وزير لكن كلهم عندهم عقل واحد. إن ظلم **شانغ Shang** هو ظلم كامل، والسماء تعطي الأوامر لتدميره، وإذا لم أمتثل للســماء، فإن خطيئتي تكون بالمقدار نفسه.

«أنــا، **فــا Fa** ذلك الطفل الصغير إن عاجلاً أو آجلا ســأمتلئ خشــية. أنا توليت المهمــة مــن والدي المتــوفى، **ون Wen** ؛ وقدمت ضحية خاصــة للرب، وقد قمت بالخدمــة المطلوبة مني للأرض العظيمة؛ وعنــدي جموعكم لتنفيذ العقاب الذي حددته الســماء. إن الســماء تقــوم بتكليف الشــعب، وما يبتغيه الناس، ســتجد الســماء أذناً صاغية له. هل تســاعدوني، أنا الرجل الواحــد، لتنظيف كل من على البحــار الأربعة (أي في كل المعمورة)، الآن جــاء الوقت! دعونا أن لا نضيع ذلك.»

وثيقتان اثنتان من التي تشــكل كتاب التاريخ موجهة ضد الترف والسكر. ويبدو أن الناس كانت تريد الانصياع للطلب حتى أبعد مسافة معقولة من وفاة **ون وانغ Wan Wang** . لقــد أصــدر الأخير (ون وانغ) قراراً أن النبيذ (وذلك يشــتمل على المشروبات الروحية المستقطرة من الأرز، يمكن استخدامه فقط بمناسبات التضحية، وحتــى في تلك الحالة يكون ذلك تحت إشراف دقيق، هذا كتب كمبدأ عام من أن جميع المصائب القومية التي تنتهي بســقوط الســلالة، يمكن أن تنسب إلى إساءة استعمال النبيذ.

إن **كتاب Shih Ching أو كتاب القصائد الغنائية** هو عمل آخر يتم حفظه ونحن مدينون لكونفوشــيوس للحصــول عليه. إنه يضم مجموعة مــن القصائد الغنائية المقفاة بأوزان مختلفة، في العادة تضم أربع كلمات للسطر، جرى تأليفها بين حكم (أو) العظيم وبداية القرن الســادس قبل الميلاد. إن هذه التي يبلغ تعدادها 305 تعــرف من ناحية شــعبية «بالثلاثمائة» والتي قيل عنها أنه تــم انتقاؤها من قبل كونفوشــيوس من مجموعة لا تقــل عن 3000 قطعة. ويتــم ترتيبها تحت أربعة عناوين كالتالي:- (أ) قصائد غنائية عادة تغنى من قبل الشعب في الدول الإقطاعية المتعددة، ويتم إرسالها بشكل منتظم من قبل النبلاء إلى مليكهم **ابن السماء**. بعد ذلك يتم إرســال القصائد الغنائية إلى الموســيقيين (في البلاط) الإمبراطوري، الذين كانــوا يملكون المقــدرة أن يحكموا من طبيعة التأليف ما هــي الأخلاق والعادات الســائدة في كل دولة وبالتالي يمكنهم نصيحة الملك وفقاً لذلك فيما يتعلق بالإرادة الجيدة أو الفاشــلة (الخيرة أو الشريرة) لكل مــن حكامه التابعين له. (ب) قصائد غنائية تغنى في الحفلات الترفيهية العادية التي يدعو لها الملك. (ج) قصائد غنائية

تغنى في المناسـبات الكبرى عندما يجتمع النبـلاء الاقطاعيون مع بعضهم البعض.
(د) قصائد غنائية في المديح والتضحية.

كان كونفوشـيوس نفسـه يعطـي عملـه الأهمية القصـوى في هـذا الاتجاه. وقد سـأل ابنه في إحدى المناسـبات «هل تعلمـت القصائد الغنائيـة؟» وعندما حصـل على جـواب بالنفي مـا كان منه إلا أن أبلـغ الصبي فوراً قائـلاً حتى يتم ذلـك فإنه لن يكـون ملائماً في مجتمع الرجـال المثقفين. قد يكون كونفوشـيوس حقيقـة قـد توقـع القول المأثـور هذا الـذي ينسـب[2] إلى فلتشر من سـالطون والموجـه إلى «رجل حكيم جداً» أي أن من يسـمح له أن يؤلـف «قصائد غنائية للأمـة كلها لا يحتاج الاهتمام بمن سـن القوانين لها. وقـد يكون هذا الاهتمام من كونفوشـيوس أدى إلى هـذه الرعاية الأدبية غـير العادية فيما يتعلـق بالقصائد الغنائيـة. إن المعلقين القدمـاء الذين لم يكن في مقدورهم رؤية جمالية الأشـعار الطبيعية والبسيطة، والتي وفرت للغة اليوم الحاضر كلمات البيوت غير المحدودة والمخزون الواسـع من الأسـلوب اللغوي، وفي الوقت نفسه غير قادرة على تجاهل حكم السـيد عن عمد، فأخذ يعمل على قراءة أناشـيد الريف التي تحمل أهمية أخلاقية وسياسـية. وكل واحدة من «الثلاثمائة» الخالدة أجبرت على أن تثمر نوعاً من المعنى الخفي وتشـير إلى الدرس الأخلاقي المناسب. أن حذرت فتاة حبيبها أن لا يستعجل:-

«لا أرجوك لا تدخل أيها السيد!

لا تكسر شجرة الصفصاف خاصتي!

ليس لأن ذاك سيحزنني كثيراً!

لكن، ويا للأسف، ماذا سيقول والديّ؟

أحبك كما أريد

لا يمكنني تحمل التفكير ماذا سيكون ذلك،»-

2 كاتب وسياسي ستكتلندي عاش بين 1665-1716 وكان ينادي بعدم ضم ستكتلندا إلى بريطانيا. المترجم

فالمعلقون اكتشفوا فوراً أن هذه القطعة تشير إلى نبيل اقطاعي كان أخاه يتآمر ضده، وحتى لا يأخذ الأول عقاباً ملائماً وسريعاً قام بتقديم الاعتذارات لأنه لم يقم بزيارة الثاني.

وقد تقول سيدة شابة مستقلة أخرى

«إن كنت ستحبني يا عزيزتي يا سيدي

سأرفع تنورتي واقطع النهر من المنخفض

ولكن أن كنت تطردني من كل قلبك

أعرف أنك لست الرجل الوحيد الموجود

يا أيها الأبله الأخرق، الأخرق، الأخرق!»

لم يــزل المعلقون لا يريــدون أن يظهروا أن هذه الكلمات المباشرة تعبر عن رغبة شــعب في دولة صغيرة أن تقوم دولة كبيرة ما بالتدخل وتضع حداً للنزاع القائم في العائلــة الحاكمة. بالطبع إن العلــماء المحليين متعصبون جداً لتراث المعلقين، لكن طلاب العلم الأوروبيين سينتفعون حتما أن هم سعوا وراء معنى القصائد الغنائية على امتداد القصائد الغنائية نفسها.

من الممكن أن يكون إدخال هذه الســخافات والحماقات نفســها قد ســاعد في الحفاظ حتــى يومنا هذا على عمل كان يمكن أن يعتبر متواضعاً جداً ليحصل على انتبــاه العلماء. الصينيون الذين في مقدمة الباحثين، يحفظون ذلك عن ظهر قلب، وكل قطعة منفصلة خضعت للتحقيقات البحثية، حتى لم يعد بإمكان قوة التأويل أن تحدث أكثر من ذلك. يوجد بيت من الشــعر، مشــهور جــداً الذي يقول وفقاً للتعليق الجاري، «إن تعكر نهر **تشينغ Ching** يظهر من (صفاء) نهر واي Wei.» في سنة 1790 لم يكن الإمبراطور**تشيان لونغ Chien Lung** راضياً عن هذا التفسير، فأرسل نائبه ليفحص النهرين، وقد عاد الأخير ليقول أن تشينغ كان حقاً صافياً ونهر **الــواي Wei**.» كان عكراً موحلا مما جعل تأليف الســطر يعني بالضرورة «إن نهر تشينغ قد صار عكراً» من نهر واي.»

التـــالي هـــو عينة من قصيدة واحدة مـــن القصائد الغنائية، محملـــة، مثلها مثل الباقين، بتفسير سياسي غير معقول، وهي ليست بحاجة إلى أن نقول فيها شيئاً:-

«يبدو أنك شاب بسيط للغاية،

تعرض اشيائك المنسوجة من الحرير[3]

لكن الحرير لم يكن مطلوباً منك،

فأنا كنت الحرير الذي تطلبه.

معك أنا قطعت المنخفض، وبينما

نحن نتجول لعدة أميال

قلت، لا أرغب بالتأخير،

لكن على الأصدقاء أن يحددوا يوم زفافنا.

أرجو أن لا تسمح لكلماتي أن تسبب ألماً.

لكن مع الخريف تعال مرة أخرى.

«ثم أني كنت أراقب وأنتظر

لأراك تمر عبر البوابة،

وفي بعض الأحيان، عندما كنت أراقب دون جدوى،

دموعي كانت تنهمر مثل المطر المتساقط،

ولكن عندما رأيت حبيبي

ضحكت وبكيت بصوت مرتفع من الفرح.

لقد قلت أن العرافين قد اعلنوا زوجين،

3 من المفروض أن تكون هذه قطع من الكتان تستخدم كوسيط دوار قبل اختراع العملة. المترجم

'وبالتالي أحضر العربة، اجبتك،
سأنصرف لكي أكون عروسك. '

«ورقة التوت، لم يأت أجلها بعد،
ومع برد الخريف، لا تزال تلمع في الشمس.
يا حمامتي الأليفة، أنصحك، انتبهي للفاكهة التي تغري العيون،
آه، يا أنستي الجميلة التي لم تصبح بعد زوجة
لا تستمعي إلى المحبين عندما يقسمون!
الإنسان قد يفعل ذلك خطأ لكن الزمان
سيفرش ظله على جريمته،
المرأة التي أضاعت اسمها
محكوم عليها بالخزي.
«إن شجرة التوت الطالعة على الأرض
تقوم الآن بنفض أوراقها الصفراء.
ثلاث سنوات انزلقت مني
منذ أن شاركتك لأول مرة، فقرك،
والآن، مرة أخرى، ويا للأسف!
عائدا من خلال النهر الضحل أخذت طريقي
إن قلبي لا يزال لم يتغير، لكنك
قلت كلمات ثبت الآن أنها غير صحيحة،
وتركتيني لأتأسف.

على حب لا يمكن أن يكون لي بعد الآن.

لمدة ثلاث سنوات طويلة كنت زوجك
وعشت حقيقة حياة شاقة،
كنت أنهض باكراً وأنام متأخراً،
وكل يوم يشبه الآخر قد مر عليَّ.
لقد قمت بأمانة بالوفاء بدوري،
أما أنت، آه لقد حطمت قلبي.
الحقيقة أن أخوتي لا يريدون أن يعرفوا
وبالتالي ستنساب استهزاءاتهم أكثر
أنا أحزن بصمت وأتأفف
من أن هذا القدر البائس هو قدري.

أواه، يداً بيد لمواجهة الشيخوخة!
بدلاً من ذلك، أنا أقلب الصفحة المرة.
آه على ضفاف النهر الغابرة،
آه على حب الشواطئ الهورية؛
إن ساعات بناتي، مع شعري
المنفوش، ونحن نتباطأ، هناك.
الكلمات التي تحدثنا بها بدت صحيحة
أنا لم أفكر أني علي أن أندم

أنا لم أفكر أن الوعود التي قطعناها

لن تربطنا، كلينا، يوماً ما.»

كثير من القصائد الغنائية تتحدث عن الحرب وعن فصل الزوجات عن أزواجهن، وقصائـد غنائيـة أخرى تتحـدث عن الزراعـة وأخرى غيرها تتحـدث عن الزواج والاحتفـالات، أمـا آلام الحياة العادية فقـد تمثلت كلياً، ويمكن إضافة الشـكاوى المتعددة ضد غلظة الموظفين، لدرجة أن أحد المتحدثين أعرب عن الرغبة أن يكون شـجرة دون وعي، دون منزل ودون عائلة. إن الموضوع القديم حول «كُلْ، اشرب، وكن سعيداً» تم التعبير عنه بالشكل التالي:-

لديك المعاطف والأرواب

لكنك لا تستبدلها،

عندك عربات وأحصنة

لكنك لا تركب فيها

رويداً رويداً، ستموت،

وغيرك سيسعد بها

عندك باحات وقاعات

لكنها ليست مرشوشة أو مكنّسة،

عندك أجراس وطبول

لكنها لا تقرع أو تضرب.

رويداً رويداً ستموت

وغيرك سيمتلكها.

عندك النبيذ والطعام،

لماذا لا تعزف يومياً على العود الخاص بك،

حتى تسر بها

وتعيش أطول؟

رويداً، رويداً، ستموت،

وغيرك سيأخذ مكانك.

القصائـد الغنائية ثمينة على وجه الخصوص كما تعطيه لنا من بصيرة في الأخلاق والعـادات ومعتقدات الصينيين في عصر ما قبل كونفوشـيوس، إلى أي مدى ترجع في الزمن لا يمكن التكهن بذلك، إن كسـوف الشـمس «حادثة من سـوء الطالع،» ذكرت في واحدة من القصائد الغنائية كحدث جديد تم في يوم مخصص بتاريخ 29 آب (أغسـطس) 775 قبل الميلاد، وتم تعريف هذا الكسوف بهذا التاريخ. الأبيات التالية هي من ترجمة **لج Legge** لهذه القصيدة الغنائية:-

«الشمس والقمر يعلنان الشر

لأنهما لم يلتزما بمجراهما.

في كل المملكة لا توجد حكومة مناسبة،

لأن الجيدين لا يوظفون.

وحتى ينخسف القمر

ما هي إلا مسألة عادية

أما الآن مع كسوف الشمس

فإن الأمر سيء!»

لم يعتبر قوس قزح من نُذُر الشر، وإنما كمركب غير لائق للقوة المزدوجة للطبيعة:-

«يوجد هناك قوس قزح في الشرق

ولا أحد يجرؤ على الإشارة له،» -

وينطبق ذلك، مجازا، على النساء التي تعمل ارتباطات غير موفقة.

يبــدو أن وضــع المرأة لم يتغير عن ذلك الموجود حاليــاً، في قصيدة غنائية تصف إتمام بناء قصر لواحد من الأمراء القدماء يجري تعريفنا على الغرف فيه،

«هنا سيعيش، هنا سيجلس،

هنا سيضحك، وهنا سيتحدث،» -

حتى نصل إلى غرفة النوم، حيث ســيفيق وينــادي على الكاهن الكبير ليفسر له حلمه عن الدببة والحيات، وتجري الترجمة (وفقا للج) كالتالي:-

«سيولد أبناء له:-

سينامون على الأرائك،

سيتم إلباسهم الأرواب،

وسيكون لهم صولجانات يلعبون بها،

وصياحهم سيكون عال.

وسيزهون بغطاء الركبة الحمراء،

فهو أمير البلاد المستقبلي.

«ستولد له البنات:-

سينمن على الأرض،

سيتم لفهن بالأغلفة،

سيكون لديهن قطع بلاط ليلعبن بها.

وسيحق لهن أن يقمن بعمل خاطئ أو بعمل جيد.

فقط سيفكرن بالمشروبات الروحية وبالطعام،

وبألّا يسببن الحزن لوالديهن.»

إن التمييز الذي ســجل هو قــاس بما يكفي ولعله من غــير الضروري أن نجري

مقارنــة، كما فعل عدد من الكتاب عن الصين، بين قطع البلاط والصولجان، كما لو أن الأول قطعــة خزف مكســورة، ملائمة تماماً للبنات، إن البلاط تم اســتخدامه في العصور القديمة كثقل يوضع على المغزل، وهنا اســتخدم فقط ليشــير إلى الاتجاه الذي على نشاطات البنت أن تأخذه.

إن النســاء عولجن أيضاً في قصيــدة غنائية التي تقتفي أثر ســوء الحكم القائم بسبب تدخلهن في شؤون الدولة وفي أمور لا تقع ضمن مقاطعاتهن:-

«الرجل الحكيم يبني مدينة،

المرأة الحكيمة تخفض جناحها

بكل امتيازاتها تلك المرأة الحكيمة

ما هي إلا امرأة منحوسة.

المرأة التي لها لسان طويل،

هي درج يقود إلى الكارثة

لأن الفوضى لا تأتي من السماء

وإنما تأتي من النساء.

من بين الذين لا يمكن تدريبهم أو تعليمهم

هم النساء والخصيان.»

حوالي ســبعين نوعــاً من النبات ذكــرت في القصائــد الغنائية بما فيهــا البامبو، والشــعير، والحبــوب واللبــلاب، ونبات الحامــول، واللوبيــاء، والقنــب، والنيلة، وعرقســوس، والبطيــخ والــذرة والفاونيــا، والفلفــل الحــار، والمــوز الضخــم قليــل الحــلاوة، والكــراث، الجرجــير والرشــاد، وشــاي التفــاف Sowthistle ونبات متعربش اسمه تريبولوس والحنطة، وحوالي ثلاثين نوعاً من الشجر، بما فيها شــجر، الأرز، والكرز، والكســتناء والنخيل والبندق، والأيكي دنيا، والتوت، والبلوط والخــوخ، والإجاص، والبرقوق، والصفصاف، وحــوالي ثلاثين نوعاً من الحيوانات، بما

فيهـا الظباء، والغرير، والدب، والخنزير البري، والفيـل، والثعلب، والفهد، والقرد، والجراد، ووحيد القرن، والنمر والذئب، وحوالي ثلاثين نوعاً من الطيور بما فيها طائر الكركي والنسر، ومالك الحزين، والعقعق، والأوريول، والسـنونو، وطائر أبو قصادة، وحوالي عشرة أنواع من السمك، بما فيها السمك البني، والمرجان، والشبوط، سمكة الحفش النهرية، وحوالي عشرين نوعاً من الحشرات بما في ذلك النمل وزيز الحصاد، وحباحب، والجراد والعنكبوت، والدبور.

ومن بين الآلات الموسيقية التي وجدت في القصائد الغنائية المزمار، الطبلة، الجرس، العود، وآلة نفخ بدائية، تسـمى «بانديـان بابيس» ومن بين المعادن وجد الذهب والحديد وبإشارة غير مباشرة للفضة والنحاس، ومن بين الأسلحة والذخيرة الحربية يوجد القوس والنشاب، والرماح، والسيوف والبلطات الطويلة والدروع، وخطافات الخطاطيف، والأبراج على عجلات لتسـتخدم ضد المدن المحاصرة، وكمامات لأفواه الجنود لمنعهم من الحديث داخل الصفوف عندما يكون هناك هجوم ليلي.

إن فكرة الله أو الكائن الأسمى بارزة بشكل تام في القصائد الغنائية:-

«الله عظيم

يحكم بجلاله.»

وأيضاً،

كم الله عظيم

حاكم الإنسانية

كم هو مروع في جلاله!»

على ما يبدو يوجد في شكل إنسان حيث أنه في أحد المرات نقرأ عن بصمة قدمه، إنه يكره ظلم الدول العظيمة، مع أننا نقرأ في فقرة أخرى:-

«أنظر إلى الله جل جلاله؛

من هو الذي يكره؟»

إنه يريح البائس، وهو لا يرتكب الخطأ، إن «طريقته» صعبة التتبع، إنه يستاء من الخطايا، ويمكن مراضاته بالتضحية.

«أن نعبئ إناء التضحية بالتضحيات،

إن كان في إناء الخشب والبورسلان أو الفخار.

وعندما يصل الشذا إلى العلا،

فإن الله يشم النكهة ويكون راضياً.»

يوجد اقتباس آخر والذي سيكون الأخير وذلك احتراماً لحدود المكان، يظهر الفلاحين والمزارعين، بضوء يبسط:-

الغيوم تتجمع في كتل هوائية

والمطر ينهمر بلطف.

آه، عساه أن يسقى الأرض العامة.

وبعد ذلك يأتي إلى حقولنا الخاصة!

هنا لا تزال بعض حبات الحبوب واقفة.

وهنا ستكون بعض الحزم غير مربوطة؛

وهنا ستسقط حفنة من الحبوب

وهنا ستكون بعض السنابل المهملة

هذه ستكون لصالح الأرملة.

بعد هذه الأعمال من الفترة التي سبقت كونفوشيوس، ولربما أقدمها على الإطلاق، يقع كتاب **(I Ching)** أو **كتاب التغيير**. ينسب هذا الكتاب إلى

ون وانــغ Wen Wang، المؤســس الحقيقــي لســلالة **تشــو Chou**، والذي كان ابنــه **وو وانــغ Wu Wang** أول ملــك لســلالة طويلــة، امتدت مــن 1122 قبل الميــلاد إلى 249 قبل الميــلاد، وأنه يتضمن نظاماً مذهلاً من الفلســفة، اســتخرج

بالأســاس من ثمانية رســوم تتألف مــن تركيبــات ثلاثية أو ترتيبات لســطر أو لســطر متقطع، إحداهما أو غيرهما، يتم إعادته بالضرورة مرتين، وفي حالتين يعاد ثلاث مرات في التركيبة نفســها. وهكذا قد تكون هناك ثلاثة خطوط ☰ ، أو ثلاثة خطوط متقطعة ☷ ، وخط متقطع في أعل ☱ أو أسفل الخطين ☴ ، وخط متقطع بين خطيــن ☲ وهكذا، حتى يصبحوا ثمانيــة. وقيل أن هذه الرســومات المزعومة تم اكتشــافها قبل ألفي ســنة أو أكثر قبل المســيح من قبل الملك **فو هسي Fu Hsi** الذي نســخها عن ظهر سلحفاة، تم قــام بزيادة التركيبة البســيطة لاحقاً إلى أربع وســتين خطاً مزدوجاً، وعلى أســاس هذا التبديل تقوم التخمينات الفلســفية **لكتاب التغيير.** كل رســم يمثل قوة ما في الطبيعة، إما نشطة أو كامنة، مثل النار، والماء، والرعد، والتراب، وهكذا.

يتألــف النص من أربع وســتين مقالــة قصيرة يعبر عنها بشــكل مبهم أو رمزي، حول موضوعات مهمة، معظمها عن الشخصية الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية ومرتكزة على العدد نفسه من الأرقام المباشرة كل يتكون من ستة خطوط جزء منها اعداد كلية والأخرى اعداد متقطعة، يتبع النص تعليقات تســمى الأجنحة العشرة، ربما تكون من تاريخ متقدم وعادة تكون منسوبة لكونفوشيوس الذي أعلن أنه لو أضيف إلى عمره مائة سنة لكرس خمسين منها لدراسة كتاب **التغيير I Ching.**

التالي هو عينة (ترجمة لج).

«النص ䷉ يقترح هذا أن يدوس أحدهم على ذنب نمر لا يعضه، فسيكون

هناك تقدم   ونجاح.

« 1. السطر الأول، غير متقطع، يظهر (عميلهم) وهو يأخذ مساره المعتاد. إن كان سينطلق إلى الأمام فلن يحصل أي خطأ.

« 2. السطر الثاني، غير متقطع يظهر (العميل)، وهو يأخذ المسار المستوي والهين، إنه، إنسـان هادئ ووحيد سـيملك، إن كان صادقاً ومسـتقيماً، سيكون له حسن الطالع.

« 3. السـطر الثالث، مقطع، يظهر رجلاً أعور يعتقد أنه يستطيع أن يرى، ورجل أعـرج يعتقد أن بإمكانـه أن يمشي جيداً؟ رجل يمكنه أن يـدوس على ذنب النمر فيعضه. كل هذه تدل على سوء الطالع. سيكون عندنا رجل مستحسن يلعب دور الحاكم العظيم.

« 4. الخط الرابع، غير مقطع، يظهر (عميله) يدوس على ذنب النمر، فيصبح مليئاً بالحذر القلق، وفي النهاية سيكون له حسن الطالع.

« 5. السـطر الخامـس، غير متقطع، يظهر (عميلة) مصر عـلى الدوس، ومع أنه سيكون صادقاً ومستقيماً، سيكون هناك أيضاً تهلكة.

« 6. السطر السادس، غير متقطع، يقول لنا أن ننظر إلى المسار كله الذي وطئناه، ونفحص النذر الذي يعطيها ذاك. وإن كانت وافية ودون أخطاء سـيحصل حسـن طالع عظيم.

« الجناح، ——— في هذا الشـكل السـداسي عندنا رمز الضعف يدوس على رمز القوة.

«الشـكل الثلاثي المتوازي التحتاني يشـير إلى المسرات والرضى، ويجيب على القوة المشـار إليهـا أعلاه، وبالتالي، فإنه يقال أنه يدوس عـلى ذيل النمر، الذي لا يعض، فسيكون هناك تقدم ونجاح.

«السـطر الخامس قـوي في المنتصف وفي مكانــه الصحيـح، إن (عميله) يحتل الموقـع الذي اختاره الله، ولا يقع في أي اضطراب أو خطأ؛ - سـيكون عمله بارعاً.

كما يمكن الاستنتاج بسهولة من القطعة أعلاه بأن لا أحد يعرف بالضبط ما معنى الكلام غير الواضح وغير المفهوم في **كتاب التغيير**. إن هذا يتم الاعتراف به من قبل الصينيين المثقفين، الذين يتمسكون، على الرغم من ذلك، بشكل عنيد بالاعتقاد أن دروسـاً مهمة يمكن أن تسـتخرج من صفحاته إن كان لدينا فقط الفطنة لفهمها. للأجانـب نظريات مختلفـة حول الموضوع. فقـد أعلن د. لج أنـه وجد المفتاح، وبالنتيجة التي سـبق أن أظهرناها لكم. المرحوم تيريان دي لا **كوبيري Couperie** أخذ موقفاً أشـجع ولم يرافقه أي معلق محلي، واكتشـف في هذا المجلد الهام من المعجم مفردات قبائل الباك. وكاتب ثالث اعتبره تقويم للسنة القمرية، وهكذا.

يبدو أن **كتاب الشعائر Li Chi** تم جمعه من قبل إبنيَّ عم، عُرفا باسم **تاي الكبير Elder Tai** **وتـاي الصغـير Younger Tai** الذين ازدهـرا في القرنين الأول والثاني قبل المسيح. من الوثائق الموجودة، يقال أنها تنبع من عند كونفوشيوس وتلاميذه، فقـل حضّر **تاي الكبير** عملاً في 85 قسـماً حول ما قد يطلق عليه مجازاً الشـعائر الاجتماعية، أما **تاي الصغير** فقد قام بتقليص عددها إلى 46 قسماً. العلماء اللاحقون مثل **ما جونغ Ma Jung** **وتشـنغ هسـوان Cheng Hsuan**، تركوا بصماتهم على هـذا العمل ولم يتم الانتهاء من هذا العمل إلا مـع اقتراب نهاية القرن الثاني بعد الميلاد. وقتها عرف العمل باسم السجلات **Chi** وليس بالنص **Ching**، وقد خصص هذا اللقب الأخير من قبل التقليديين المحافظين لمثل هذه الكتب كما وصلت إلينا مباشرة من أيدي كونفوشيوس. التالي هو اقتباس (ترجمة لج):-

قال كونفوشيوس: سابقاً، ومع **لاو[4] تان Lao Tan** كنت أساعد في الدفن في قرية **هسـيانغ Hsiang** وعندما وصلنا إلى الممر حدث كسـوف للشـمس. قال لي **لاو**

4 لاو كلمة تبجيل باللغة الصينية وتعني الكبير أو الشيخ أو الرجل العجوز وهي تسبق الاسم / المترجم.

تان، تشيو Chiu ليقف النعش على يسار الطريق، وبعد ذلك دعنا ننوح وننتظر حتى يمر كســوف الشمس. وعندما يحل الضوء سوف نتابع سيرنا. قال إن هذا هو الحكــم. وعندما عدنا وانهينا عمليــة الدفن، قلت له في الانطلاق بالنعش لا يوجد تراجع. عندما يحدث كسوف للشمس فإننا لا نعلم هل سيمر بسرعة أم لا، ألم يكن من الأفضل الاســتمرار بالمســير؟ فقال لي **لاو تان** يُقرر أمير دولة الذهاب إلى بلاط

ابن الســماء فإنه يسافر ما دام يرى الشــمس. عند غروب الشمس يتوقف ويقدم تضحياتــه (إلى روح الطريق)، وعندما يكون موظف كبير في مهمة فإنه يســافر ما دام يرى الشــمس وعند غروب الشمس يتوقف. أما بالنسبة للنعش فهو لا ينطلق في الصباح الباكر، كما أنه يســتريح في أي مكان في الليل، وأولئك الذين يســافرون على ضوء النجوم هم فقط المجرمون وأولئك الذين يحثون الخطى لمراســم الدفن لاحد الوالدين.»

ستجد نماذج أخرى في الفصلين الثالث والرابع.

وحتى حلول زمن ســلالة مينغ في 1368 ميلاديــة، هناك كتاب أقدم كثيراً يعرف بكتاب **Chou Li** أو شعائر سلالة **شو Chou** ويعالج أكثر الأمور القانونية كما كان مقترناً باستمرار بكتاب الشــعائر وشكل واحد من الكتب المعروفة **بالكلاسيكيات الســتة.** ولا يزال هناك عمل ثالث من المســتوى نفسه وكذلك قديم جداً يسمى **I Li.** إن محتوياته تعالج أساساً التقيد بالاحتفالات في الحياة اليومية.

وصلنا للتو إلى الكتاب الأخير من الكلاســيكيات الخمســة كما هي معمولة الآن، إلى كتاب **تشــون تشيو Chun Chiu أو حوليات الربيع والخريف Spring and Autumn Annals** ، هذا الســجل المتسلســل زمنياً للأحداث الأساســية في دولة **لــو Lu** بين ســنوات 722-484 قبل الميــلاد هو في العموم يعتــبر عملاً من أعمال كنفوشــيوس الذي كان أصيــل دولة لو. إن القيود فيه هي الأقصر وتشــتمل على ملاحظات عن التوغلات، والانتصارات، والهزائم، والأحداث، والجرائم، والاتفاقات، والظواهر الطبيعية.

التالي هي بعض المقتطفات الدالة:-

«في السنة السابعة **لحكم دوق تشاو Duke Chao** في الربيع، توصلت دولة **ين Yen** الشمالية إلى سلام مع دولة **تشي Chi.**

«في الشهر الثالث زار الدوق دولة تشو **Chou.**

«في الصيف، بمناسـبة يوم **تشيا شن Chia Shen** في الشهر الرابع، المرافق في 11 آذار- مارس- 594 قبل الميلاد جرى كسوف الشمس.

«في السنة السابعة **لدوق تشوانغ Duke Chuang (685** قبل الميلاد) في الصيف في القمر الرابع، في منتصف الليل سقط وابل من النجوم مثل المطر.»

يعود اسم **الربيع والخريف** للعادة القديمة بلصق مع كل إدخال، السنة والشهر واليوم، والموسم الذي حدثت فيه الواقعة المسجلة، الربيع كما يشرح أحد المعلقين بمن فيه الصيف والخريف والشتاء. إنه العمل الذي أشار عليه كنفوشيوس بامتياز على أنه ذلك الذي سـيعرفه البشر ويحمدونه عليه، **ومانسيوس Mencius** اعتبره إنجازاً مهماً كتجفيف الإمبراطورية من قبل النهر العظيم **أو Yu** هذا الأخير قال له، «أتم كونفوشيوس الربيع والخريف، فصعق الوزراء المتمردون والأبناء الشريرون». وبالتـالي كما هـي الحالة في القصائد الغنائية عمل الظرفـاء المحليون على القراءة في النـص الجريء كل أنواع المعاني المخبأة، كل إدخال كان من المفترض أن يتضمن الموافقـة أو الإدانـة، ونتج عن جهودهـم فيما هو معروف اليـوم بنظرية المديح واللوم. وذهب نقاد سـلالة **هان Han** حتى إلى الإعلان عن العنوان بالناقص لأنه «يمدح الربيع مانح الحياة، ويلوم الخريف مهلك الحياة.»

هكذا هو **تشـون تشـيو Chun Chiu**، وإن كان ذلـك كل شيء فمن الصعب القـول كيـف أن افتخار كونفوشـيوس كان يمكن لـه أن يتمم. لكـن ذلك ليس كل شيء، هنـاك شروط للخـلاص أو النجـاة. أن تكون مرتبطاً كـما يقال، بالربيع والخريف وتشـكل كما يقال أيضاً جزءاً لا يتجزء من العمل، معروفة باسـم **تسـو**

تشــوان Tso Chuan أو تعليق **تســو Tso**. أما بالنســبة للكاتب شــخصياً الذي تم تســميته أبــو النثر، والذي نســب إلى قلمه أيضاً **كــوو أي Kuo Yu**، أو وقائع الــدول، فنحن لا نعرف أي شيء عنه ســوى أنه كان تلميذا لكونفوشــيوس، إلا أن نــثره الوقاد يبقى، وســيظل قائماً، واحداً مــن أكثر إرث الشــعب الصيني تقديراً.

ما عمله **تســو Tso** هــو التالي. أخذ الحقائق المجردة لهــذه الحوليات وأعطاها شــكلاً من الحيــاة والحقيقة بإضافة التعديلات الكاملة لكل حادثة تم تســجيلها. فقــام بوصف الحب والكره لكل بطل، ولمعاركهــم، واتفاقاتهم ولهوهم وصخبهم، وموتهــم، بأســلوب كان دائماً فعالا وغالبا ما تاخم العظمــة. الظروف لما قد يبدو شــخصية تافهة يجري توسيعها كحادثة شــيقة، ومن حين لآخر يتم إدخال اختيال غريــب أو فتات من أدب الأمثــال لإعطائها نكهة عابرة خاصة بها. في الســنة 21 لدوق **هسي Hsi** كان في **الربيع والخريف** المدخل الضعيف التالي:-

«في الصيف حصل جفاف شامل.»

إلى هذه يضيف **تسو تشوانTso Chuan** :-

«بسبب ذلك الجفاف رغب الدوق بان يحرق ساحرة. فقال له أحد موظفيه،'إن ذلك لن يؤثر في الجفاف. بدلا من ذلك، قم بإصلاح اســوار المدينة وجدرانها، وكُل أقل، وخفف من مصروفاتك، ومارس الاقتصاد الشــديد وحث الناس على مساعدة بعضهــم البعض. هذا هو الأمر الجوهري. ما دخل الســاحرات في هذا العمل؟ إن كان اللــه يرغــب لها أن تذبح لكان من الأفضل لها أن لا يســمح لها أن تولد. وإن كانت تســتطيع أن تســبب في الجفاف، فإن أحراقها ســيزيد الأمور سوءاً ' الدوق أخذ بهذه النصيحة، وخلال تلك السنة، وبالرغم من وجود الجفاف، إلا أنه لم يكن قاسياً جداً.»

وفي السنة 12 من حكم دوق **هسوان Hsuan** جاء في **الربيع والخريف** الثاني:-

«في الربيع حاصر حاكم دولة **تشو Chu** عاصمة دولة **تشنغ Cheng**.

وبناءً عليه يضيف **تســو تشــوان Tso Chuan** رواية طويلة حول الموضوع كله، والتي منها نسرد الفقرة المطابقة التالية:-

«في الاندحــار الذي حدث تعثرت عربة قتالية تابعة لدولة **تشــين Chin** في قناة ولم تستطع الخروج منها. وبناء عليه نصح رجل من دولة **تشو Chu** سائق العربة القتالية أن يخرج منصب الأســلحة. هذا خفف على العربة نوعاً ما لكن الأحصنة اســتدارت ثم نصح الرجل إياه أن يتم تنزيل ســارية العلم واســتخدامها كرافعة، وأخيراً تم إنقاذ العربة. آه قال ســائق العربة للرجل من **تشــــو Chu**، لا نعرف الكثير عن الهروب كشعب دولتكم العتيدة.»

يتضمن **تســو تشــوان Tso Chuan** عدداً من الفقرات الممتعة عن الموســيقى، والتي اعتبرها كونفوشــيوس عاملاً مهــماً في فن الحكم، مما يذكــر بآراء أفلاطون المعروفة في الكتاب الثالث من **جمهوريته.** بخصوص المرض، فإننا نقرأ «إن الحكام القدمــاء نظموا بالموســيقى». وقالوا أيضاً «إن الإنســان المتفوق لن يســتمع إلى المظاهر الخليعة أو إلى الإغراءات»، «إنه يوجه نفســه إلى عوده من أجل أن ينظم تصرفاته وليس ليبسط قلبه».

عندما نــدد المعلم العجوز المعــادي للأجانب للمرحوم الإمبراطور **تونغ تشــيه Tung Chih** بالبرابرة كان يقتبس الكلمات من تسو تشوان.

قــال أحد الأبطــال، الذاهبين إلى المعركة لأصدقائه إن عليه فقط أن يســتمع إلى قرع الطبول تعطي الإشــارة إلى التقدم لأنه ســيهتم كثيراً بعدم سماع الجرس يرن للإنســحاب. وآخــر حمل كل رجل مــن رجاله إلى المعركة حبلاً طويــلاً عندما رأى جميــع الأعداء حلقوا شــعورهم كثــيراً. وفي حالة ثالثة، كان بعــض الرجال الذين يملكون القوارب يحاولــون منع الآخرين عن التدافع وقيل لنا أن أصابع المهاجمين تم قطعها بأعداد كبيرة يمكن أن تلم بحفنتين.

كثــير من المبادئ، العملية وغير العملية، يمكن أن نجدها موزعة على (صفحات) **تســو تشــوان** مثل، «يوم واحد من التراخي مع العدو يعني جلب المتاعب لأجيال

وأجيال»، «إن الأدب يمنع أن يســتفيد رجل على حساب الآخرين،» «إن المستسلم مثل السارق هو شرير،» «من الأفضل أن تهاجم عوضاً عن أن تتعرض للهجوم.»

عندما عاد الأسطول الفرنسي إلى شنغهاي في 1885، بعد أن تم صده بهجوم على الشاطئ في **تام سوي Tam Sui**، لائم شخص ظريف محلي بيت شعر هزلي يوجد في **تسو تشوان Tso Chuan**:-

«أنظر الأعين الجاحظة والأمعاء الجشعة

لقد ترك ترسه بين الأخاديد،

عائد من الحقل، عائد من الحقل

لقد عاد بذقنه ولكن ليس بترسه؛»

ولعدة أيام كان كل صيني يدمدم اللازمة:-

Yu Sai, yu Sai أو ساي، أو ساي

Chi Chia Fu Lai تشيه تشيا فو لاي

هناك تعليقان آخران عن الربيع والخريف، متشــابهان ولكن بشكل عام يعتبران أدنى مــن **تســو تشــوان Tso Chuan**. وقد كتبهما كل من **كــو ليانغ Ku Liang وكونــغ يانغ Kung Yang** وكلاهما مــن القرن الخامس قبل المســيح. التالي هي عينات (ترجمة لج، قد حذفت تفاصيل غير هامة:-

النص:- «في الربيع، في الشهر الأول للملك، في اليوم الأول للقمر وقعت أحجار في **سونغ Sung** – خمسة أحجار. وفي الشهر نفسه كانت الطيور الستة التي تصطاد السمك تطير إلى الخلف، مارة بعاصمة **سونغ Sung**:-

تعليق كونغ يانغ يقول:
«كيف يقول النص أولاً» إن
«هناك وقع» وبعد ذلك يذكر «الحجارة؟»
«هناك وقعت الحجارة» هي
سجل لما قد سمع. لقد سمع
صوت شيء ما وقع، وإذا نظرنا
إلى الشيء الذي وقع، فنجد أنه
الحجارة، وعند التدقيق فيها
وجدنا أنها كانت خمسة حجارة.
لماذا يقول النص «ستة».
تم يذكر «الطيور الصيادة؟»
«ستة طيور صيادة
تطير إلى الخلف» هو سجل لما
تمت رؤيته، عندما نظروا إلى
تلك الأشياء كان هناك ستة
منها، وعندما فحصوها كان
سمك صياد، وعندما
فحصوها بتمهل كانت هذه
تطير إلى الخلف.

تعليق كو ليانغ يقول:
(ماذا يقول النص، «سقط،»
ثم يقول «الحجارة»؟ كان
هناك أولا السقوط ثم الحجارة.
وفي «الطيور الستة التي
تصطاد السمك وهي تطير إلى الخلف
مارة بعاصمة سونغ،» ثم
وضع العدد أولا مما يشير إلى
إن الطيور جمعت سوياً.
إن اللغة أعربت عن احترام
ما تراه العين.
قال المعلم، «الحجارة
هي أشياء ليس لها فكر
وأما الطيور الصيادة،
هي المخلوقات
لها قليلٌ من الذكاء
الحجارة التي لا تملك
الذكاء، ذكرت مع اليوم
الذي سقطت فيه،
والطيور إياها، التي تملك
قليلاً من الذكاء، ذكرت
مع الشهر الذي ظهرت
فيه، الرجل الأعلى (كونفوشيوس)
حتى في مثل هذه الأمور
والمخلوقات لا يسجل الأمور
باندفاع أو عن طيش. إن

تعبيراته حول الحجارة
والطيور الصيادة إذا
كانت رقيقة لهذا الحد
فكم بالحري ستكون
بالنسبة للبشر.)

في بعــض الأحيــان تكون هذه التعليقات على اختلاف مع **تســو Tso**، مثلا، يقول النص أنه في سنة 689 قبل الميلاد» أجرى حاكم دولة **تشي Chi** نهاية عظيمة لدولته.

إن **تعليق تســو Tso** يشرح الكلمات لتعني لأسباب عاجلة جداً إن الحاكم تنازل عــن الحكــم، إلا أن **كونغ يانغ Kung Yang** يحمل نظــرة مختلفة إنه يشرح الفقرة بمعنى أن الدولة المعنية تلك تم تدميرها تدميراً كاملاً، وتم مســح شــعبها بالكامل من قبل حاكم دولة أخرى ثأراً لموت أحد أســلافه في ســنة 893 قبل الميلاد تم قتله ســلفاً في العاصمة الإقطاعية بسبب افتراء من قبل حاكم معاصر لدولة **تشيه Chi**، إنه من المهم لمرشــحي الامتحانات العامة أن يكونوا على معرفة بهذه المتناقضات، لأنــه يتم دعوتهم مراراً «لمناقشــة، مثل هذه القصص، ودائمــاً بهدف الوصول إلى التفسيرات القويمة المقبولة.

إن الحادثــة التاليــة أخذت من تعليق **كونغ يانــغ Kung Yang**، هي مختلفة جــداً عن القضية التي رواها **تســو Tso**، بالإشــارة إلى الفقرة نفســها:-النص «في الصيف، في الشــهر الخامس، عقدت دولة **ســونغ** السلام مع دولـة **تشو Chu**.«في ســنة 587، كان الملك **تشوانغ Chuang** صاحب دولة **تشو Chu**، يحاصر عاصمة **ســونغ Sung**. وكان لديه فقط تموين لســبعة أيام، وإذا تم استنفاذ، هذا التموين قبل أن يأخذ المدينة، كان يفكر بالانســحاب. ولهذا الســبب أرسل جنراله ليتسلق أسوار المدينة ويتجسس على أحوال المحاصرين. وتصادف في الوقت نفسه أن يقوم ضابط في جيش سونغ بالمجيء إلى الأسوار والتقى الاثنان. واستفسر الجنرال. كيف تتدبــر دولتكم أمورها؟»، اراه بــرداءة» رد الضابط: نحن في وضــع مزر إذ أخذنا نبادل الأطفال بالطعام، وعظامهم تقطع من أجل الوقود، فقال الجنرال «هذا سيء

بالفعل، لكني ســمعت أن المحاصرين بينما يطعمون الأحصنة بلقم من أفواههم، فهم يحتفظن بأحصنة ناصحة ليعرضوها على الأجانب. كيف يتم ذلك؟ رد الضابط على هذا الكلام قائلاً «إني ســمعت أن الإنســان العالي، عندما يرى سوء طالع آخر يكون قد امتلأ بالشفقة بينما الخسيس يمتلئ بالفرح، وفيك أني أرى الإنسان العالي، ولهذا قصصت قصتنا عليك. افرح» قال الجنرال يوجد عندنا فقط مؤونة لمدة سبعة أيام وإذا لم نقم باحتلالكم في هذا الوقت، سننســحب. وقال الأخير علينا أن نحتل المدينــة قبل أن ننســحب،'ليس كذلك 'قــال الجنرال' أنا قلــت للضابط أنه يوجد عندنا فقط مؤونة لمدة ســبعة أيام.' اضطرب الملك **تشــوانغ** Chuang من هذه، لكن الجنرال قال، «إن كانت دولة صغيرة مثل **ســونغ Sung** لديها ضباط يقولون الحقيقــة فكم بالحري أن يكون عند دولة **تشــو Chu** مثــل هؤلاء الرجال؟» كان الملك لا يزال راغباً في البقاء، لكن الجنرال هدده بالمغادرة، وهكذا حل الســلام بين الدولتين.»

الفصل الثالث
الكتب الأربعة - منسيوس

لا يوجد صيني يفكر أن يبدأ دراســة **الكلاسيكيات الخمسة** حتى يتقن ويحفظ في ذاكرته مادة أقصر وأبسط تعرف **بالكتب الأربعة.**

أول هــذه الكتب كما جرى ترتيبها للطــلاب هو **لون أو Lun Yu أو المختارات،** وعمل يضم عشرين فصلاً قصيراً أو كتاباً، يوزع آراء كونفوشــيوس على موضوعات عــدة، ويعبر عنه فيما هو ممكن بكلمات **المعلم Master.** إنه يبلغنا تقريباً كل ما نعرفه عن الحكيم، وتكون تلك قد جمعت خلال مئة سنة من وفاته. من صفحاته يبــدو أننا نجمــع فكرة ما، صورة ظليلــة، ربما عن الأخلاقــيَّ العظيم الذي كانت مهمته على الأرض أن يعلم الالتزام تجاه الجار وتجاه الآخرين والذي صاغ القاعدة الذهبية: «ما لا تريد الآخرين أن يعملوه لك، فلا تعمله لهم!»

مــا تم الحث عليه مــن قبل الكثيرين الذيــن كان من المفــروض أن يعلموا أن الجانب الســلبي لهذا المبدأ غير ملائم ليتبوأ منصباً في الجانب الإيجابي كما أعطاه يســوع المسيح. لكن بالطبع الاثنان متطابقان، كما يمكن إظهاره من خلال الإدخال البسيط لكلمة «يمتنع»؛ أي أنك لا تريد الآخرين أن يمتنعوا عن نشاط محدد فيما يتعلق بك، وهو ما يعني عملنا إنه ينقل الإيعاز الإيجابي.

عندما ســأل تلميذ كونفوشــيوس أن يشرح له بر القلوب، أجابه ببساطة «أحبوا بعضكم بعضاً». لكن عندما سئل حول مبدأ يجب على المرء أن يعيد الجيد مقابل الــشر كما قال ذلك **لاو تســو: Lao Tsu** (أنظر الفصل الرابــع) أجاب، «ماذا إذن ستعيد مقابل العمل الجيد؟ لا أعد الجيد مقابل الجيد، مقابل الشر، أعد العدالة».

لم يتعب أبداً من التأكيد على الجمال وضرورة قول الحقيقة: «رجل دون صدق!

لا أدري كيف يكون ذلك.»

«لتجعل للولاء والصدق أهمية كبرى لك.»

«في الحداد، من الأفضل أن تكون صادقاً بدل أن تكون شكلياً.»

«الإنســـان وُلـــد ليكون مســـتقيماً، إن لم يكن كذلك، ومع ذلـــك لا يزل على قيد الحياة، فإنه محظوظ أنه نجا».

«إن الغنى والشرف هو ما يرغب به الإنسان، فباستثناء أن يكون ذلك مع الحق، فهو قد لا ينعم بها.

بالتأكيد كان كونفوشيوس يعتقد بوجود قوة ما، غير مرئية وأبدية، التي خاطبها بشـــكل مبهم، على أنها الســـماء، «الذي يقترف إثماً ضد السماء لا يوجد من يصلي له.» «أنا لا أتمتم ضد الســـماء» وغيرها. إلا أن أعظم معلق عليه **تشـــو هسي Chu Hsi** شرح أنه «بالسماء» كان يعني «الحق المطلق»، وهذا التفسير مقبول من قبل جميع اتباع كونفوشيوس في أيامنا الحاضرة، وفي الوقت نفسه، اعترض كونفوشيوس بشـــدة على مناقشـــة الخارق للطبيعة وقال إن مهمته هي باتجاه الأحياء بدلا من الأموات.

وأكد تأكيداً عظيماً على طاعة الوالدين والبر بهما وعلّم أن الإنسان هو صاف كلياً عند الولادة، وبعدها يصبح فاسداً نتيجة بيئته.

يعطـــي الفصل العـــاشر من **لـــون أو Lun Yu**، تفاصيل فريدة للحيـــاة اليومية وعادات الحكيم، وهي محسوبة لإثارة ابتسامة بين أولئك الذين لم يظهروا الاحترام لكونفوشيوس كمبدأ أول من المهد فصاعداً، لكنه حصل على إجلال المحبين من قبل الشعب الصيني بشكل عام.

الثاني هي مقتطفات من هذا الفصل الشهير (ترجمة لج):-

«عندما دخل بوابات القصر، كان يبدو أنه أحنى جسده، كما لو كانت (الأبواب) لا تكفي لدخول جسده.

«اعتلى المنصة ممسكاً بروبه بيديه الإثنتين وجسده منحن، وممسكاً نفسه أيضاً كأنه لا يجرؤ على التنفس.

«عندمــا كان يحمــل صولجان أميره، يبدو أنه كان يحني جســده كما لو لم يكن يستطيع احتمال وزنه.

«لم يســتخدم اللون الأرجواني الغامق أو الأحمر الداكن في حليه على ثيابه، حتى في تعريه لم يلبس أي شيء أحمر أو مائل إلى الحمرة.

«وكان يطلب أن يكون لباس النوم الخاص به نصف طول جسده.

«لم يأكل الأرز الذي كان قد تأثر بالحرارة أو الرطوبة، فصار حامضاً، ولا الســمك ولا أي لحــوم قد خربت، لم يــأكل أي شيء فقد لونه أو أي شيء ذو طعم سيء ولا أي شيء في غير موسمه. لم يكن ليأكل لحوماً لم تقطع بطريقة صحيحة ولا أي شيء كان يقدم دون المرقة المناسبة الخاصة به.

«عندما كان يأكل لم يتخلَ أبداً عن الزنجبيل، ولكنه لم يكن يأكل كثيراً».

«وعندما كان يأكل لم يكن يتكلم. وعندما ينام في التخت لا يتكلم أيضاً».

«ومع أن طعامه قد يكون أرزاً خشــناً وشوربة خضار، كان يقدم قليلاً منه قرباناً بأجواء من التبجيل الشديد».

«وعندما تكون فرشته غير مستقيمة فلا يجلس عليها».

«وحصل أن الأســطبل أُحرق عندما كان في المحكمــة قال لدى عودته هل جرح أحدكم؟' ولم يسأل ماذا حل بالأحصنة.

«وعندما أرســل له صديق هدية، وقد تكون عربــة وأحصنة، فلم ينحنِ. الهدية الوحيدة التي انحنى لها كانت لحم الذبيحة.»

«في السرير لم ينم مثل جثة، وفي البيت لم يدّع أي سلوك رسمي.»

«عندمـا رأى أي شـخص في لباس الحداد، حتى لـو كان أحد معارفه، فكان يغير أسـارير وجهه، وعندما رأى شـخصاً ما يلبس غطاء الرأس، أو شـخصاً أعمى، وقد يكون هو في ثياب المنزل، فيقوم بتحيته بطريقة رسمية.»

«وعندمـا يكـون في حفلة ما، حيث يكـون فيها طعام وفير، وضـع أمامه، يغير أسـارير وجهـه، فينهض. كذلك على ضـوء رعد مفاجئ أو ريـح زمهرير كان يغير أسارير وجهه.»

التالي في الترتيب التربوي يأتي العمل الذي عرف باختصار بمينسيوس. هذه تتألف من سـبعة كتب مُسـجلة أقوال وأفعال رجل يمكن بسـبب عبقريتـه ووفائه أن نتتبع الانتصار النهائي للكنفوشيوسـية. ولد مينسيوس في عام 372 قبل الميلاد أكثر بقليل من مائة سـنة على وفاة المعلم. وتربى مينسـيوس تحـت رعاية أمه الأرملة التي كان اسـمها كلمة شـائعة حتى يومنا هذا. كطفل عاش معها أولاً قرب مقبرة، وكانت النتيجة أنه بدأ يعيد إنتاج المناظر الرزينة في المسرحيات التي كانت تعرض باسـتمرار أمام عينه، وبالتالي نقلت أمه إلى بيت آخر قرب السـوق، ولم تمض فترة وجيزة إلا ونسي الصغير كل شيء حول الجنازات وبدأ يلعب في بيع وشراء البضاعة. مرة أخرى لم توافق والدته ومرة أخرى غيرت مسـكنها، هذه المرة انتقلت إلى بيت قرب كلية، حيث بدأ تقليد المشـاهدات الاحتفالية الرسمية حيث كان يتم تعليم الطلاب وهو ما جعل الأم مسرورة جداً وراضية.

فيما بعد، درس على **كونغ تشي Kung Chi** حفيد كنفوشـيوس؛ وبعد أن اطلع على المخاوف التامة المحكمة أو **طريق كنفوشـيوس Way Of Confucius** أصبح وفي سـن الخامسة والأربعين وزيراً في حكم الأمير **هسـوان Hsuan** صاحب دولة **تـشي Chi**. لكن الأخير لم يرد تنفيذ مبادئه، وبالتالي ترك مينسـيوس مركزه، وأخذ يجـول في عدة دول ناصحاً حكامها، بكل ما أتاه مـن قوة، لكنه امتنع عن الإقامة المسـتدامة، ثم قام بعد ذلك بزيارة الأمير **هوي Hui** صاحب دولة **ليانغ Liang**، ومكث هناك حتى وفاة الملك في سـنة 319 قبل الميلاد. بعد هذه الحادثة عاد إلى دولة **تشي Chi** واسـتعاد موقعة السـابق، في سنة 311 قبل الميلاد شعر مرة أخرى

أنــه مضطر للاســتقالة من منصبه، تــم تقاعد وعاد في النهايــة إلى الحياة الخاصة مشغلاً نفسه خلال ما تبقى له من حياة بالتعليم وبتحضير السجل الفلسفي الذي ينســب إليه حالياً. لقد عــاش في زمن كان فيه الأمراء الاقطاعيــون يتقاتلون على الأنظمة المتنافســة للفدرالية والامبريالية، وحاول هو سدى أن يطبق في عصر الدم والحديــد، المبادئ اللطيفة **للعصر الذهبي.** وكان معياره معيار كنفوشــيوس لكن تعاليمه كانت أقل من مستواها وكانت تعالج خير ورفاهية الإنسان من وجهه نظر الاقتصاد الســياسي. وقد أطلق عليه **بحق تشــاو تشي Chao Chi القديس الثاني أو النبي،** وهي التســمية التي لا يزال يعرف بهــا حتى الآن وقد كان مدافعاً صلباً عن تعاليم كونفوشــيوس، ويعتبر كذلك سحب البساط من تحت أقدام المدرستين الهرطقيتين لكل من **يانغ تشو Yang Chouومو تي Mo Ti.**

التــالي هــو عينة للنزاع على الألفاظ أو الجدل اللفظــي الذي كان يجري في تلك الأيام والذي يفترض أن يكون مينســيوس قد برع فيه. والموضوع الأكثر تفضيلا هو الطبيعة الإنسانية:-

«قال **كاو تسو Kao Tsu** يمكن مقارنة الطبيعة الإنسانية بكتلة خشبية؛ والالتزام تجاه الجار بزبدية خشــبية. لتطوير عمل الخــير والالتزام تجاه الجار من الطبيعة الإنسانية يمكن مقارنته بعمل زبدية من الكتلة الخشبية.

«أجاب مينســيوس على هذا القول، هل يمكنك دون التدخل بالتشكيل الطبيعي للخشــب، أن تعمل منــه زبدية؟ بالتأكيد لا بد لك أن تســتخدم العنف على هذا التشكيل في عملية صناعة الزبدية. وبالتساوي في تعليل الأمر أنك ستسبب العنف للطبيعة البشرية في عملية تطوير عمل الخير والالتزام تجاه الجار. من هنا نستتبع أن جميع الناس سيعتبرون هذه عملاً شريراً عوضاً عن اعتباره عملاً صالحاً.

«قال **كاو تســو Kao Tzu،** «إن الطبيعة الإنســانية هي مثل الماء المتدفق الذي يجــري غربــاً أو شرقاً وفقاً لمخرج عمــل لها. ولأن الطبيعــة البشرية تتعامل دون أكــتراث مع الصالح أو الشرير تماماً مثل الماء لا يكترث إذا تدفق من الشرق أو من الغرب.

«أجاب مينسيوس، «بالطبع أن الماء سيجري دون اكتراث باتجاه الشرق أو الغرب ولكن هل سـيجري المـاء دون اكتراث صعوداً أو نـزولاً؟ إن ذلك لا يكون إن ميل الطبيعـة البشرية إلى العمـل الصالح هو مثل ميل الماء أن يجري إلى أسـفل. كل إنسـان لديه محاباة لصنع الصالح مثل جميع المياه تجري بالطبع إلى أسـفل، من خـلال رش الماء، قد تتسـبب بالتأكيـد لها أن تطير فوق راسـك، ومن خلال تغيير مجراها قد يمكنك الاحتفاظ بها لاستخدامها على سفوح التلال، لكنك قلما تتحدث عن مثل هذه النتائج على إنها طبيعة الماء، إنها بالطبع نتيجة لقوة قاهرة، وهكذا هي عندما تزيح الطبيعة الإنسانية باتجاه الشر.

قال **كاو تسوKao Tzo** «إن ذاك الذي يأتي مع الحياة هو الطبيعة.»

فأجاب مينسـيوس،«هل تعني أنه يوجد شيء مـا كالطبيعة المجردة تماماً مثلما يوجد البياض مجرداً؟

«أنا اعتقد ذلك» أجاب **كاو تسو Kao Tzo**

فأكمل مينسـيوس قائلاً، «مثلا إن بياض ريشـه هو مثل بيـاض الثلج، أو بياض الثلج مثل بياض الشيب؟»

«أنا أعتقد ذلك»، أجاب **كاو تسو Kao Tzu** تانية.

«وفي هذه الحالة، أجاب مينسـيوس أن طبيعة الكلب هي نفسها كطبيعة الثور، وطبيعة الثور هي نفسها كطبيعة الإنسان.

قال **كاو تسو Kao Tzu**، «إن الطعام وتزاوج الأنواع هي غرائز طبيعية. إن عمل الخير هو عمل ذاتي وفطري، أما الالتزام تجاه الجار هو عمل موضوعي ومكتسب، مثلاً هناك إنسـان أعلى مني وأنا أجله كذلك. ليس بسبب أي مبدأ مجرد للأقدمية يوجد موضوعياً في، لكن بالطريقة نفسـها التي أرى فيها أمهقاً[5]، فأنا أتعرف عليه

5 الأمهق: شخص أو حيوان وهو وصف للحصان الذي يكون بني البشرة أبيض الشعر قرنفلي العينين / المترجم.

كرجل أبيض لأنه هو كذلك موضوعياً بالنسبة لي. وبالتالي فأنا أقول إن الالتزام تجاه الجار هو موضوعي ومكتسب.

رد مينسـيوس، «القضايا ليست متشـابهة. إن بياض الحصان الأبيض مما لا شك فيـه هو مثـل بياض الرجل الأبيض، لكـن أولوية أو أقدمية الحصان هي ليسـت نفسـها في أولوية أو أقدمية الإنسان. فهل التزامنا بالأولوية والأقدمية تبدأ وتنتهي مع حقيقة أولوية، أو أقدمية الإنسان الذي هو أعلى مني، أو أم هي لا تتكون من إجلاله بهذه الطريقة.»

قـال **كاو وتسـو Kao Tsu**، «أنا أحب أخي لكنني لا أحب أخ شـخص آخر. إن التمييز يخرج من داخلي، فبالتالي أنا أصفها بالذاتي أو الفطري. لكنني أُجل شخصاً غريباً الذي هو أعلى مني تماماً مثلما أُجل شخصاً أعلى مني من بين شعبي. التمييز يأتيني من الخارج، وبالتالي سأدعوه بالموضوعي والمكتسب.

رد مينسـيوس، «إننـا نلتـذ بالطعـام الـذي يطبخه الغربـاء تمامـاً مثلما نلتذ بالطعـام الـذي يطبخـه ناسـنا. إلا أن تمديـد مبدئكـم يجعلنـا نحـط عـلى اسـتنتاج مـن أن استحسـان الطعـام المطبوخ هـو كذلك موضوعي مكتسـب.

التالي هو حوار شـهير جرى بين مينسيوس وسفسطائي مشهور وقتها، الذي حاول أن يصطاد بشباكه الأول في حديثه:-

استفسر السفسـطائي قائلاً، «أنه من قواعد الإتيكيت الاجتماعي أنه عندما يمرر رجل وامرأة الأشياء من واحد إلى آخر لا يسمحان أن تمس أيديهما بعضهما البعض؟ ’

«تلك هي القاعدة» أجاب منسيوس.

«وأردف السفسـطائي قائـلاً «أفترض الآن أن زوجة أخيك تغـرق، هل يمكنه أن يمسك بيدها وينقذها؟’

«وأي شخص لا يفعل ذلك،» قال مينسيوس، يكون قلبه قلب ذئب، أن لا يلمس رجل وامرأة يقومان بتمرير الأشـياء من واحد لآخـر، أيديهما هو قاعدة للتطبيق

العام. لإنقاذ زوجة الأخ التي تغرق بمسك يدها هو قضية استثنائية بالكامل.»

إن أعمال **مينسيوس** تزدحم، مثلها مثل مختارات **كنفوشيوس** بكلام جامع مانع. الأمثلة التالية تبرهن انحيازه التام في السياسة:- «الناس هم أهم شيء، الآلهة تأتي بعدهم بالأهمية، والملك ذو ثقل أقل».

خسر **تشييه Chieh وتشو Chou** الإمبراطورية، لأنهم فقدوا الشعب، مما يعني أنهم خسروا ثقة الشعب. الطريقة لكسب الناس هي أن تكسب ثقتهم، والطريقة لفعل ذلك أن توفر لهم ما يحبونه وليس ما هم يكرهون.

هكذا نبذ **مينسيوس** الفيلسوفين الهرطقيين المذكورين أعلاه:-

«إن أنظمة **يانغ تشو Yang Chu ومو تي Mo Ti** تملؤ الإمبراطورية كلها. إن كان إنسان ليس تلميذاً للأول فهو تلميذ للثاني. إن أنانية **يانغ تشو Yang Chu** تستثني إدعاء الملك، بينما حب الغير العالمي للسيد **مو تي Mo Ti** ينبذ إدعاء الأب. وكل من لا يعترف بإدعاء الملك أو الأب يكون وحشاً همجياً».

يبدو أن **يانغ تشو Yang Chu** قد حمل أنانيته إلى الحد الذي لو نفع العالم كله لما كان له أن يفترق عن شعرة واحده من جسده.

«إن الإنسان القديم كان يعرف أنه مع الحياة فقد أتى لفترة وأنه مع الموت سيغادر ثانية عن قريب، لذلك اتبعوا رغبات قلوبهم، ولم ينكروا متع الحياة التي شعروا أنه بطبيعتهم ميالين إليها. الشهرة لم تجربهم، لكنهم اندفعوا فقط بغرائزهم، وانغمسوا في الملذات التي أتت في طريقهم دون سعي وراء اسم لهم أبعد من القبر. فكانوا بذلك بعيدين عن أعين الرقباء بينما في الأسبقية بين الناس أو على طول أو قصر الحياة فهذه لم تسبب لهم أي قلق من أي كان.»

إلا أن **مو تي Mo Ti** أظهر أنه تحت نظام حب الغير ستختفي كلية جميع المصائب التي يسببها بني الإنسان، كل للآخر، وأن السلام والسعادة للعصر الذهبي سيتم تجديدها.

في كتاب **تا هســيو Ta Hsueh** أو **التعليم العظيم** الذي يشكل الجزء XXXIX أي التاسع والثلاثين من كتاب الشعائر ويعني بالحقيقة التعليم للبالغين، فإننا نجد بين أيدينا مقالة سياسية أخلاقية قصيرة، غير معروف كاتبها، ولكن في العادة تنسب جزئياً إلى **كونفوشــيوس** وجزئياً إلى **تسينغ تســان Tseng Tsan** أحد أكثر تلامذته شهرة. في القسم السابق توجد الذروة المعروفة لدينا:-

«إن الناس القدماء، برغبتهم إظهار الفضيلة العظمى في أنحاء الإمبراطورية، بدأوا بالحكم الرشيد في الدول المختلفة. ولتحقيق ذلك، كان من الضروري لهم أولاً دعوة عائلاتهم إلى الاســتقامة، فيســتهلون ذلك بتهذيب أنفســهم وذلك أيضاً من خلال تقويــم القلب، ويســتتبعونه بإخلاص الهدف الذي يأتي مــن تمديد المعرفة، وهذا الأخير يُستخلص من التحقيق في الوجود الموضوعي.

وهاكم مقالة قصيرة أخرى تعرف باسم **تشونغ يونغ Chung Yung** التي تشكل الفصــل الثامن والعشرين XXVIII من **كتاب الشــعائر**، والــذي ينقلنا إلى نهاية **الكتــب الأربعة Four Books** . وقد ترجم اســمه بشــتى الطرق،[6] جوليان أعطاه تعبير «البيئة المتغيرة» ولج «إلى المذهب الوسطي». وكاتبها يعرف باسم **كونغ تشي Kung Chi** حفيد كونفوشيوس.

يبدو أنه لم يفعل شــيئاً أكثر من التوســع في عدد من المبادئ العامة لجده فيما يتعلق بطبيعة الإنســان والتعرف القويم على الأرض. ويغتنم المناســبة لكي يطلق. المديح الجياش على كونفوشيوس، وأنهاها بالكلمات التالية:-

«بالتالي فإن اسمه يفيض عن **مملكة الوسط** ويصل البرابرة في الشمال والجنوب. حيثما تسير السفن والعربات، أو أينما يمكن لقوة الإنسان أن تخترق، وحيثما يكون هناك ســماء في العلا والأرض في الأســفل، وحينما الشــمس والقمر يلقيان الضوء أو أينــما يقــع الصقيع أو الندى، كل من تجري في عروقــه الدماء ويتنفس الشرف يحبونه، وبالتالي يمكن أن يقال أنه نظير الله.»

---

6 تشونغ تعني الوسط ويونغ تعني سبيل، الأول يعرفه الصينيون «بذاك الذي دون انحراف أو انحياز، والثاني بذلك الذي لا يتغير في وجهته.»

الفصل الرابع
الكتاب المتعددون

إن أســماء الكتاب الذين ينتمون لهذه الحقبة من سنة 600 قبل الميلاد إلى سنة 200 قبل الميلاد والأعمال التي نسبت إليهم في مواضيع مختلفة تملأ لائحة طويلة. الكثــير من هذه الأعمال الأخــيرة اختفت وغيرها كان تزييفاً فاضحاً، بالأســاس في القرنــين الأول والثاني من زماننا وهي فترة الغرابة معروفة بموجة من التزييف على الجانب الآخر من العالم. أما بالنســبة للكتاب، فسنرى لاحقاً بأن الصينيين تمادوا في تأليــف عدد منها للعصور القديمة وبعــد ذلك يؤلفون المقالات الملائمة. كان هناك **ســون تســو Sun Tsu** الذي عاش في القرن الســادس قبل الميلاد. ويقال أنه كتب كتــاب **بنــغ فا Ping Fa** أو **فن الحرب** في ثلاثة عشر جــزءاً، حيث علقت به قصة غريبة. عندما كان يتناقش في يوم من الأيام مع الأمير **هو لو Ho-lu** صاحب دولة **وو Wu**، ســأله الأخــير، «أنا قرأت كتابك وأود أن أعــرف إن كان بإمكانك تطبيق مبادئه على النساء. «وأجاب **سون تسو Sun Tzu** بالإيجاب، وبناء عليه أخذ الأمير 180 بنتا من حريمه وطلب من **سون تسو Sun Tsu** أن يتعامل معهن كما يتعامل مع القوات. وفقاً لذلك قســمهن إلى كتيبتين، وعــلى رأس كل كتيبة وضع محظية مفضلة لدى الأمير. لكن عندما قرعت الطبول لبدء التمارين، انفجرت البنات كلهن بالضحــك. وبناء عليه، ودون تردد أمر **ســون تســو Sun Tsu** بقطع رأس كل من المحظيتين. وبالتالي أعاد النظام، وفي النهاية تم رفع القوات إلى مستوى فاعل جداً. التالي هو مقتطف من **فن الحرب:-**

«لو أن الجنود لم يتم اختيارهم بعناية ولم يتدربوا تدريباً حسناً ليطيعوا، لكانت كل حركاتهم مخالفة للقواعد. فهم لن يتصرفوا ســوياً باتفاق. ســيفقدون النجاح لأنهم يفتقرون للإجماع. سيكون تراجعهم غير منظم نصفهم سيقاتل بينما النصف الآخر سيهرب. لن يتجاوبوا مع دعوة الجرس أو الطبل، مائة من أولئك لن يصمدوا أمام عشرة رجال مدربين جيداً.

«إن كانت أسلحتهم غير جيدة سيكون من الأفضل أن لا يأخذ الجنود أياً منها. إن كانت الدروع ليست قوية ولا تقف جنباً إلى جنب، فمن الأفضل أن يكون الصدر عارياً. والقوس الذي لن يصل إلى الهدف لا فرق بينها وبين السيف والنشاب على مسافة طويلة، فالهدافون السيئون من الأفضل لهم أن لا يحملوا النبال، وحتى الهدافون الجيدون، ما لم يجعلوا سهامهم تنغرس، قد يكون من الأفضل لهم أن يطلقوها دون تسديد، قد تكون هذه هفوات جنرالات غير كفئين، خمسة جنود من هؤلاء لا يحاربهم واحد. وعلى الرغم من ذلك، فمن المشكوك فيه إننا نملك أي آثار أصلية من **سون تسو Sun Tsu** أو **كوان تسو Kuan Tsu** أو **وو تسو Wu Tsu**، أو **ون تسو Wen Tsu**، أو أي كاتب غيرهم في الحرب والفلسفة السياسية، والأشياء المتشابهة. والملاحظة نفسها تنطبق على المراجع الطبية الصينية، في معظمها ضخم، وبعضه يرجع تاريخه إلى الأزمنة الخرافية، ولكن دائماً هناك قصور لأن ينجح في أي امتحان بسيط.

أن **ار ياه Erh Ya** أو **الاقتراب من المستوى** هو عمل تمت نسبته إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. إنه دليل للاستخدام الصحيح للمصطلحات المتعددة، بما فيها أسماء الحيوانات، والطيور، والنباتات...الخ، والتي تم زيادة كثير من الرسومات عليها. صدرت أولاً مع تعليق لـ **كو بو Kuo Po** الذي سنقرأ عنه لاحقاً، وبعض النقاد الصينيين يريدوننا أن نعتقد أن كثيراً من المصورات التي نملكها كانت وقتها موجودة، لكن السؤال كله مغلف بالألغاز.

التالي سيعطي فكرة حول النص:-

«عن المعدن نقول **لو Lou** (مطاردة)، للخشب نقول **كو Ko** (نحفر)، للعظم **شييه Shieh** (نقطع)،» الخ...الخ.

يوجد عدد من الآثار التي تثير الاهتمام من الكاتب **تان كونغ Tan Kung**، الذي ازدهر في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، وقد ضم عمله إلى كتاب **الشعائر Book Of Rites**، المقتطفات الثلاث التالية تعطي فكرة عن مجاله:-

1. «في يوم من الأيام رأى أو **تسو Yu Tsu وتسو او Tsu Yu** طفلاً يبكي لفقدان والديه. وبناء عليه علق الأول،«لا يمكنني أن أفهم لماذا الحزانى (الذين يحدون على

الميت) عليهم أن يتقافزوا حتى يظهروا حزنهم بينما كان بإمكانهم أن يتخلصوا من هذه العادة، وهنا لديك تعبير مخلص للمشاعر وهو ما يجب أن يكون.»

أجاب **تسو أو Tsu Yu**، «يا صديقي إن الاحتفال بالحزن، بكل ما له من ملابسات مادية، يشــكل عــلى الفور رادعاً لكل عاطفة في غير محلهــا وضماناً ضد أي قصور للاحترام المناســب، وبالتالي أن ينفس عن شــعور مكبوت هي طريقة البرابرة، إنها ليست طريقتنا.»

«لنفترض التالي: رجل مسرور سيظهر سروره على وجهه، سيغني، سيكون منفعلا، ســيرقص، وكذلك إنسان مستاء ســيبدو أنه حزين. سيتنهد وســيلطم على صدره، سينطنط، إن الضبط المناسب لهذه المشاعر، هو عمل مجموعة من الاحتفالات.

يضاف إلى ذلك، أن شــخصاً يموت ويصبح موضوعاً للاشمئزاز، إن الجثة منبوذة، وبالتــالي يتم تحضير كفن لها وغيرهــا من أدوات الدفن حتــى الناجون يتوقفون عن الاشــمئزاز، وبمناسبة الوفاة، تقدم ذبيحة من النبيذ واللحم، وعندما يحين بدء موكب الدفن هناك آخر، وبعد الدفن هناك آخر أيضاً. ولكن لم ير أحد مطلقاً روح المتوفى تأتي لتتذوق الطعام.

يوجد لدينا عاداتنا منذ القدم، لم يجر نبذها وتركها لأنه، وبالمناسبة الناس لم تنبذ الأموات، ما يمكنك شــجبه في أولئك الذين يقومون بالاحتفالات لا يضير الاحتفالية نفسها.»

2. «عندما مات **تســو تشــو Tsu Chu**. زوجته وسكرتيره أخذا يتشاوران فيمن يدفــن معه، كل شيء تم تســويته قبل وصول أخاه **تســو هينــغ Tsu Heng**، ثم أعلماه قائلين، «إن المتوفى بحاجة إلى شــخص يرعى شؤونه في العالم السفلي. ونحن نسألكم أن تنزل مع جسده إلى القبر، فأجاب **تسو هونغ Tzu Heng** «دفن الأحياء مع الأموات لا يتماشى مع الشــعائر القائمة، ولكن ما تزال كما تقولون، الحاجة إلى شــخص ليهتم بأمور المتوفى ومن أفضل من زوجته وسكرتيره؟ إن كان يمكن تفادي هــذا المــأزق الطارئ كلية، فأنا على اســتعداد؛ إن كان الجــواب بالنفي، فإن هذا العمل سيقع عليكما، أنتما الإثنين. منذ ذلك الوقت فصاعداً بطُلت هذه العادة.

3. «عندما كان كونفوشيوس يقطع جبل **تاي Tai** سمع امرأة تبكي وتنتحب قرب

قبر. وبناء على ذلك أرســل أحد تلامذته ليسأل ما الأمر؟ فقام تلميذه بسؤال المرأة قائــلاً، «لقد أصبت بحــزن عظيم وقع عليك حتى تنفذي هــذا الحزن عنك بهذه الطريقــة؟' فأجابت المــرأة، بالفعل هو كذلك. لقد قتل حمــوي هنا من قبل نمر، وبعــده قتل زوجي، والآن قتل ابني بالطريقة نفســها.' 'لكــن لماذا لا تذهبين من هنا؟' اســتفسر كونفوشيوس. «إن الحكومة ليســت قاسية،' أجابت المرأة' .هناك! صاح المعلم ونظر إلى تلامذته قائلاً تذكروا ذلك. الحكومة السيئة أسوأ من النمر.'«

الفيلســوف **هســون تســو Hsun Tsu** الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد معروف على نطاق واســع بآرائــه الهرطقية حول طبيعة الإنســان، مما وضعه في موقف معارض مع مذهب كونفوشيوس، الذي دافع عنه بحرارة مينسيوس. الفقرة التالية، التي لا تحمل التصديق بها، تتضمن فحوى هذه المقولة:-

«بطبعه، الإنســان شرير. إن كان إنسان ما جيداً فإن تلك هي نتيجة اصطناعية. فلأن حاله هي ما هو عليه فإنه يتم التأثير عليه أولاً وقبل كل شيء بالرغبة بالربح. وبالتالي يســعى للحصول على ما يستطيع، دون أن يأخذ بعين الاعتبار جاره. ثانياً، أنه يميل إلى الحسد والكره. وبالتالي أنه يسعى لتدمير الآخرين أما الولاء والحق يتم وضعهما جانباً، ثالثاً أنه عبد لشــهوانيته الحيوانية، وبالتالي يقترف الفظائع ويحيد عن طريق الواجب والحق.

«وبالتــالي إن التطابق مع النزعة الطبيعية للإنســان تقــود إلى كل أنواع العنف والفــوضى وفي النهايــة إلى البربرية، فقــط في ضبط النفس في القانــون والتأثيرات الأخلاقية العظيمة يصبح الإنسان ملائماً ليكون عضواً في مجتمع منظم باستمرار.

من هذه المنطلقات يبدو أنه أصبح ظاهراً أن الإنسان بطبعه شرير وأنه إن كان الإنسان جيداً فإن تلك هي نتيجة اصطناعية.

إن هســياو تشــينغ Hsiao Ching أو برَّ الوالدين الكلاســيكي ينســب جزئياً إلى كونفوشــيوس وجزئيــاً إلى **تســنغ تســان Tseng Tsan** مــع العلــم أنها ترتد إلى تاريــخ أقــدم مــن ذلك بكثــير. واعترافاً منــا بأن بــر الوالدين هو بالأســاس المفتــاح للحضــارة الصينيــة، فإننا نعترف أنــه مخيب للآمــال أن لا أجد أي شيء عــن الموضــوع ســوى كــراس فقير يحتــوي على جمــل عادية ورديئــة تعطي

الانطبــاع أنها كتبــت لتملأ الفــراغ. إن المقتطــف القصير التالي يفــي بالغرض:-

«قال المعلم، هناك ثلاثة آلاف اعتداء يمكن أن نوجه لهم العقوبات الخمسة ولا يوجد أي واحد أفظع من أن يكون المرء غير بار.

«عندما يكبت الحاكم، أي عندما ينكر عليه سلطانه، وعندما ننكر سلطة الحكماء، أي عندمــا ينكر القانون كله، وعندما يطرح بر الوالدين جانباً أي عندما ننكر مبدأ المودة. فهذه الثلاثة تمهد الطريق للفوضى.»

إن **تشــيا** أو **Yu**، أو **أقوال كونفوشــيوس العائلية**، هو عمل بعنوان أخاذ، نسب مــن بعضهم إلى التلاميذ المباشرين لكونفوشــيوس، الذين كما هو الآن، يعتقد من العلماء المحليين، أنه تم تأليفه من قبل **وانغ ســو Wang Su**، وهو موظف متعلم مات في سنة 256 ميلادية. يبدو أن هناك عمل أقدم منه حمل العنوان نفسه لكن كم كان العمل الأخير مديناً له أو قائماً عليه يبدو أن ذلك سيبقى غير معروف.

وعمل آخر مخز هو لو **تشــيه تشون تشــيو Lu Shih Chun Chiu** أو **الربيع والخريــف لصاحبه لو بو واي Lu Pu- Wei** الذي مات في ســنة 235 قبل الميلاد، وكان الابن المزعوم للإمبراطور الأول (انظر الفصل السابع) إنه يشتمل على معلومات كثيرة من التاريخ المبكر للصين الذي لا شك أن جزءاً منه، قائم على الحقيقة.

وأخيراً، من بين الكتب الزائفة يمكن أن نذكر كتاب **مو تيان تســو تشــوان Mu Tien Tsu Chuan** وهي رواية عن رحلة خرافية من قبل ملك من ملوك **ســلالة تشــو Chou** من المفترض أنها تمت حوالي الألف قبل الميلاد. الملك للأسف يخاطب بلقبــه بعد الوفاة، والكتاب كتب على ما يبدو في القرن الثالث الميلادي ليتلاءم مع جملة وجدت في **لييه تسو Lieh Tsu** (انظر الفصل السادس) مفادها أن الحاكم المعني بالفعل قام برحلة مثل هذه للغرب.

الفصل الخامس
الشعر – النقوش

إن الشــعر الذي يمثل الفــترة الواقعة بين موت كونفوشــيوس والقرن الثاني قبل الميــلاد، هما عالمان متباعدان. ولا يوجد شيء يشــبههما في المــدى كله من الأدب الصينــي. إنها تثير كثيراً من التصريحات المحلية حول الفن الشــعري مما قد يترك معناها غير واضح. فالشــعر تم تعريفه من قبل الصينيين على أنه «الإحساس معبَّر عنه بالكلمات،» وهو تعبير قد لا يكون أقل ملائمة من تعبير **ووردز ورث Words worth** «تعبير منفعل.» وقد قالوا «إن الشعر لا يعرف أي قانون.» وكذلك قالوا «إن الناس القدماء افترضوا أن قيمة البراعة في الشــعر أن يكون المعنى خارج الكلمات وأن عــلى القــارئ أن يحزره.» من هــذه القوانين الثلاثة يمكن القــول أن القانون الثالــث هو الذي بقي حتــى هذا اليوم. لكن في القرن الرابــع قبل الميلاد انغمس **تشــو يوان Chu Yuan** ومدرسته في الأوزان الشاذة غير المنتظمة والمتطرفة التي انســجمت جيداً مع آرائهم الشــاذة غير المنتظمة والمتطرفة. إن شــعرهم كان نثراً أصبح فيه مس من الجنون. لقد كان يعطي التلميحات والاســتعارات بشكل كبير، والآن كثير منه، لولا التعليقات لكان غير مفهوم البتة.

كان **تشــو يوان Chu Yuan** من نوع الوزير الــوفي. وكان يتمتع بالثقة الكاملة للأمير حتى استنزفت في نهاية المطاف، غيرة ومؤامرات معارضيه موقعه في الدولة. بعدها كان قد ألف **لي ســاو Li Sao الوقوع في المشــاكل**، حيث امتد الجزء الأول منه لحوالي 400 بيت، بدأه من ولادة الكاتب وكان يصف رعاية الفضيلة وجهوده الجــادة لترجمة المبادئ إلى ممارســة. وبعد أن أحبط من الفشــل، قام بزيارة قبر الإمبراطور **شــون Shun** (أنظر الفصل الثاني) مكرســاً نفسه للصلاة حتى في نهاية المطــاف تظهر له عربة عنقاء وتنــين يحملانه ليفتش عن طريقته المثلى بعيداً عن نطاق البشرية – وعربة الشــمس تتحرك ببطئ لتنيره بشــكل أطول على الطريق،

والقمر يقود في المقدمة والرياح تدفع من الخلف، - حتى تصل إلى قصر الله. ولأنه لم يستطع الحصول هنا على تصريح للدخول فإنه يبحث عن ساحر مشهور، الذي يشير عليه بالثبات في موقعه ويستمر في البحث. بعد ذلك يجد نفسه محاصراً بغيوم عظيمة وأقواس قزح مبهرة وفي أجواء من موسيقى الزخارف التي لها طنين مرتبطة بعربته يبدأ من طريق الحليب ماراً بالقطب الغربي، فيصل إلى منابع النهر الأصفر، وبعد برهة من الزمن يرى مجدداً موطنه، لكن دون أن يكتشف الأغراض التي يبحث عنها.

محبط من خيبة الأمل وغارق في فقدان الحظوة مما جعله لا يهتم بالعيش أكثر من ذلك، ذهب إلى دفة نهر **مي لو Mi Lo**. هناك التقى بصياد سمك الذي بادره بالقول، «الست أنت صاحب المعالي الوزير؟ ما الأمر الذي أتى بك إلى هذا الممر؟» أجابه **تشون يوان Chun Yuan** قائلاً، «العالم فاسد ويمكنني لوحدي أن أنظفه، هناك كلهم سكارى، بينما أنا وحدي صاح. لذلك تم طردي.» «أواه،» قال الصياد، «الحكيم الحقيقي لا يتقاتل مع بيئته، وإنما يؤقلم نفسه معها. إن كان العالم، كما تقول فاسداً، فلماذا لا تبقى قريباً منه وتقوم بتنظيفه، إن كان الناس كلهم سكارى لماذا لا تشرب معهم وتعلمهم كيف يمكن تجنب الإسراف؟» وبعد حوار آخر، جدف الصياد بعيداً، وأمسك **تشو يوان Chu Yuan** بحجر كبير في يديه والقى بنفسه في النهر ولم يُر منذ ذلك الحين، هذا حدث في الخامس من الشهر الخامس، وأخذ شعب **تشو Chu** بعد ذلك يحتفلون بهذا اليوم في مهرجان سنوي عندما يأتي الأرز ومكعبات البامبو ويرمى بها في النهر كتضحية لروح بطلهم العظيم. وهكذا هو أصل مهرجان قارب التنين العصري، الذي من المفترض أن يكون بحثاً في جسد **تشو يوان Chu Yuan**.

توجد عينة جيدة عن أسلوبه بالقصيدة القصيرة المعنونة «عبقري الجبل» إنها واحدة من «تسع أغان». والتي تشكلت مع غيرها من القطع الأخرى في الأسلوب نفسه، وتم ترتيبها تحت العنوان العام لي **ساو Li Sao**، كالسابق أعلاه.

يظهـــر لي أن هناك عبقري في التلال، تغطيها الوســيتارية[7] ويتمنطق بها اللبلاب[8] وعلى شفاهه ابتسامة، ومحياه ساحر، ويمتطي نمراً أحمر، والقطط الوحشية تركض في الخلف مســتلق في عربة ومعه رايات من الكاسيا، ومغطى بالسحلبية، ومطوق بالأزاليا، ويختار من الرائحة العطرة حتى يترك وراءه ذكرى في القلب، إلا أن الأيكة التي أعيش فيها مظلمة ولا يصلها قطعياً نور النهار. الممر إلى هناك خطير وصعب التســلق. لوحدي أقف على رأس التلة بينما تســبح الغيوم تحت قدمي، وكل شيء حولها ملفوف بالحزن.

«تنســمت الريح الشرقية بلطف، وناعماً يهطل المطر. وفي انبساطي أنسى البيت فمن هو الذي سيكرمني في انحداري؟

إني اقطف العائق[9] على التلة في وســط فوضى الصخور وتشــابك الكرمة. أنا أكره ذاك الذي جعلني منبوذاً، ولا يوجد له وقت للراحة حتى يفكر فيّ.

«أن أشرب من النبع الصافي الصخري، وأظلل نفسي تحت الصنوبر المتمدد. حتى لو قام باستدعائي لا يمكنني أن أسقط إلى مستوى العالم.

«عندما يــدوي الرعد من خلال المطر الخفيف فقرود الغيبون تعول حولي طول الليــل. الاعصار يتدفق بشــكل متقطع من خلال الشــجر الذي يُصّفــر. وأنا أفكر بأميري، ولكن دون جدوى، فأنا لا أستطيع أن أضع جانباً حزني.»

أحد الشــعراء المميزين في ذلك العصر كان **ســونغ** أو **Sung Yu** الذي لا نعرف شــيئاً عنه سوى أنه كان ابن شقيق **تشو يوان Chu Yuan**، ومثل عمه كان رجل دولة وشــاعر، المقتطف التالي يعرضه في مزاج لا يختلف كثيراً عن مراثي لي **ساو Li Sao** .

من بين الطيور العنقاء، ومن بين السمك حوت لوياثان

---

7 هو نبات متعرش ذو زهرعنقودي أزرق أو أبيض أو أورجواني / المترجم.

8 نبات عشبي معترش يلتف على المزروعات والشجر / المترجم.

9 نبات من الفصيلة الشقيقية أزهاره جميلة مختلف الألوان / المترجم.

تمسك بأهم المواقع؛

تشق الغيم القرمزي،

العنقاء تمشي الهوينا

السماء الزرقاء فقط فوقها

بعيداً في ميادين الفضاء،

إلا أن عظمة السماء والأرض

غير مهمة لسباق عصفور الشوك.

ولوياثان ينهض بقفزة واحدة

يذهب ليرتاح في ثانية،

بينما عمق الوحل مثل سمك المينوه الصغير

محسوب كعمق البحر.

وكما هو الأمر مع الطيور والسمك،

كذلك هو مع الإنسان،

هنا ترتفع العنقاء

هناك يسبح اللوياثان...

أنظر إلى الفيلسوف، فهو مليء بالأفكار العصبية

ومع شعلة لا تنطفئ أبداً

تسكن عن رضى لوحدها،

قل لي ماذا يمكن لجماعة فظة أن تعرف عنه؟»

كما قلنا أعلاه أن شـعر هذه المدرسة هو غير منتظم وشاذ في موازينه؛ بالحقيقة أنها بالكاد تكون عروضية. إن الشاعر لا ينهي سطره أبداً احتراماً لعدد محدود من التفاعيل، وإنما يطول ويقصر ليتلائم مع مقتضيات فكرة. وبالطريقة نفسـها يمكن أن يقفي أو لا يقفي. والقارئ لا يعي مطلقاً الحاجة إلى الفن كما أنه لو كان منساقاً بتدفق اللغة والتتابع السريع للصور الشعرية.

شـعراء آخرون عدة، مثل **تشـيا أي Chia I وتونغ فانغ سـو Tung Fang So** الذين رعوا هذه الأصول واسـتثمروا فيها، لكن على مسـتوى أقل إلى حد ما، فهم ينتسـبون إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وبالتالي تداخلت مع فترة يجب أن ينظر لها أنها تبشر بمولد أسلوب جديد وليست مشغولة بتمرير القديم.

ويجـب أن نذكر هنـا أن الكثير من القطـع الصغيرة والتأليفـات ذات الأعمال المشـكوك فيها – بعضها دون سـؤال، قديم جداً – جرى إنقاذها من قبل العلماء الصينيين من مصادر متعددة وكونوا منها مجموعات ملائمة. من هذه يوجد شـعر يعرف «بمشـورة **يـاو Yao**،» وياو هذا هو الملك الخرافي المذكـور في الفصل الثاني الذي كان على علاقة **بشون Shun**، في العصر الذهبي للصين:-

بقلب مرتعش وبخطوات حذرة،

سر يومياً بمخافة الرب...

مع أن قدمك لن تَزْل من فوق الجبل،

لكنها قد تزل من فوق التراب.

توجد أيضاً أغنية المزارع أو الفلاح التي تتوسـع في السـعادة القومية لهذه الأيام الهادئة:-

اعمل، اعمل؛ - منذ شروق الشمس

حتى تغيب الشمس وينتهي اليوم

أنا أحرث المرج

وأجرف التراب،

ويأتي اللحم والشراب كلاهما إلي

إذاً لماذا أهتم بالقوى التي ستأتي؟»

يبدو أن العادة كانت في الأيام الغابرة أن يتم نقش نقوش شـاعرية وغيرها، على كل المواد ذات الاسـتخدام اليومي. على حوض الحمام لتانغ Tang، مؤسس سلالة شـانغ Shang في سـنة 1766 قبل الميلاد، يقال أنه تم كتابة الكلمات التالية:- «إن كان أحد في أي يوم من الأيام يسـتطيع أن يعمل من نفسه، رجلا جديداً، فليعمل ذلك كل يوم.» وبالمثل، حملت مرآة معدنية قديمة الخرافة التالية، «يمشط الإنسان شـعره كل صباح: لماذا لا يفعل ذلك بقلبه؟» ويقال أن الأسـطر التالية أخذت من مغسلة قديمة:-

«عوضاً من أن تغرق في لجة العالم الفاسدة

أنا أود أن أغرق في مكان لا قعر له

فمن يغرق في لجة العالم الفاسدة

نتمنى أن يبقى في الأعماق النتنة،

أما من يغرق في مكان لا قعر له

قد يأمل أن يطوف على السطح مرة أخرى.»

في هذا الجنس من الأبيات الشعرية، فإن البحر الشعري هو غالبا شاذ والقافية هي ببساطة تشبه الرنين وفق لقوانين علم العروض الشديد الذي أوجد في فترة لاحقة.

الفصل السادس

الطاوية – طاو تيه تشينغ Tao – Te – Ching

نطلب من القارئ أن يبدأ من جديد عند القرن السادس قبل الميلاد. حتى الآن عالجنا بشكل استثنائي ما يمكن أن نطلق عليه الأدب الأرثوذوكسي أو المحافظ أي يخص أو يتبع أو يقوم على القانون الكونفوشيوسي. يبدو أنه من المناسب أن نزيح هذا الموضوع عن كاهلنا قبل أن ندخل في فرع جديد غير مهم كثيراً، لكن أصعب بكثير للمعالجة. هذا الفرع يتكون من أدب الطاوية، أو ذاك الذي تجمع حول ما يسمى **بالطاو**، أو **طريق لاو تسو The Way of Lao Tzu**، الذي كان ينمو ويترعرع إلى جانب ذاك. الذي أقيم على معايير ومذاهب كونفوشيوس ولو أنه كان من غير الممكن أن نقوم منذ البداية بشرح مما يتكون الطاو في الحقيقة. وفقاً **للاو تسو Lao Tzo** نفسه، «أولئك الذين يعلمون لا يخبرون؛ والذين يخبرون لا يعلمون.» ومن المؤمل به على أي حال، أن نكون بالوقت الذي ننتهي به من هذا الفصل، قد أوصلنا بعض الضوء لمعنى الطاو إلى أذهان أولئك الذين كانوا صبورين كفاية ليتابعوا الحجج.

ولد **لاو تسو Lao Tsu** وفقاً للشواهد، في سنة 604 قبل الميلاد. وإذا حذفنا جميع الإشارات إلى الظواهر الخارقة للطبيعة التي رافقت ميلاده وسنواته الأولى، يبقى القول فقط أننا لا نعلم أي شيء يذكر عنه. هناك سيرة ذاتية قصيرة عن **لاو تسو Lao Tsu** يمكن إيجادها في تاريخ **سو ما تشيان Ssu Ma Chien**، والتي ستعالج في الكتاب الثاني، الفصل الثالث، لكن البراهين الداخلية تشير إلى تطريز أي توشية جرت عليه من قبل أيدٍ أخرى تماماً كما اعتقدوا أنه من الضروري أن يحرف متحمسون أتقياء في أعمال جوسيفوس فقرة تشير إلى المسيح، هكذا يبدو أن ملاحظة **سو ما تشيان Ssu Ma Chien** الأصلية قد تم التلاعب بها بروية

لتتلائــم مع متطلبات اجتماع غير موثق بين لاو تســو وكونفوشــيوس الذي أدرج فيه فعلياً قول «بالمناســبة أنه غير ذي صلة»، وكم بالأحرى إذا جعلنا كونفوشيوس يقوم بزيارة لاو تسو بخصوص معلومات حول الشعائر، وهو موضوع كان لاو تسو يحتقره. هذه السيرة الشخصية تنتهي بالحكاية العجيبة التالية:-

«اســتقر لاو تسو لفترة طويلة في **تشــو Chou** لكنه غادرها عندما رأى أن هذه الدولة أخذت تظهر مظاهر الانحلال. عند وصوله الحدود، قال له الحارس، واسمه **ين سي Yin Hsi**، «إذن أنت ســوف تتقاعد التمس منك أن تكتب لي كتاباً. وبناء عليه كتب لاو تسو الكتاب بجزئيه عن الطاو و تي[10] والذي امتد إلى أكثر من خمسة آلاف كلمة. ثم غادر ولا أحد يعلم أين توفي.»

يبدو واضحاً من رواية **ســو ما تشــيان Ssu Ma Chien** أنه هو شــخصياً لم ير أبــداً الكتاب، مع أن أقلية متناقصة لا تزال تعتقد أننا نملك هذا الكتاب في الكتاب المعروف جداً تحت اسم **طاو ته تشينغ Tao-Te-Ching.**

يجب أن يقال الآن أنه خلال ما يعرف بشــكل عام على أنه كتابات كونفوشيوس لم يتــم ذكر **لاو تســو Lao Tsu** ولا مــرة أبداً[11]. أنه كذلك لم يذكر من قبل **تســو Tso**، صاحب التعليق المشهور، ولا من قبل محرري مختارات كنفوشيوس، ولا من قبل **تســنغ تسان Tseng Tsan** ولا من قبل مينســيوس. **تشوانغ تسو Chuang Tzu** الــذي كــرس كل جهده لعرض وفــرض تعاليم **لاو تســو Lao Tzu**، لم يقم حتــى مرة واحدة بالتلميح بأن معلمه قد كتب كتاباً. في عمله نجد رواية لاجتماع كنفوشــيوس بلاو تســو لكن ذلك تم دحضه منذ زمن طويل كاحتيال من قبل كل ناقد صيني كفؤ. **تشــو هسي Chu Hsi**، **وشن جو شوي Shen Jo-Shui** وغيرهما كثــيرون، أعلنــوا رفضهم للاعتراف بأصالة **الطاو تي تشــينغ Tao Te Ching**، وكنا عملنا بالواقع إشــارات ضمنية لهذا الموضــوع هنا لولا الاهتمام الذي دفع نوعا ما

10 (التي هي نسخة مصدقة أو تعبير عن التاو).

11 إن الإسم لاو تان Lao Tan يذكر في اربع فقرات من كتاب الشرائع، ولكن يتم ابلاغنا بوضوح أن باستخدامه ليس المعني الفيلسوف لاو تسو.

العديــد من الطلاب الأجانب المرموقين باللغة إليها ومن الممتع أن تكون مجموعة من تفوهات لاو تســو الأصلية الكثيرة محشورة بين حشو كثيف من التبطين التي لا يمكن أن يُســتخرج منها أي معنى ســوى من قبل المتحمسين الذين ويا للغرابة يختلفون فيما بينهم. وسنعطي الآن أمثلة قليلة من لاو تسو الحقيقي:-

الطريق (الطاو) الذي يمكن السير عليه ليس الطريق الأبدي.»

«وأظب على أن تتبع الطريق في قلبك، لكن لا تجعل منه فرجة للعالم.»

«بكلمات كثيرة يتم اســتنفاذ خفة الظل، فمن الأفضــل أن تحافظ على الطريق الوسط.»

«مع الجيدين ســأكون جيداً. ولغير الجيدين ســأكون أيضاً جيداً، حتى أجعلهم جيدين.»

«كافئ الجرح باللطف.»

«ضع نفسك بالخلف، فتوضع في الأمام.»

«تخلى عن الحكمة وانبذ المعرفة فالناس يستفيدون مائة مرة.»

هــذه المبادئ الأخيرة من المفروض أن تصور مبدأ لاو تســو المحبب الذي يقول بعمــل لا شيء، أو كما تم تســميته، **عدم الفعل**، وهو مبدأ لا ينفصل عن اســمه، وواحد ما يزال يبذل إعجاباً كبيراً على أولئك الأكثر تخيلا من أبناء وطنه. وقد أعلن عنه كالتالي:-

«لا تفعل شيئاً، والأشياء كلها ستعمل.»

«أنا لا أفعل شيئاً، والناس تصبح خيرة لوحدها.»

بالعودة إلى الحشو، كما شرحها المرحومان الدكتور تشالمرز ود. لج يمكن أن نأخذ فقرة هي الآن الفصل السادس:-

تشـــالمرز:- «إن روح الـــوادي (مثل الربيع المعمر)، لا تموت أبـــداً. هذه (الروح) أســـميها الهوة – الأم. إن ممر الهوة الأم، أســـميه جذر السماء والأرض، دون توقف يبدو أنه يصمد ويتم تشغيله دون جهد.»

لج:- «إن روح الوادي لا تموت، نعم الشيء نفسه.

إنه لغز الأنثى هكذا نحن نسميه.

بوابته التي انطلقوا منها أولا.

تسمى الجذر الذي خرجت منه السماء والأرض.

إن قوتها تبقى طويلة وغير مكسورة.

تستخدم بلطف ودون لمسة الألم.»

مثل واحد إضافي من ترجمة تشـــالمرز سوف يقرر مصير الكتاب مع القراء الذين يدعون حد أدنى من الحس من عالم قديم كلاسيكي.

«حيث تركد المياه تكون جيدة للتكيف.

في قلبها، إنها جيدة للعمق.

في العطاء، إنها جيدة للإحسان.

في الحديث، إنها جيدة للبر.»

أن يكون هناك فيلســـوف مثل لاو تســـو الذي عاش في حوالي الزمن المشـــار إليه والذي وصلت إلينا أقواله أولا من خلال التراث ولاحقاً من خلال السجلات المكتوبة والمطبوعة، لا يمكن أبداً أن نشـــك فيه. إن العمل العظيم الـــذي عمـله **تشـــــوانغ تـســـــو Chuang Tsu** قد يكون كافياً ليثبت هذه النقطة دون إثارة أي شكوك، وفي الوقت نفسه يشكل دليلاً متوفراً لتثمين أقرب لهذا الطاو المراوغ.

ولـــد **تشـــوانغ تســـو Chuang Tzo** في القرن الرابع قبـــل الميلاد، وتبـــوأ مركزاً وظيفيـــاً بســـيطاً. يقـــول المـــؤرخ **ســـوما تشـــيان Ssu Ma Chian** أن **تشـــوانغ**

تسـو «كتب بهـدف ذم المدرسـة الكونفوشيوسـية ولتمجيد ألغاز لاو تسـو.... وتعاليمـه تشـبه الفيضان الجـارف الذي يتمـدد وفقـاً لإرادته الحـرة وبالتالي مـن الحـكام إلى الـوزراء نـزولاً، لا أحـد يمكـن أن يسـتفيد منـه بـأي شيء.»

هنا لدينا مفتاح الانتصار لطريق كونفوشـيوس على طريق لاو تسو، فالأخير كان مثالياً بينما الأول شكل نظاماً عملياً للاستخدامات اليومية. ولم يستطع **تشوانغ تسو Chuang Tsu** أن يقنع الأمة الصينية التي تتقن حبك الخطط أنه من خلال عمل اللاشيء سيتم عمل كل شيء. لكنه ورث الأجيال اللاحقة عملاً، بسبب جماله الأدبي الرائع، تبوأ دائماً مكاناً مرموقاً باستمرار. إنه عمل يحظى بالكثير من الفكر المبدع. وفي الحقيقة يظهر الكاتب في الأساس كتلميذ يصر على مبادئ أستاذه، لكنه خطط لتمديد مجال لنقل تكهناته إلى منطقة لم يحلم بها لاو تسو.

لم تصل إلينا أعمال **تشـوانغ تسـوChuang Tzu** كلها، كما لا يمكن اعتبار كل تلك الأعمال التي تسـوق باسمه أصلية. أيد غريبة أضافت في الواقع سدى، فقرات عديـدة وفصول كاملة عدة. لكن لباس الحداد، يقول مثل صيني، لا يمكن تطويله بذيل كلب. إن **لن هسي تشونغ Lin Hsi Chung**، الناقد اللامع من القرن السابع عشر، الذي يجب على جميع الطلاب أن يعودوا إلى مؤلفه، قد بَيْن بلمسة لا تخطئ أين ترك الأسد (أكله) وأين ابن أوى بدأ (بالأكل).

إن شرف الطبعـة الأولى يذهـب حقاً إلى روح غير مسـتقرة مـن القرن الثالث للميلاد، يدعى **هسـيانغ هسـيو Hsiang Hsiu**، وقد يكون هو مؤسس، على أي حال عضو، ناد صغير لشـعراء مدمني النبيذ الذين أطلقوا على نفسـهم **الحكماء السبعة لحديقة البامبو - الخيزران.** إلا أن الموت قطع عليه جهوده، قبل أن ينهي كتابه عن **تشـوانغ تسـوChuang Tzu**، وقد تم سرقـه المخطوطة من قبل **كوو هسيانغ Kuo Hsiang**، عالم توفي في سنة 312 ميلادية وأجرى عليها إضافات عدة قبل نشرها كأنها له.

قبل محاولة تفسـير الأسـلوب ومجال **تشوانغ تسـو Chuang Tzu** من خلال

المقتطفات سيكون من الجيد أن نختار من أعماله فقرات عدة تعالج صفات الطاو، في أشــهر فصل له بعنوان **فيضانات الخريف،** الاســم الذي عرف نفسه به، يكتب **تشوانغ تسو** **Chuang Tzu** التالي:-

«الطــاو ليس له بداية وليس له نهاية.» ويقول في مكان آخر، «لا يوجد مكان لا يوجد فيه.» «الطاو لا يمكن سماعه، إذا سمع فهو ليس الطاو، الطاو لا يمكن رؤيته، إن رؤيَ، فهو ليس الطاو، الطاو لا يتكلم، إن تكلم فهو ليس الطاو، ذاك الذي ينقل الشكل إلى أشكال هو نفسه لا شكل له، لذلك لا يمكن للطاو أن يكون له اسم (لأن الشكل يسبق الاسم).»

«الطــاو ليس صغيراً جداً على العظيم وليــس عظيماً على الصغير. وهكذا جميع الأشياء تُحتضن فيه، واسع بالفعل قدرته غير محدودة ولا يسبر غوره.»

«دون أفــكار ودون تأملات يمكن معرفة الطاو. دون أن يرتاح في لا شيء دون أن يتماشى في اللاشيء يمكن أن تقبل على الطاو، من خلال متابعة اللاشيء، ومن خلال ملاحقة اللاشيء، يمكن الحصول على الطاو.»

من خلال هذه الفقرات، وأشــباهها كثر، يمكن أن يكون لاو تســو متعاطف مع تلميذه، إن كان بالإمكان أن نســتخرج أي شيء ثابت من التراث الشــحيح لتعاليم لاو تســو يبدو أننا ســنحصل على هذا، على الإنســان أن يبقى فاقد الحس بإمرة إنفاذ قانون أبدي وكلي الوجود (الطاو) وبالتالي إذا أصبح منســجماً تماماً مع بيئته فسيحرز حالة غامضة من المناعة العامة، أبعد من ذلك لن تأخذنا تعاليم لاو تسو، إلا أن **تشوانغ تسو** **Chuang Tzu**، من خلال مشاكل بسيطة مثلاً قصة سكير يقع من عربة ولا يؤذي نفسه -وهي خرافة عامة منتشرة بين البحارة - لأنه فقد وعيه وبالتالي أصبح متناغماً مع بيئته، انزلق بسهولة إلى صوفية متطورة، في فصله الرائع بعنوان **هويــة المتناقضات،** من وجهة نظر الطاو كل الأشــياء هي واحد. الإيجابي والســلبي، هذا وذاك، هنا وهناك في مكان مــا ولا مكان، الصح والخطأ، العامودي والأفقــي، الذاتي والموضوعي، تصبح غامضة، مثل الماء في الماء. «عندما يكون الذاتي

والموضوعـــي، كلاهما، دون، مثلاً زمانهما، ذلك يكون المحور الفعلي للطاو. وعندما يمـــر ذلك المحور مـــن خلال المركز الذي يتجمع فيه اللامحدد، فالإيجابي والســـلبي يندمجـــان كلاهما، في الواحد اللامحدود.» إن هذا التموضع في المركز وهذا الواحد المتمثل بالمطلق اللامحدد كان حتى بالنسبة **لتشوانغ تسو Chaung Tzu** حقيقياً أكثر من اللازم، الواحد أصبح الله والمركز، كما تم تعيينه من قبل الكتّاب الطاويين المتأخرين بالنجم القطبي (أنظر الكتاب الرابع، الفصل الأول)، أصبح مصدراً للحياة كلها والمأوى الذي عادت له مثل هذه الحياة بعد أن مكثت على الأرض من خلال تجاهل فروق المتناقضات يجري «تطويقنا في وحدة الله المبيدة. لا تستمع للزمن، ولا للصـــح والخطأ ولكن إمضِ إلى المدى اللامحـــدود واجعل مكان راحتك الأبدية هناك.»

إن تكون فكرة الحالة المســـتقبلية غير المحددة معروفة في عقل **تشـــوانغ تســـو** Chuang Tzu يمكن تجميعها من الفقرات كالتي أدناه:-

«كيف إذاً سوف أعرف أن الموتى سيتوبون لأنهم تمسكوا بالحياة سابقاً؟»

«أولئـــك الذين يحلمـــون بالمأدبة يفيقون عـــلى النحيب والحـــزن. أولئك الذين يحلمـــون على النحيب والحزن يفيقون على الانخـــراط في صيد الطرائد، بينما هم يحلمون فهم لا يعرفون أنهم يحلمون. البعض منهم ســـيقوم بتفســـير الحلم ذاته الذي يحلمون، وفقط عندما يســـتيقظون يعرفون أن ذلك كان حلماً. رويداً رويداً تأتي اليقظة الكبرى، وعندما نكتشـــف أن هذه الحياة هي فعلاً حلم كبير. المجانين يعتقدون أنهم مســـتيقظون الآن، ويمدحون أنفســـهم لأنهم يعلمون إن كانوا حقاً أمراء أو فلاحين، كونفوشـــيوس وأنت كلاكما حلم، وأنا الذي أقول أنكم حلم، ما أنا إلا حلم كذلك.»

ينتهي الفصل بفقرة منحت كاتبها كنية إضافية **فراشـــة تشوانغ-Chaung But-terfly**.

«في مرة، أنا تشـــوانغ تسو حلمت أنني فراشـــة، ترفرف هنا وهناك، صدقاً كنت

فراشــة، كنت واعياً فقط في تتبع خيالي كفراشة ولم أكن واعياً لذاتي كإنسان، فجأة اســتيقظت وهناك تمددت، أنا نفسي مرة أخرى. والآن أنا لا أعرف إن كنت وقتها إنساناً يحلم أنني كنت فراشة، أو إن كنت الآن فراشة أحلم أنني إنسان».

تشوانغ تسو Chaung Tzu معجب بالمفارقات، وهو يسر جداً في المكوث على منفعة الأشــياء غير النافعة، ويبرهن أن الشجر الذي لا ينمو بشكل جيد أو الشجر الأقل جودة يســمح لها بالوقــوف، وأن الخنازير المريضــة لا تذبح للتضحية، وإن الأحدب لا يمكن إلا أن يعمل حياة جيدة من خلال الغســيل بينما الجسد المنحني لا يشكل مثلبة لكن ينجو به من كتيبة التجنيد المرعبة في زمن الحرب.

وبمقتطفات مصورة قليلة علينا أن نســتودع تشــوانغ تســو، الكاتب الذي على الرغــم من طريقته في أعين الكونفوشيوســيين لطالما كان محترفــاً جداً لخفة ظله الحادة وأسلوبه الساحر.

1. «كان الوقــت وقت الفيضانات بالخريف، كل جدول كان يصب في النهر الذي هــاج في مجراه العكر. وضفاف النهر انحسرت عن بعضها البعض مما كان من غير الممكن أن تفرق البقرة عن الحصان.

«وقتهــا، **روح النهر** ضحكت لسرورها من أن كل جمال الأرض اجتمع لها. ونزولاً مع الجدول ذهب إلى الشرق حتى وصل المحيط، هناك نظر باتجاه الشرق وعندما لم ير حدوداً لموجه تغيرت أســاريره. وبينما هو يحملق باتساعه الرحب تنهد وقال **روح المحيط**، يقول مثل بذيء أن من يســتمع إلى جــزء من الحقيقة يعتقد أن لا أحد يجاريه، ومثل ذلك المسيء هو أنا.

«وعندما سمعت سابقاً أن الناس ينتقصون من تعاليم كونفوشيوس، أو يستهزؤون مــن بطـولة **بو أي Po I**، لم أصــدق ذلـك، أمــا الآن وقـد رأيـت عـــدم نـضـوب مـواردكـم-ويل لي كيف لم أصل إلى دياركم، أكان علي أن أكون دائماً وأبداً اضحوكة لهؤلاء المتنورين الشاملين!

«وقـد أجابتها روح المحيط،' لا يمكنك أن تتحدث عن المحيط مع حيوان شـديد الـبرودة – المخلـوق الذي يأتي مـن مجال أضيق. لا يمكنـك أن تتحدث عن الثلج مـع حشرة الصيف – مخلوق الموسـم لا يمكنك أن تتحدث عن الطاو إلى شـخص متحذلـق فمجاله محدود جداً. أما وقد خرجت من الدائرة الضيقة ورأيت المحيط الواسـع فقـد عرفت تفاهتـك، يمكنني أن أتحـدث معك عن المبـادئ العظيمة.

2. «لم تسـمع أبـدا عـن الضفـدع، في البـئر القديم؟ قـال الضفدع لسـلحفاة البحـر الشرقي،'حقـاً أننـي مبسـوط! أنا أقفـز فوق الحاجـز حول البـئر، وأنا أرتـاح في فجـوة إحـدى الطوبات المكسـورة، أما بالسـباحة، فإننـي أجمع الماء تحـت ذراعـي، وأغلق فمـي، وأغوص في الوحـل دافنـاً قدمي وأصابـع رجليَّ، ولا يشـكل أي واحـد مـن الأصـداف البحريـة، والسـلطعونات والشراغـف[12] الذيـن أجدهم حـولي، ندا لي (الزهو ينقر سـعادة البئر العتيقة، يقذف **تشـوانغ تسـو Chuang Tzu** عـلى كل ميـاه المحيط!) لمـاذا لا تأتي يا سـيدي لزيارتي؟[13]

«لم تكد سـلحفاة البحر الشرقي أن تنزل رجلها اليـسرى حتى التصقت اليمنى، فانكمشت وطلبت أن يتم إعفاؤها، بعد ذلك أخذت تصف البحر قائلة،'»إن الألف لي لا تقيس عرضه ولا الألف تتنبأ بعمقه. في أيام أو **Yu** العظيم كان هناك تسـع من عشرة سنوات من الفيضانات، لكن ذلك لم يضف إلى حجمه، في أيام سلالة **تانغ Tang** حصلت هناك سبعة من ثماني سنوات من الفيضانات لكن ذلك لم يضيق أمده. لم يتأثر من دورة الزمن، ولم يتأثر من حجم الماء-هكذا هي سعادة البحر الشرقي. '

---

12 فرخ الضفدع / المترجم.

13 «إلى سمك المنوة الصغير، كل شق وحصى ونوعية وحادثة تصدم الينبوع المحلي الصغير ربما أصبح مفهوماً لكن هل سمك المنوة الصغير يفهم المد والجزر للمحيط والتيارات الدورية، والرياح التجارية والمونسون الخماسين وخسوف القمر...؟» – Sartor Resortus, Natural Supernaturalism.

«سارتور ويسارتوس» تعني الخياط يخيط مرة أخرى هي قصة بقلم توماس كار لايل صدرت في عام 1836 بعد أن نشرت كمسلسل بين الأعوام 1833-1843 في مجلة فريزر - المترجم).

«وعنـد هذه النقطة، كانت ضفدع البئر مندهشـة جـداً ولم تعرف ماذا تقول. وواحد لم يصل علمه إلى النطاق الإيجابي – السـلبي يحاول أن يفهمني **فتشـوانغ تسـو Chuang Tsu** يشبه البعوضة التي تحاول حمل الجبل أو مثل النملة التي تحاول أن تسبح في النهر- كلاهما لا يستطيع النجاح.»

3. «كان **تشوانغ تسو Chuang Tzu** يصطاد السمك في نهر **بو Pu** عندما أرسل له أمير **تشو Chu** موظَّفين ساميا المستوى ليسألاه تولي مسؤولية الإدارة في دولة **تشو Chu.**

«استمر تشوانغ تسو بصيد السمك، وقال دون أن يدير رأسـه، سـمعـت أن في **تشـو Chu** هناك سلحفاة مقدسة ماتت منذ ثلاث آلاف سنة، وبأن الأمير يحتفظ بالسلحفاة بعنايـة مغلق عليها في صندوق عـلى مذبح هيكل آبائـه، والآن هل ترغب هذه السلحفاة أن تكون ميتة وترى بقاياها محترمة أو أن تكون حية وتهز ذنبها في الوحل؟»

«أجاب الموظفان الساميان، «إنها تود أن تكون حية وتهز ذنبها في الوحل.»

«فصاح بهما **تشـوانغ تسـو Chuang Tzu** «انصرفا أنا أيضـاً أرغب بهز ذنبي في الوحل.»

4. رأى **تشوانغ تسو Chuang Tzu** في يوم من الأيام جمجمة فارغة، مبيضة ولكنها لا تزال تحتفظ بشكلها. بعد أن ضربها بكرباجة قال «ألم تكوني مرة مواطناً طموحاً جلبته أشواقه الجامحة إلى هذا الوضع؟ - أو رجل دولة أغرق بلدة بالخراب وهلك في الاشـتباك؟ - أو بائساً ترك وراءه تركة من العار؟ أو شحاذاً مات من آلام الجوع والبرد؟ أم هل وصلت إلى هذه الحالة من خلال المجرى الطبيعي للشيخوخة؟

«عندما انتهى من الحديث، تناول الجمجمة فوضعها تحت رأسـه كمخدة ونام. في الليل حلم أن الجمجمة ظهرت له وقالت، أنت تتكلم جيداً يا سـيدي، لكن كل الذي قلته له علاقة بحياة البشر وبمشـاكل البـشر، في الموت لا يوجد أي شيء من ذلك، أتود أن تسمع عن الموت؟

«بعد أن أجاب **تشوانغ تسو Chuang Tzu** بالإيجاب، بدأت الجمجمة بالحديث

قائلة:- «في الموت لا يوجد هناك صاحب سلطان فوق ولا مرؤوس تحت. فوجودنا فقط مرتبط بالأبدية، إن سعادة ملك من الملوك بين الناس لا يمكنها أن تفوق ذلك الذي نستمتع به.»

«إلا أن تشوانغ **تسو Cuang Tzu** لم يقتنع وقال هل لو تغلبت على الله ليسمح لجسـده أن يوجد من جديد ويجدد عظامك ولحمك حتى تتمكن من العودة إلى والديك، وإلى زوجك، ولأصدقاء شبابك، هل ستكون مستعداً؟

«وعندما وصل إلى هنا، فتحت الجمجمة عينيها وقطبت حاجبيها وقالت «كيف يمكنني أن أرمي سـعادة أعظم من سـعادة الملك واختلط مرة أخرى مع الأعمال المتعبة ومشاكل البشر.

5. «العـراف الأكـبر لابسـا ثوبه الاحتفالي اقـترب من الخرائـب وهكذا خاطب الخنازير:- «وكيف ترفضون أن تموتوا؟ سـوف أسـمنكم لمدة ثلاثة شـهور. سوف أهذب نفسي لمدة عشرة أيام وأصوم لمدة ثلاثة أيام. سـأنثر حشيشـاً ناعماً وسوف أضعكم جسديا على سدر منقوش للأضاحي ألا يرضيكم هذا؟.

«ثم تحدث من وجهة نظر الخنازير فأردف قائلاً، ربما أنه من الأفضل أن تعيشوا على النخالة وتهربوا من الخرائب...

«وأضـاف قائلا متحدثاً مـن وجهة نظره هو: «أما الآن فإمـا أن تتمتع بالشرف وأنت حيّ لأن الإنسان سيموت عن طيبة خاطر على ترس واقٍ أو في سلة السياف.

«وهكذا رفض وجهة نظر الخنازير وتبنى وجهة نظره هو. وبالتالي كيف يختلف عن الخنازير؟»

6. «عـندما كان **تشوانغ تسوChuang Tzu** على فـراش المـوت أعـرب تلامـذته عن الرغبة بـعمل جـنازة فـخمة لـه. لـكن **تـشوانغ تـسو Chuang Tzu** قال، «السـماء والأرض لتابوتي وأرسـل مع الشـمس والقمر والنجوم كفناً لدفني ودع كل المخلوقات، ترافقني إلى القبر، - أو ليسـت لوازم الدفن جاهزة للتسـليم؟

«وناقـش التلاميـذ قائلـين «إننا نخاف أن تنهـش الحدأة آكلة الجيف، جسـد معلمنا»، فأجابهم **تشـوانغ تسـو Chuang Tzu** على ظهر الأرض سأكون طعاماً للحراريش والنمل، فلماذا تسرقون الواحد لتطعموا الآخر.

يمكـن الحصـول على أعمال **لييه تسـو Lieh Tzu** في مجلديـن نحيفين من أي مكتبة صينية. هذان المجلدان يدعيان أنهما يتضمنان كتابات الفيلسـوف الطاوي الذي اشـتهر عدة سـنوات قبل **تشوانغ تسـو Chuang Tzu**، ولفترة طويلة من الزمـن حظيا باهتـمام بالغ على أيدي الطلاب الأوروبيـين، الذين لم يدر بخلدهم أي شـك في سـمتهما الحقيقية. تدريجياً بدأ الشـك يحوم حولهما، ثم على أنهما مزيفـان والآن أصبح من المعروف أنهما زورا، ربما في القرن الأول أو الثاني الميلادي، فالعـالم – وهو بالتأكيد كان واحداً- الذي أخذ على عاتقه أن يزوِّر هذا العمل كان نفسـه ضحية لاحتيال غريب. وكان يعتقد أن **لييه تسو Lieh Tzu** الذي كرس له **تشـوانغ تسـو Chuang Tzu** فصلاً كاملاً، كان فيلسوفاً حياً من لحم ودم. لكنه لم يكـن في الواقع سـوى شيء مختلق من الخيال مثل الكثير غيره من شـخصيات **تشـوانغ تسوChuang Tzu**، إلا أن هذا الاسم كان أقل عمومية **من أولئك الذين يتـمادون – أو مجموعـة «لا تفعل – شـيئاً – لا تقل – شـيئاً،»** وغيرها. الكتاب المنسوب له غريب حقاً أن يحظى بالاهتمام. إنه في مرتبة فكرية وأسلوب أدنى من أعمال **تشوانغ تسوChuang Tzu**، ومع ذلك، الكتاب يتضمن أموراً تقليدية كثيرة وكثير من التلميحات التي لا توجد في أي مكان آخر. ونحن مدينون للكاتب بقصة، بالطبع مختلفة، عن لقاء كونفوشـيوس مع ولدين يتشاجران حول مسافة الشمس عـن الأرض. أحدهما قال أنه عند الفجر تكون الشـمس أكبر بكثير منها في الظهر وبالتالي يجب أن نكون أقرب كثيراً، لكن الآخر أجابه أنه عند الظهر تكون الشمس أكثر حرارة وبالتالي تكون أقرب منه عند الفجر. واعترف كونفوشيوس بعدم مقدرته على أن يحكم بينهما فاستهزأ به الولدان على أنه دجال، ولكن من كل هذا العمل ربما تكون القطعة الأكثر جاذبية هي القصة القصيرة بعنوان **الحلم والحقيقة:-**

رجل من دولة **تشنغ State of Cheng** خرج يوماً ما ليجمع المحروقات ففوجئ

بغزال مذعور فلحق به وقتله. ولأنه كان خائفاً أن يراه أحد أسرع بإخفاء الجثة في خندق وغطاها بأوراق نبات عشبي كبير.

وفــرح كثيراً بحظه الجيد، وتدريجياً نسي المكان الــذي وضع فيه الجثة، واعتقد أنــه يجب أن يكون حلماً وأخذ طريقه إلى البيــت وأخذ يدندن حول الموضوع في الطريق.

«وفي هــذه الأثناء، أنصت رجل إلى كلماته فذهب وأخــذ الغزال. فالآخر عندما وصــل إلى البيت أخبر زوجتــه وقال لها أن'حطاباً حلم أن عنده غزالاً لكنه لا يعلم أين هو. الآن أنا عندي الغزال وبالتالي أصبح الحلم حقيقة.»

أجابــت زوجتــه:'إذا أنت هو الــذي كان يحلم أنه رأى حطابــاً. هل حصل على الغــزال؟ وهل هناك فعلاً مثل هذا الشــخص؟ إنه أنت الذي أخــذ الغزال: كيف بالتــالي يكون حلمه حقيقــة؟' حقاً كما تقولين، 'وافقها زوجهــا 'أنا عندي الغزال. فبالتالي لا يهم إذاً، إن كان الحطاب حلم بالغزال أم أنا حلمت بالحطاب.»

«وعندما وصل الحطاب إلى بيته انزعج جداً على خسارته لغزاله؛ وفي الليل حلم فعــلاً أين كان الغــزال وقتها ومن هو الذي أخذه. وبالتــالي ذهب في صباح اليوم التالي إلى المكان المشار إليه في حلمه. وهناك كان، فاتخذ بعد ذلك خطوات قانونية لاســترجاع الملكية، وعندما حل وقت المحكمة أطلق القاضي الحكم التالي:- المدعى بــدأ بغزال مزعــوم. المدعى عليه عنده حقاً الغزال الــذي قال المدعي أنه حلم به وهــو الآن يحاول الاحتفاظ به، بينما وفقاً لزوجته فــكلا الحطاب والغزال ما هما إلا أكاذيــب حلم، حتى لا أحــد يأخذ الغزال قطعياً. ولكن هنا يوجد غزال الأفضل لكليكما أن تقتسمانه بينكما.»

هــان فاي تســو Han Fei Tsu المتوفى ســنة 233 قبل الميلاد، ترك لنا خمســة وخمســين مقالة لها قيمــة كبيرة جزئياً من ناحية إلقائهــا الضوء على الروابط بين الأقــوال الحقيقية للاو تســو والطاو **تي تشــنغ Tao Ti Ching** وجزئياً أيضاً على الرسومات التوضيحية العجيبة التي يعطيها لمعنى الأقوال نفسها. لقد كان متعمقاً

في القانــون وحصــل على الحظوة في عينــي الإمبراطور الأول (أنظــر الكتاب الثاني الفصل الأول)، إلا أن تحريفات منافســيه جلبت له السقوط فانتحر في السجن. لا يمكننا أن نتخيل أنه كان أمامه **الطاو تي تشــنغ Tao Te Ching**. إنه يعالج الكثير من أفضل أقوالها التي قد تكون أتت أصلا من معلم أصيل، مثل لاو تسو الذي كان من المفروض أن يكون، لكن بشكل عشوائي، وليس لو كان أخذها من عمل منهجي. وأكــثر من ذلك، فقد أخذت أجزاء من تعليقاته طريقها إلى **الطاو تي تشــنغ Tao Te Ching** كنــص، مظهرة كيف جُمع هذا الكتاب مــن مصادر متعددة. وكذلك أنه يقتبس جملا غير موجودة في **الطاو تيه تشــنغ Tao Te Ching**. ويشرح قولاً بســيطاً مثل هذا قائلاً «أن ترى البدايات الصغيرة هو الوضوح في الرؤيا،» - عندما تلفت الأنظار لرجل تنبأ عندما بدأ الطاغية **تشو هسن Chou Hsin** المتوفى سنة 1122 قبل الميلاد اســتخدم عيدان الأكل المصنوعة من العاج، من أن زمن الرفاهية قد حل، جالباً معه الإباحية والقساوة في أثرها ولينتهي إلى السقوط والموت.

قال لاو تســو، «اترك الأشــياء تأخــذ مجراهــا الطبيعي.» ولهــذا القول أضاف هان **فاي تســو Han Fei Tsu** «قضى رجل ثلاث ســنوات وهو يحفر ورقه شــجر مــن العاج وكانت من الحســن والإتقــان التفصيلي أنها تكون مرميــة دون انتباه لهــا في كومــة من الورق الحقيقي، لكن **لييه تســو Lieh Tzu** قــال: إن كان الله العظيم ســيقضي ثلاث سنوات على كل ورقة فسيتوقف الشجر عن إعطاء الظل.»

قال لاو تســو، «إن الرجل الحكيم يأخذ الوقت لترتيب خصلة الشــعر.» أضاف **هان فاي تســو Han Fei Tzu** «في يوم من الأيام قال طبيب البلاط **للدوق هوان Duke Huan**، يا صاحب السعادة أنتم تتألمون من النظام العضلي. خذ حذرك أو أنها ستصبح مشكلة جدية، «لا» قال الدوق،'أنا لا أعاني من أي شيء.» وعندما غادر الطبيب قال لجلســائه، الأطباء يحبون أن يعالجــوا مرضاهم غير المرضى، ويجنون الأمــوال من الــدواء. 'بعد عشرة أيام علق ثانية طبيب البلاط، 'يا ســعادتكم أنتم تغوون اللحم، احذر أو أنها قد تتحول إلى مشــكلة عويصة، لم يولِ الدوق اهتماماً بهــذا، لكن بعد عشرة أيام لاحظ الطبيب مرة أخرى فقال، «يا ســعادتكم عندكم

وجع في الأمعاء، احذر أو أنها ستصبح مشكلة عويصة،» ولم يلقي الدوق الاهتمام مرة أخرى، بعد عشرة أيام، عندما أتى الطبيب، فقد نظر إلى مريضه الملكي وغادر دون أن يقول شيئاً. أرسل الدوق أحدهم ليستفسر ما المسألة، فقال الطبيب له «ما دام المرض لم يزل في العضل كان يمكن مواجهته بالتهييج وباستخدام التطبيقات الساخنة، عندما كان المرض في اللحم فالوخز بالإبر الصينية قد ينفع، وما دام الوجع في الأمعاء كان من الممكن معالجته بالكي، أما الآن فهي في العظم والنخاع، ولا شيء ينفع معها، بعد خمسة أيام شعر الدوق بالآلام تنتشر في كل جسمه وأرسل من ينادي طبيبه، إلا أن الطبيب قد هرب والدوق مات، وبالتالي الأطباء المهرة يهاجمون المرض ما دام في العضل وأسهل التعامل معه.

في النهاية، لكي تنظف هذه المدرسة من الكتاب الطاويين سيكون من الضروري أن تدخل واحداً من الذين كانت حياتهم تخص المرحلة المقبلة. **ليو آن Liu An**، حفيد مؤسس سلالة هان، أصبح أمير **هواي نان Huai Nan**، وعرف هذا باسم **هواي نان تسو Huai Nan Tzu** فيلسوف على شاكلتهم، وبهذا الاسم عرفه الشعب الصيني، كتب كتاباً باطنيا من واحد وعشرين فصلا، من المفروض أنه لا يزال بحوزتنا إلى جانب كثير من الأعمال الباطنية الأخرى مثل مقالة في الكيمياء القديمة التي لا تزال موجودة. إنه من المؤكد تقريباً أن الكيمياء القديمة لم تكن معروفة لدى الصينيين حتى قرنين أو ثلاثة لاحقاً، عندما أدخلت من الغرب، أما بالنسبة للكتاب الذي اقترن باسمه، فمن الصعب تحديد تاريخ له. مثل أعمال **لييه تسو Lieh Tzu** إنها مثيرة للاهتمام بحد ذاتها، والأهم من ذلك أنها تحدد انتقال طريق لاو تسو النقي والبسيط، الذي حوله **تشوانغ تسو Chuang Tzu** إلى سماوي إلى المعتقدات الفظة. للعصور اللاحقة من السحرة واكسير الحياة. حث لاو تسو أتباعه من البشر أن يحرسوا حيويتهم من خلال التناغم مع بيئتهم. أضاف **تشوانغ تسو Chuang Tzu** دافعاً آخر. «للعبور إلى العالم اللامحدود وتجعل الراحة الأبدية هناك،» والتي تشكل خطوة إلى الخلود ولاكسير الحياة.

يبدأ **هواي نان تسو Huai Nan Tzu** بمقالة طويلة «حول طبيعة الطاو،» التي

يعالج فيها، كما في أماكن أخرى، أقول لاو تسو على طريقة هان فاي تسو. وهكذا قال لاو تسو، «أن لا تقاتل لا يوجد أحد على الأرض يمكن أن يتقاتل معك.» وعلى هــذا القوة يضيف **هواي نان تســو Huai Nan Tzu** عندمــا كان الحاكم الفلاني يحاصر بلدة تابعة للأعداء، وقع جزء كبير من السور، وبناء على ذلك أعطى حاكمها الأوامر للانسحاب فوراً. فقال الأول رداً على احتجاجات ضباطه» أن الرجل المحترم لا يضرب أبداً رجلا وقع أرضاً، دعهم يعيدون بناء ســورهم وبعدها نعيد الهجوم، هذا التصرف النبيل أفرح الأعداء لدرجة أنهم قدموا ولائهم على الفور.

قال لاو تسو، «لا تقيّموا الرجل وإنما قيّموا قدراته.» عند ذلك روى **هــواي نــان تســو Huai Nan Tzu** قصة جنرال من دولة **تشو Chu** الذي كان يحيط نفسه برجال ذوي مقدرة وحتى أنه قام مرة بتشــغيل رجل قدم نفســه على أســاس أنه كبير اللصوص، وقد ذُهل خدمه وهم مندهشــون ولكن بعد فترة وجيزة هوجمت دولتهم من قبل دولة **تشي Chi** وعندما مال الحظ ليس لصالحهم وكل شيء على محك الفقدان، ترجى كبير اللصوص منه الســماح له أن يجرب مهاراته. ذهب ليلاً إلى معســكر الأعداء وسرق ســتائر تخت الجنرال. وقد أعيدت هذه في صباح اليوم التــالي مع رســالة تقول أنه وجدها أحد العســكريين الــذي كان يجمع الوقود. في الليلة نفسها سرق كبير اللصوص مخدة الجنرال التي أعيدت مع الرسالة نفسها، وفي الليلة التالية سرق الدبوس الطويل الذي يؤمن الشــعر، «يا للسماء،» صاح الجنرال في مجلس الحرب،» في المرة القادمة سيأخذون راسي.» وبناء عليه تم سحب جيش دولة Chi.

من ضمن الفقرات التي تلاقي اهتماماً عاماً يمكن أن نقتبس التالي:-

«مرة، عندما كان **دوق لو يانغ Lu Yang** يحارب دولة **هان Han State** واقترب المغيــب بينــما المعركة لا زالت محتدمة، رفع الدوق رمحه وهزه باتجاه الشــمس فتراجعت ثلاث إشارات من دائرة البروج.»

كانــت نهاية هذا الفيلســوف تراجيدية. على ما يبدو أنه تــورط بمهمة خيانية

وبالتالي دفع للانتحار دفعا. تقول التقاليد أنه اكتشف بإيجابية إكسير الأبدية وبعد أن شرب منه، وقف شــامخاً حتى الســماء في وضح النهار. وكذلك، من فرط إثارته أســقط الوعاء الذي يحتوي على هذا الإكسير في ساحة الدار، وأن كلابه ودواجنه- رشفت الرواسب كلها وأبحرت فوراً إلى السماء البعيدة.

الكتاب الثاني

سلالة هان

من 200 قبل الميلاد إلى 200 ميلادية

الفصل الأول
"الإمبراطور الأول" - حرق الكتب - وكتاب متفرقون

لم يكـن أدب أي بلد مطلقاً مرتبطاً عن قرب بالتاريخ الوطني مثلما كان ذاك في الصين منذ بداية الفترة التي نحن على وشك دخولها.

الـروح الإقطاعية تراجعت منذ فترة والرابط بين الحاكم والتابع ضعف باضطراد حتـى توقف عن الوجود. تـم أتت الفرصة والرجل. حاكم دولة **تشـين State of Chin** القوية، بعد أن غلب تدريجياً واسـتوعب دولا مثل الدول المتنافسة التي لم يجر ابتلاعها من قبل دولته، وجد نفسـه في عام 221 قبل الميلاد سـيداً للصين كلها وبالتالي أعلن نفسـه إمبراطوراً لها. سلالة **تشو Chou** بكل ما لها من ثمانمائة سنة من الحكم أصبحت شيئاً من الماضي وذاب النسيج الكامل للإقطاع بسهولة.

هذه الكارثة لم تكن غير متوقعة. قبل حوالي أربعين سـنة نصح سـياسي، يدعى **سـو تاي Su Tai**، في يوم من الأيام ملك **تشـاوChao** أن يضع حداً لعداوته التي لا تنقطع لدولة **ين Yen**. وقال له، «هذا الصباح وأنا أقطع النهر رأيت رخوية من الرخويات تفتح صدفتها لتتشـمس. وفوراً رمى صائد المحار منقاره ليأكل الرخوية ولكن هذه أغلقت صدفتها بسرعة وأمسكت الطائر بإحكام. فصاح صائد المحار إن لم تمطر اليوم أو غداً سـيكون هناك رخوية ميتة. 'فردت عليه الرخوية'وأنت إن لم تخرج اليوم أو غداً سـيوجد صائد محار ميت. 'في الاثناء، جاء صياد سـمك فحمل الاثنين وذهب. فأنا أتخوف أن تكون دولة **تشن Chin** صائدنا.»

كان الإمبراطور الجديد من عدة وجوه رجلاً عظيماً، تطورت الحضارة بشكل كبير خـلال حكمه القصير. ولكن مرسـوماً واحداً كان كافٍ ليلطخ اسـمه بالذل والعار وهذا التلطيخ سـيبقى ما دام الصينيون يعرفون بأنهم شـعب متعلم. في سنة 13 قبل الميلاد جاء وزير مؤتمن يدعى **لي سـو Li Ssu** وقيل أنه اقترح خطة استثنائية

تم بموجبها شــطب إدعاءات العصور القديمة وكأن التاريخ ســيبدأ مرة أخرى من الملك الحاكم وبالتالي سيكون مشهوراً مثل الإمبراطور الأول. جميع الأداب الموجودة سيتم تدميرها فقط باستثناء الأعمال التي تخص الزراعة، والطب، والعرافة؛ ويكون العقاب هو التشهير وأربع سنوات من العمل في بناء **سور الصين العظيم**، الذي كان قد بُدىء بناؤه، والذي تم تشريعه ضد كل من يرفض تسليم الكتب ليتم تدميرها.

وقد نفذت هذه الخطة بكل حماس، تم تدمير الكثير من الكتب الثمينة، وكانت القوانين الكونفوشيوسية قد ضاعت دون إمكانية لإنقاذها لولا وفاء العلماء الذين خبأوا الألواح معرضين أنفسهم للخطر، والذين حفظوها وبالتالي جعلوا من الممكن اكتشــافها في القرن اللاحق وترميمهم للنصوص المقدســة، وعدد كبير من المثقفين قيل أنهم قتلوا بسبب عدم انصياعهم حتى قيل أن البطيخ نما في الحقيقة في فصل الشتاء من كثرة الجثث التي دفنت تحته.

كان لي **ســو Li Ssu** نفسه عالماً ومخترعاً مشــهوراً للخط المعروف باسم **«الختم الأصغر» Lesser Seal** الذي كان شــائعاً لعدة قرون. التالي من حفل في ذكراه ضد إبعاد النبلاء من البلاد والآخرين من الدول المتنافسة:-

كما أن الأكرات الواســعة تنتج غلة كثيرة، فهكذا الأمة التي تريد أن تكون كبيرة، يجب أن يكون عندها شعب عظيم؛ والجنود حتى يكونوا جريئين فعلى ضباطهم أن يكونوا شجعاناً. لم يتم إضافة ذرة تراب سدى إلى جبل **تاي Tai Shan**: بالتالي الجبل الضخــم الذي نراه أمامنا. إن أتفه جدول يتم اســتقباله في حضن المحيط: وبالتالي اتساع المحيط اللجاج. والحاكم الفاضل والحكيم هو الذي لا يعنف الجماهير التي تحته. بالنســبة له لا توجد حدود لمملكته ولا فروقات للقوميات. الفصول الأربعة تجعله أغنى، الآلهة تباركه، ومثل حكامنا القدماء لا تمتد له يد إنســان بالمعاداة.»

مات الإمبراطور الأول في ســنة 210 قبل الميــلاد [14]وابنه العليل، الإمبراطور الثاني، كان قــد قتــل في 207 قبــل الميــلاد مــما أنهــى ســلالتهما. وقد كســب العرش

14 تجدون رواية الضريح الذي بنى لاستقبال رفاته في الكتاب الثالث من هذا الكتاب.

الخالي شـماس سـابق الذي أسـس بيت **هانHan** المجيد الذي مـن أجل ذكراه يفتخـر صينيو هـذه الأيام، وخاصـة في الشـمال، بانتمائهم لأبنـاء **الهان Han.**

ما لبثت أن استقرت الإمبراطورية في سلام نسبي، وبذلت جهوداً خارقة لفكفكة، عـلى الأقل، بعض الـضرر الذي نزل بـالأدب الوطني. أعطى دافـع آخر إلى هذه الحركـة بحقيقة أنه تحت حكم الإمبراطـور الأول، إن كنا نصدق التقاليد، دخلت مـواد الكتابة طور تغيير جذري. أضاف جنرال، يدعى، **منغ تيان Meng Tien** إلى انتصاراته العسكرية، اختراع الفرشاة من وبر الجمل التي يستخدمها الصينيون مثل القلم. إن ألواح البامبو غير الرشيقة والستايلوز أي القليمات أهملت، ووصلت إلينا قطع من القماش أو الحرير تم استخدامها حتى القرن الأول الميلادي عندما اخترع **تسـاي لون Tsai Lun** الورق. البعض يقول أن غبرة الطوب والماء قامت بالواجب بداية مكان الحبر. مهما كان من أمر، إن شـكل الحرف الصيني المكتوب مرّ بتغيير مماثل ليتلاءم مع المواد المستعملة.

في هـذه الاثناء، تم جلب الكتب مـن أماكن تخبئتها وبدأ العلماء مثل **كونغ آن كوKung An Kuo**، أحد أحفاد كونفوشـيوس من الدرجة الثانية عشرة، يعملون على ترميم الكلاسـيكيات المفقودة، وقد قام بتحليل نـص **كتاب التاريخ** الذي تم اكتشـافه عندما هدم البيت القديم الذي عاش فيه سابقاً كونفوشيوس ونسخ منه أجـزاء كبيرة مـن الخط القديم إلى آخر خط. وكتب كذلـك تعليقاً على المختارات وتعليقاً آخر على كتاب **البر بالوالدين الكلاسيكي.**

تشـاو تسـو Chao Tso (هلك في عام 155 قبل الميلاد) الذي كان يعرف بلقبه الشـعبي «شنطة الحكمة» كان رجل دولة عوضاً عن كاتب. ولكن لا تزال كثير من مذكراتـه إلى العرش تعتبر روائع، وقد تم المحافظة عليها لهذا السـبب، كتب عن العمليات العسـكرية ضد **الهون Hun** التي ناشد فيها استخدام القبائل الحدودية «البرابرة الذين يحتاجون إلى الطعام والمهارة متحالفون جداً مع **الهون Hun.**»

وقال أن السلاح هو نقمة والحرب هي شيء مخيف. فبرمشة عين يمكن أن يذل القوي والقوي يذل إلى أسفل الحضيض. في مقالة له بعنوان عن قيمة الزراعة كتب يقول:-

«تبـدأ الجريمة بالفقـر، الفقر بعدم كفايـة الطعام، وعدم كفايـة الطعام يقع في إهـمال الزراعـة. دون الزراعة الإنســان لا يكـون عنده رابـط يربطه بالأرض. دون هـذا الرابـط يغادر هو مـكان ولادته وبيته، فهو يشـبه بذلـك طيور الجو ووحـوش الغابة. لا تحصين المدن ولا الخنادق المائيـة حول الحصون، ولا القوانين القاسـية ولا العقـاب القاسي يمكـن أن يُخضع الـروح الجوالة القويـة التي فيه.

«مَـن يبرد لا يختبر نوعية القماش، من يجـوع لا يتلكأ في اختيار اللحم. وعندما يحل البرد والجوع على الناس تغادرهم الأمانة والحياء. وكما الإنسان مبني على أن يـأكل مرتين يومياً أو يجوع، عليه أن يلبس الثيـاب أو يبرد. وإذا لم تحصل المعدة على الطعام والجسـد عـلى الثياب، فإن حـب الأم الأكثر ولعـاً لا يمكنه أن يبقي أطفالها إلى جانبها. كيف يمكن إذاً لملك أن يحتفظ برعاياه حوله.

«الحاكـم الحكيم يعرف ذلك. لذلك هو يركز جهود شـعبه على الزراعة. يجمع ضرائب بسـيطة، وهو يوسـع نظام حفظ الحنطة لتوفيرها لرعاياه عندما تضعف مصادرهم.

إن اسـم **لي لينـغ Li Ling** (القرنـين الثـاني والأول قبل الميـلاد) معروف لكل تلميـذ صينـي. كان ضابطاً عسـكرياً أرسـل عـلى رأس 800 حصان لاستكشـاف أراضي الهـون Hun، وبعـد أن تكللت جهوده بنجاح في هـذه الحملة تم ترفيعه إلى قيـادة عليا وعمـل أيضاً ضد هؤلاء الجيران المتعبين. وبقوة من خمسـة آلاف جنـدي تغلغل في بـلاد **الهون Hun** حتى جبل **لينغ تـشي Ling Chi(؟)**[15] حيث تمـت محاصرته بجيـش قوامه ثلاثين ألف مـن جنود الخان، وعندما اسـتعملت قواتـه كل أسـهمها كان مجبراً على الاستسـلام. وعـلى هذا استشـاط الإمبراطور غضبـاً، وعندما سـمع لاحقاً أن لينـغ كان يدرب جنود الخان عـلى فنون الحرب كما يمارسـها الصينيـون، قتل أمه وزوجه وأطفاله. بقي لينغ حوالي عشرين سـنة، حتـى وفاته، مع **الهون Hun**، وتم تكريمـه كثيراً من قبل الخان الذي زوّجه ابنته. مع الخائن **لينغ** يرتبط الوطني المعاصر له، **سـو وو Su Wu** الذي لاقى مغامرات

15 علامة الاستفهام موجودة في الأصل / المترجم.

غريبـــة عنـــد **الهون Hun.** مبعوثون صينيون عدة حبســـوا عنـــد **الهون Hun** ولم يســـمح لهم بالعودة، عن طريق الانتقام، مبعوثون من **الهون Hun** تم حبســـهم في الصين. لكن خاناً جديداً أعاد مؤخراً جميع المبعوثين المحبوســـين وفي ســـنة مائة ميلادية أرسل **سو وو Su Wu** في مهمة سلام ليعيد مبعوثي **الهون Hun** الذين تم اعتقالهم من قبل الصينيين. بينما هو في بلاط الخان إذ بزملائه المبعوثين ينتفضون وعلى هذا الأســـاس عملـــت محاولة لإقناعه ليتخلص من ولائـــه ويدخل في خدمة **الهون Hun**، وبناءً على ذلك حاول الانتحار وجرح نفســـه بشـــدة مما استدعى أن يبقى عدة ســـاعات فاقداً للوعي. ولاحقاً قام بذبح خائن صيني بيديه، ثم بعد أن اكتشـــفوا أنـــه لا يمكن إخضاعه، رموا به في الزنزانة وتركـــوه دون طعام لعدة أيام. لكنه بقي حيا بمص الثلج وبقضم سجادة من الشعر، وفي آخر المطاف اعتقد الهان أنه إنســـان غير عادي فأرسلوا به إلى الشمال وجعلوه يرعى الخراف. بعد ذلك أُمر **لي لينغ Li Ling** أن يحاول مرة أخرى من خلال عطايا سخية أن يهز ولاءه الثابت. لكن كل ذلك ذهب ســـدى. في العام 86 عقد ســـلام مع الهـــان وطلب الإمبراطور إعادة **سو وو Su Wu.** على هذا الطلب أجاب الهان أنه توفي، إلا أن مساعداً سابقاً **لسو وو Su Wu** طلب من المبعوث الجديد أن يقول للخان أن الإمبراطور قد أطلق النار على أوزة برســـالة مربوطة في رجلها، ومنها علم مكان المبعوث الضائع. هذه القصة أذهلت الخان لدرجة أن ســـو وو أطلق سراحه، وفي سنة 81 قبل الميلاد عاد إلى الصين بعد أن قضى في الأسر تســـعة عشر ســـنة. لقد ذهب هناك في عز شـــبابه وعاد بعد أن غطى الشيب رأسه وكان رجلاً عجوزاً مكسوراً.

يقـــال أن **لي لينـــغ Li Ling** و**ســـو وو Su Wu** قد تبادلا الأشـــعار عند فراقهما، وهذه يمكن إيجادها مطبوعة في المجموعات تحت اســـميهما تباعاً. بعض الشـــك حام حول واحدة من هذه التي نســـبت إلى **لينـــغ Li Ling** هل هي أصلية أم لا. وقد أظهر **هونغ ماي Hung Mai**، ناقد لامع للقرن الثاني عشر أن استخدام كلمة معينة في القصيدة التي كانت جزءاً من الاســـم الشـــخصي لإمبراطور حديث، كانت في ذلك التاريخ ممنوعة. لا توجد وصمة مثل هذه في شـــعر ســـو وو، الذي أعطى أيضاً زوجته قصيدة للفراق، تم حفظها، بعدها فيها أنه إذا عاش فهو لن يتأخر عن

العودة، وأنه إذا مات فإنه لن ينساها أبدا. ولكن الأشهر بينها كلها ولا تزال نموذجاً عامــاً للطــلاب هي قصيدة كتبها **لي لينغ Li Ling** لســو وو، بعد عودة الأخير إلى الصين رداً على نداء ودود له أن يعود أيضاً. وأن أصالة هذه الرســالة كانت موضع الشك من قبل **سو شيه Su Shih** من سلالة سونغ ولكن ليس من قبل أعظم ناقد حديث، **لن هسي تشونغ Lin Hsi Chung**، الذي أعلن أن المراثي التي فيها تكفي لجعل الآلهة تبكي، وكان لا يمكن أن يأتي من يد أخرى غير يد **لي لينغ**، بهذا الحكم ليكن الطالب الأجنبي راضياً فيما يلي الرسالة:-

«آه يا **تســو تشــنغ Tzu Ching**، آه، يا صديقي، ســعيد في الاســتمتاع بسمعة مجيدة، ســعيد في احتمال اســم لا يفنى، لا يوجد بؤس مثل المنفى في بلاد غريبة بعيــدة، القلب طافح من أفكار الاشــتياق للبيت أنا عنــدي كتابك اللطيف، الذي تحييني فيه، في كلام ألطف من كلام الأخ وروحي تشكرك عليه.

«منذ ساعة استســلامي، حتى الآن محروم من كل المصادر، جلست لوحدي مع مرارة أحزاني، اليوم كله لا أرى سوى البرابرة من حولي، الجلد والشعر تحميني من الرياح والأمطار، لحم الخرفان والمش[16] أسد بها جوعي، وأطفئ ظمأي، كذلك لا يوجد أي رفاق أقضي معهم الوقت. البلد كلها متجمدة بالثلج الأسود، لا أسمع شيئاً سوى عويل ومرارة عاصفة الخريف، التي اختفت بسببها كل حياة نباتية، لا أستطيع النوم ليلا. أدير وجهتي وأســتمع للصوت البعيد، آلات النفخ التتارية، وإلى صهيل الجياد التتارية. في الصباح أجلس وأنصت أكثر، بينما تجري على خدي الدموع، أه، **تســو تشــنغ Tzu Ching** من أي مادة صنعت حتى أعمل لا شيء سوى الحزن؟ إن يوم مغادرتكم تركني حزيناً بالفعل. أنا فكرت بأمي التي شاخت وذبحت على عتبة القبر. وتذكرت زوجتي البريئة وطفلي اللذان أدينا بالقدر نفسه القاسي. ومع أنني أستحق الحكم الإمبراطوري إلا أنني أصبحت الآن موضوع شفقة للجميع. إن عودتكم هي فخر وشــهرة، بينما بقيت هنا يكللني الخزي والعار. هكذا يتباعد مصير الإنســان.

«ولــدت في عالم من التهذيــب والعدالة، وسرت إلى بيئة من الجهل الخســيس،

16 المش هو المخيض/ مخيض اللبن/ الحليب الرائب.

وتركــت ورائي التزاماتي تجاه مليكي والعائلة مقابل العيش وســط جحافل البرابرة. والآن فــإن أطفال البرابرة ســيكملون العمل في خطى أجــدادي. وبالرغم من ذلك فإن جدارتي كانت عظيمة وذنبي ليس كبيراً. لم أحصل على جلسة استماع منصفة، وعندما أتوقف لأفكر في هذه الأمور فإني أتساءل لأي غرض عشنا؟ وباندفاعة واحدة كان بإمكاني أن أزيل عن نفسي أي ملامة: إن حنجرتي المفصولة كانت ستشــهد لي بتصميمي، وسينتهي كل شيء بيني وبين بلدي، لكن هل أقتل نفسي، ذلك سيذهب ســدى: ما كنت سأضيف شيئاً ســوى العار. فوجهت نفسي على الذم والقدح وإلى الحيــاة في غياب الثقة، يوجد هؤلاء الذين أســاؤوا فهــم توجهي للطاعة، وحثوني لانتهاج مسار النبل، وجهلوا أن الفرح في بلاد أجنبية هو مصدر فقط لزيادة الحزن.

«آه، **تســو تشــينغ Tzu Ching**، آه يا صديقي، أنا سأتم السجل الناقص لقصة حياتي الســابقة. لقد كلفني جلالة المرحوم، مع خمســة آلاف جندي مشــاه تحت قيادتي، لأقوم بتنفيذ عمليات في بلد بعيد، خمسة جنرالات إخوة ضلوا الطريق: أنا وحدي وصلت مسرح الحرب، وبتموين لمسيرة كبرى قدت رجالي، وتخطيت حدود الأرض السماوية، ودخلت أراضي **الهون Huns** الأشداء، بخمسة آلاف رجل وقفت في مواجهة مائة ألف: كان الجنود المشاة مرهقين، وفرسانهم نشيطين خارجين للتو مــن اصطبلاتهم. ومع ذلك فقد ذبحنا قادتهم وأخذنا راياتهم وبيارقهم وطردناهم إلى الشــمال قهقهري وهم في ارتباك شــديد. ومحونا آثارهم: فقد اجتحناهم مثل الغبار: وقطعنا رأس جنرالهم. وانتشرت روح عســكرية بين رجالي. الموت معهم في المعركة كان عودة إلى بيوتهم، بينما أنا – تجرأت على التفكير أنني حققت شيئاً ما.

هذا الانتصار تبعه سريعاً انتفاضة عامة للهون، وتم تدريب رجال على استعمال الســلاح، وفي نهاية المقام تم اصطفاف مائة ألف من البرابرة ضدي. وزعيم الهون، بنفســه، ظهر مع جيشــه هذا وحاصر مجموعتي الصغيرة، التــي لا تتكافأ معهم بالقوة، جنود مشــاة ضد أحصنــة، بالرغم من ذلك، فإن محــاربي المنهكين قاتلوا، فالرجــل منهم يســاوي ألفاً من الأعــداء، إذ أنهم مليئون بالجــراح، الواحد منهم وجميعهم، قاتلوا بشجاعة إلى الأمام، وكان السهل منثوراً بالذين يحتضرون وبالموتى: بالــكاد ترك مائة رجل، وهــؤلاء كانوا ضعفاء جداً لم يســتطيعوا أن يحملوا الرمح

والدرع، بالرغم من ذلك عندما لوحت بيدي وصرخت لهم نهض المرضى والجرحى. لوحوا بنصلات رماحهم وصوبوا باتجاه العدو وطردوا خيالة التتار كأنهم مجموعة مـن الرعاع. حتى عندما بترت أيديهم، أو أسـهمهم نفذت كلهـا، وبعد أن فقدوا أرجلهـم الصلبة وأيديهم، تدفقـوا صائحين إلى الأمام، كل منهم يرغب أن يكون في الطليعة، ويبدو أن السـماء نفسـها والأرض كذلك بدت وكأنها تجتمع حولي، بينما كان محاربيّ يشربون دموعاً من الدماء. كان زعيم **الهون Hun** الذي كان يعتقد أنه يجب علينا أن لا نستسـلم على وشك سحب قواته. لكن خائناً مخادعاً أخبره بكل شيء: المعركة استؤنفت ونحن ضعنا.

«حوصر الإمبراطور **كاو تي Kao Ti** وفي ظهره ثلاثمائة ألف رجل في **بينغ تشـنغ Ping Cheng**. وكان عنـده جنرالات مثل الغيوم، ومستشـارون مثل نقاط المطر. إلا أنه بقي لمدة سـبعة أيام دون طعام وبالكاد نجا بحياته. فكم بالحري أنا، وقد لامـوني من كل حـدب وصـوب لأننـي لـم أمت. كانت هذه جريمتي. آه، **تـسـو تـشـنغ Tsu Ching**، ألا يمكنك أن تقول أنه يمكنني أن أعيش من أن أَجْبُن؟ هل أنا واحد يدير ظهره إلى بلاده ولكل أولئك الأعزاء علي، مخدوع بأفكار منحطة من الربـح؟ لم يكن حقاً دون سـبب أنني اخترت ألا أمـوت. لقد تُقت، كما شرحت في رسـالتي السابقة أن أبرهن ولائي لأميري، وعوضاً عن أن أموت دون هدف، اخترت أن أعيش لأبني اسـمي الجيد. لقد كان من الأفضل أن أحقق شيئاً من أن أفنى. في القديم، لم يقم **فان لي Fan Li**، بذبح نفسه بعد معركة **هوي تشي Hui Chi**، كما أن **تساو مو Tsao Mo** لم يمت بعد عار هزائم ثلاثة. في النهاية تحقق الثأر، وهكذا أنـا أيضاً أملت بأن أنتصر. إذا آخذ بالعقاب قبل أن تسـتكمل الخطة؟ لماذا أُدين لحمي ودمي قبل أن تسـتكمل الخطة؟ إنه بسـبب هذه أرفع وجهي نحو السماء وأضرب على صدري وأسكب دموعاً من دم.

«آه يـا صديقي، أنت قلت أن سـلالة **الهـان House of Han** لا تقصر البتة في مكافأة خادم يسـتحق. ولكنك أنت خادم هذه السـلالة، وسـوف لن يناسبك أن تقول كلاماً غير هذا. أما **هسـياو Hsiao وفان Fan** ربطوا بالسلاسل، **وهان Han وبنغ Peng** سلخوا حتى ماتوا **وتشاو تسو Choa Tso** قطع رأسه. **تشو بو Chou**

تــم ذمه، **وتو بينغ To Bing** دفع حياتــه ثمناً للعقوبة. وغيرهم، كانوا عظماء في جيلهم، استسلموا لدســائس الرجال الحقيرين ودحروا تحت ثقل العار الذي لم يستطيعوا الخروج منه، أما الآن، فإن سوء الطالع الذي حل **بفان لي Fan Li وتساو مو Tsao Mo** هيمن على عواطف الجميع.

ملأ جدي السماء والأرض شهرة بمناقبه - أشجع الشجعان. لكن لأنه كان متخوفاً من عداء محظية امبراطورية قتل نفســه في بلد بعيد، وقد تبع موته، انسلاخ عدد من الأخوة الأبطال باشمزاز. هل من الممكن أن يكون هذا، مكافأة الذين تتحدث عنهم؟

«أنــت أيضاً يا صديقــي، كنت مبعوثاً بعدة ضئيلة في تلــك المهمة إلى عِرق من اللصوص عندما خذلك الخط حتى آخر مورد. ثم أن سنوات الأسر البائسة جميعها انتهت بالموت بين وحوش الشــمال البعيد. فأنت تركتنا مليء بالحياة الشابة لتعود إلينا رجلاً مســناً أشــيب اللحية، أمــك العجوز ماتت وزوجك تركتــك لتأخذ آخر. وقليــل ما عرف مثل هذا علناً، حتى البرابرة المتوحشــون احترمــوا روحك الوفية: فكم بالحري ســيد كل شيء تحت قبة الســماء؟ كان يجب أن تكون لك بارونيات مــن عدة أكرات، وأن تكون حاكماً على إقطاعية من آلاف العربات المجرورة. رغم ذلك يقولون لي أنها كانت مليونيتين سخيفتين ومستشارية دولة من **الدول التابعة.** ولا حتــى قدم في التراب يعوضك عن الماضي، بينما يحصل أصحاب البطانة المدللين أراضي المركيــزات من النبلاء التي تتســع لعشرة آلاف عائلة بينما يرضى كل طفيلي جشع في البلاط الإمبراطوري بالمناصب الأفضل في الدولة. إن كان هذا يناسبكم ماذا بإمــكاني أن أتوقــع؟ ولقد دفعت غالباً الثمن لأنني لم أمــت، وأنت تمت مكافأتك ببخــل لقاء ولائك الثابت لأميرك. وهذا بالكاد ســيجذب الخــادم الغائب إلى أرض آبائه.

«وهكــذا هو الأمر إذن: إنني غير نــادم على الماضي، وقد أكون قصرت في الإيفاء بالتزامــاتي إلى الدولــة، لكن الدولة قد قصرت في التعبير عــن امتنانها لي. وقد قيل قديماً «إن الشــخص الــوفي، بالرغم من أنه ليس بطلاً، ســيفرح أن يموت من أجل

بلده.» وأنا مستعد أن أموت بفرح حتى الآن؟ لكن لطخة عدم الوفاء من أميري لا يمكن أن أقدر على مسـحها قط. حقيقة، الرجل الشـجاع إذا لم يسمح له أن يصنع له اسـماً لكان عليه أن يموت مثل كلب في بلاد البرابرة، من سـيوجد ليحني الظهر وليثني الركبة أمام العرش **الإمبراطوري** حيث أقلام الخدم السيئة تخبر عن قصصهم الكاذبة؟

«آه يا صديقي لا تبحث عني أكثر. آه يا **تسـو تشـينغ Tsu Ching** ماذا أقول؟ أكـثر مـن ألف لي تفصلنا عن بعض إلى الابد. سـأعيش حياتي كما لو كانت في عالم آخر: وروحي سـتجد مكان راحتها بين شـعب غريب. اقبـل وداعي الأخير. تكلم بإسـمي لمعارفي القدماء واطلب إليهم أن يخدموا مليكهم جيداً. آه يا صديقي كن سعيداً في حضن عائلتك ولا تفكر فيّ بعد الآن. احرص على أن تهتم بنفسك، وعندما يسمح الوقت والفرصة تلوح اكتب لي مرة أخرى رداً على هذه الرسالة.

«لي لينغ يحييك.»

أحد النماذج الصينية لمسـاعدة الذات المشار إليها في **سان تسو تشينغSan Tsu Ching** هو أسـتاذ المدرسة الابتدائية الشهير، والذي سوف نصفه فيما بعد، **لو ون تسو Lu Wen Shu** (القرن الأول قبل الميلاد). ابن سجان القرية أرسله والده ليرعى الخـراف، وفي هذه المهمة يبدو أنه قد شـكل رقائق لمـواد كتابية من خلال ألياف مضفورة أو مجدّلة من خلال تثقيف نفسـه. ثم أصبح مسـاعداً في السجن وهناك جاءت معرفة القانون الذي حصل عليه مناسـبة جداً له حيث رفع إلى موقع أعلى، وبعدها حاز على اهتمام المحافظ فرقي أيضاً وأخيراً حصل على شهادته وارتقى إلى درجة محافظ. في سنة 67 قبل الميلاد سلم للعرش المذكرة الشهيرة التالية:-

«يا صاحب الجلالة.

«مـن بين الحماقات العظيمة العشرة لأسـلافنا، واحدة لا تـزال على قيد الحياة وتتعلق بسوء إدارة العدالة القائمة.

«تحت حكم **تشين Chin** كان التعليم محذوفاً. والقوة الغاشمة أزاحت كل شيء

من طريقها. أولئك الذين زرعوا روح الخير والالتزام تجاه جيرانهم كانوا مكروهين. والتعيينــات القضائية كانت الجائزة التي يســعى لها الجميــع. ومن قال الحقيقة وصفوا بأنهم أشــخاص خبثــاء. وبالتالي كل من عمل وفقاً لمبــادئ قانوننا القديم وجدوا أنفســهم خارجين عــن جيلهم. والكلمات المخلصة عن الاستشــارة الجيدة المرفوعة للملك بقيت ســخيفة في صدورهم بينــما الملاحظات الفارغة عن المديح الزائــف لاقت أذنا صاغية من الملك وهدأ قلبه بالصور الكاذبة مســتثنية الحقائق الكريهة، فلذلك خسروا صولجان الإمبراطورية من قبضتهم إلى الأبد.

«في اللحظة الحالية ترتكز الدولة على السماحة غير المحددة وخير جلالتكم. إننا تحررنــا من أهوال الحرب ومن مصائب الجوع والبرد. الأب والإبن، الزوج والزوجة موحدين في بيوتهم السعيدة. لا شيء يمنع من جعل هذا عصراً ذهبياً سوى الإصلاح في إدارة العدل فقط.

«مــن جميع الأمانات، هذه هي الأعظم والأقدس. الرجل الميت لا يســتطيع أن يعود إلى الحياة، ما تم فصله لا يمكن إعادة جمعه.'وعوضاً عن ســلخ رجل بريء، لــكان من الأفضل أن تدع المذنب يهرب.' لكن هذه ليســت وجهة نظر ســلطاتنا القضائية اليوم. ومعهم القمع والقسوة تحسب كإشارات لبصيرة القضاة وتقودهم إلى الغنى، بينما الرفق لا يتضمن شــيئاً غير المشــاكل. وبالتالي فإن هدفهم الأساسي هو الإحاطة بموت ضحاياهم، ليس لأنهم يمارســون أي ضغينة ضد الإنسانية عامة، وإنمــا لأن هذه أقصر طريق لمنفعتهــم الذاتية. وهكذا فإن أســواقنا ملأى بالدم، ومجرمين يزدحمون في السجون، وعدة آلاف يعانون من الموت سنوياً، هذه الأشياء تجرح الأخلاق العامة وتؤخر حلول العصر الذهبي حقيقة.

«الإنســان يفرح بالحياة فقط عندما يكون تفكيره آمنا، عندما يكون في الشــدة فأفــكاره تذهب باتجــاه الموت، تحت الســوط ما هو الشيء الــذي لا يُنتزع من شــفاه المتألم؟ إن عذابه جارف وهو يســعى للهروب بالحديث كذباً. فالمسؤولون يربحــون مــن هــذه الفرصــة، ويجعلونــه يقــول الــشيء الأفضل الــذي يثبت إدانتــه، ثم حتــى لا تلغى الإدانــة من قبل المحاكــم الأعلى، فإنهــم يرتبون بيئة

الضحيــة لتتوافق مــع ظروف القضية، حتى إذا امتلأ الســجل، حتــى لو قام **كاو يــاو Kao Yao** [17] مــن بين الأموات، فإنه ســيعلن أن الموت ترك هامشــاً للجريمة التكفيريــة. هذا من أجل أن تضمن العملية المكررة التــي تم تبنيها إقامة الإدانة.

«إن قضاتنــا حتى لا يفكرون بأي شيء آخر. هم هلاك الشــعب. يضعون نصب أعينهــم أهدافهــم الخاصة ولا يهتمــون برفاهية الدولة، حقاً إنهم أســوأ مجرمي العصر. وبالتالي يقول المثل جرب الســجن على الأرض ولا أحد ســيبقى في داخله. واعمل سجاناً بسجن خشبيّ وستجد السجان واقفاً وحده هناك[18]. وأصبح السجن أعظم المصائب، بينما بين أولئك الذين يخرقون القانون، وينتهكون الروابط العائلية، الذين يخنقون الحق، لا يوجد أحد لنقارنهم بذنوب ضباط العدالة أنفسهم.

«عندما تســمح للحدأة أن تربي صغارها دون إزعاج، ســيأتي إليها طائر الفينيق ويبنــي عشــه. لا تعاقب على النصيحــة المضللة، وتدريجياً ستنســاب الاقتراحات الثمينة متدفقة. قال القدماء من الرجال «التلال والأدغال تؤوي العديد من الأشياء الضارة، الأنهار والمســتنقعات تحصل على أوســاخ كثيرة، حتــى أكثر الجواهر دقة لا تخلو من الشــوائب. بالتأكيد فإن على حاكــم الإمبراطورية أن يتحمل قليلاً من العبث.» لكنني ســوف أســتثني جلالتكم من ذم وسأكون منفتحاً على كل أولئك الذين عندهم شيء يتكلمون فيه، ســأجعل حرية الكلام موجودة لدى مستشاري العرش. وسوف أمسح الأخطاء التي سببت سقوط أسلافنا. وسأحترم فضائل ملوكنا القدماء وأجري إصلاحات على إدارة العدل مســبباً الارتباك الشــامل لأولئك الذين يشــوهون مجراها. عندها حقاً سيتجدد العصر الذهبي على وجه الأرض السعيدة، وســيتقدم الشعب دائماً إلى الأمام في سلام وســعادة لا محدودتين كما هي السماء نفسها.

كان ليو هســيانغ (89-80 قبل الميلاد) واحداً من ســلالة مؤســس ســلالة هان العظيمــة. وبعــد دخولــه الحياة الرســمية، ســعى إلى التزلف لــدى الإمبراطور

17 وزير مشهور للجريمة في العصور الخرافية.

18 بعكس ما كان عليه الوضع في العصر الذهبي.

الجالس على العرش من خلال تقديمه لبعض أعمال السـحر (الفن الأسـود)، الذي كان جلالتـه يميـل إليه. وبمـا أن النتائج لم تكـن ناجحة، فقد زج به في السـجن، ولكـن سرعان ما فـك أسره ليكمل نشر التعليق على **الربيـع والخريف لكو ليانغ**

Ku Liang. وقـام أيضـاً بتدقيـق وبإعادة ترتيـب الوقائع التاريخيـة المعروفة باسـم **تشـان كوه تسـه Chan Kuo Tse** وكتب مقالات عـن الحكومة وبعض القصائد ودون السـير الذاتية **لنسـاء مشـهورات** وكان ذلك أول عمل من نوعه.

ابنه **ليو هسين Liu Hsin**، ولد ناضج، ميز نفسه باكراً بقراءاته الواسعة في جميع فروع الآداب. وعمل مع أبيه على ترميم النصوص الكلاسيكية، خاصة كتاب التغيير ولاحقاً كان ذا تأثير كبير في ترسيخ موقع تعليقات **تسو Tso** على الربيع والخريف. وفهرس المكتبة الإمبراطورية وبالتعاون مع أبيه اكتشف-البعض يقول جميع – شعائر **تشو Chou.**

شـخصية معروفـة جداً في الأدب الصيني هي شـخصية **يانغ هسـيونغ Yang Hsiung** (مـن 53 قبل الميلاد18- ميلادية). كولـد كان يجب أن يشرد من الطرق المطروقـة وكان يجب أن يقـرأ كل ما وصل إلى يديه. كان يتلعثم بشـدة وبالتالي كـرس جهده من أجـل التأمل. وأثار معياراً أخلاقياً احتل مكاناً وسـطاً بين ما أصرّ عليه **منسيوس Mensius** وما أصر عليه **هسون كوانغ Hsun Kuang**، معلماً بأن طبيعة الإنسـان عند الولادة ليسـت جيدة أو شريرة، لكنها مزيج من الإثنين، وإن التطـور بأي اتجاه منهما يعتمد كليـاً على البيئة. وتمجيداً لكتاب التغيير كتب **تاي هسـيان تشـينغ Tai Hsian Ching** ولتأكيد قيمة مختارات كونفوشيوس أخرج مقالة فلسـفية تعرف باسـم **فا ين Fa Yen**، وكلتاهما بين السنة الأولى والسادسة الميلادية. وفي ختام عمله الأخير، أشـهر أعماله على الإطلاق، عرض عليه تاجر ثري من الريف ذهل بروعته، مائه ألف كاش،[19] إذا ما ذكر اسمه فقط في داخل الكتاب. لكـن **يانغ** أجاب بـازدراء أن أيلاً في حظيرة أو ثوراً في قفـص لن يكون أكثر في غير محله من اسـم رجل لا يوجد معه أي شيء سـوى المال حتى يوصي به في صفحات الكتاب المقدسـة. أما **ليو هسـين Liu Hsin** فقد قال سـاخراً أن الأنسـال سوف

19 عملة صينية كانت متداولة وقتئذ – المترجم.

تستعمل أعمال يانغ **هسيونغ Yang Hsiung** لتغطية مرطبانات المخلل.

إلى جانب تأليفه بعض الأشــعار متوسطة القيمة، كتب يانغ هسيونغ عن الوخز بالإبر الصينية، والموسيقى وفقه اللغة. لا يوجد أدنى شك أنه لم يؤلف **فانغ ين Fang Yen** وهــو معجم الكلمات والعبارات المســتخدمة في مختلف أنحاء الإمبراطورية الذي تمت نســبته إليه تدريجياً حتى جاء **هونــغ ماي Hung Mai** وكان ناقداً في القرن الثاني عشر، وتم ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب. لينهي ادعاءه هذا.

كاتــب لامع جذب عليــه انتباها كبيراً في زمنه كان **وانغ تشــونغ Wang Chung** (27-97 ميلاديــة). وقيل أنه لقط تعليمه على أكشــاك الكتــب، وكان يملك ذاكره حفــظ دقيقة بشــكل ممتاز. فقط واحد من أعماله ضــاع، **لون هنغ Lun Heng** الــذي يتكون من خمســة وثمانين مقالة في مواضيع شــتى. في هــذه أنه يميل ضد أخطــاء العصر ويتعرض حتى لكونفوشــيوس ومنســيوس بالنقد الحــر والثاقب. وبالتــالي تم تصنيفه بمفكر هرطقــي. وأثبت أن الروح لا يمكنها الوجود بعد الموت كروح ولا حتى أن تمارس أي تاثير على الأحياء. عندما يتحلل الجسد، فالروح، وهي ظاهــرة لا تنفصل عــن الحيوية، تفنى معها. كما جادل أيضــاً أنه إذا كانت أرواح الكائنــات البشرية خالدة، فإن أرواح الحيوانات ســوف تكون خالــدة أيضاً، وإن الفضاء نفسه لن يكفي لاحتضان الظلال غير المحدودة للناس والمخلوقات كل وقت.

كان **ما جونغ Ma Jung** (79-166 ميلادية) معروف على نطاق واسع بأنه العالم العالمي. إن دراســته للمعرفة الكونفوشيوســية كانت عميقة جداً. وقد درس أكثر من ألف تلميذ على يده، وأدخل نظام كتابة الملاحظات أو التعليقات على مساحة الورقة مســتخدماً لهذا الغــرض حروفاً صينية أصغر، مقســومة في عامودين؛ وقد اســتخدم معرفة هذه الحقيقة ناقد ذكي من ســلالة **تانغ Tang** الذي حل مشكلة تزوير طبعة أقدم من **طاو تيه تشــينغ Tao Te Ching** باستعمال تعليق العامود المزدوج الذي كان قد نســب إلى **هو شــانغ كونغ Ho Shang Kung**، كاتب من القرن الثاني قبل الميلاد.

تســاي يونغ Tsai Yung (133-192 ميلاديــة) الذي كانت نزاعاته على الإدمان

قد اكســبته لقب التنين السكير، يتم تذكره أساســاً فيما يتعلق بالأدب لأنه أشرف على عمل الحفر على الحجر للنص المعتمد **للكتب الخمســة الكلاسيكية.** فبالحبر الأحمر، كتب هذه على ســتة وأربعين لوحــة حتى يحفرها العمال. وكانت الألواح موضوعة في كلية **هونغ تو Hung Tu** ويقال أن أجزاء منها لا تزال موجودة.

إن أشــهر تلميذ جلــس عند قدمي **ما جونغ Ma Jung** كان **تشــينغ هســوان Cheng Hsuan** (127-200 ميلاديــة). لقــد كان مــن أكثر المعلقــين عطاءً حول كلاسيكيات كونفوشيوس. لقد عاش للتعلم، إن الجاريات في بيته كن مثقفات جداً، ونوعن مناقشــاتهن بمقتطفات من القصائــد الغنائية. ومع ذلك كان مولعاً بالنبيذ وقيل أن باستطاعته أن يشرب ثلاثمائة كأس في جلسة واحدة دون أن يسكر. وربما يكون من المناسب أن نضيف أن الكاس الصيني كأن بحجم الكشتبان. وكحالة من حالات الاحترام العام الذي كان يوجه له فإنه ســجل أنه بناءً على طلبه، قام زعيم الثوار باســتثناء بلدة **كاو مي Kao MI** (موطنه الأصلي) وغير مسيره، في عام 200 ميلادية ظهر له كونفوشــيوس في رؤيا وعلم من هذه الإشارة أن ساعته قد قربت. وبالتالي كان كارهاً للرد على اســتدعاء أرسله له من **تشي تشو Chi Chou** في **تشي لي Chili** العظيم البأس في حينه **يوان تشاو Yuan Shao.** لقد بدأ فعلاً في الرحلة، لكنه توفي في الطريق.

كان مــن الصعــب أن نجلب الكتــاب المذكورين أعلاه، الممثلين لطبقة، بشــكل فــرادى إلى اهتــمام القارئ، ومــع أن كل واحد منهم تجول بطــرق فرعية خاصة به، إلا أن النجم الســاطع المشــترك بينهم كانت الكونفوشيوســية - شرح للقوانين الكونفوشيوســية. مع أنه بالنسبة لنا التعليقات على الكلاسيكيات لا تعتبر بالعادة أدباً، إلا أن الصينيين يعتبرونها كذلك وهم يضعون هذه الأعمال موضعاً عالياً جداً ويجازون المعلقين الناجحين بالموضع اللائق المرغوب فيه في المعبد الكونفوشيوسي.

الفصل الثاني
الشِعر

في بداية القرن الثاني قبل الميلاد كان الشعر لا يزال يؤلف على نموذج **لي ساو Li Sao** ونحن في حوزتنا عدد من الأعمال تنســب إلى **شيا آيChia I** (199-168قبل الميلاد) **وتونغ فانغ سو Tung Fang So** (ولد سنة 160 قبل الميلاد) **وليو هسيانغ Liu Hsiang**، وغيرهــم، جميعهم تبعوا خطوات قصيدة **تشــو يوان Chu Yuan** العظيمة. لكن تدريجياً، ومع التأسيس الأكيد لما يمكننا أن نسميه التأثير الكلاسيكي، عاد الشعراء ليجدوا نموذجهم في **ديوان الشعر Book of Poetry** الذي أتى كما لو كان من يد كونفوشــيوس نفسه. كتبت الأشعار على نظام الأمتار المؤلفة من أربع، خمس، وســبع كلمات في السطر. **سوما هســيانغ جو Ssuma Hsiang Ju** (توفي في العام 117 قبل الميلاد)، وهو شخص اشتهر صيته بإغواء النساء فهرب مع أرملة شــابة، وقد اشتهر بأبياته الشعرية إلى أن تم استدعاؤه إلى البلاد وعينه الإمبراطور في منصب عالٍ.

ماي شنغ Mei Sheng (توفي في 140 قبل الميلاد) الذي شكل أسلوبه على **سو ما Su Ma** كان له الشرف ليكون أول من جلب لزملائه المواطنين الجمال الأخاذ لنظام أمتار الخمس كلمات. ومنه يمكن أن يقال أن الشعر الحديث قد بدأ، وعينات كثيرة من براعته موجودة:-

«أخضر ينمو الحشيش على ضفة (النهر)،

براعم الصفصاف طويلة ومسترسلة،

سيدة في ثوب براق

تفتح الستائر وتنظر إلى أسفل

والورود على خدها تتورد بفرح،

ذراعها المستدير أبيض وهاج؛

المغنية في بداية عمرها

والآن زوجة خليعة وسادرة

آه، إن لم يهتم بما هو له

سيجد يوماً ما أن العصفور قد طار!»

«إن الكركديه الأحمر والخيزران،

عبير زهور الخطمي والشراب المخمر،

كل هذه أجمعها وأنا تائه،

كما لو كان واحد بعيداً جداً.

اسعى لاختراق بعيون متعبة

المسافة التي تقع بيننا.

يا الله، القلوب التي تنبض كقلب واحد

هل يجب أن يفرَّق بينها وتكون ملغاة!»

ليو هنغ Liu Heng (توفي سنة 157 قبل الميلاد) كان ابن محظية لمؤسس **سلالة هــان Han Dynasty** واعتلى العرش قبل 180 قبل الميــلاد كالإمبراطور الرابع في ســلالته. لأكثر من عشرين ســنة حكم بحكمة وبشــكل جيد. وهو واحد من أربع وعشرين مثلاً كلاســيكيا للبر بالوالدين مما جعله يخدم أمه المريضة لثلاث سنوات دون أن يغير ملابسه. وكان عالماً وتم تطويبه بعد موته بلقب يمكن أن نسميه «زير نســاء.» التالي هي قصيدة كتبها بمناسبة وفاة والده المرموق الذي، إن كنا قادرين على قبول أن رفاته المنسوبة إليه هي رفات أصلية، كان نفسه شاعراً:-

«انظر إلى الأعلى، الستائر ما زالت هناك كما في الماضي؛

انظر إلى الأسفل، توجد السجادة على الأرض؛

أرى هذه الأشياء، لكن الرجل لم يعد موجوداً.b

«إلى السماء اللازوردي اللامتناهي طارت روحه،

وتركت دون أصدقاء، لا أحد يهتم بي، لوحدي،

محروم من السلوان فيما عدا البكاء والآهات.

«الغزال على جانب التلال يثغو بتحبب

ويقدم الحشيش لأطفاله ليأكلوا

بينما طيور الجو تحضر اللحم لصغارها

«لكني، اليتيم الفقير مجبر على البقاء إلى الأبد،

قلبي لا يزال فتياً مثقلاً بالألم

لأجله لن أضع عيني ثانية.

«إنه قول مأثور مهترئ يسمح به جميع الناس

بأن الأسى يترك بصماته على أعمق الخطوط في الجبين.

يا للأسف على شعري، إنه الآن فضي!:

«يا للأسف على أبي، فصل عن كبريائه!

يا للأسف أنا لا أستطيع أن أقف إلى جانبه بعد اليوم!

أين كانت الإلهة عندما مات ذاك البطل العظيم؟»

إن الشـهرة الأدبية لزير النساء لا ينافسه، إن لم يتفوق عليه، إلا حفيده ليو تشه Liu Che (156-87 قبـل الميلاد) الذي تبوأ العرش في 140 قبل الميلاد كالإمبراطور السـادس **لسلالة هان Han Dynasty**. وكان راعياً متحمساً للأدب، وأولى اهتماماً كبـيراً للموسـيقى كعنصر في الحيـاة القومية. وأقام أضاحي دينية هامة للسـماء والأرض. وطلب إصلاح التقويم من كبير علماء الفلك، المؤرخ **سـو ما تشـيانSsu Ma Chien** ومـن هذا التاريخ يقال أن علـم الفلك الصحيح بدأ. وحمل جنرالاته الأسلحة الإمبراطورية إلى آسيا الوسطى، ولسنوات عدة ثم كبح لجام **الهونHuns.** وبالرغم من سياسـته المتنورة، كان الإمبراطور شـخصياً قد كَلُف بالسحر والألغاز والتي كانت تدريجياً تطعم في كتاب **الطاو للاو تسـو Tao of Lao Tsu**، وشـجع هو الدجالين العديدين الذي ادعوا أنهم اكتشفوا إكسير الحياة. الأشعار التالية هي عينة من أشعاره:-

«حاصب الخريف يطرد السحاب الرقيق الأبيض إلى السماء،

تذبل أوراق الشجر، والإوز البري المكتسح للجنوب تراه العين،

إن رائحة الأزهار المتأخرة تملأ الجو اللطيف من فوق،

قلبي ملآن بالأفكار عن السيدة التي أحب.

في الأنهر، العبارات من أجل التمتع بالأكل والشرب

اصطفتها الأمواج البيضاء التي تكسر أقواسها؟

الجدافون يحافظون على الوقت عندما يعزفون ويطبلون

الفرح غير موجود

الأفكار مسبوكة

من أن الشباب يبرحون وكبار السن يعودون.»

الأبيات التالية قيلت في موت محظية من الحريم التي كان مولعاً بها:-

«صوت هسهسة الحرير قد توقف

وامتلأت ساحة البرابرة الرخامية بالغبائر

لا وقع أقدام يتردد صداها في الممر،

وأكوام ورق الشجر المتساقط يحجز الباب. ...

لأنها افتخاري، حبيبتي الوحيدة قد ضاعت،

وأنا تركت لوحدي، وطرحت في أحزاني البائسة،»

عدد لا بأس به من الأشـعار غير المعروف أصحابها وصلت إلينا من القرن الأول قبل الميلاد، وبعض هذا الشـعر يتضمن هنا وهناك تصورات بلاغية غريبة ومُسِرة، كما في المثل التالي:-

«الإنسان يصل بالكاد إلى المائة،

إلا أن دموعه تملأ حياة ألف سنة

التالي هو قصيدة من هذه الفترة، وصاحبها غير معروف:-

«إنطلاقاً من البوابة الشرقية أنا أركب جيادي

آه، مقبرة تراها عيني

وشجر الحور حولها يزدهر بوفرة

والطريق مملوءة بخشب التنوب والصنوبر والطقسوس.

وتحت أقدامي ينام الميتون المنسيون،

ملفوفون بغسق من الحزن الأبدي،

وفي الأسفل قرب الينابيع الصفراء سريرهم الترابي،

والسكون الأبدي هو هلاكهم الدائم.

كم هي سريعة تأتي الأضواء والظلال وتذهب!

مثل ندى الصباح تمر حياتنا الزائلة؛

الإنسان، ذاك الجوال الفقير على الأرض بالأسفل،

قد ذهب بينما النحاس والحجر باقيان.

الوقت حرون، ويذهب سدى

في مواجهة قوته أقدس البشر تكافح،

هل يمكننا أن نأمل بكسب نعمته الثمينة،

بالإكسير الغريب هل نمدد حياتنا؟...

آه لو نشرب **لكيراً Liquor** جيداً.

طالما باستطاعتنا ذلك

وأن نلبس الحرير والساتان كل يوم!»

الآن بدأت النســاء تظهــر في الأدب الصيني. إن **الليدي بــان Lady Pan** كانت لفــترة طويلة المحظية الرئيســة عند الإمبراطور الذي حكــم الصين من 32-6 قبل الميــلاد. كان الإمبراطور مخلصاً لها حتى أنه أعرب عن رغبته في أن تظهر إلى جانبه في العربة الإمبراطورية. وقد أجابت على ذلك، «لقد ســمعت خادمتكم أن الحكام الحكماء من القدم كانوا باســتمرار يرافقهم الوزراء الأفاضل، ولكن أبداً لم يســمع أنهم تجولوا في عرباتهم بنســاء إلى جانبهم» وفي النهاية تم تبديلها بمنافسة أجمل منهــا وأصبا وبناءً عليه وجهت للإمبراطور إحدى المروحيات، مســتديرة أو مثمنة في إطارها من البامبو ومغلفة بالحرير[20] التي كانت تســمى في هذه البلاد «شاشــة النار،» محفور عليها الأسطر التالية:-

20 إن المروحة المثنية اخترعها اليابانيون، ولم تكن معروفة في الصين حتى القرن الحادي عشر ميلادي عندما تم إدخالها عبر كوريا.

«أيها الجميلة مثل الحرير الأبيض، طازجة من منوال النساج،

واضحة كالجليد، ومشعة مثل ثلج الشتاء،

انظر إن الصداقة تصمم منك مروحة،

مستديرة مثل القمر الدائري الذي يضيء السماء في الأعلى،

في البيت، في خارج البلاد، أنت رفيقة حميمة،

تتحمس لكل خطوة للإعصار الشكور،

وبالرغم من ذلك، آه أنا، هذه الرعشة الخريفية،

تبرد الاهتياج الساخن للصيف الميت،

سوف نراك مرمية ومهملة على الرف،

كل الأفكار حول الأيام التي مضت، هي مثلهم قد مضت.»

إن تعبير «مروحة الخريف» أصبحت منذ زمن جزءاً من اللغة وتستخدم مجازاً للزوجة المهجورة.

الفصل الثالث
التاريخ - صناعة المعاجم

فيما يتعلق بالصين إن فن كتابة التاريخ يمكن أن يقال أنه أُنشئ في الفترة التي نتحدث عنها. **سو ما تشيان Ssu Ma Chien**، المدعو أبو التاريخ ولد في حوالي 145 قبل الميلاد، وعندما أصبح عمره عشر سنوات كان قد أصبح عالماً جيداً وعندما أصبح في العشرين من عمره بدأ سلسلة من التجوال التي عرفته على كل أنحاء الإمبراطورية. في سنة 110 قبل الميلاد توفي والده، وحل هو في المنصب الوراثي كبيراً لعلماء الفلك. بعد أن كرس بعض الوقت والجهد لإصلاح التقويم أخذ يتابع العمل التاريخي الذي كان قد بدأه أبوه، والذي في النهاية أعطي للعالم **كالسجلات التاريخية Historical Record.** إنه تاريخ الصين من أقدم العصور نزولا حتى مائة سنة قبل العصر المسيحي، كتب في مائة وثلاثين فصلاً مرتبة تحت عناوين خمسة كالتالي:- (1) حوليات الأباطرة، (2) اللوائح الكرونولوجية (المتسلسلة زمنيا)، (3) ثمانية فصول في الشعائر، الموسيقى، آلات النفخ. الموسيقية الحادة، التقويم، علم الفلك، الأضاحي الإمبراطورية، مجاري المياه، والاقتصاد السياسي، (4) حوليات النبلاء الاقطاعيين، السير الذاتية لكثير من رجال تلك الفترات المرموقين التي تغطي تقريباً ثلاث آلاف سنة. وكان هذا العمل يقدر تقديراً عالياً لدرجة أنه تم عد كلماته كلها التي وصل تعدادها إلى 526500 كلمة. ويجب أن يبقى في ذهننا أن هذه الأحرف الصينية كانت في أغلب الظن، تحفر بقلم ستايلوس (قليم) على ألواح من البامبو، وأنه قبل هذه، لم يكن هناك شيء اسمه تاريخ في خطة عامة وشاملة، بالحقيقة لا يوجد شيء أبعد من حوليات محلية على أسلوب الربيع والخريف.

منذ **السجلات التاريخية**، كان لكل سلالة مؤرخها، وكانت أعمالهم في كل الحالات قائمة على النموذج الذي أورثهم إياه **سو ما تشيان Ssu Ma Chien**، إن تواريخ

الأربع وعشرين سلالة تم إصدارها عام 1747 ميلادية في سلسلة متطابقة، مجلدة في 219 مجلــداً كبيراً، وجميعها تظهر ســجلاً لا يمكــن أن يصدر من قبل أي بلد في العالم بهذا الشكل.

التالي هي عينات من أسلوب **سوما تشيان Ssu Ma Chien**:-

1. «عندمــا نهض بيت هان Han لم تكن الأفعال الشريرة لأســلافهم قد محيت. الأزواج مــا زالــوا يذهبون إلى الحرب، الكبار في الســن والصغار اســتخدموا لنقل الطعام. الإنتاج كان عملياً متوقفاً وشــح المال. لدرجة أن **ابن الســماء** (الإمبراطور) لم يكــن عنده عربات تجرها الأحصنة ذات اللون الواحد، الســلطات العليا المدنية والعســكرية كانت تركب العربات التي تجرها الثيران، والناس، بشكل عام، لم تكن تعرف أين تضع رأسها.

«خــلال هذه الفــترة، كانت العملة المســتخدمة ثقيلة جــداً ومتعبة لدرجة إن الشــعب نفســه ضرب عملة جديدة ذات معيار رقمي ثابت. لكن القوانين كانت ضعيفة، وكان من غير الممكن إمساك البخلاء عن سك العملة بشكل واسع والشراء بقوة ثم الامتناع عند ارتفاع الســوق، والنتيجة كانت أن الأســعار ارتفعت بشكل كبير. الأرز بيع بعشرة آلاف كاش[21] لكل بيكول[22] والحصان كان يكلف مائة أونس[23] مــن الفضة. ولكن تدريجياً عندما بدأت الإمبراطورية تركن إلى الســكينة والهدوء أصــدر جلالة **كـاو تســو Kao Tsu** أوامر أن لا يلبــس أي تاجر الحرير ولا يركب في عربــة؛ إلى جانب أن الضرائب المحصلة على هذا النوع تم زيادتها بشــكل كبير لكي يبقيها إلى الأســفل، بعد عدة سنوات تم رفع هذه القيود، إلا أن أحفاد التجار استبعدوا من شغل أي منصب له علاقة بالدولة.

«في هذه الاثناء، جعلت ضرائب محددة على ســلم محسوب لمواجهة متطلبات المصروفــات العامة، بينــما اعتبرت ضريبة الأرض وإيــرادات الجمارك من قبل كل

---

21 عملة صينية صغيرة سكت من خليط من نحاس مثقوبة في الوسط / المترجم.

22 وحدة وزن صينية تساوي 133.33 باوند - رطلًا، انكليزيا / المترجم.

23 قاموس المورد: الأونس وحدة وزن تساوي 28.35 غراماً أو 31.1 غراماً / المترجم.

المســؤولين، من الإمبراطور فنازلا، أتعاباً شــخصية لهم. وأرسلت الحنطة من خلال النقل المائي إلى العاصمة لاســتخدام المســؤولين هناك ولكن الكمية لم تزد عن عدة مئات آلاف من البيكول كل سنة.

«تدريجياً، بدأت العملة تتدهور والنقود الخفيفة يتم تداولها، وعند ذلك تبعتها قضيــة أخرى، كانــت كل قطعة معلّمة بـــ «نصف أونس.» لكن أخــيراً قاد نظام القضايا الخاصة إلى ســوء اســتغلال، نتج عنه أول شيء كميات كبيرة جداً من المال تجمعــت في أيدي الأفراد، وأخيراً حدث التمرد، فتم إغراق البلاد بعملة المتمردين، وأصبح ضرورياً أن تشرع القوانين ضد أي موضوعات من هذا القبيل مستقبلاً.

«في هــذه الفترة، كان **الهون Huns** يتحرشــون بالإغارة على حدودنا الشــمالية، وجمع الجنود هناك في فصائل كبيرة؛ بناء على ذلك أصبح الطعام شــحيحاً لدرجة أن عرضت الســلطات بعض الرتــب وألقاب الشرف على أولئك الذين ســيقومون بتزويدهــا بكمية محددة من الحنطة. لاحقاً، بــدأ الجفاف في الغرب ولكي تواجه ضروريات اللحظة، أصبحت الرتب الرسمية، مرة أخرى، سلعة تسوّق، بينما أولئك اللذين كسروا القانون ســمح لهم أن يبدلوا العقوبــة بدفعات مالية، وبدأت الآن الأحصنة تظهر من جديد في الاصطبلات واضحة للعيان عن الثراء الوافر.

«هكذا كان الوضع في الأيام الأولى للســلالة، حتى ســبعين سنة بــعد اعتـــلاء **ســلالة هـــان Han.** كانت الإمبراطورية وقتها تنعم بسلام. ولمدة طويلة لم يكن هنــاك لا فيضانــات ولا جفاف، وبــدأ فصل من فصول الرخاء. الأهــراءات العامة كان مــلأى، وخزائــن الحكومــة كانت أيضاً مــلأى في العاصمة. أربطــة من عملة الــكاش كومّت بأكوام لا تعــد ولا تحصى، حتى صدئت الأربطة، فلم يعد بالإمكان قــص قصتهم. الحنطة في المخازن الإمبراطورية تعفنت ســنة بعد أخرى. وتدفقت مــن الأهراءات المرصوصة وبقيت مرمية حتى أصبحــت غير نافعة للأكل البشري، والشــوارع كانت مزدحمة بالأحصنة التي يملكها الناس، وفي الطرق الرئيسة جموع هائلة منها كانت ترى، حتى أنه أصبح ضرورياً منع الاستخدام العام للأفراس. وأكل مســؤولو القرى اللحم وشربوا النبيذ والمكاتب الحكومية البســيطة والمشابهة لها

انتقلــت من الآبــاء إلى الأبناء، والمناصب العليا في الدولــة عوملت على أنها ميراث عائلي. لأن روح احترام الذات وتوفير القانون هاجرت إلى الخارج بينما إحساس من الإحسان والالتزام تجاه الجار أبقت الناس بمعزل عن الفضيحة والعار.

«وأخــيراً، تحــت القوانين غير الصارمة، بــدأ الأغنياء باســتخدام ثرائهم لأهداف شريرة من الفخر والتبجيل وقمع الضعفاء، وحصل أعضاء من العائلة الإمبراطورية عــلى منح من الأراضي، بينما تنافس الكبار والصغار وكل واحد مع جيرانه في صرف الأموال دون حســاب على البيــوت والمواعيد والمظهر، كل ذلــك كان خارج نطاق طاقتهم، هكذا هو القانون الدائم لتعاقب الازدهار والتحلل.

«ثــم تبع ذلك تحضيرات عســكرية مطولة في أجزاء مختلفة مــن الإمبراطورية، وإقامة الطريق التجاري مع البرابرة من جهة الجنوب الغربي والتي تم شق الجبال من أجلهــا لأميال كثيرة. كان الهدف فتح المصادر لهــذه المقاطعات البعيدة، لكن النتيجة كانت إغراق السكان بدمار يائس. ثم أتى إخضاع كوريا، وتحويلها إلى تابع إمبراطــوري، وكانت هناك مشــاكل أقرب إلى البلــد، كان هناك الكمين الذي وضع **للهــون Huns** الذي بموجبه تخلينــا عن التحالف معهــم، وجلبناهم إلى حدودنا الشــمالية. ولا شيء في الحقيقة إلا الحروب وإشــاعات الحــروب من يوم إلى آخر، الأمــوال كانت تغادر البلاد باســتمرار. والاســتقرار المالي للإمبراطورية تم نســفه، وشعبها الفقير انجر إلى الجريمة. الثراء تم تبديده، وتجديده كان يُطلب في الفساد. أولئك الذين أحضروا الأموال بأيديهم حصلوا على تعيينات في الحكومة. والذين كان باســتطاعتهم أن يدفعوا هربوا من دفع الغرامات عن جرمهم. وكان على الكفاءة أن تفســح الطريق أمام المال. ووضع الحياء جانباً وتردد الضمير. القانون والعقاب نفذا بقسوة بالغة. من هذه الفترة يجب تأريخ صعود وهبوط الرشوة الرسمية.»

2. «صــورت القصائد الموضــوع كالتالي:- قد نحدق ونتطلع إلى أعلى الجبل وفية، قد نسافر على الطريق العام، قد نشير إلى أنه حتى لو لم نستطع أن نأمل بالوصول إلى الهدف، يمكننا أن نندفع إلى هناك بالروح.

«بينــما كنت أقرأ أعمال كونفوشــيوس، كنــت أتخيل دائماً أن بإمــكاني أن أرى الرجل كما كان في الحياة، وعندما ذهبت إلى شان دونغ رأيت فعلاً عربته، وأروابه

وأجزاء مادية لاستخداماته الاحتفالية الرسمية. كانت هناك ذريته تمارس الشرائع القديمة في بيتهم المتوارث، وتباطأت غير قادر على أن أنتزع نفسي عنهم. كثيرون هم الأمراء والأنبياء الذين رآهم العالم في وقته، إجلاء في الحياة ومنسيين في الممات. لكن كونفوشيوس، مع أنه كان عضواً متواضعاً من الجماهير التي تلبس القطن، ويبقى معنا بعد مرور أجيال عديدة. فإنه نموذج لأولئك الذين يودون أن يصبحوا حكماء. من قِبل الجميع، من ابن السماء نزولاً إلى أبخل طالب، يعترفون بالكامل وبحرية، بسيادة مبادئه، ويمكن أن نطلق عليه أقدس البشر.»

3. «في الشهر القمري التاسع دفن الإمبراطور الأول في **جبل لي Mount Li**، الذي كان في الأيام الأولى لحكمه قد أمر بحفر الخندق وجهزه لهذا الغرض. ثم بعد أن ثبت ركائز الإمبراطورية، شغل جنوده، وكان تعدادهم 700000 (سبعمائة ألف) بالحفر وصولاً إلى **الينابيع الثلاثة** (أي حتى يصلوا إلى الماء) وهناك وضع أساساً من البرونز[24] ووضع فوقه تابوتاً حجرياً. وجمعت الأشياء النادرة والجواهر الثمينة وحملت إلى هناك وحفظت بكميات كبيرة، وأُمر الصناع المهرة بتصنيع نشابيات[25] ميكانيكية التي، إن حاول أحد الدخول، تطلق فوراً أسهمها. وباستخدام الزئبق، عملت الأنهار، **يانغ تسي Yang Tse وهوانغ لو Hoang Lo**، المحيط العظيم حيث صُب المعدن بالآلات من واحد لآخر. على السقف رسمت مجموعات النجوم الثابتة في السماء، وعلى الأرضية وضعت التقسيمات الجغرافية للأرض. وصنعت الشموع من دهن سمك الفظ البحري وكان محسوباً له أن يدوم لفترة طويلة.

«قال الإمبراطور الثاني، «ليس من المناسب أن محظيات المرحوم والدي، اللواتي ليس لهن أطفال أن يتركنه الآن، وبالتالي أمرهن بأن يرافقن الملك المتوفى إلى العالم الآخر، وكان عدد اللواتي هلكن كبيراً.

«عندما انتهى الدفن اقترح أحدهم أن العمال الذين عملوا الآلات وخبأوا الكنز علموا بالقيمة العظيمة للأخير وأن السر سوف يفشى. وبالتالي ما كادت المراسم تنتهي والطريق الذي يدخل منه القبر الحجري انسد في الطرف الجواني له، والبوابة الخارجية على المدخل إلى هذا الطريق تم إغلاقها،

24 متباين «بثبات» أي وضعت بثبات.

25 آلة حربية قديمة، تشبه القوس، قاموس المحيط / المترجم.

وأغلـق عمليـا الضريـح لدرجـة أن لا أحـد من العـمال قد هرب. تمـت زراعة الشـجر والنباتات حول تلـك البقعة حتى تبـدو وكأنها لا تختلـف عن الجبل.»

إن التاريخ الذي كتبه **سـو ما تشـيان Ssu Ma Chien** يتوقف عند حوالي مائة سـنة قبل المسـيح. ولكي ينفذ ذلك من هذه النقطة كان هنـا طموح عالم يدعى **بـان بياو Pan Piao** (3-54 ميلادية)، لكنه تـوفي عندما كان لا يزال يجمع المادة لهـذه المهمة. اتخذ ابنه **بان كـو Pan Ku**، الذي كان علمه شـاملاً وعميقاً، هذا المشروع، لكنه اتهم بسبب أنه يريد أن يغير السجلات الوطنية وفقاً لأهوائه، وزج به في السـجن، أفرج عنه بعد اعتراض شقيقه واستمر في العمل، ولكنه قبل إتمامه لهذا العمل تورط في مؤامرة سياسـية، وزج في السجن مرة أخرى حيث توفي. سلّم الإمبراطور التاريخ غير المتمم إلى **بان تشـاو Pan Chao**، شـقيقته الموهوبة، التي كانت منذ البداية مسـاعدته، وقامت هي بإنجازه حتى حوالي العصر المسـيحي، حيـث مزق، احتلال العرش، من قبل غاصب له، سـلالة هان إلى فترتين واضحتين، وكانت هذه السـيدة قد الفت مجلداً في النصيحة الأخلاقية للشـابات والكثير من الأشعار والمقالات.

تأليف المعاجم الذي ازدهر في هذا الوقت بشـكل واسـع عند الصينيين تم من قبل العالم الشهير المدعو **هسو شن Hsu Shen** (المتوفى سنة 120 ميلادية)، بعد أن دخل الخدمة الرسمية، اسـتقال من منصبه ليكرس باقي حياته للكتب. كان طالباً عميقاً للكلاسيكيات الخمسة، وكتب عملاً حول المتناقضات في الانتقادات المختلفة لهذه الكتب. لكنه من خلال كتابه **شوه ون Shuo Wen** أصبح معروفاً. كان هذا العمل مجموعة من الملاحظات التفسيرية القصيرة لجميع الأحرف الصينية - حوالي عـشرة آلاف - التي كانت وقتها موجودة في الأدب الصيني، وكتبت بما هو معروف الآن بأسـلوب «الختم الأدنى» **Lesser Seal**. إنه أقدم قاموس صيني سـجلّه لدينا وبالتالي شـكل الأسـاس لكل الأبحاث في علم أصول الـكلام. إنه مرتب تحت 540 جذراً أو مصنفاً، أي أجزاء من جذور منتقاة خصيصاً التي تشير نوعاً ما إلى الاتجاه الذي يوجد فيه الجذر كله، وكان هدفه الرئيسي استعراض المزايا التصويرية للكتابة الصينية.

الفصل الرابع
البوذية

الآن يجب أن ندخل البوذية إلى الصين، خاصة من الناحية الأدبية.

إننا نقرأ منذ عام 217 قبل الميلاد أن الرهبان البوذيين **شيه لي فانغ Shih Li Fang** وغيرهم، قد حضروا إلى الصين. يبدو أن «الإمبراطور الأول» نظر إليهم بريبة، على أي حال، زج بهم في السجن، الذي منه، كما قيل لنا، أخرجوا ليلاً من قبل رجل ذهبي أو ملاك. لم نسمع أي شيء أكثر من ذلك عن البوذية، حتى قام الإمبراطور المعروف باسم **مينغ تي Ming Ti** أثر حلم ظهر فيه له إله أجنبي، بإرسال بعثه إلى الهند ليرى ما قد يتعلمه عن موضوع دين البرابرة هذا. البعثة التي تكونت من ثمانية عشر شخصاً عادت حوالي 67 ميلادية يرافقها بوذيان هنديان اثنان يدعيان **كاشيب مادانغا Kashiap Madanga** **وكوبها رانا Gobha Rana**. ونزل هؤلاء الاثنان في **لو يانغ Lo yang** في **هونان Honan** التي كانت العاصمة وقتئذ، ومضيا يترجمان إلى الصينية «سوترا»[26] من اثنين وأربعين جزءاً، بداية سفر طويل منها. بعد ذلك بوقت قصير مات الأول لكن البذور قد زرعت، ومنافس عظيم للطاوية كان على وشك الظهور على المشهد.

بحوالي نهاية القرن الثاني الميلادي قام بوذي هندي آخر، الذي صدف أن نزل في **تشانغ آن Chang An** في **شن سي Shen Si** بترجمة السوترا المعرفة **بلوتس القانون الجيدLotus of Good Law**، والمعابد البوذية بنيت في أجزاء مختلفة من الصين، مع بداية القرن الرابع كان المترهبون الجدد يحلفون اليمين الضرورية للرهبنة البوذية، وقدمت لهم الأديرة لتستقبلهم.

في سنة 391 ميلادية بدأ **فا هسيان Fa Hsien** برحلته الراجلة الكبيرة من قلب

26 قاموس المورد، السوترا هي حكم تلخص جانباً من التعاليم الدينية الهندوسية، محاورات بوذا، المترجم.

الصين براً إلى الهند، وهدفه كان الحصول على نسـخ مــن القانون واللوائح والآثار البوذيــة. أولئك الذين رافقوه في بداية رحلته إما عادوا أو ماتوا في الطريق، ووصل أخــيراً إلى الهند مــع مرافق واحد الذي اســتقر هناك ولم يعد مطلقــاً إلى الصين، بعد زيارته لمراكز مهمة مختلفة مثل **ماغادا Magadha**، **وباتنا Patna**، **وبناريس Benares وبــوذا غايــا Buddha Gaya**، ووفقاً لأهداف رحلته، ركب في ســفينة تجارية ووصل إلى سيلان[27] هناك وجد ينكا أي سفينة شراعية صينية، كبيرة حملته إلى **جافا Java**، من أين وجد نفســه، بعد التعرض إلى مخاطر جمة في البحر، على ظهر ينك آخر متوجهاً إلى ســاحل **شــان دونــغ Shan Dong**، التي نزل فيها عام 414 ميلادية مع كل كنوزه في النقطة التي تحتلها، الآن مستعمرة **كياو تشو Kiao Chou** الألمانية.

إن الروايــة عن رحلته المغامرة، كما يرويها بنفســه، لا زالت موجودة، ومكتوبة بأســلوب نكد وصعب. إن خط ســيره تم اقتفاؤه وتم التعرف على جميع الأماكن التــي ذكرهــا تقريبا. الفقرة التالية تشــير إلى صحراء **غــوبي Gobi**، التي كان على المسافرين أن يقطعوها:-

«في هــذه الصحراء توجد أرواح شريرة كثيرة ورياح ســاخنة، إن الذين يواجهون الأخــيرة يموتون عن بكــرة أبيهم، لا توجد طيور في الأعلى ولا وحوش في الأســفل، بالنظر إلى جميع الجهات على طول مدى النظر، ليعلم المسار، فإنه من غير الممكن النجاح دون العظام المتعفنة لرجال ميتين والتي تشير إلى الطريق.»

بــوذا غايــا Budda Gaya، حيث حدثت مؤخراً استكشــافات شــيقة من قبل المرحوم الجنرال كاننغهام، زارها **فا هسيان**، ووضعها كالتالي:-

«وصــل الحجاج الآن إلى مدينــة غايا، التي تعاني من خراب تام داخل ســورها. تجولــوا لأكــثر من ثلاثــة أميال إلى الجنــوب فوصلوا المــكان أين البودي ســاتفا bodhisattva[28] كانــت قــد قضت ســت ســنوات في تعذيب نفســها، إنها كانت متخشــبة. المسافة من هذه النقطة إلى الغرب هي ميل ووصلوا المكان الذي دخل

---

27 سريلانكا حالياً، المترجم.

28 بودي ساتفا هو البوذي الذي يستحق النيروانا ويؤجلها لمساعدة الآخرين /المترجم.

منه بوذا ليســتحم، وأنزل له فرع شجرة ليسحبه من البركة. كذلك بالذهاب شمالاً بحوالي ثلثي الميل وصلوا إلى المكان الذي قدمت فيه كل من الأختين صحن الحنطة المكــسرة مع الأرز والحليب. وثلثي الميل إلى الشــمال من هذه النقطة هو المكان الذي جلس فيه بوذا على حجر تحت شجرة ضخمة ووجهه باتجاه الشرق، وأكلها. الشجرة والحجر لا يزالان موجودين، والأخير طوله حوالي ستة أقدام وكذلك عرضه وحوالي قدمين في الارتفاع. في وسط الهند إن الطقس معتدل، الشجر يعيش حوالي عــدة آلاف من الســنين، وحتى قد تصل إلى عشرة آلاف ســنة. مــن هذه النقطة باتجاه الشمال الشرقي على بعد نصف يويانا.[29] يصل الحجاج إلى مغارة أين جلس **بودي ســاتفا** القرفصاء ووجهه إلى الغرب، وتأمل كالتالي: 'إن حصلت على الحكمة التامــة يجب أن تحدث أعجوبة على شرفه.' فظهــرت في الحال صورة ظلية لبوذا عــلى الحجــر، طولها أكثر من ثلاث أقدام وهي لا تــزال واضحة حتى اليوم. ثم إن الســماء والأرض اهتزتا بقوة والآلهة كانت في الفضاء اســتنجدت قائلة:'هذا ليس المــكان أين حصل بــوذات الماضي والحاضر، وكان يجــب أن يحصلوا على الحكمة التامــة. إن المنطقــة الملائمة هي تحت شــجرة البو[30] أقل من نصــف «يويانا» إلى الجنــوب الغربي مــن هنا. وعندما تفوهت الآلهه بهــذه الكلمات، أكملوا الطريق وهــم يغنون لكي يرشــدوهم إلى هناك. قام **البودي ســاتفا** وتبعهم وعندما وصل على بُعد ثلاثين خطوة من الشجرة الإله أعطاه حشيش الكوسا[31] بعد أن قبل ذلك، ذهب خمســة عشر خطوة إلى الأمام أين جاء خمســمائة طير أسود وحاموا ثلاث مرات حوله، وغادروا. ذهب **البودي ســاتفا** إلى البو، ووضع حشيش الكوسا جلس ووجهه إلى الشرق. ثم أن **مارا**، ملك الشــياطين، أرسل ثلاث نساء جميلات ليقتربن من الشــمال لغوايته، وكان هو (أي مارا) يقترب من الجنوب ومعه الهدف نفسه. ضغط **البودي ســاتفا** الأرض بأصابع رجله، تراجع عــلى أثر ذلك الجيش الجهنمي بارتباك والنســاء الثلاثة تحولن إلى عجائز. في المكان المذكور أعلاه حيث عانى بوذا من الذل مدة ســت سنوات، وفي كل تلك الأماكن بنى الرجال من الأجيال السابقة الباغــودا وأقاموا الصــور، وهي كلها لا تزال موجــودة، وحيث أن بوذا حصل على

29 يويانا وحدة قياس للمسافة من أربع إلى عشرة أميال بناء على المكان / المترجم.

30 شجرة تين معروفة بضخامتها وبطول بقائها، يعتبرها البوذيون شجرة مقدسة / المترجم.

31 عشب مقدس عند البوذيين / المترجم.

الحكمة التامة، وتأمل الشجرة لمدة سبعة أيام، واختبر فرح التحرر، وحيث أن بوذا مشى إلى الأمام وإلى الخلف، وإلى الشرق وإلى الغرب، وتحت شجرة البو لمدة سبعة أيام، وحيث الآله صنعت غرفة مجوهرة، وعبدوا بوذا سبعة أيام، وحيث أن التنين الأعمى، **موشـيلندا Muchilinda**، أحاط ببوذا لمدة سبع أيام، وحيث حبس بوذا مواجهاً الشرق على حجر مربع تحت شـجرة نياغـرودا، وأتى براهما ليحييه، حيث قدم الملوك الأربعة السـماويين سـلطانيات الحسـنات، وحيث أعطاه الخمسمائة تاجـر أرزاً مطبوخـاً وعسـلاً، وحيث أنه أهـدى الإخوة **كاس يابا** مـع تلامذتهم حتى بلغ عددهم حوالي الألف نسـمة في جميع هذه الأماكن تم بناء سـتوباس[32].

الفقرة التالية تشـير إلى سـيلان (سري لانكا حالياً) التي أسـماها **فا هسيان Fa Hsien** أرض الأسود أي السينغ هالا، اسم التاجر الذي كان أول من أسس مملكة هناك:-

«لم يكن في هذا البلد أي سكان، فقط كان فيها الشريرون والأرواح والتنين الذين تاجر معهم تجار البلدان المجاورة. عندما جاء موعد تبادل البضائع، لم يظهر الأشرار والأرواح إلى العلن لكنهم وضعوا الأشياء الثمينة مع أسعارها ملصقة بها. ثم اشترى التجار البضاعة، وفقاً لأسعارها وحملوها وذهبوا. لكن من ذهاب التجار وعودتهم المتكررة، بدأت الأشـياء الجذابة تصبح معروفة لدى القاطنين في البلدان المجاورة، الذين قامـوا بدورهم بالذهاب إلى هناك، وبالتالي أصبحـت أمة عظيمة. الحرارة معتدلة في هذا البلد، لا يوجد فرق بين الصيف والشـتاء، والشـجر والنبات دائمة الخضرة، وغراسة التربة تجري كما يحب الناس دون اعتبار للفصول.»

في هـذه الأثنـاء كان الهنـدي **كومـارا جيفا**، أحد الشـموس الأربعـة للبوذية مشـغولاً بـين 405 إلى 412 ميلاديـة في إملاء التعليقـات الصينية عـلى القانون البـوذي لحـوالي ثمانمائة راهـب، وكتب هو أيضـاً شاسـترا Shastra في الحقيقة والمظهـر، وترجـم **سـوترا الماسـة**[33] **Sutra of Diamond** الـذي قـام بالترويج للبوذيـة وللطبقـات المتعلمـة أكثر من جميع أجزاء هذا الدين سـويا. الشـعراء والفلاسـفة الصينيون اسـتمدوا الإلهام والتعليمات مـن صفحاته، ويمكن تصنيف

32 معلم تذكاري على شكل قبة / المترجم.

33 الشاسترا هي نص مقدس للهندوسية / المترجم.

هــذا العمل عــلى أنه كلاسـيك وطنــي. فيما يــلي نصــين مختاريــن قصيرين:-

1. «قال بوذا، يا سوبهوتي، أبلغني وفقاً لفهمكم هل يمكن للإنسان أن يرى بوذا في لحمه؟.

«لا يســتطيع، أيها المعلم المبجل، ولهذا الســبب: أعلن بــوذا أن اللحم ليس له وجود ملموس.

«وبعــد ذلك أبلغ بوذا ســوبهوتي قائلا: الوجود الملمــوس كله واه وغير حقيقي. إن كان الإنســان يمكــن أن يرى بوضوح فهو كذلك، وبالتــالي يمكنه أن يرى بوذا.»

2. «قال بوذا، يا سوبهوتي، إن كان باستطاعة رجل أن يجمع سبعة أشياء ثمينة من المجرات التي لا تحصى في العوالم، وإن يضع كل هذه لعمل الخير، وإذا أصبح رجل فاضل آخر أو امرأة فاضلة مملوئين بالروح وتمسكوا بهذه السوترات ويعظونها قليلا لتبديل الإنسانية، أنا أقول لك إن سعادة هذا الرجل الأخير ستزيد كثيراً عن سعادة الرجل الآخر.

«التبديــل إلى مــاذا؟ إلى عــدم الاهتــمام بالوجــود الملمــوس ولخنــوع الفرد تمامــاً. لمــاذا؟ بســبب أن كل ظاهــرة خارجية تشــبه الحلــم، مثل الرؤيــا، مثل الفقاعــة، مثــل الظــل، مثــل النــدى، مثــل الــبر، ويجــب أن يعتــبر كذلــك.»

في العــام 520 ميلادية قام **بــودي دارما** بزيارة الصين، واســتقبل بحفاوة بالغة. وكان هــو ابــن لملك في جنــوب الهند. وعلم قائــلاً إن الدين لا يجــب أن يدرس مــن الكتب، لكن على الإنســان أن يبحث عنــه ويجد البوذا الــذي في قلبه. قبل وصوله بقليل تم إرســال **ســونغ يــون Sung Yun** إلى الهنــد للحصول على كتب بوذيــة أخــرى، وبقي ســنتين في قندهــار فعاد بمائة وخمســة وســبعين مجلداً.

بعــد ذلــك، في عــام 629 ميلادية انطلق **هســوان تســانغ Hsuan Tsang** إلى الهند بالهدف نفســه ولزيارة الأماكن المقدســة البوذية. عاد من هناك ســنة 645 ميلادية جالباً معــه 657 كتاباً بوذياً، إلى جانب صور كثيرة وصور الظل و150 أثراً. وقضى حياته يترجم هذه وأيضاً مثل **فاهســيان Fa Hsien** كتب نصا عن رحلاته.

هذا يصل بنا إلى بداية سلالة تانغ عندما استحوذت البوذية، بالرغم من المعارضة الكثيرة لها وحتى الاضطهاد، على ما ثبت لاحقاً أنه كان تأثيراً دائماً على جماهير الشعب الصيني.

الكتاب الثالث

السّلالات الصغيرة 200-600 ميلادية

الفصل الأول
الشعر – الأدب المتعدد

القرون التي مرت بين 200-600 ميلادية لم تكن ملائمة لتطوير ونمو الأدب الوطني. خلال فترة كبيرة من الزمن كانت الإمبراطورية تمزقها الحروب المحلية. لم يكن هناك وقت لرفاهية المعرفة النظرية، كما لم يكن هناك ما يكفي من الرعاة ليشجعوها. ومع ذلك استمر العمل بالأدب، ووصل إلينا العديد من الأسماء العظيمة.

إن السنوات العجاف المظلمة ما بين 196 و221 ميلادية التي شهدت سقوط بيت **هان Han**، أضيئت بأسماء سبعة كتاب، وهم الآن معروفون بشكل مشترك بالعلماء السبعة لفترة **تشيان آن Seven Scholars of the Chien An Period**.. كانوا جميعاً شعراء. منهم **هسو كان Hsu Kan** الذي وقع تحت تأثير البوذية وترجم إلى الصينية براني أمولا شاسترا تيكا من نجارديونا **Pranyamula Shastra Tika of Nagardjuna**، الأبيات التالية له:-

«أيها الغيم العائم، الذي يسبح في السماء أعلاه

احمل على جناحيك هذه الكلمات للذي أحب. ...

آه، إنك تستمر في العوم ولا تستمع إلى ألمي،

وتتركني هنا للأشواق والحب الضائع!

إنني أشاهد أحباء آخرين يعودون إلى منازلهم،

وإلى عودته ألا يجدر بي أن أرنو؟

منذ أن غادر سيدي-آه يا ليوم حزين!

إن غبرة مرآتي لم يتم مسحها.

إن قلبي، مثل المياه الجارية، لا يعرف السلام،

لكنه ينزف وينزف للأبد دون توقف.»

هنــاك أيضاً **كونغ جونغ Kung Jung** أحد أحفاد كونفوشــيوس من الســلالة الثانية عشرة وهو حفيد نشــأ قبل أوانه. عندما أصبح في العاشرة من عمره ذهب مع والده إلى **لو يانغ Lo Yang**، حيث كان **لي ينغ Li Ying**، رجل الدولة التنين في أوج سمعته السياسية. لأنه لم يستطع الدخول عليه بسبب كثرة الزوار أبلغ الحارس عــلى الباب أن يعلم **لي ينغ** بانه كان الصلــة، وهكذا نجح في الدخول عليه. عندما سأله **لي ينغ** ما هي هذه الصلة، أجاب، «سلفي كونفوشيوس وسلفك لاو تسو كانا صديقين يشــتغلان في البحث عن الحقيقة، وهكذا، أنــت وأنا، يمكن أن نقول إننا من العائلة نفســها. «اندهش **لي ينغ**، لكن **تشن واي Chen Wei** قال، «إن الذكاء في الشــباب لا يعني الألمعية في الحيــاة فيما بعد، فعلق **كونغ جونغ Kung Jung** عليها قائلاً، «أنت، يا ســيدي، كنت كما هو واضح، ذكي جداً كولد.» ودخل الحياة الرسمية عندما أنيط به ليكون حاكم **بوه هاي Po Hai** في شان دونغ، لكنه تعرض لعدم رضى **تســاو تســاو Tsao Tsao** العظيم، وقتل مع جميع أفراد عائلته. كان رجــلا منفتحاً، ويحب الرفقة الجيدة، وكان يقول، «لو كانت جميع القاعات عندي مكتظة بالضيوف، وجميع القناني ملأى بالنبيذ، أكون مسروراً.»

التالي هو عينة من شعرة:-

«المتجول يصل بيته بفرح

من جراء الغياب سنة أو أكثر:

عينه تبحث عن ولد محب-

وزوجته تضطجع باكية على الأرض.

«إنهم يتهامسون أنه ذهب. فيسدل

أسى الليل؛ خارج البوابة

تظهر ملامح قبر وحيد

لتحيي السيد الذي أتى متأخراً جداً.

«إلى التل الصغير ينطلق

حيث الزهور البرية تتفتح على كل جانب. ...

إن عظمه موجود في الينابيع الصفراء[34]

ولحمه مثل الغبرة منثور بشكل واسع.

«آه يا طفلي، الذي لم يعرف سيده مطلقاً

إلى الأبد لن تعرف مطلقا،

لفترة طويلة سيبقى شبحك الجوال متعباً

ويرفرف دون صديق ووحيد.

"آه، أيها الأبن، عطية الإنسان الكبرى على هذه الأرض،

معك أنا أدفن الآمال والخوف،

حنى رأسه بحزن، وسريعاً

تبلل صدره بالدموع المنهمرة.

«إنه يعرف خوف الحياة غير المبرر

ولكن آه لهذا الإغلاق السابق لأوانه!»

---

34 المطهر / المترجم.

كان هناك **وانغ تسان Wang Tsan** (177-217 ميلادية) وكان رجلاً مثقفاً كتب **فــن الشــعر أو أرز بويتيــكا Ars Poetica** ولكن ليس شــعراً. كان شــاباً واعداً جداً، فتميز كشــاعر بالرغم من أن الأزمــان التي عاش فيها لم تكن مؤاتية للنجاح. وقــد زعــم، بقليل أو كثير من الحقيقة، إن الشــعر الصيني كلــه يميل نحو مفتاح مليء بالشــجن، وإن الموضوعات المرغوبة في الشــعر الصيني هــي تلك التي فيها ســمة انتقالية في الحياة على كل ما يرافقهــا من مفارقات وغيرها من الأمراض مع الاقــتراب الحتمي للمــوت، مع إحلال غير المعلوم في مكان المعلــوم. وكان لـ **وانغ تســان Wang Tsan** سبب وجيه لمراثيه. وكان أجبر بسبب الإضطرابات السياسية عــلى ترك منزلــه في العاصمة ليبحث عن الأمــان في الهروب. هناك، كــما يُعْلِمنا

«الذئاب والنمور تعمل وفقاً لإرادتها الحلوة.»

وفي الطريق يجد أن:

لا شيء سوى العظام المبيضة تغطي السهل أمامنا،»

وهو يأتي على امرأة مصابة بالجوع، وكانت قد رمت طفلها بين الشجيرات لأنها لم تستطع إطعامه. ولما وصل إلى النهر العظيم أثار مغيب الشمس عواطفه:-

«خطوات من الضوء لا تزال تتمسك بالهضاب،

بينما تغطي المنحدرات القوية الظلال الكثيفة،

يعود الثعلب إلى وجاره،

والعصافير تطير عائدة إلى بيوتها في الغابات،

وبوضوح تسمع موجات الموج المتلاطم،

وعلى الضفاف يصرخ ويزعق الجيبون[35]

---

35 نوع من القرود / المترجم.

وأكمامي تحركها الريح التي تُصَفّر،

وتلابيب روبي مبتلة بالندى.

وطوال الليل لم أتمكن من إغماض عينيّ.

نهضت ومسكت غيتارتي،

التي، وللابد متعاطفة مع مزاج الإنسان المتغير،

يبدو أنها الآن تتجاوب مع حزني.»

لكن الموسيقى لا تجعله ينسى الأقرباء

آه، إن معظمهم سجناء،

والبكاء سيكون من نصيبي حتى النهاية

مع كل أماكن البهجة في الإمبراطورية

لماذا علي أن أبقى في هذا المكان؟

مثل الدودة في عصا الراعي لم أعد أحس بالمرارة.»

بالسطر الأخير يعني أنه يشير إلى كم من مساهمة طويلة لتجعلنا على ما نحن عليه.

وكان هنـــاك **ينغ يانـــغ Ying Yang** عندما انتهى دوره الســـياسي، كتب قصيدة تحمل عنواناً يمكن أن نفسره بالشكل التالي «الندم لأن رأس الثور[36] يقف بطالًا.

وكان هناك **ليو تشـــنغ Liu Cheng** الذي قتل لأنه تجرأ ونظر إلى إحدى النساء المفضلات عند الجنرال العظيم **تســـاو تســـاو Tsao Tsao**، المؤسس الفعلي لسلالة

---

36 رأس الثور هو الحصان بوسيفالوس الذي كان مع الاسكندر الأكبر في حروبه، ومات في باكستان ودفن فيها / المترجم.

واي House of Wei. أما **تشـــن لــين Chen Lin ويوان أو Yuan Yu** يختمون القصة.

يضاف ثامن وتاســع إلى هؤلاء السبعة أسماء على ســبيل المجاملة: اسميّ **تساو تساو** المذكور أعلاه وابنه الثالث **تساو تشيه Tsao Chih** الشاعر. الأول لعب دوراً بــارزاً في التاريــخ الصيني. وكان أبوه قد تم تبنيّه كولــد لكبير المخصيين في القصر. وهو نفســه كان شــاباً طموحاً يهتم بصيد الأرانب وبالصيد بالصقور. إلا أنه تدبر

أمره وتخرج في ســن العشرين، وبعد أن تميز في الحملة ضد المتمردين، جمع قوة من المتطوعين لتنظيف البلد من الزعامــات القوية المتعددة الذين كانوا يهددون وحدة الإمبراطورية. تدريجياً انتقلت السلطة العليا إليه وأجبر الإمبراطور الضعيف على ترفيع ابنته إلى مرتبة زوجة الإمبراطور. وهو شــعبياً معروف كنوع من الوزير الجســور السيء وثائر ماكر عديــم الضمير. كانت قواته الكبــيرة يضرب بها المثل، وفي إحــدى المــرات يقال أن تعدادهــا وصل المليون رجل تحت الســلاح. كإحدى محطات النظام الذي كان ســائداً في معســكراته، يقال أنه في مرة من المرات حكم على نفســه بالموت لأنه ســمح لحصانه أن يهرب فزعاً إلى حقل من الحنطة، وذلك وفقاً للتعليمات القاســية ضد التسبب في إتلاف للمحصول الموجود. ولكن بدلا من خسارة رأسه، تم إقناعه، لإشباع روح العدالة عنده، بقص شعره. الأبيات التالية هي من قصيدة له كتبت بميزان سريع من أربع كلمات في البيت:-

«هنا النبيذ، دعونا نغني؟

لأن حياة البشر قصيرة،

مثل ندى الصباح،

إن أفضل أيامه قد ولت.

ولكن بالرغم من أننا قد نفرح

فإن الأحزان يصعب نسيانها.

ماذا سينسينا إياها؟

النبيذ، وفقط النبيذ.»

بعد وفاة **تساو تساو** أتى عصر **الممالك الثلاثة Three Kingdoms**، القصة الرومنسية لها قيلت في الرواية الشهيرة التي سنذكرها لاحقاً. أصبح الابن البكر لتساو تساو أول إمبراطور لإحدى هذه الممالك، وهي **مملكة واي Wei Kingdom**، **تساو تشين Tsao Chin**، الشاعر احتل منصباً غير ملائم في البلاط، كان مشكوكاً فيه وغير محبوب، عندما كان عمره عشرة أعوام برع في الإنشاء لدرجة أن والده اعتقد أنه كان سارقاً لمولفات الغير. لكن المسألة حسمت عندما كان يلقي قصائد ارتجالية في أي موضوع يطلب منه في الحال. قال شاعر معاصر له «أنه لو مثلنا كل المواهب في العالم بعشرة، فإن **تساو تشيه** سيحصل على ثمانية، أنا سأحصل على واحدة، وباقي العالم كله سيحصل على واحدة بينها. «هناك قصة تروى أنه في إحدى المناسبات، بناء على طلب أخيه الكبير، ربما لهدف سيء، ألّف مقطعاً شعرياً بشكل ارتجالي بينما سار سبع خطوات. وظلت تستذكر ربما ليس لشاعريتها وإنما للنقاط التي فيها.

«صحن جميل من الفاصوليا وضع في إناء

بهدف خلطة جيدة من الحساء الساخن

إن ساق الفاصوليا على النار وحصلنا على نار عالية،

والفاصوليا في الوعاء كلها مدخنة وتتآكل.

إلا أن الفاصوليا وساقها لم يولدا ليكونا أعداءً؛

آه، لماذا على هؤلاء أن يسرعوا لإنهاء أولئك؟»

إن المقتطف التالي من قصيدة له تتضمن مبدأ مشهوراً جداً يستخدم باستمرار

في هذه الأيام:-

«الرجل الأعلى يأخذ حذره

ويتجنب إعطاء سبب للشك.

لن يسحب حذاءه في حقل من البطيخ

ولا تحت شجرة برقوق يرتب طاقيته.

الإخوة وزوجاتهم لا يجوز أن يمسكوا أيدي بعضهم البعض،

الكبار والصغار لا يسمح لهم بالسير في الأمام

من خلال الكدح والتواضع يتم مسك المقبض،

لطِّف المعيتك وستختفي الصعاب.»

خلال القرن الثالث الميلادي ظهرت مجموعة أخرى زئبقية، وعددها أيضاً سبعة، شكلوا أنفسهم في نادٍ أصبح مشهوراً باسم **الحكماء السبعة في بستان البامبو The Seven Sages of the Bamboo Grove**، بين هؤلاء كان **ليو لينغ Liu Ling**، السكير، الذي أعلن أنه بالنسبة للسكير، «إن شؤون هذا العالم لا تختلف عن الطحالب في النهر.» كان يتمنى أن يرافقه باستمرار خادم مع النبيذ، يتبعه آخر يحمل رفشاً حتى يتم دفنه حيث يقع. في إحدى المناسبات، بعد أن استسلم لالتماسات زوجته، وعدها «بالاقلاع عن النبيذ، وطلب إليها أن تحضر التضحية المعتادة من النبيذ واللحمة. عند تحضير كل ما طلبه صلى وقال، «يا رب، أنت الذي أعطيت **ليو لينغ Liu Ling** السمعة من خلال النبيذ، وهو الذي باستطاعته استهلاك غالون في جلسة واحدة وأن يطلب ربع غالون آخر حتى يفيق من سكره، لا تستمع لكلمات زوجته لأنها لا تتكلم بالحقيقة.» بعد ذلك شرب النبيذ المخصص للتضحية وما فتأ أن سكر كعادته. أن انحيازه كان **لطاو لاو تسو**، وقد اقتلع هو في الواقع عن منزلته بسبب مقالة يمدح فيها مذهب عدم الفعل الهرطقي. المنولوج

أو القصة الفكاهية التالية تظهر الإرهاق الطاوي ظهوراً واضحاً:-

«سيد كبير بالسن صديق لي، (يعني نفسه)، يعتبر الأبدية كأنها يوم واحد، وقرون كاملة كما لو كانت لحظة من الزمن، الشمس والقمر تشكل شبابيك منزله؛ النقطة الأساسية هي حدود ولايته. أن يتجول بشكل طليق غير مقيد وبحرية، ويسكن دون حيطان إن قبة السماء هي سقفه، ومكان راحته هو حضن الأرض. أنه يتبع غوايته في كل الأشياء لا تمر لحظة دون أن تكون زجاجة نبيذ في يد واحدة والكأس في اليد الأخرى، إن فكره محصور بالنبيذ: ولا يعرف شيئاً آخر غير ذلك.

«محسنان محترمان، عند سماعهما عن ضعف صديقي أنطلقا للضغط عليه حدد الموضوع؛ وبكثير من الايماءات والاستهجان وبتقطيب شديد، وصرير الأسنان، وعظوه بخطبة تامة حول قواعد اللياقة وأرسلوا أخطائه وكي تزّن مثل سرب من النحل حول رأسه.

«عندما بدأوا عبأ الرجل الكبير بالسن كأسا عامرة أخرى، وجلس وبهدوء مسّد لحيته، واحتسى نبيذه على دفعات حتى في آخر المطاف دخل في حالة من السكر والسرور الهادئ على فترات من فقدان الوعي المطلق أو العودة الجزئية للوضوح العقلي. أذناه كانتا أبعد من أن يصلها الرعد ولا يمكن أن يكون قد رأى جبلاً. السخونة والبرودة بالنسبة له لم تعد موجودة. حتى لم يعد يعلم بإعمال عقله، بالنسبة له فإن شؤون هذا العالم تظهر كأنها طحالب على النهر، بينما المحسنين جلسا إلى جانبه وبديا مثل دبورين يحاولان أن يحولا يسروعاً،[37] إلى دبابير كما يعتقد الصينيون أن ذلك تم.

وهناك آخر، **هسي كانغ Hsi Kang**، شاب جميل طوله سبعة أقدام وسبعة إنشات وكان متزوجاً – عطية مشكوك بها – في العائلة الإمبراطورية. أكثر دراسة محببة له كانت الأبحاث في الخيمياء، وأمضى أيامه جالساً تحت شجرة صفصاف في ساحة داره يجرب تحويل المعادن، مبدلاً جهده بالموسيقى والشعر، مزاولاً فن التنفس بهدف

37 أي يرقانة الفراشة.

ضـمان الأبدية، لكن، حدث أن أهـان، من خلال افتقاره إلى الاحتفال، أحد الأمراء، الذي كان أيضاً طالب خيمياء، أدين لدى الإمبراطور كشخص خطير وخائن، بالموت، ثلاثة آلاف تلميذ له عرضوا أن يأخذوا مكان معلمهم المحبوب إلا أن طلباتهم رفضت واجـه مصيره بقـوة، مراقباً بهدوء الظلال التي ترميها الشـمس ولاعباً على عوده.

الثالث كان **هسيانغ هسيو Hsiang Hsiu** الذي جرب حظه في الخيمياء والذي سرق انتقاده **لتشـوانغ تسو Chuang Tsu**، كما قلنا سابقاً من قبل **كوو هسيانغ Kuo Hsiang.**

الرابع كان **يوان هسـيان Yuan Hsien** شـخص أرعن طائش، إلا أنه كان عازف غيتـار ومختصاً كبيراً بنظرية الموسـيقى، هو وعمه، كلاهما فقراء جداً عاشـا على جانـب مـن الطريق بينما عاش فـرع أغنى مـن العائلة على الجانـب الآخر. في السابع من الشهر القمري السابع نشر الأخير كل ما لديه من عظمة لأرواب الفرو وللملابس الغالية كما هي العادة في ذلك اليوم؛ وإذ ذاك قام **يوان هسـيان Yuan** Hsian بتشـعيب بنطلون قصير، يسمى سروال أنف العمل، الذي يلبسه من يجر العربات، وشرح لصديق بأنه كان ضحية استبداد العادات.

الخامس كان **يوان تشي Yuan Chi**، موسـيقى آخر، الذي أصبح الهاربسيكورد خاصتـه بمثابة «كمنجـة» الصين. دخل الجيـش وترقى إلى قيادة عليـا فيه لكنه

استبدل منصبه بآخر حيث سمع أن عنده طباخاً أمهر، كان نموذجاً للبر بالوالدين، وعندمـا توفيت أمه بكاها بدموع حارة لدرجة أنه ملأ عدة بينتات[38] من الدم. إلا أنه عندما ذهب **تشـيه هسي Chi Hsi** ليعزيه لم يعره انتباها، (وكما يقال أعطاه العين البيضاء، بينما شـقيق **تشي هسي** الذي حمل معه جرة من النبيذ وغيتاراً تم الترحيب به مع تلامذته، أكثر عمل مشهور له هو قصيدة سياسية مجازية في ثمانية وثلاثين مقطعاً شعرياً، كل مقطع يضم تقريباً اثنا عشر بيتاً. إن الإيحاءات في هذه

38 البāينت وحدة قياس للسوائل تعادل نصف ليتر تقريبا. المترجم.

عملت بطريقة ماهرة ومستترة بحيث أنها أصبحت غير معروفة دون تعليق عليها. وهـــذا الإخفاء كان ضرورياً جداً لحماية الشـــاعر في الزمان القلق الذي كان يكتب فيه.

السادس كان **وانغ جونغ Wang Jung** الذي كان يستطيع أن ينظر إلى الشمس دون أن ينبهر بصره، وأخيراً كان هناك **شان تاو Shan Tao**، تابع للتعاليم الطاوية الذي كان يقال عنه أنه مثل «اليشب غير المصقول» و«الذهب الخام.»

فيما بعد، في القرن الرابع، يأتي **فو مي Fu Mi** الذي لا يعرف عنه شـــيئاً ســـوى بعض الأبيات التي تشكل التالي ذكرها عينة عنها: -

«إن عربتك والأحصنة

ذهبت وأنا مغتاظ

وأتشوق للحبيب

الذي لا أقدر أن أنساه.

أيها الجوال، الذاهب

إلى بلاد بعيدة لتسكن،

لو كنت ظلك سألحق بك؛

وبالرغم من الغيوم ومن الليل

إن وجودي يجب أن يخبئ،

في عز النهار اللامع والمضيء

سأقف إلى جانبك!»

نصل الآن إلى اســم لا يزال معروفاً لجميع طلاب الأدب في المملكة الوسطى (أي الصين)، **تاو تشيان Tao Chien** (365-427 ميلادية) أو **تاو يوان مينغ Tao Yuan Ming** كما كان يعرف في صغره، حصل على منصب قاض بعد حياة عاشــها بالفقر في شبابه، لكن الحياة العامة لم تكن تناسبه بطبعه، كل ما كان يبغيه حسبما جاء في صلاته كان «السنين الطوال والنبيذ المعتق.» وقد احتفظ بمنصبه لمدة ثلاث وثمانين يوماً فقط معترضاً على اســتقبال موظف أعلى منه بالحفاوة المعهودة على أســاس «إنه لم يستطع ثني مفاصل ظهره مقابل خمسة مكيالات بك[39] من الأرز يومياً.»

هكذا هي تعليمات الدفع لقاضٍ، ثم اســتقال ليعيش حياة عادية واشغل نفسه بالشعر وبالموسيقى وتربية الزهور وخاصة زهرة الأقحوان التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً باسمه، في العمل الأخير، كانت زوجته تساعده حيث كانت تعمل في آخر الحديقة وهــو في الأمام منها، إن اعتزاله مــن عمله كان موضوع القطعة التالية، من صنف النثر الشــعري، الذي من وجهة النظر من ناحية الأســلوب يعتبر تحفة في اللغة:-

«إلى البيت أثني خطواتي. إن حقولي، وبســاتيني، خنقت من الأعشــاب الضارة: هــل كان علي ألا أذهــب؟ إن روحي كانت تعيش حياة العبيد: لماذا يجب عليّ أن أضمر؟ لكنني لن أضيع أي حزن على الماضي، ســوف أكرس حياتي للمستقبل. أنا لم أبعد كثيراً في التجوال. إنني أشعر أنني في المسلك الصحيح مرة أخرى. رويداً رويداً يسرع قاربي وثيابي تخفق في النســيم العليل، إني أســأل عــن طريقي وأنا ذاهب، وأنكر بــطء طلوع النهار. ومن بعيد أبصرت منزلي القديــم وفرِحاً أنطلق مسرعاً، الخدم يخرجون لملاقاتي، وأطفالي يتجمعــون حول البوابة. المكان مثل البرية. لكن لا تزال شــجرة الصنوبر القديمة واقفة وأقحواناتي، انا أمســك أيدي أطفالي الصغار وأمــشي. يقدم النبيذ بأوعية ممتلئة وأنا أســكب منها في كؤوس طافحة، أحدق في أغصاني التي أحب، أرتاح على الشــباك في حريتــي التي وجدتها مجدداً، وأنظر إلى الأطفال الحلوين الجالسين على ركبتي.

39 البك يساوي ربع بوشل، وهي مقاييس لقياس وزن الحنظة / المترجم.

«أما الآن، أنبسط في حديقتي، توجد بوابة، لكنها قلما تفتح، أرتكز على عصاتي وأنا أتجول أو أجلس لأرتاح، أرفع رأسي وأتخيل المشهد الجميل، ترتفع الغيوم دون أن تريد، من قعر التلال، العصافير التعبة تطلب عشها مرة أخرى. تختفي الظلال، لكنني ما زلت أتباطأ حول صنوبرتي الوحيدة. البيت مرة أخرى! لا يوجد عندي صداقات لتلهيني منذ هذا التاريخ، الزمن خال بالنسبة لي. وماذا علي أن أبحث عند الرجال. في الفرح الطاغي في محيط العائلة سوف أقضي أيامي، مرحباً بالساعات البطالة بالعود والكتاب، سيخبرني الفلاحون متى يحين الربيع ومتى سيكون هناك عمل في أتلام الحقول. هناك سوف أصل بالعربة أو بالقارب، عبر الوادي العميق، وفوق الصخرة التي تدوخ، الشجر الذي يشق طريقه بسرور ليصبح ورقة والجدول الذي ينتح من مصدره الصغير يبسط تجدد الحياة هذا في الفصول الآتية. لكن بالنسبة لي، أفرح لأن رحلتي قد انتهت. آه، كم الزمن قصير الذي تكون فيه هنا! لماذا إذاً لا نرتاح ونتوقف عن الاضطراب إن كنا سنذهب أم نبقى؟ ما هو الشيء الذي يدللها حتى تستهلك روحك بأفكار قلقة؟ لا أريد الغنى، لا أريد السلطة، والسماء أبعد من آمالي، بعد ذلك دعني أتمشى عبر الساعات المضيئة وهي تمضي في حديقتي بين زهوري، وإلا سأركب التلال وأغني أغنيتي أو أَحبُك قصيدتي بجانب النهر الصافي. وهكذا سوف أشتغل بالوقت المخصص لي، راضياً بتعيينات القدر، وروحي تخلو من الاهتمام بشيء.»

إن «بئر الخوخ المتفتح» **لتاو تشيان Tao Chien** هو مجاز أخاذ، نوع من الأدب الذي عكف الكتاب الصينيون على تغذيته، إنه يتحدث عن صياد سمك أضاع طريقه بين جداول النهر فوجد بستانا كثيفاً وحيوياً من شجر الخوخ منوراً بالكامل، فدفع بقاربه، تواقاً لمعرفة كم تبلغ مساحة البستان.

«فوجد أن شجر الخوخ ينتهي عندما تبدأ المياه، عند أسفل التلة، وهناك رأى على ما يبدو أنه مغارة يخرج منها الضوء. فأسرع بقاربه وزحف إلى الداخل عبر مدخل ضيق قاده في مدة قصيرة إلى عالم جديد من بلاد مستوية، وبيوت جميلة

وحقــول معطاءة، وبــرك جميلة ووفرة من التوت والبامبو، طرق الســير السريعة تســير من الشــمال إلى الجنوب، وســمع صياح الديك وعواء الكلاب، وكانت ثياب النــاس الذين مروا أو كانــوا في العمل في الحقول من طراز عجيب، بينما كان يبدو على الصغار والكبار الرضى والسعادة.»

وقيل له أن أسلاف هؤلاء الناس التجأوا قبل حوالي خمسة قرون ليهربوا من أيام القلق التي كانــت في أيام «الإمبراطور الأول،» وبقوا هناك، مقطوعين بالكامل عن باقي الجنس البشري. وعندما عاد إلى بيته شاعت القصة في الخارج فأرسل الحاكم رجــالاً ليجد هذا المكان العجيب، لكن صياد الســمك لم يســتطع البتة أن يجدها ثانية. سمحت الآلهة للشاعر أن يعود لفترة وجيزة إلى أيام الخوخ المنوّر في صباه.

أحــد النقاد يتحدث عــن **تاو تشــيان Tao Chien** وكأنه «ســكران مع أدخنة الربيــع.» وآخر يقــول، «إن قلبه كان مركزاً على الولاء والالتزام بينما جســده كان راضياً بالرفاهية والهدوء، كانت عواطفه حقيقية، وكان المشــهد الخاص به حقيقياً، حقائقــه كانت صحيحة وكذلك كانت أفــكاره. إن براعته الحرفيــة كانت جميلة للغاية مما جعلها تبدو طبيعية، إن قدّومه وإزميله لم تترك آثاراً خلفه.»

كثير من شــعره هو شعر ســياسي، ويمتلئ بتلميحات للأحداث تم نسيانها الآن، وخلطــت بالأفكار والجمل التي يعجب بها كثيراً أبناء بلده. إذاً، عندما يصف لقاء مع صديق قديم في بلد بعيد، فإن هذه الفقرة يتم تحريرها بكثافة من قبل المحرر أو الناقد وتحصل على علامات الاستحسان:-

«قبل أن يتم الحديث بالكلمات، القلب سكران،

وأنا أحتاج للنبيذ؟»

التالي هو واحد من قصائده المتفرقة:-

«عالِم يعيش على تلك التلة،

وثيابه هي غالباً لا ينظر إليها،

تسع مرات في الشهر يأكل ملء بطنه،

مرة في عشر سنوات تكون قبعته جديدة

يا للتعاسة! - بالرغم من ذلك

يلبس باستمرار ضحكته المشرقة.

«يتشوق ليعرف على شاكلة من هو

عند الفجر تشكل خطواتي ممراً غير مغلق

حيث ترك خشب التنوب الأسود الممر مفتوحاً

وفي المساء، السحب البيضاء تغفو.

«لكنه، وقد تلصص على نيتي،

أمسك غيتاره وضرب على أوتاره،

طار طائر الكركي باتجاه السماء،

والآن طائر التدرج الفزع يقفز. ...

آه، دعني أرتاح معك حتى

تصير رياح الشتاء مرة أخرى باردة!»

باو تشاو Pao Chao كان موظفاً وشاعراً هلك في عام 466 ميلادية في ثورة، وقد حفظت بعض من أشعاره:-

«ماذا تعني هذه القاعات من اليشب.

وكذلك الأرض البراقة.

حيث مطرزات الساتان تتدلى

من الشبابيك والأبواب؟

سيدة على مقعد وحيد،

تطرز

الأزهار الجميلة التي يبدو أنها تُشَم مثل الحلاوة

كالبراعم في الربيع.

السنونو تطير مرفرفة، والقماش يرتج

وشجرة البرقوق المزهر تنكسر،

أنها تسحب الستائر تأخذ الكأس

أفكارها إلى الغرق.

والآن تجلس ودموعها أو تدمدم

مهتمه بحزنها

في حياتها أن الفرح نادراً ما يجلب

لها الراحة...

آه، لهروب السلحفاة المتواضعة

رفيقي وأنا

ليس طائر الكركي في وحدته البعيد عن النظر

أبعد من السماء!»

الاســم الأصلي لشــخص مذهل وضع نفســه عــلى العرش في عــام 502 ميلادية

كالإمبراطور الأول لسـلالة **ليانغ Liang**، كان **هسـياو ين Hsiao Yen**، كان بوذيا ورعـاً، يعيش على أجر الرهبنة ويتناول وجبة واحدة في اليوم، وبمناسـبتين في عام 527 و529 تبنى بالفعل لباس الرهبان، وكتب كذلك شـعيرة بوذية في عشرة كتب، وفـسر الوصية البوذية «لا تقتل» في معناها الحـرفي، القصيدة القصيرة التالية من قلمه:-

«الشجر ينمو ليس متشابها،

في التلة وإلى الحصن المائي؟

الطيور تغني في الغابة،

بنوتات مختلفة؟

أما الأسماك في النهر

بعضها يغوص وبعضها يطفو

الجبال تكون شاهقة

والمياه ترسو إلى تحت

لكن لماذا وما هو السبب

لا يمكننا أبداً أن نعرفه.»

شاعر آخر، معروف جداً، عاش في القرن السابع هو **هسيه تاو هنغ Hsieh Tao Heng** أسـاء **ليانغ تي Yang Ti** – الإمبراطور الثاني لسـلالة **سوي Sui**، لأنه يقرض الشـعر أفضل من جلالته، فوجد هذا عذراً لقتله. واحد من أكثر المقاطع الشعرية المؤلفة من بيتين شعريين، إعجاباً باللغة مرتبطة باسمه، مع أنها ليست بقلمه لأن صاحبها غير معروف. ليسلي مجموعة من الأصدقاء كتب **هسيه تاو هينغ Hsieh Tao Heng** فجأة:-

«أسبوع في الربيع يبدو للمبعد

مثل الغياب عن البيت لعدة سنوات.»

و«جنوبيّ» كان حاضراً سخر من ضحالة الغرور فكتب فوراً البيتين التاليين:-

«إن كان البيت الذي سنذهب إليه مع الإوز الخريفي البري.

سيذهب بقلوبنا معها قبل أن تزهر أزهار الربيع.»

أحــد موظفي ســلالة **ســوي Sui** كان **فــو أي Fu I** (554-630 ميلادية)، أصبح مؤرخاً في حكم الإمبراطور الأول لسلالة **تانغ Tang**. وكان ميالا جدا للطاوية وحرر **طاو ته تشــينغ Tao Te Ching**. وفي الوقت نفسه كتب مذكرة يطلب فيها إلغاء الديانة البوذية، عندما ســأله **هيساو او Hsiao Yu**، أحد سلالة **هسياو ينHsiao Yen**(انظر أعلاه) عن الموضوع قال، «لم تكن قد ولدت في شجرة توت فارغة، ومع ذلــك أنت تحترم ديناً لا يعترف بالعلاقة بين الأب والابن!» وحث في جميع الأحوال عــلى أن يجبر الكهنة والراهبات على الــزواج وأن يربوا عائلات، وأن لا يتهربوا من التبرع بحصتهم إلى إيرادات الدخل مضيفاً أن **هســياو أو Hsiao Yu** بدفاعه عن مذهبهم أظهر نفســه بأنه ليس أفضل منهم، وهنا رفع **هسياو أو Hsiao Yu** يده معلنــا أن الجحيــم عمل لمثل هؤلاء الرجال مثل **فــو أي Fu I**. والنتيجة كانت أن قيوداً شــديدة وضعت لفترة قصيرة على معلمي البوذية. في مرة من المرات مســك الإمبراطور **تاي تســونغ Tai Tsung** راهباً من التتار الذي كان بإمكانه أن يســحر النــاس ويغيبهم عن الوعــي، تم يعيدهم مرة أخرى للحيــاة،» وتحدث عن قوته إلى **فو أي**. قال الأخير بثقة، «لن يســتطيع هو أن يســحرني،» وعندما اختبر، فشل الراهب فشــلاً ذريعاً، كان هو منشئ المراثي التي تنقش على القبور، وكتب لنفسه مرثية جاء فيها:-

«**فو أي** أحب التلال الخضراء والغيوم البيضاء...

واحسرتاه لقد مات من الشرب.»

وانــغ تشي Wang Chi الذي عاش في القرنين الســادس والســابع الميلادي كان روحــاً متوحشــة غير تقليدية مــع حب مميــت للنبيذ، والذي ســبب طرده من وظيفتــه. إن مقدرتــه على المشروبــات الروحيــة القوية، الليكــير، كان لا يحدها حــدود، وقد عــرف بأنــه العــالم ذو الزجاجات الخمســة. وفي فــترات متقطعة جزلــة كتب النثر والشــعر الجميلــين اللذان لا يــزالان يقرآن بــسرور، التالي هي روايتــه عــن زيارتــه إلى أرض الســكارى، والقصــة تــروى بكل ما لهــا من جلال وبأســلوب مبني على ذلك الموجــود بالروايات العادية للأمــم الأجنبية الغريبة:-

«هــذا البلد يبعد عدة آلاف من الأميال عن المملكة الوســطى «أي الصين»، إنه بلد كبير واســع، وســهول بلا حدود، دون جبال أو تضاريس من أي نوع، الطقس معتــدل، لا يوجــد لا نهار ولا ليل، ولا برد ولا ســخونة، إن الأخلاق والعادات هي نفسها في كل مكان.

«لا يوجــد فيها قرويون أو تجمعات للأفراد، الســكان رقيقــون بتوجهاتهم، ولا يعرفون الحب أو الكره، الفرح أو الغضب. إنهم يستنشــقون النسيم ويسترشفون النــدى لا يأكلون أيــاً من الحبوب الخمســة. الهــدوء في الطمأنينــة، بطيئون في مشــيتهم، يختلطون مــع الطيور، والوحوش، والســمك، والمخلوقات الحرشــفية، يجهلون القوارب، والعربات والأســلحة أو أي أدوات بشــكل عام.» قام الأمبراطور الأصفــر بزيارة إلى عاصمة أرض الســكارى، وعندما عاد كان الغــرور قد تركه مع الإمبراطوريــة، والحكومــة التي كانت تبدو له تافهة لعوبــاً مربوطة ربطاً محكماً. «**يــوان تــشي Yuan Chi، تــاو تشــيان Tao Chien**[40] وغيرهــم، حــوالي عشرة مــع بعض، قاموا برحلة ســوياً إلى أرض الســكارى وغاصوا ولم يخرجــوا أبداً. لقد دفنــوا حينــما وقعوا، والآن في المملكة الوســطى أطلق عليهم اســم أرواح النبيذ.

---

40 هنا يقترف الشاعر خطأ، لم يكن هذان الاثنان متجايلين.

«وأســفاه، لا اســتطيع أن أتحمل اعتبار النطاق الصافي والسلمي لبلد السكارى محمية للقدماءذهبت إلى هناك بنفسي.»

تغلق هذه الفترة على اسم الإمبراطور المعروف باسم **يانغ تي Yang Ti**، المذكور سلفاً فيما يتعلق بالشاعر **هسيه تاو هنغ Hsieh Tao Heng**، كان قد قتل شقيقه الأكبر، وبعد ذلك قتل والده، فاعتلى العرش في 605 ميلادية وأطلق لنفســه العنان في الإسراف والفسق، تم تزويد الشجر في منتزهه في الشتاء بأوراق وزهور حريرية، وكادت الطيــور تنقرض عندما حاول تزويد مســانده بكميات كافية من ريشــها. بعد أن حكم لمدة ثلاث عشر ســنة هذا الراعي المغاير للأدب وقع ضحية للاغتيال. بالرغم من شخصيته سيئة السمعة كان **يانغ تي Yang Ti** يتفاخر بالمكاسب الأدبية التي حققها، وهو الذي وضع مائة عالم ليحرروا مجموعة من المقالات الكلاســيكية والطبيــة وغيرها، وخلال حكمه في ســنة 606 ميلادية وضع الامتحانات للشــهادة الثانية أي «شهادة الماجستير في الآداب».

الفصل الثاني
العلم والمعرفة الكلاسيكيان

في المجالين للأدب الكلاسيكي والعام يحتل **هوانغ فو مي Huang Fu Mi** (215-282 ميلاديـــة) مكانـــاً مشرفاً. بدأ حياته حراثـــاً، وبالمثابرة أصبح عالمـــاً جيداً آخذاً الأدب كمهنـــة، وبالرغـــم من الروماتيزم الشـــديد لم يكن أبـــداً دون كتاب في يده، وأصبح مأخوذاً بعمله لدرجة أنه كان ينسى الطعام وساعة النوم، وأطلق عليه لقب **المنغمـــس في الكتب**، وفي إحدى المرات أراد أن يقترض أحد الأعمال من الإمبراطور **وو تي Wu Ti** من ســـلالة **تشـــن Chin** وكان قد رفض عروض توظيفه، فأرسل له عربة ملأى بالكتب ليقرأها. فأنتج المقالات، والشعر وعدداً من كتب السيرة الهامة. وكان عمله عن **حوليات الربيع والخريف** رائجاً رواجاً كبيراً.

ســـون شـــو جان Sun Shu Jan. من الفترة نفســـها، برز في أعماله عن القانون الكونفوشيوسي، وكتب **أر يا Erh Ya**، وهو أقدم قاموس صيني موجود.

هسون هسوHsun Hsu، (توفي في 289 ميلادية) ساعد في إخراج القانون الجزائي لســـلالة تشـــن Chin التي كانت قد أسســـت حديثاً، وقام بدور قيادي في تحرير **حوليات البامبو** التي كانت قد وجدت لتوها في **هونان Hunan** وكتب مقدمة **مو تيان تسو تشوان Mu Tien Tzu Chuan** وكتب كذلك في الموسيقى.

كوو هســـيانغ Kuo Hsiang (توفي 312 ميلادية) أشـــغل نفســـه بفلســـفة **لاو تســـو** وبكتابات **تشـــوانغ تســـو Chuang Tzu**. وقد قيل عنه أن محادثاته كانت مثـــل الهطـــول المتواصل للميـــاه السريعـــة أو المتدفقة من بوابـــة التحكم بالمياه.

كـــوو بـــو Kuo Po (تـــوفي في عـــام 324 ميلاديـــة) كان عالماً ذو ســـمعة عالية جـــداً. إلى جانـــب تحريـــره لأعـــمال كلاســـيكية هامـــة ومتعـــددة، فلقـــد كان

داعيــة لامعة لــشرح مذهــب الطاوية ومؤسســاً شــهيراً لفــن الــضرب بالرمل كــما هــو يمارس عــلى القبــور، ولم يــزل يُمــارس كذلــك في جميع أنحــاء الصين في هــذه الأيــام. وكان عالمــاً في علــم الفلــك والتنجيــم والفلســفة الطبيعيــة.

فان يه Fan Yeh، الذي أعدم لخيانته في عام 445 ميلادية كان مشهوراً بالأساس لتاريخ ســلالة **هان Han**، من حوالي تاريخ الفترة المســيحية، عندما توقفت هذه الســلالة، كما أســلفنا ســابقاً من قبل مغتصب، وطلوعاً حتى السقوط الأخير بعد مائتي عام.

شــن يو Shen Yo (441-513 ميلادية) شــهير آخر، كان ابــن حاكم **هواي نان Huai Nan** الذي أدى قتله في عام 453 ميلادية إلى إجباره على الاختباء لفترة من الوقت. فقير ومجتهد قيل عنه أنه كان يصرف الليل وهو يعيد ما تعلمه بالنهار لأن أمه كانت قلقه عليه بســبب صحته، فحدّث مــن تزويده بالزيت والوقود. التحق بالحياة الرســمية، فصعد ســلم الوظيفة العليا، حيث اســتقال لسوء صحته مكللاً بالألقاب الشرفية. من ناحية شخصية كان ملفتاً للنظر لأنه كان عنده تلميذين من جانب عينه اليسرى. وكان يمتنع عن المســكرات امتناعاً تاماً وكان يعيش بتقشــف شــديد. وكانت عنده مكتبة تضم عشرين ألف مجلد. وكان كاتب تواريخ كل من **سلالة تشن، ليو، سونغ، وتشي.** وقيل أنه أول من صنف الأصوات الأربعة. في سيرته الذاتية كتب

« إن الشعراء القدماء، عبر آلاف السنين الماضية لم يتعثروا بهذه الخطة. وأنا الوحيد الذي اكتشــف فائدتها.» قــال له الإمبراطور **وو تي Wu Ti** من ســلالة ليانغ يوماً ما، «تعال أخبرني، ما هي هذه الأصوات الأربعة؟» فأجابه **شــن يو Shen Yo** إنها ما ترغب جلالتكم في العمل بها كما تشــاؤون،» مختاراً بشــكل ماهر لإجابته أربع أحرف صينية تصور الأصوات الأربعة في الترتيب المعتاد.

هســياو تونــغ Hsiao Tung(501-531 ميلادية) كان الابن الأكبر **لهســياو ين Hsiao Yen**، مؤسس سلالة ليانغ، الذي توفي قبله. قبل أن يبلغ الخامسة من عمره قيل عنه أنه حفظ الكلاسيكيات عن ظهر قلب، وبأن سنواته المقبلة كانت تتصف

بمقــدرة أدبية عظيمة، وعلى وجــه الخصوص كتابة الشــعر. كان جميلا وبأخلاق آسرة، لطيفاً وحليــماً، كان محبوباً من الجميع. في 527 رعى والدته المريضة خلال مرضهــا الأخير، وحزنه على موتها أعاق تركيبته الطبيعية الرقيقة، لأنه فقط بطلب جــدي من أبيه وافق على الأكل والشرب خلال فترة العزاء. كان المثقفون متأكدون من رعايته لهــم، وكان قصره يحتوي على مكتبة عظيمة. محب للطبيعة كان يُسرُّ أن يتجــول مع العلماء في متنزهه الجميل والــذي رفض أن يضيف إليه أمراً جذاباً وهــن المغنيات. عندما ارتفع ســعر الحنطة نتيجة الحــرب مع **واي Wei** في 526، عــاش على الغذاء المقتصد. وخلال حياته كلهــا كانت تبرعاته عالية جداً وحفظت سراً وتم توزيعها من قبل معاونين صدوقين من الذين بحثوا عن كل حالات الضيق والعــوز. وقــام هو بإفراغ خزائنه لصالــح الفقراء، وصرف أمــوالاً طائلة على دفن الموتى المنبوذين، واعترض بشدة على العمل القسري في الأعمال العامة. وكان يحترم والده احتراماً شديداً وكتب له عند ما كان هو نفسه في النفس الأخير، على أمل أن يخفي الخطر. لكن يتم تذكره الآن ليس بسبب فضائله بل بالبدء بدائرة جديدة في الأدب. ســنة قبل مماته أنهى كتابه **ون ســوان Wen Hsuan**، أول مجموعة عمل نــشرت من المختــارات، كلياً أو جزئياً، لعدد كبير مــن الكتاب. وتم تصنيف هؤلاء تحتَ عناوين مثل الشعر من أنواع متعددة، المقالات، النقد، التذكارات، المقدمات، وخُطَب الجنازات، والمراثي التي تنقش على القبور.

وهكــذا بدأت الفكرة وتطورت بسرعة، واســتمرت في التطــور إلى أن وصلتنا في العصــور الحديثــة، مجموعات أعمال كبــيرة طبعت من فترة لأخــرى في طبعات متشــابهة وكثير من الكتب التي قــد تكون دون ذلك، أتلفت، تــم الحفاظ عليها لذرية شــاكرة. إن ســجلات الممالك البوذيــة بقلم **فا هســيان Fa Hsien** يمكن اقتباسها كمثل في هذا الشأن.

الكتاب الرابع
سلالة تانغ (600-900 ميلادية)

الفصل الأول
الشعر

سلالة **تانغ Tang** مرتبطة عادة في العقل الصيني برومانسية الحب والحرب، بالثراء والثقافة، بالتأديب واللهو، بالإسراف بالترف والفسق ولكن على رأس كل ذلك عرفت بالشعر، إن جهود الصين المخلصة في هذا الاتجاه نتجت أساسا ضمن حدود الثلاثمائة سنة وتم المحافظة عليها بشكل دقيق كنماذج خالصة للشعراء المستقبليين لجميع الأجيال.

يقول النقاد الصينيون المعاصرون بأن «الشعر قد أتى للوجود مع القصائد الغنائية، تطور مع **لي ساو Li Sao**، اندفع ووصل إلى الكمال تحت **سلالة تانغ**. وتم إنجاز أعمال جيدة بالفعل تحت حكم سلالتيّ **هان Han** و**وي Wei**، يبدو أن كتاب تلك الأيام كانت لديهم المادة بكثرة، لكن اللغة كانت غير ملائمة للتعبير عنها.

إن «المجموعة الكاملة للشعر في سلالة **تانغ** «التي نشرت في 1707، تتضمن 48900 قصيدة شعرية من جميع الأنواع، مرتبة في 900 كتاب وملأت حوالي ثلاثين مجلداً. بعض الكتاب الصينيون يقسمون السلالة إلى ثلاث فترات شعرية تسمى المبكرة، والمجيدة، والمتأخرة، ويدّعون أن بإمكانهم استكشاف الأعمال المنوطة بكل واحد من الصفات الملازمة للنمو والكمال والانحطاط. وغيرهم يضعون فترة وسيطة بين الفترتين النهائيتين أعلاه، مما يجعلها أربع فترات. إلا أنه لأغراض عامة، يصبح فقط من الضروري ذكر التالي أنه منذ عصر **الهان Han** إن معاني الكلمات أصبحت تدريجياً تضبط بشكل أكثر تحديداً والترتيبات البنيوية أكثر تطابقاً وأكثر صقلاً. وأصبحت التخيلات تأتي أكثر حرية وأصبحت اللغة تتدفق أكثر سهولة وأكثر موسيقية، وكأنها تتجاوب مع متطلبات الفن. والشعر الصيني في أحسن أحواله هو جوزة يصعب كسرها، يعبر عنه، كما جرت العادة في أبيات من خمسة أو سبعة

أفكار أساسـية ذات المقطع الواحد دون تصريف أو تراص أو وحدة زمنية لتاريخ الأحداث من أي نوع. الترابط بينها يكون على القارئ اسـتنباطه من المنطق أو من المحتـوى وأقل مـا يقال في هذا الصدد ألا تكون من الترتيبـات النحوية للكلمات، بعـد كل هذا فإن الشـاعر تتم إعاقته ليس فقـط بالقافية وإنمـا أيضاً بالصوت. لأهداف الشـعر، إن الأحرف الصينية باللغة الصينية كلها يتم ترتيبها وفقاً للصوتين «منبسـط» و«حاد»، وهذه تحتل مواقع محددة تماماً مثل التفعيلات الشـعرية، والكلـمات ذات المقطعين، والتفعيلات، والقياس المـتري الموزون كما هو الحال في بناء الشعر اللاتيني. ونتيجة لذلك إن الموقع الطبيعي للكلمات غالباً ما يتم التخلي عنـه لأغـراض الصوت، وبالتالي جعلها أكثر صعوبة مـن أي وقت للقارئ أن يفهم معناها. في مقطوعة شـعرية من أطوال الأحرف الصينية الخمسـة العادية، تظهر هذه الترتيبات الصوتية التالية:-

حاد حاد منبسط منبسط حاد

منبسط منبسط حاد حاد منبسط

منبسط منبسط منبسط حاد حاد

حاد حاد حاد منبسط منبسط

إن التأثـير الـذي تعمله هذه الأصوات مميز جداً، ويبسـط الإذن وغالباً ما كان يعوض عن أخطاء القافية التي هي ببسـاطة قافية القصائد الغنائية كما سـمعت قبل 2500 سـنة، والكثير منها بالطبع لم يَعد له قافيـة البتة. وهكذا، هناك تصَنُّع فيـما يتعلق بالمقطوعة في الشـعر الصينـي كما هو الحـال في مقطوعة الكايك[41] اللاتينيـة. ولكن بين يدي الموهوبين، يتم تخبئة هـذه الاصطناعية كلية من خلال الفن، وقيود الصـوت والقافية تتغير هيئتها وتبدو أنهـا أصبحت معاوناً وإضافة، ضروريـة للنجاح. وقد نشر العديد من الأعمال لقيـادة الطالب في مهمته الصعبة على ما يبدو. أول حكم في واحد منها يبدو شـاملاً إلى درجة لا تدع مجالاً لمراجعة

41 الكايك Alcaic تتعلق بكتابة بيت شعري يميزه صعوبة المتغيرات المهيمنة على وحدة الشعر ذات المقطع الطويل والمقطع القصير. المترجم.

أوســع. وقد جاء فيها:- «اطرح عنك الشــكل العادي، اطرح عنك الأفكار العادية، أطرح عنــك الصياغات العادية، اطرح عنك الكلــمات العادية، اطرح عنك القوافي العادية.»

إن القصيــدة الطويلة لا تلائــم العقل الصيني. لا يوجــود شيء مثل الملحمة في اللغــة، ومع ذلك يوجد بالطبع عدة قطع تمتد لعدة مئات من الأبيات الشــعرية. والإيجاز هو بالفعــل روح القصيدة الصينية، التي يتم تثمينها ليس لما تقوله وإنما لما تقترحه. كما في الرســم، كذلك في الاقتراحات الشــعرية يكمــن الغرض والهدف للفنان الــذي في كل حالة يمكن وصفه بالانطباعية. الطول المثالي هو اثنا عشر بيتاً من الشــعر، وهذا هو الحد الذي وضع للمرشــحين للامتحان العام الكبير في هذه الأيام، والصينيون يعتقدون أنه إن لم يتمكن شــاعر مــن قول ما يريد قوله ضمن هــذا الإطار فمــن الأفضل أن يتركه جانباً. إن القصيدة مــن ثمانية أبيات هي أيضاً محببة، وهكذا كذلك، ما لم يكن لصعوبتها، فإن القصيدة القصيرة من أربع أبيات، أو «توقف قصير» وتسمى هكذا بسبب المفاجأة، ولكن كما يشرح النقاد، الكلمات هــي التي تتوقف، بينما المعنــى لا يزال يمشي،» إنها بعض الأفــكار، نطرحها على القراء، إن شكل الشعر الأخير كان مستخدماً في زمن سلالة **هان Han**، لكنه وصل إلى الكمال في ســلالة **تانغ Tang**. بالرغم من إنه كان يتكون فقط من عشرين أو ثمانية وعشرين كلمة حســب المقياس المستعمل أنه طويل كفاية للشاعر أن يقدم أو يطور أو ينمق أو ينهي موضوعه وفقاً لعدد من القوانين الثابتة في الإنشاء. يعتبر البيــت الثالث الأكثر صعوبة لإخراجه، مع عدد من الشــعراء يكتبونه أولاً، البيت الأخير يجب أن يتضمن «مفاجأة» أو ما يســمى «إدراك الحبكة الفنية في الرواية. «يتم تذكيرنا بالصيغة القديمــة التي تقول باللغة اللاتينية «Omne epigramma sit instar apis» والمعروفة بشكل أفضل في صيغتها الإنكليزية:-

«الصفات نادرة في النحلة التي نلتقيها

في الأبغرام[42] يجب ألا يخسر أبداً

42 القصيدة القصيرة.

الجسد يجب أن يكون صغيراً وحلواً

واللغة يجب أن تبقى في الذنب.»

التالي هو عينة قديمة كتبها كاتب غير معروف لقصيدة من أربع أبيات:-

«القمر المشع يضيء فوقنا

الجدول تحت لمسة النسمة

هي حقيقة فرح خالص وتام،

لكن قلة هم الذين يعتقدون ذلك.»

الآن نبدأ بلائحة تكاد لا تنتهي من الشعراء، لكن سنأخذ منها مختارات قليلة. يمكننا أن نبدأ بـ **وانغ بو Wang Po** (648-676 ميلادية)، ولد نضج مبكراً، قَرَضَ الشعر وهو في السادسة من عمره. نال شهادته وهو في السادسة عشرة، ووظف في دائرة التاريخ، لكنه طرد لأنه هجا أمراء الإمبراطورية لميولهم بصراع الديكة. ولكنه شغل نفسه في أوقات فراغه بنظم الشعر الجميل. ولم يكن قد فكر فيه من قبل ولكن بعد تحضيره لكمية من الحبر جاهزة للاستعمال يشرب حتى يثمل فينبطح على وجهه المغطى. وعندما يفيق يأخذ قلمه ويكتب الابيات الشعرية، حيث لم تكن هناك حاجة لتغيير أي كلمة فيها، ومن هنا حاز على لقب «بيللي درافت» ويعني بذلك أن كل مسوداته أو النسخ الأولية كانت كلها ترتب داخله. وكان يحصل على الكثير من هدايا الحرير لكتابة هذه القصائد الغنائية حتى قيل «أنه كان يحيكها بعقله.» الأبيات التالية كتبها بقلمه:-

قرب هذه الجزر/

شيد أمير قصراً

لكن موسيقاه وأغانيه/

غادرته منذ زمن؛

إن سحب الصباح على التلال/

تكتسح القاعات،

في الليل البرادي الحمراء/

ملفوفة على الحوائط.

الغيم فوق المياه/

ظلالها لا تزال مرمية،

الأمور تتغير مثل النجوم/

كم من خريف مضى

لكن أين هو هذا الأمير؟/

أين هو؟ -لا جواب

باستثناء طرطشة الجدول/

فإنه يتدحرج بلا توقف.

وكان أكثر شهرة منه، مجايله تشن تسو انغ Chen Tzu Ang (656-698 ميلادية) الذي تبنى نوعاً من الأدوات المثيرة ليجلب لنفسه انتباه الجمهور. اشترى قيثاراً غالي الثمن جداً الذي كان دائماً معروضاً للبيع وأعلن أنه في اليوم التالي سيقدم عليه عرضاً للجمهور. هذا استدعى جمهوراً غفيراً؛ ولكن عندما وصل **تشن Chen** أبلغ مستمعيه إن في جيبه شيئاً ما تبلغ قيمته أكثر بكثير من القيثار. وبناء عليه كسر الآلة الموسيقية إلى آلاف القطع وبدأ فوراً يوزع نسخاً من كتاباته. أدناه توجد عينة موجهة ضد عبادة البوذيين للأصنام و«النبي» يمثل أي معلم موحى إليه من المدرسة الكونفوشيوسية:-

«على الذات، لا يضع النبي عينيه عليها

مهمته أن يخفف هلاك البشرية،

لا قصور خرافية أبعد من السماء،

المكافآت التي ستأتي، هي حاضرة في مخيلته.

وقد سمعت أن الإيمان يدرّسه بوذا

يمتدح لأنه خالص وحر من الوصمة الدنيوية،

لماذا إذاً هذه الاصنام المحفورة والمنحوتة، المليئة

بالذهب والفضة، بالجواهر واليُشب والصور الملونة؟

السماء التي تشكل قبة لهذه الأرض والجبال والوديان،

كل ما هو عظيم وفخم سيختفي،

وإذا كان نوع الآلهة لا يستقيم،

هل العمل الفقير للإنسان سيهرب من التعفن؟

مجانين أنتم! في الضوء الحقير

إن الإيمان الحقيقي يذوي ويذهب بعيداً عن النظر.»

كموظف حصل مرة **تشن تسو آنغ Chen Tzu Ang** على سمعة عظيمة من قبل قرار سليماني حقيقي. إنسان بعد قتله لقاتل أبيه، أدين هو شخصياً بجريمة قتل. **تشن تسو آنغ** تسبب في تعرضه للقتل، ولكن في الوقت نفسه منح قريته امتياز شرف لأنها أنتجت هكذا ابناً باراً.

ليس الكثير معروف عن **سونغ تشين ون Sung Chin Wen** (توفي عام 710 ميلادية)، وعلى أي حال ذاك لصالحه، في إحدى المناسبات، سر الإمبراطور سروراً عظيماً من بعض أبياته ما كان منه إلا أن خلع الروب الإمبراطوري ووضعه على كتفي الشاعر. التالية إحدى قصائده:-

«إن غبائر الصباح

أزاحها وابل من المطر

والشجرات إلى جانب الجسر

غطيت كلها بالزهور،

وعند مرور الحصان الأبيض

عليه سرج من الذهب،

وعليه سيدة جميلة

كأجمل جنية من الماضي.

إلا أنها غطت بكياسة

جمالها عن عيوني

حتى أن الولد الذي معها

شعر بذلك من تنهداتي،

بالرغم من أنني لا أقع في الحب فوراً

أفترض ذلك

كان من الصعب أن تمر هذه الرؤيا

مثل الحلم.»

منـغ هــاو جــان Meng Hao Jan (689-740 ميلادية) لم يعط أي إشــارة في صباه عن العبقري الذي كان نائماً في داخله. رســب في الامتحانات العامة واستقال واعتكف في الجبال. بعدها أصبح شاعراً من الطراز الأول، وكتاباته كان يبحث عنها باشــتياق. في ســن الأربعين صعد إلى العاصمة، وكان في يوم من الأيام يتحدث مع مجايله المشــهور، **وانغ وي Wang Wei**، وفجأة أعلن عن قدوم الإمبراطور. اختبأ وراء الأريكة، لكن **وانغ وي** كشف مكانه، وكانت النتيجة أنه أجرى مقابلة جميلة مع جلالته. التالي هو عينة من نظمه:-

«الشمس غابت وراء المنحدر الغربي،

والقمر الشرقي يعكس حاله في البركة،

بالشعر المتدلي أفتح بلكونتي،

وأمدد أطرافي لأتمتع بالبرودة.

معباً برائحة اللوتس، النسيم يمر

النقاط التي تتساقط بوضوح من البامبو العالية اسمعها،

واحدق بوعودي البطالة واتنهد،

يا للأسف، لا توجد أي روح متعاطفة بالقرب،

وهكذا أنام نوماً خفيفاً، وكان الوقت كله أمام ناظري

أصدقائي الأعزاء من أيام أُخر انهضوا بأشكال تلبس الحلم.»

كان **وانغ واي Wang Wei** (699-759 ميلادية) مشـــهوراً بالقدر نفســـه كشاعر وطبيب. بعد فترة قصيرة من الخدمة الرســـمية، هو أيضاً اســـتقال وذهب واعتزل وأشـــغل نفســـه بالشـــعر وبتعازي البوذية التي كان هو يؤمن بهـــا بثبات وابياته الشعرية التي ودع فيها **مينغ هاو جان Meng Hao Jan** عندما كان الأخير يبحث عن ملجأ في الجبال، كانت كالتالي:-

«ترجل، بسبب النبيذ

وقد قلنا آخر قول لنا؛

ثم همست،'يا صديقي العزيز،

أخبرني من هنا إلى اين؟ '

فأجابني،'يا للأسف

فانا سئمت أمراض الحياة،

وأتشوق إلى الراحة

في التلال النائمة.

آه، لكن لا تحاول أن تَخزْ

حيث تأخذني قدماي:

إن الغيوم البيض ستبرد الألم

دوماً وأبداً.»

إن «التوقــف القصير» المرافقة من قبل الكاتب نفســه عــادة تعطي الانطباع إنها تتضمن مفاجأة جادة في البيت الأخير:-

«تحت حديقة البامبو، لوحدي

أمسك عودي وأجلس أدندن،

لا أذن غيري لتسمعني سوى أذني

لا عين لتراني- سوى القمر.»

تــم اتهام **وانغ واي Wang Wei** بالكتابة المنحلــة وبالصور الإباحية. وقد دافع عنه ناقد صديق كالتالي:- «على ســبيل المثــال، هناك **وانغ واي Wang Wei**الذي يقدم الموز في عاصفة ثلجية. لكن عندما نأتي لفحص نقاط كهذه على ضوء العلمية فإننا نرى أن عقله قد انتقل إلى العلاقة الذاتية للأشياء التي يصفها. الخرقاء يقولون أنه لا يستطيع التفريق بين الحرارة والبرودة.»

شــاعر ماهر وسكير من شرب النبيذ، ومقامر حتى الثمالة كان **تسوي هاو Tsui Hao** الذي تخرج عام 730 ميلادية. كتب قصيدة شعرية عن باغودا الكركي الأصفر التي حتى فترة قصيرة كانت قائمة على ضفة نهر **اليانغ تسه Yang Tse** قرب **هان كــو Han Kow**، وكانــت قد أقيمت لتدل على المكان الذي صعد منه **وانغ تســو تشــياو Wang Tzu Chiao** الذي حصل على الخلود، إلى الســماء في وضح النهار ســتة قرون قبل العصر المســيحي. إن **لي بو Li Po** العظيم فكر مرة أن يكتب في الموضوع، لكنه تخلى عن الفكرة حالما قرأ الابيات الشــعرية التالية من قبل **تسوي**

هاو Tsui Hao:-

هنا أبحر مرة إنسان

إلى السماء ممتطياً كركي

وكيوسك الكركي الأصفر

سيبقى دائما إلى الأبد،

لكن الطائر طار بعيداً

ولن يأتي بعد ذلك،

بالرغم من أن الغيم الأبيض هناك

مثل الغيم الأبيض من الأمس البعيد

هيا إلى الشرق

تقع غابة الشجر الجميلة،

من الزهور إلى الغرب

يأتي نسيم يحمل رائحة،

إلا أن عيني تدور يومياً

إلى بيتها البعيد جداً،

أبعد من النهر الجارف

في موجه وفي زبده.»

بالتوافق العام، **لي بو Li Po** نفســه (705 – 762 ميلادية) سيسمى نفسه باسم أعظم شــاعر صيني. إن حياته البوهيمية المتوحشــة، وفرحه، ومســلكه الماجن في البلاط ونفيه ونهايته المأســاوية، تشترك جميعها لتشــكل أكثر لوحة فعالة لقريظ رائع من الشــعر الذي لم يتوقف هو لحظة عن ســكبه إلى الخارج، في سن العاشرة

كتب «توقف قصير» لحُباحب[43].

«المطر لا يستطيع أن يطفئ ضوء فانوسك،

الريح يجعله يضيء أكثر لمعاناً،

آه، لماذا لا تطيرين إلى السماء البعيدة،

وتتلألأين قرب القمر – نجمة؟»

بـدأ **لي بـو Li Po** تجواله في البلاد حتى، بعد مدة طويلة، مع خمسـة شـعراء آخرين مخمورين، تقاعد منعزلاً في الجبال. وبقي أولئك الستة متسكعين من بستان البامبو إلى حين، يشربون ويقرظون الشـعر حسـبما تمليه قلوبهم، تدريجياً وصل **لي بو** العاصمة، وعلى ضوء جزالة شعره، تم تقديمه إلى الإمبراطور «كملاك منفي» وقـد اسـتقبل بأذرع مفتوحة وسرعـان ما أصبح الطفل المدلـل للقصر، في إحدى المرات، عندما اسـتدعاه الإمبراطور وجدوه ملقى على الأرض في الشـارع سـكران، ونقل بعد أن تم مسـح وجهه بالماء البارد حتى أصبح مهيئاً للتواجد الإمبراطوري. إلا أن موهبته لم تخذله. مع سـيدة من سراي الحريـم تحمل له لوح الحبر، كتب بسرعة بعضاً من أشـهر أبياته الجياشة، وقد تأثر الإمبراطور أيما تأثر فأجبر الخصي القـوي **كاو لي شـيه Kao Li Shih**، أن يركـع على ركبتيه وينزع حذاء الشـاعر الطويل. وفي مناسـبة أخـرى، كان الإمبراطور يلهو مع سـيدتين مفضلتين عنده في باحـة القـصر، فطلب من **لي بو Li Po** أن يأتي ويسـجل المنظر شـعراً. بعد تأخير وصل الشاعر، يتعكز على اثنين من الخصيّ. فقال لي بو ارجو جلالتكم العفو، كنت أشرب مع الأمير وهو الذي جعلني أسـكر، إلا أنني سـأقوم بما عندي من قوة. إثر ذلك حضرت سـيدتان من الحريم ووضعتا أمامه شاشة من الحرير وردية، وبوقت قصير جداً كتب ما لا يقل عن عشر مقطوعات من ثمانية أبيات، وهذه واحدة منها يصف فيها حياة محظية في القصر ويقول:-

«آه كيف يصرف لهو الشباب

---

43 أي ذباب يضيء في الليل / المترجم.

في قاعة مطعمة بالذهب،

في فسطاط زهرة الكريب،

أجملها كلها

خصلة شعري كغطاء للرأس

مكلل بطوق جلدي بهيج

زهور القرنفل مرتبة

في أعلى جاكيتتي وفي تنورتي

ثم نتجول بعيداً

في الأجواء العطرة

ونعود ونحن إلى جانب

كرسي جلالته...

لكن الرقص والأغاني

ستنتهي تدريجياً،

وسوف نكون مبهمين

مثل السحاب في السماء

مع مرور الوقت، وقع لي بو ضحية الدسائس، وترك البلاط مهاناً. عندها كتب-

«إن شعري المبيض سيعمل حبلاً طويلاً، طويلاً،

لكنه لن يستطيع فهم كل أعماق حزني.»

بعــد كثير من التجوال وكثير من المغامرات غــرق في إحدى الرحلات عندما ثنى جســده في ليلة من الليالي من فــوق حافة القارب في محاولــة مخمورة لاحتضان انعكاس القمر. وكان لتوه قد كتب هذه الأبيات:-

«عريشة زهور

وعاء خزفي للنبيذ:

للأسف! في التعريشة

لا رفيق لي.

عندما يرسل القمر أشعته

على كأسي وعليّ،

وعلى ظلي، يفضحني

لأننا مجموعة من ثلاثة.

مع أن القمر لا يستطيع أن يبلع

حصته من المشروب،

وظلي يجب أن يتبعني

أينما أجري،-

مع ذلك فإني سوف أستعير صداقتهم

وعربدتهم المرحة،

وأبعد الحزن بالضحك

بينما الربيع يسمح بذلك،

«انظري إلى القمر-كيف ينظر

إلى ردود الفعل على أغنيتي،

انظري إلى ظلي – إنه يرقص

بخفة كبيرة:

عندما أكون صاحياً أشعر

أنكما صديقاي العزيزان،

عندما أسكر أدور،

رفقتنا تنتهي.

ولكن سرعان ما سيكون عندنا تحيات

دون مع السلامة،

في اجتماعنا المفرح القادم

في السماء البعيدة.»

إن تحكمه في «التوقف القصير» يعتبر مثالياً:-

1. «الطيور عادت طائرة إلى مجثمها على الشجرة،

الغيمة الأخيرة قد مرت كسولة،

إلا أننا لا نتعب أبداً من بعضنا البعض، ليس نحن،

كما نجلس مع بعضنا البعض:-الجبال وأنا.»

2. «استيقظ، واشعة القمر تتلألأ حول سريري،

تلمع مثل الصقيع لعيني الجوالتين،

إلى الأعلى باتجاه القمر المهيب أرفع رأسي

تم اضطجع - فتستيقظ فيّ أفكار البيت.»

التالية هي مقتطفات:-

أ. الفراق

1. «النهر يمشي بصفاء واضح مثل السماء،
يندمج بعيداً مع أمواج المحيط الزرقاء،
الإنسان وحده، عندما تقترب ساعة المغادرة
يمكنه بكأس من النبيذ أن يلطف عواطفه.
«إن طيور الوادي تغني بصوت عال في الشمس،
حيث قردة الغيبون سيحتفظون عما قريب بيقظتهم
كنت أعتقد أنني انتهيت منذ زمن بعيد من الدموع،
لكن الآن لن أتوقف أبداً عن البكاء.»
2. «إلى البيت عند الغسق ترن أصوات الغربان
تفرد أجنحتها لتشوقها للطيران،
عندئذ، تدردش على الأغصان
الجميع يقومون بالتزاوج خلال الليل.
تلعب على منوالها المشغول، تجلس
سيدة من عائلة رفيعة بالقرب
ومن خلال شاشة النافذة الحريرية
تصل أصواتهن إلى مسامعها
تتوقف، وتفكر بالزوج الغائب
الذي قد لا تراه أبداً؛
وفي ساعات الوحدة المتأخرة من الليل
تنسكب دموعها مثل المطر.»
3. «ما هي الحياة إذن سوى حلم؟

ولماذا يجب عمل جلبة حوله؟

أفترض أنه من الأفضل أن تكون نشوانا

وأن تغفو طول النهار في الظل

«وعندما استيقظ وأنظر إلى الحديقة

أسمع في وسط الزهور طائراً يغني؛

أسأله، «هل هو الماء أو الفجر؟

إن طائر المانجو يصفر لي، «إنه الربيع؛

«مغلوب من هذا المنظر الأخاذ

أسكب كاساً آخر بالكامل

وأغني حتى يشع القمر بوضوح

ولكن سرعان ما أسكر كالسابق.»

4. «أنت تسأل ماذا تعمل روحي هناك في السماء؟

أنا أبتسم من الداخل لكن لا أستطيع أن أجيبك؛

مثل نوارة الخوخ التي يحملها الجدول،

أنا أحلق في عالم لا تستطيع أن تحلم به.»

يمكن أن تعطي مقتطفاً آخر بالأساس لاستعراض ما هو الذي يحتفظ به الصينيون ليكـون الجوهر الخالص للشـاعرية الحقيقية،- الاقتراح. على الشـاعر أن لا ينقط كلماته القارئ الصيني يحب أن يفعل ذلك بنفسه، كل حسب مبتغاه، وبذلك مثل هذا الشعر الموجود أدناه، غالباً ما يقتبس كنموذج بيته الشعري الخاص به:-

«أرى سلحفاة

على زهرة اللوتس يرتاح

طائر وسط الخيزان

والسرعة في التفريخ،

قارب صغير خفيف يندفع

من قبل ابنة البحار الجميلة،

أغنية من تخبو بسرعة

قبل المياه المتدفقة سريعاً.

شـاعر آخر من الفترة نفسها من الذين يفخر بهم أبناء وطنه عن حق هو **تو فو Tu Fu** (712-770 ميلاديـة)، وأخفق في تمييز نفسـه في الامتحانات العامة الذي يعـد فيها قرض الشـعر قرضاً عالي المقام، ولكنه بالرغـم من ذلك كان لديه تقييم عالٍ لشـعره هو حتى أنه وصفه وصفة علاجية لحـرارة الملاريا. وحصل أخيراً على منصـب في المحكمـة اضطر لتركه في تمرد 755، خاصة أنـه القائل في حكاية رمزية سياسية التالي:-

«ممتلئ بسيل الربيع فإن السيل يندفع

والمعدية تتأرجح كسولة لأن النوتي قد غادر.»

وبعـد محاولات فاشـلة للحصول على منصب رسـمي، أخذ يتعـود على حياة التجوال، الذي كاد أن يغرقه بالطمي، وأجبر أن يعيش لمدة عشرة أيام على الجذور. وبعـد أن تم إنقاذه، انصاع في اليوم التالي إلى تأثير أكل اللحم المحمر وشرب النبيذ الأبيض لدرجة الإسراف بعد الصيام الطويل هذا. هنا بعض من قصائده:-

1. «الشمس الغاربة تلمع بانخفاض على بابي

قبل أن يلف الغسق النهر يحد به الربيع،

روائح جميلة تتصاعد من الحدائق الواقعة على الساحل،

يدخنون السمك، حيث الأطقم ترسي قواربها

«الآن الطيور المزقزقة تجثم في التعريشة

والحشرات الطائرة تملأ الجو حولنا. ...

«آه، أيها النبيذ من أعطاك سلطتك البارعة؟

آلاف الملاطفات تغرق في كأس صغير!»

2. «تقع البتلة:- الربيع يبدأ بالخذلان

وقلبي يحزن مع اشتداد الريح

تعال إذاً، قبل أن يبعثر الخريف غنائمه على الأرض،

لا تنسى أن تمرر على الجميع كأس النبيذ.

طائر الرفراف يبني حيث ضحك الإنسان جذلا،

والآن التنين الحجري يحرس بوابة مقبرته،

من يتبع الانبساط، وحده الحكيم

لماذا نضيع حياتنا بأعمال بطولية؟»

3. «بيتي يطوقه جدول صافٍ،

وهناك في أيام الصيف حركات الحياة تتوقف،

باستثناء بعض السنونو التي ترفرف من غضن إلى غصن،

والنورس البري يقترب رويداً رويداً.

«الزوجة الجيدة تضع القوانين للعبة الشطرنج

والأطفال يصنعون سنارة من السلك،

أوجاعي تستدعي رياضة جسدية

وماذا بعد سيطلبه إطاري هذا؟»

4. «وحدي أتجول في التلال

لأجد عرين الناسك

بينما صوت تقطيع الشجر سمع عن بعد

من وادي الغابة الكثيف،

مررت على الثلج قرب الينبوع،

الذي لم يتوقف عن التجمد،

كما أشعة بعد الظهر المائلة

تنطلق متلألأة من خلال الشجر

«وجدت أنه يستمتع بالتحديق

على الثراء الكريه في الليل،

لكن بعيداً، عن الوهم، فإن مشاهدة الغزال

على أنوار الصبح الذهبية. ...

كان عقلي واضحاً بالنسبة للمجيء،

أما الآن فقدت دليلي،

حائر أنا، فإن قاربي

يمخر عباب التيار!»

5. «من ساحة الدار كل ليلة أمر لأذهب إلى محل الرهونات،

وأعود من النهر أكثر الناس سكراً

كم من مرة كنت مديوناً لكاسي،-

حسنا، قليلون من يعيشون حتى الستين وفوقها عشرة،

الفراشة تطير من زهرة إلى زهرة،

واليعسوب يرشف وينط بعيداً بخفة،

كل مخلوق مبسوط في ساعته القصيرة والصغيرة،

لذلك دعونا نستمتع بحياتنا القصيرة طالما يسمح لنا.»

أدنــاه عينة من مهارته مع «توقف قصير»، القائمــة على مرض مألوف لدى جميع الصينيين، كانوا شعراء أم غير ذلك، النوستالجيا أو الحنين:-

تشرق بياضاً النوارس عبر التيار المعتم

على التلال الخضراء تبدو الزهور الحمراء تحترق،

وأنا أرى أن ربيعاً آخر قد مات...

متى سيأتي-يوم عودتي؟»

قليل ما نعرفه عن الشــاعر **تشــانغ تشــيان Chang Chien**. تخرج سنة 727، وأعطي منصباً رســمياً، لكنه في النهاية ذهب إلى الجبال وعاش كناســك، ويقال أنه كان من أتباع الطاوية. إلا أن القصيدة التالية التي تعالج **الديانا Dhyana**، تضعه في حالــة الذهول العقلاني التي يجري فيها هــز كل أنواع الرغبة في الوجود تجعله ليبدو ذا اتجاه بوذي. إنها تقدم صورة كاملة، مثلما نســمع به عن المعزل البوذي الذي غالباً ما يوجد على قمم الجبال في الصين كلها، ويزور الحجاج الذين يمارسون التمارين الدينية أو يقومون بتســديد النذور عنــد قدمي العالم المبجل، ومن قبل الطلاب المتأملين، الحريصين على هز «الغبرة الحمراء» للشؤون البليدة والمضجرة.

«الفجر الواضح يحبو إلى الدير القديم

الشمس المشرقة تضع الذهب على الشجر الطويل،

على نحو مظلم، وبمسار متعرج أصل إلى

قاعة ديانا المخبأة في شجر التنوب والزان،

في هذه التلال، الطيور الحلوة تنعم بالسعادة

قلب الإنسان فارغ من الظلال كهذه البحيرة،

هنا يتم إسكات الأصوات الدنيوية كأنها مسحورة،

باستثناء أزدهار جرس المذبح.»

لا يوجد أدنى شــك بتاثير البوذبة على الشاعر **تسن تسان Tsen Tsan** الذي تخرج عام 750، انظر أبياته حول هذا الإيمان:-

«مكان مقدس مغاراته مخبأة بعيداً على طول منطقة الغيوم:

أمتطي (حصاني) وأمشي جنباً إلى جنب مع الشمس.

الجو واضح، أشاهد الغابات الواسعة تنتشر

ومرتفعات يكللها السديم حيث ينام الملوك القدماء أمواتاً

بصعوبة فوق العتبة تسترق النظر التلال الجنوبية؛

نهر «**واي Wei** يتقلص من خلال شباكي إلى جدول. ...

إيها الإيمان النقي، لو كنت أعرف مجالك،

الإله المذهب[44] لكان منذ زمن أملي!»

حصل **وانغ تشــيان Wang Chien** في عام 775 على أعلى شهادة وارتقى ليصبح حاكماً لمقاطعة. وحصل أن أهان أحد أفراد العائلة الإمبراطورية، والتي طرد على إثرها وانتهى منصبه الرسمي. كتب عدداً وفيراً من القصائد وكان على علاقة حميمة مع عدد من الشعراء المجايلين له. في الأبيات التالية، التي يشكل البحر فيها بحراً غير موزون، يشير إلى قضية استثنائية عن زوجة جندي قضت معظم وقتها على قمة التل تنظر إلى أسفل إلى نهر **اليانغ تسي Yang Tsze** تنتظر عودة زوجها من الحروب، تقول:-

«أين زوجها الذي تبحث عنه،

إلى جانب الدرب الطويل بمحاذاة النهر،

---

44 ترمز إلى الصورة المذهبة الضخمة لبوذا التي نراها في المعابد البوذية.

ومن الحجر قد جبلت،

ولا يمكنها العودة أبداً،

في وسط الرياح وعاصفة المطر أبداً وأبداً.

إنها تروق لكل عائد للبيت يمر من هناك.»

البيت الأخير يجعل الشكل الحجري، الذي تحولت له المرأة التعيسة يطلب على ما يبدو من كل عائد لتوه أخباراً عن الرجل المفقود، تلك هي مهارة الفنان في نسج لا ينفصل عن الشخصية الأصلية.

نمر على عدد كبير من الشعراء، مشهورين جداً، مع بعض أولئك الذين ثم ذكرهم، نصل إلى اسم لا شك أنه أحد الأسماء المبجلة من بين كل هؤلاء المقترنين بطريقة أو بأخـرى بالحجم الهائل لـلأدب الصيني. **هان أو Han Yu** (768-824 ميلادية) قد تـم تطويبه وعادة يتم الحديث عنه على أنه **هان ون كونغ Han Wen Kung** لم يكن فقط شاعراً وإنما رجل دولة من الطراز الأول وفيلسوفاً. وقد ارتقى من أوضع النـاس إلى أعلى مراتب الدولة، في 803 قدم مذكـرة يحتج فيها على بعض مظاهر التكريم التي اقترح الإمبراطور **هسـيان تسـونغ Hsien Tsung** اسـتقبال عظمة واحدة من بوذا.

استشـاط الملك غضبـاً ولولا تدخلات الأصدقـاء لما كانت مرت بسـلام للكاتب الجريء. وكما حدث أنه بالفعل نفي إلى **تشـياو تشـو فو Chiao Chou Fu** في كوان دونغ حيث كرس نفسـه لتمدين السكان الغليظين من تلك الأجزاء البدائية. في المعبد على قمة السلسـلة المجاورة يمكن رؤية صورة كبيرة، حتى في هذه الأيام لأمير الأدب كما كان يسميه الأجانب منذ تطويبه مع الأسطورة التالية ملصقة بها:- «أينما مر، طهر.» وقيل عنه أيضاً أنه طرد تمساحاً ضخماً كان يخرب قنوات الأحياء، وبإنـذار نهائي تهديدي وجهه إلى الحيوان ورماه في النهر، مع خنزير وعنزة، لا زال يعتبر نموذجاً للإنشـاء الصيني، لم يمر وقت طويل حتى تم استدعاؤه إلى العاصمة، وثبت في منصبه، لكنه كان حساساً كل حياته وكبر في السن قبل موعده، فلم يكن

بإمكانــه أن يقاوم مرضــاً عضالاً انقض عليه. وقال صديقه ومجايله **ليو تســـونغ يـــوان Liu Tsung Yuan** لم يخاطر أبــداً بفتح أعمال **هان أو Han Yu** قبل أن يغسل يديه أولاً بماء الورد.

إن كتاباته وخاصة مقالاته عادة ما تكون من الطراز الأول. ولا يترك شــيئاً لمشتهٍ إما بالأصالة أو بالأســلوب. ولكــن فوق هذه جميعاً لشــخصيته الرفيعة والنبيلة، ولوطنيته الهادئة والمبجلة لا يزال الصينيون يحتفظون بذكراه حية.

الأبيات التالية كتبها **ســو تونــغ بو Su Tung po** بعد ثلاثمائــة عام على وفاته لتوضع على المعبد الذي تم بناؤه للتو تكريما للأســتاذ المتوفى من أهالي **تشياو تشو فو Chiao -Chou- Fu**:-

«امتطى التنين إلى منطقة الغيم الأبيض،

ومسك بيديه مجد السماء

وارتدى الروب ملفوفاً بالنجوم

الريح حملته برفق إلى عرش الرب.

كنس القشر وهشيم جيله

وتنقل على حدود الأرض.

وألبس الطبيعة كلها بعيونه الثاقبة، الثالث في ثلاثية النبوغ.[45]

غرماؤه، أخذوا يلهثون وراءه سدى.

مبهورين من لمعان الضوء.

شتم بوذا أهان أميره،

وسافر بعيداً إلى الجنوب البعيد،

ومر بقبر **شون Shun**، وبكى على بنات **ياو Yao.**

45 الاثنان الآخران هما لي بو وتو فو.

إله الماء ذهب أمامه وهدأ الموج.

وطرد الحيوان المتوحش العظيم وكأنه حمل،

ولكن في العلى في السماء، لا توجد موسيقى، وكان الله حزيناً،

واستدعاه إلى مكانه بالقرب من عرشه،

أما الآن بهذه التضحيات القليلة، أحييه،

بالليتشي الحمراء وبفاكهة الموز الصفراء.

للأسف، أنه لم يتمكن من التخلف قليلاً على الأرض

لقد مر مبكراً، بشعره المنسول، إلى المجهول العظيم.»

كتــب **هــان أو Han Yu** كثـيراً مــن الشــعر، غالبــاً مــا يكــون للمداعبة في موضوعات متنوعة كثيرة، وبلمســته يتغير العــادي إلى ظرافة. بين القطع الأخرى، هناك واحدة عن أســنانه، التي أخذت تتســاقط على فترات متســاوية مما جعله يحســب تقريبــاً المدى القمري المتبقي لــه في هذه الحياة مع أن شــعره لا يمكن تصنيفــه كصاحــب المقام الأول، عــلى عكس كتابتــه النثرية، حيث ســنعطي في الفصــل القــادم مقتطفات منهــا، القصيــدة التالية هــي من العيــار الخفيف:-

«حتى تقف على ضفة النهر

وتتمكن من صيد السمك الأرجواني

شبكتي رميتها جيداً على عرض الجدول

كان هذا كل ما أتمناه

أو أختبئ واقتل الإوزة

التي تصيح وتمر بسرعة،

وأدفع أجرتي والضرائب

بريع المطاردة،

تم أنطلق إلى البيت إلى السلام والسرور،

وبزوجتي وأطفالي المبتهجين

مع أن الثياب خشنة وأجرة النقل قد تكون قاسية

وأحصل عليها يوماً بعد يوم.

أما الآن فأنا أقرأ وأقرأ، وقليلاً ما أعلم،

عن ماذا تحكي،

وحريص أن أحسن عقلي

وأجهد نفسي.

أرسم حية وأعطيها أرجل

لأجد أنني أضعت المهارة،

وشعري يصبح أبيض يومياً

كلما أسرعت إلى التلة[46]

أحبس بين أحزاني

التي جلبتها لنفسي،

وأجد نفسي غريباً عن الجميع،

بين الأموات الأحياء

وأسعى إلى غرق ضميري

بالنبيذ، وللأسف سدى:

النسيان يمر سريعاً

وحسرتي تبدأ من جديد،

46 يفضل وضع القبور على منحدر التلة.

يحضر كبر السن، ولكنه يوقف

الاستدعاء للمغادرة. ...

وهكذا آخذ كأساً وفيراً

حتى أخفف عن أوجاع قلبي.»

إن المعاملة الإنســانية للحيوانات الأقل لا تعتبر عادة جزءاً من شخصية الصيني، لا يوجد عندهم جمعية لمنع القســاوة عــن الحــيوانات، وهو مما قــد يحــسب مأخـــذاً فــي هــذا الاتجــاه، كــان **هــان أو Han Yu** فوق كل شيء ذو طبيعة إنســانية طبيعية، ومع أن القطعة التالية لا يمكن أخذها على محمل الجد، إلا أنها توفر مؤشراً نافعاً لمشاعره العامة:-

«آه استبقي ذبابة الصباح المشغولة،

استبقي ناموسة الليل!

وإذا ما لعبوا بشغلهم الخسيس،

دع حاجزاً يوقف هروبهم،

«إن دورتهم قصيرة من الميلاد حتى الموت،

مثلك، إنهم يمضون الوقت،

وبعد ذلك، مع أول نفس للخريف،

مثلك تماماً يتم كنسهم.»

الأبيات التالية كتبت على الطريق إلى مكان منفاه في **كوانغ تونغ Kuang Tung** :-

«للأسف، ذباب أول الفصل،

انظروا إلى مخلفات الربيع!

إن قاربي موجود في أرض مغلقة،

عند الفجر أسمع الطيور البرية تغني.

«ثم من خلال الغيم المتأخر على المنحدر،

الشمس المشرقة تقطع علي

وتثيرني بآمال هاربة

السجين يتوق للحرية

«إن دموعي المدرارة قد ماتت منذ فترة طويلة،

مع أن الاهتمام يبدو أقرب منها

لكن توقف! كل الاهتمام تنحيه جانباً

عندما يغلقون للمرة الأخيرة غطاء التابوت.»

شــاعر مشهور آخر، يستحق الذكر، حتى بعد **هان أو Han Yu**، هو **بو تشو أي Po Chu –I** (772-846). كطفل كان ناضجاً جداً، يعرف عدداً معتبراً من الأحرف الصينية المكتوبة في عمره المبكر من سبعة أشهر بعد أن قامت مربيته بالإشارة إلى الحرف فقط مرة واحدة، تخرج بعمر الســابعة عــشرة وارتقى إلى منصب عالٍ في الدولــة، مع أنه في فترة ما من حياته نفي إلى موقع ثانوي الأمر الذي اقرفه الحياة الرســمية. حتى يســـلي نفـــسه بنـــى معـــتزلاً في **هســـــيانغ شـــان Hsian Shan**، الــذي أصبح ينادى به في بعض الأحيان؛ وهناك مع ثمانية رفاق اجتماعيين، كرس نفســـه للشعر وللتأمل في الحياة القادمة. ولينجو من التعرف عليه والإزعاج، أسقطت جميع الأسماء، وكانت المجموعة معروفة بشكل عام باسم **السادة الكبار التســعة من هسيانغ شــان Nine Old Gentlmen of Hsiang Shan** ، عندما وصل هذا الخبر إلى مسامع الإمبراطور، تم نقله ليصبح حاكم **تشونغ تشو Chung Chou**، وبمناسبة ارتقاء **مو تسونغ Mu Tsung** العرش في 821 أرسل كحاكم **لهانغ**

تشـو Hang Chou. فبنى هناك واحدة مـن أفخم محطات الركوب على البحيرة الغربية الجميلة، ولا تزال تـعرف باسـمه **محـطة بـو** للركوب، وأصـبح لاحقـاً حاكـم **ســو تــشو Soo Chow**، وارتقى أخيراً في 841 إلى منصب رئيس مجلس الحرب. جمعت أشـعاره بأمر امبراطوري وحفرت على ألواح من الحجر، ووضعت جميعها في حديقة كان أنشأها لنفسه علـى مثـال معـتزله السـابق المـحبوب لديه في **هسـيانغ شـان Hsiang Shan** لم يؤمن بأصالة **طاو ته تشـينغ Tao Te Ching**، واستهزأ من ادعائها غير المعقول كالتالي:-

«من يعرف لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعرف»

هي كلمات من تعاليم **لاو تسو Lao Tzu**،

ماذا بعد ذلك يحل بخمسة

آلاف كلمة أو أكثر من كلمات **لاو تسو؟»**

توجد هناك قصيدة آسرة بقلمه تحكي قصة أحزان البنت الفقيرة التي تعزف على العود، هذه القصيدة صنفها الناقد **لين هسي تشونغ Lin Hsi Chung** بالرفيعة، الذي بيّن كيف أن كلماتها اقتبست على نحو رائع لتردد المعنى ويعلن أن مثل هذه المهارة ترتقي بالقارئ إلى تلك المرحلة من النشـوة الذهنية المعروفة لدى البوذيين **بـ سـمادي Samadhi**، التي يمكن إنتاجها مرة في كل ألف خريف، «الضيف» هو الشـاعر نفسـه، منطلقاً للمرة الثانية إلى مكان نفيه، كما ذكر أعلاه، ومن منتصف الطريق إلى هناك ضربه المرض:-

«بالليل، على ضفة النهر، قيلت كلمات الوداع؛ وتحت الأوراق التي تشـبه أوراق شجر القيقب، تزهر في وسط التعفن الخريفي. ترجل المضيف ليستعجل الضيوف المودعين الذي صعـدوا إلى مركبة. ثم دار عليهم كأس النبيذ للوداع، لكن لا يوجد عـود أو غيتـار وهكذا قبل أن يتدفأ القلب بالنبيذ أتـت كلمات لوداع بارد تحت القمـر المضيء الذي يلمع فـوق النهر العريض. ... عندما صـدح فجأة، عبر النهر، عود، نسي المضيف أن يذهب، وتباطأ الضيوف، مسـتغربين من أين تأتي الموسيقى

ومتســائلين من يكون العازف. على هذه كل شيء ســكت، لكــن لا جواب. اقترب قــارب ودعى الموســيقيين أن ينضموا إلى الحفلــة، أعيد ملؤ الكاســات، المصابيح شُــذّبت ووجدت التحضيرات للاحتفال، وبعد فترة، بعد ضغوط كبيرة، تقدمت إلى الأمــام، مخبئة ووجهها خلف عودها؛ مرتين أو ثلاثة ضربت على الأوتار، مما أظهر عواطف قبل أن تبــدأ تغني أغنيتها. ثم كل نغمة ضربتها كانت مفعمة بالعاطفة العميقة والقوية، كما لو كانت تقص قصة حياة محطمة ولا أمل لها، وبرأس مُنْحنٍ وأصابع سريعة ســكبت روحها في اللحن. مرة بنعومة ومرة ببطء، إن الريشة التي تعــزف بها تذهب جيئة وذهاباً، ثم في هذا الجــو أو ذاك وبصوت مرتفع يتحطم المطر المنهمر، وبنعومة كهمس الكلمات الهامسة، مرة عالية، مرة ناعمة مثل ثرثرة اللؤلؤ وحبات اللؤلؤ الصغيرة تقع على صحن من المرمر. أو ســائل، مثل شدو طائر المنغو في البرية، أو كدلف مثل الساقية في مسارها إلى الأسفل، وبعد ذلك مثل سيل جارف أوقف بقبضة من الصقيع، وهكذا، لهنيهة، أســكتت الموســيقى بإحســاس أعمق من الصوت. بعد ذلك كما الماء يتدفق من المزهرية المكسورة، كما اشتبكت الأيدي على الفارس المدرع، هكذا وقعت ريشة العزف مرة أخرى على الأوتار كشق مثل قطعة حرير.

حل الســكون على جميع الأطراف، ولا صوت حــرك الأجواء، قمر الخريف أضاء بانحراف فضته على التيار كما مع تنهدات الموســيقية عندما أودعت ريشة العزف تحت الأوتار واستعدت بهدوء للمغادرة. «طفولتي،» قالت «أمضيتها في العاصمة، في بيتي قرب التلال. في سن الثالثة عشرة تعلمت العزف على الغيتار واسمي علق مع الأوائل في ذلك الوقت، المايسترو نفسه اعترف بمهارتي: أكثر النساء جمالاً كانت تحسد وجهي الصبوح. شباب الحي كانوا يتسابقون على إظهار الاحترام لي: لا أدري كم جلبت لي أغنية واحدة من الرزم المربوطة الثمينة. حلي ذهبية، ودبابيس فضيه حطمــت، وتنانير حريرية حمراء من لون الــدم لطخت بالنبيذ، في معظم الأوقات تــردد صــدى التصفيق، وهكذا من ســنة إلى أخرى بينما كان نســيم الربيع وقمر الخريف يمران على رأسي المستهتر.

«ثم ذهــب أخي إلى الحرب، وأمــي توفيت، مرت الليالي وأتــت آفات الصباح،

ومعها بدأ جمالي يبهت، ولم تعد هناك حشــود أمام أبوابي، عدد من الفرسان بقي، ولذلك اتخذت زوجاً، وأصبحت امرأة تاجر. وكان نهما يحب الربح ولا شيء أوقفني من الانفصال عنه، الشهر الماضي ذهب ليشتري شاياً، وتخلفت أنا عنه. لكي أجوب في قاربي الوحيد في الليلة التي يضيئها القمر على الأمواج الباردة، مســتذكرة الأيام السعيدة التي مرت، وعيناي الحمر تحكي قصة الأحلام المبكية.»

«اللحن الحلو للقيثارة حركت روحي بالشفقة، والآن هذه الكلمات وخزت قلبي ثانية، وصحت' أيها السيدة، إننا رفقاء في سوء الطالع، ولا نحتاج إلى احتفال لنصبح أصدقاء. في الســنة الماضية أنا تركــت المدينة الإمبراطورية، ومتأثراً بالحمى وصلت إلى هــذا المــكان، حيث في فقرها، من نهاية العام إلى نهاية العام لا يســمع صوت شــبّابة أو قيثارة، أنا أســكن عند ضفة النهر المليء بالأعشــاب السبخية وتحيط بي الأعشــاب الصفــراء والبامبو ذو النمــو المتعثر، لا يصل أذنــاي أي صوت في النهار والليل ســوى صوت طائر الضُوع الموشــح بالدم وعياط الجيبون الحزين. وعندي أغاني التلال ومزمار القرية وحنينها المتنافر القوي. أما وقد استمعت الآن إلى حوار قيثارتك فإنها تبدو لي موســيقى الآلهة. من فضلك أبقي فترة أخرى وغنّي لنا مرة أخرى، بينما أصيغ قصتك كتابة. '

«ممتنــة لي (فهي كانت واقفة منذ فترة طويلة) جلســت بنت القيثارة وسرعان مــا بدأت تغني حزينة وناعمــة على غير لحن الأغنية التي غنتهــا الآن، وإذا بكل ســامعيها ذابــوا في دمع مدرار، ولا أحد منهم بكى أكــثر مني حتى أن صدري تبلل من البكاء.»

ربما قد يكون الأكثر شــهرة بين جميع أعمال **بو تشي أي Po Chi I** هو القصيدة الشــعرية النثرية الطويلة نوعاً ما بعنوان «الخطأ الدائم.» إنها تشــير إلى السقوط الشــائن للإمبراطــور المعروف باســم **مينــغ هوانــغ Ming Huang** (685-762 ميلادية)، الذي يســتحق بنفســه أن أمر عليــه بتعليق. خــلال اعتلائه العرش في ســنة 712 تحدته عمتــه، أميرة **تاي بنغ Tai Ping** لمواجهــة خلعه، لكنه نجح في قمعــه وبالتالي بدأ عصراً واعداً لحكمه المجيد. بدأ بالاقتصاد، مغلقاً مصانع الحرير ومانعاً ســيدات القصر من ارتداء المجوهرات أو التطريز والتي حرق أعداداً وافرة منها. حتى عام 740 كانت البلاد نوعاً ما ثرية ومزدهرة. وتم تحســين الإدارة، وتم

تقسيم الإمبراطورية إلى خمسة عشر مقاطعة، وأُنشئت المدارس في كل قرية، وكان الإمبراطور راعيا للآداب ونفسه كان شاعراً قديراً. ونشر طبعه من الكتاب الكلاسيكي بعنوان «البر بالوالدين». وطلب حفر النص على أربع لوحات حجرية في عام 745، إلا أن حبــه للحرب وبذخه المتزايد أدى إلى رفع الضرائب، وكان محباً للموســيقى فأســس كلية لتدريب الشباب من كلا الجنســين على هذا الفن، وقد أحاط نفسه ببلاط مذهل مرحبا برجال من أمثال **لي بو Li Po** أولا لأجل موهبتهم فقط ولكن بعد ذلك لاســتعدادهم المشــاركة في مشــاهد فاضحة والإسراف المتوفر للمحظية الإمبراطورية الأكثر شــهرة **يانغ كوي فــاي Yang Kuei Fei**. وتم تعيين الخصيان لمناصب رســمية، وتم تشجيع الأشكال الأكثر غلظة من الخرافات الدينية، وتوقفت النســاء عن وضع الحجاب، كما في القِدم، رويداً اســتبعد الإمبراطور عن الاهتمام بشــؤون الدولة؛ نشــب تمرد جدي، ووجد جلالته الأمان بالهروب إلى **ســو تشوان Ssu** Chuan وعاد فقط بعد تنازله لصالح ابنه، القصيدة التالية تصف ارتقاء **يانغ كوي فاي Yang Kuei Fei**، وقدرها المأســاوي على أيدي الجنود، واتصالها اللاحق بحبيبها كسير القلب من عالم الظلال بعد القبر:-

الضجر: جلالة الإمبراطور، عبد للجمال
تاق «لمخرب الإمبراطوريات»[47]
لسنوات كان يسعى سدى
لتامين مثل هذا الكنز لقصره. ...
الجمال:- من عائلة **يانغ Yang** أتت صبية،
قد كبرت لتعيش الأنوثة،
وقد تربت في الشقق الداخلية
لا تعرف الشهرة.
ولكن الطبيعة منحتها بكثرة
الجمال: الذي يصعب إخفاؤه،
ويوماً ما استدعيت
إلى مكان جانب الملك

47 يشير إلى جميلة مشهورة في سلالة هان Han، نظرة واحدة منها ستقلب مدينة بأكملها، نظرتين ستقلبان إمبراطورية بأكملها.

عينها اللماعة وضحكتها المرحة
فتنت كل راءٍ لها،
وبين مساحيق التجميل لدى الحريم
كان بهاؤها الغالب جداً.
في رعشات الربيع، وبأمر إمبراطوري،
سبحت في بركة **هوا تشينغ Hua Ching**
غسلت جسدها بالمويجات الشفافة
التي دائماً تكون دافئة من النافورة.
ثم عندما تأتي يساعدها المعاونون
تكون حركاتها الغيداء والرزينة،
قد كسبت لها أخيراً لصالح عطوفتها،
آسرة قلب جلالته.

المعربد: الشعر مثل الغيمة والوجه مثل الزهرة
غطاء الرأس الذي كان يهتز وهي تسير
وبين أطايب مقصورة الكركديه
كانت تقضي ليالي الربيع الرقيقة.
ليالي الربيع، يا للأسف كانت قصيرة لهم،
لكنها كانت تطول حتى الفجر،
من هذا الوقت وصاعداً لا يوجد ضيوف
في ساعات الصباح الباكرة.
العربدة والاحتفالات تدور بعضها وراء بعض
دائما دون استراحة
اختارت دائما الرحلات الربيعية،
اختارت العربدة الليلية
ثلاثة آلاف جميلة لا تضارع عشقها
لشقق حريم الملك،
إلا أن جلالته دائما كان

يحتفظ بانتباهها له وحده
تقضي حياتها في البيت الذهبي[48]
ومع بنات جميلات يخدمنها،
وكل يوم تدفع النشوة
على أبخرة النبيذ في قاعة المآدب.
أختها وأخوها، كلهم
ارتقوا إلى رتبة النبلاء.
ويا للأسف، للأمجاد المنحوسة
التي منحتها لعائلتها.
لأنه هكذا صار الآباء والأمهات
في طول الإمبراطورية وعرضها
لا تفرح على ولادة الأبناء،
وإنما على ولادة البنات.
في القصر المهيب
ممسكاً بالغيم الرمادي في الأعلى
موسيقى إلهية يحملها النسيم
نثرت على كل الإتجاهات،
عن الأغنية والرقصة
على أنغام القيثارة والمزمار،
خلال اليوم الحيوي كله،
جلالته لا يتعب أبداً.
لكن فجأة يأتي المنادي
يضرب طبل الحرب المصنوع من جلد السمك
يكسر بجفاء الأجواء على
«تنورة قوس قزح وجاكيت من الريش.»
الهروب: غيوم من الغبرة تلف

48 يشير إلى ايه - تشياو A-Chiao، إحدى قرينات إمبراطور سلالة الهان Han. «آه، قال الأخير عندما كان لا يزال ولداً، لو كنت استطيع أن أحصل على آ تشياو، سيكون عندي بيت ذهبي لاحتفظ بها فيه.

أبواب العاصمة العالية.
ألف عربة حربية وعشرة آلاف حصان
تسير نحو الجنوب الغربي.
الريش والجواهر بين الحشود
إلى الأمام وبعدها توقف.
مائة لي خلف الباب الغربي
يتركون وراءهم أسوار المدينة
الجنود يرفضون التقدم
لا يوجد شيء يمكن فعله.
حتى هي صاحبة الحواجب بشكل العثة
تهلك أمام مرأى الجميع.
على الأرض توجد حلى ذهبية
ولا يوجد أحد ليلتقطها
أجنحة الرفراف، وعصافير ذهبية،
ودبابيس شعر ذات يشب ثمين.
الملك يغطي وجهه وهو ضعيف على الإنقاذ،
وعندما أدار نفسه لينظر إلى المؤخرة
كانت الدموع والدم تقطر ممزوجة مع بعضها البعض.

المنفى: على مدى امتدادات طويلة من الرمل الأصفر
مع رياح تصفر
وعلى مدى رؤوس الجبال التي تتوجها الغيوم
يفتحون طريقهم.
قلة بالفعل هم المسافرون
الذين يصلون ارتفاعات جبل **أومي Omi**،
الإنبلاج المشرق للمعايير
ينمو بشكل أضعف يوماً بعد يوم.
مظلمة هي مياه **سو تشوان Ssu Chuan**،

مظلمة هي تلال **سو تشوان،**
يومياً وليليا جلالته
يستنفذه الحزن المرير.
يستمر في السفر، إن ضياء القمر
نفسه يحزن قلبه،
وصوت جرس خلال مطر المساء
يقطع أحشاءه إلى اثنين.

العودة: الوقت يمر، والأيام تمر، ومرة أخرى
أنه هناك في المكان المعروف جيداً،
هناك يتباطأ وغير قادر
أن ينزع نفسه كلية منها،
لكن من ترى الأرض
عند أسفل تلة **ما واي Ma Wei،**
لا إشارة من الوجه المحبوب تظهر،
فقط مكان الموت،
تلتقي أعين الملك والوزراء
والأرواب تبتل من الدموع،
إلى الشرق ينطلقون ويسرعون
للذهاب إلى العاصمة.

البيت: هناك البركة وهناك الزهور
كما في الماضي.
هناك الكاركدية الذي ينمو في المقصورة
وهناك صفصاف القصر.
يرى وجهها في الكركدية
وفي الصفصاف يرى حواجبها:
كيف في حضور هذه الأشياء

يمكن للدموع أن لا تنهمر،
في الربيع بين زهر
الخوخ والبرقوق،
في مطر الخريف عندما يسقط ورق
شجر **وو تونغ Wu Tung؟**
إلى الجنوب من القصر الغربي
توجد أشجار كثيرة،
وعندما يغطي ورقها الدرجات
لا أحد يكنسها الآن
شَعْرُ موسيقار حديقة الإجاص
أبيض كما لو كان بسبب العمر،
حراس غرفة الفلفل.[49]
لم تعد تبدو له صغيرة.
أين يطير الحباحب في القاعة.
يجلس في حزن صامت
لوحدها شمعة الضوء تحترق
لا يزال غير قادر على النوم.
ببطء تمشي ساعات الرقابة.
فالليل أصبح طويلاً جداً،
ومجموعات النجوم تضيء ببهاء
كما لو أن الفجر لن يأتي أبداً.
البرد يستقر على قرميد البط[50] البارد
والصقيع المتجمد،
غطاء الرفراف يجمد
لا يوجد أحد لتشاركه الدفء.
تفرق بينهما الحياة والموت

49 اسم ظريف لشقق النساء في القصر.

50 إن انثى وذكر البط الماندرني يرمزان إلى البر بين الأزواج. يشير إلى الزخرفة على السطح.

لكن الوقت لا يزال يجري،
لكن روحها لا تأتي ولا مرة
لزيارته في الأحلام.

روح الأرض: راهب طاوي من **لين تشونغ Lin Chung**
من مدرسة **هونغ تو Hung Tu**،
استطاع من خلال فنه المتقن أن يستدعي
أرواح الأموات.
وتواق للتخفيف عن عقل
مليكه المضطرب.
هذا الساحر يتلقى الأوامر
ليحث على الطلب المثابر
محمولاً بالغيوم، وسائراً بالعربة على الأثير
يسرع بسرعة البرق
عالياً في السماء ونزولا حتى الأرض
يبحث في كل مكان.
في الأعلى، يبحث عن السماء السابعة،
في الأسفل عن الينابيع الصفراء،
لكن لا يوجد مكان في هذه المناطق الشاسعة
يمكن أن نجد مكانها.
وأخيراً يسمع عن «الجزيرة المباركة»،
هناك في منتصف المحيط،
تقع في مناطق فارغة
وبشكل خافت لا يلمح،
هناك بنايات مزخرفة بفرح
تعلو مثل غيم قوس قزح،
وهناك، العديد من **الخالدين** الرقيقين والجميلين
يمضون يومهم بسلام.

من بينهم واحد يبدو أن اسمه
يدور على الشفاه كالسرمدي،
وببشرتها البيضاء كالثلج ووجهها الذي مثل الزهور
هو يعرف بأنها هي.
قرع على باب اليشب،
على البوابة الغربية للقصر الذهبي،
ويرجو من خادمة انتظار جميلة جداً أن
تعلم سيدتها الأجمل منها بمجيئه
ولما سمعت بالسفارة
التي أرسلها ابن السماء،
بدأت تفيق من حلمها
بين البرادي المزخرفة،
أمسكت بثيابها وأزاحت المخدة
قالت بسرعة
وبدأت بتجميل نفسها
باللؤلؤ والجواهر.
إن كوفيرها الذي يشبه الغيم، غير مرتب
يظهر أنها قد أفاقت لتوها من النوم،
ومع انحراف غطاء الراس الوردي
تذهب إلى القاعة،
إن أردان أروابها الخالدة
قد أمتلأت بالنسيم،
كما في مرة أخرى بدت وكأنها ترقص
على لحن «تنورة قوس قزح وجاكيت الريش.»
إن قسماتها ثابتة وهادئة،
بالرغم من أن الدمع المدرار يسقط،
مبللاً غصنين من الإجاص المتفتح
كما لو كان قطرات مطر الربيع.

تحجم عواطفها وتروع ألمها،
تقدم الشكر إلى جلالته،
وتقول أنها منذ افتراقهما،
قد افتقدت شكله وصوته؛
وكيف، بالرغم من أن حبهما على الأرض
أتى إلى نهاية سريعة
فالأيام والأشهر لدى المباركين
لا تزال طويلة جداً.
إنها الآن تدور وتحملق
باتجاه مأوى البشر،
لكنها لا ترى مدينة الإمبراطورية
التي ضاعت بالغبرة والغشاوة،
ثم تتناول بعضاً من موجوداتها القديمة
علامة عن حبها الذي لا يموت،
دبوس شعر ذهبي، وبروش مطلي
وترجو من الساحر أن يعيدها.
نصف دبوس الشعر احتفظت به،
ونصف من البروش المطلي،
تكسر بأيديها الذهب الأصفر،
وتقسم الطلاء إلى قسمين،
«قل له» قالت، «أن يكون ثابت الفؤاد
كهذا الذهب والطلاء،
ثم بعد ذلك في السماء أو على الأرض في الأسفل
قد نستطيع نحن الاثنين الالتقاء مرة أخرى.»
عند الإفتراق عهدت للساحر
بعدد من رسائل الحب الجدية،
وبين الآخرين استذكرت وعداً
فهم على نحو متبادل،

كيف أنه في اليوم السابع من الشهر القمري السابع،
في قاعة الخلود،
في منتصف الليل، عندما لم يكن أحداً قريباً،
همس في أذنها،
أقسم أننا سنطير يوماً
مثل الطيور ذات الجناح الواحد[51]
أو ننمو متحدين مثل شجرة
لها أغصان تتضاعف سويا.»[52]
السماء والأرض دائما على طول
سيأتي عليهما يوم يموتان فيه ،
إلا أن هذا الظلم العظيم سيمتد إلى ما لا نهاية
لا نهاية إلى السرمدية، أي نعم.

كان **لي هو Li Ho** شـاعراً مبكر النضوج وذا حياة قصيرة ونشـأ في القرن التاسع. بدأ يقرض الشعر وهو في سن السابعة. بعد عشرين عاماً التقى رجلا غريبا ممتطياً تنيناً لا قرون له والذي قال له، «الله العظيم قد انتهى من سرادق اليشـب وأرسل إليك لتصبح سـكرتيره. « بعد هذه الحادثـة بفترة قصيرة توفي، التالي هو عينة من شعره:-

«الزهور على الأرض منثورة مثل المطرزات،

بالعشرين توقد النبيذ بنعومة في رأسي،

شكيمة الجواد الأبيض السريع زينت بشرابة تسطع دون حراك

بينما رائحة المخدة المزينة بخطوط ذهبية تكتسح الجدول.

حتى تقوم بالابتسامة، كل هذه الزهور لا تعطي أي شعاع؛

---

51 كل طائر له جناح واحد فإن كان يريد الطيران فعليه أن يطير دائما برفقة رفيق طيرانٍ آخر.

52 كان يعتقد أن هذه الشجرة موجودة وكان الصينيون غالباً ما يرسمونها.

عندما تسقط جدائلها يكون المشهد كله فرحاً،

وضعت يدي على كمها وأنا أحدق بعينيها،

ودبوس شعر على شكل الرفراف سيكون سريعاً جائزتي.»

ازدهر **تشــانغ تشي Chang Chi** كذلك في القرن التاســع وتوفي وعمره تسعون عامــاً، وكان عــلى علاقة صداقة حميمة مع **هــان أو Han Yu** وكان مثله معارضاً شــديداً لكلا البوذية والطاوية. التالي هو شعره الأكثر شهرة، ويقول أحد النقاد ان جماله يقع وراء الكلمات:-

«تعرفون، أيها السيد الرقيق، عبودية زواجي،

أرسلت إليّ لؤلؤتين، وفوق ذلك ثمينتين.

وأنا، عندما شاهدت أن الحب امتلك فؤادك

لففتهما ببرودة في صدريتي الحريرية.

«لأن منزلي هو منزل رفيع المستوى،

وزوجي ضابط (كابتن) في جيش الملك؛

واحد بظرفك عليه أن يقول،

إن أمانة الزوجات هي إلى أبد الآبدين؛

«مع اللؤلؤتين، أعيد لك دمعتين

الدمعتين - لأننا لم نلتق في السنوات السابقة.»

علينــا أن نترك جانباً شــعراء كثرً لهم نبوغ من ظــلال مختلفة وجهودهم لمعت بالأوهــام العجيبة الغريبــة التي هي عزيزة عــلى القراء الصينيــين والتي تقترب بخطورة من الإســفاف عندما تظهر في كســاء أجنبي. فيما يلي توجد سيدة تشكو هروب الزمن المرصص الثقيل كما تعلّمه الساعة المائية:-

على ما يبدو أن الساعة المائية

قد امتلأت من البحر،

لتجعل الليل الطويل الطويل يبدو

كليل لا نهاية له بالنسبة لي!»

إن البيت الثاني في المثل التالي ذو صفات مميزة: -

«يأتي الغسق، وتهب الريح الشرقية وتصفر

الطيور أصواتاً حزينة؛

البتلات مثلها مثل الحوريات تقع

من البلكونات وتسقط على الأرض.»

الشـعر الذي بعده يشـير إلى الشـموع التـي تحترق في الغرفـة حيث يتحدث الصديقان بحديث أخير في الليلة قبل الفراق الطويل:-

«إن الشمع نفسه ذرف الدمع العطوف

والقنوات مغلقة للأسف حتى يبزغ الفجر.»

والأخير يعبر عن شعور من صديق إلى صديق عن بعد:-

«آخ، متى سنشتم الشموع مرة أخرى

ونستذكر الساعات البهيجة لتلك الليلة الماطرة؟»

كان **لي شـيه Li She** شاعراً شـعبياً من القرن التاسع، على وجه الخصوص وكان معروفـاً بقصة القبـض عليه من قبل قطـاع الطرق. وكان زعيـم العصابة يعرفه بالاسـم، وطلب نموذجاً لفنه، فاسـتخرج الأبيات التالية، التي أمنت بشكل فوري الإفراج عنه:-

«السحاب الماطر يندفع بلطف

فوق القرية عند الجدول،

عندما فتحت الغابة ذات الأوراق الكثيفة

خنجر قاطع الطريق لمع. ...

ومع ذلك لا حاجة إلى الخوف

أو الإنزياح عن طريقهم

لأن أكثر من نصف العالم يتكون من

متشردين شحاذين أكبر منهم!»

كان ما **تســو يان Ma Tzu Jan** (المتوفى سنة 880 ميلادية) طبيباً شعبياً، مطلوباً جداً كما كان شاعراً. درس الطاوية بمعنى معاد كما يظهر من القصيدة التالية التي كتبها؛ ومع ذلك، وفقاً للتراث فقد صعد في نهاية المطاف إلى السماء حياً:-

«في شبابي ذهبت لأدرس الطاو

على أيدي أشهر مدرسيها من عند رأس النبع.

وبعد ذلك كان السكير مضطجعاً في منتصف الطريق

على سرير لماع.

,ما هذا الجنون، صاح سيدي،

هل أنتم راضون عن هذا الجنس البشري؟،

وطلب مني أن أعود إلى العالم

وأدعو نفسي بالسكير.

ولكن لماذا أبحث عن الحياة الأبدية

عن طريق الحبوب العجيبة؟

الضوضاء لا توجد في السوق

ولا الهدوء موجود في التلال

سر الشباب الدائم

أصبح معروفاً لدي:

تقبل بهدوء فلسفتي

أي مصير قد يكون.»

يحق للشـاعر **هسـو ان تشـن Hsu An Chen** من القرن التاسع أن يكون له مكان بين شعراء **سلالة تانغ Tang** بسبب القطعة التالية على الأقل:-

«عندما كان الدب نائما بانحراف

وكان الليل على وشك أن ينقشع؛

والقمر كان قد غاب،

على ماذا تلوي أفكاري!

ثم يصدح صوت الموسيقى

من قيثارة عملها أحد الناس

وأعلم أنها هي

البنت الحلوة التي تسكن بجواري

«وكما المتاعب تتسلل إلي

فإن حاجبها الذي يشبه فراشة العثة ارتفع أمامي

وأنا أشعر برعشة لطيفة

لأن أصابعها ستكون باردة.

«لكن الأبواب والأقفال بيننا

التي تحمينا بكل فعالية

لكي أُسرع من الشارع

وفي أرض الأحلام أصلي لألقاها.»

الأبيات التالية للشـاعرة **تو تشـين نيانغ Tu Chin Niang** من القرن التاسـع ضمت إلى هذه المجموعة من 300 جوهرة من سلالة تانغ:-

«لن أكون سبب ضغينة لهذه الأرواب

التي تلمع بنسق ثري،

ولكنني سأجعلك تحقد على ساعات،

الشباب تلك التي تنزلق بسهولة.

حتى إذا ما أتيت مرة أخرى

للأسف، على الساق الذابلة

ولا زهرة منورة تبقى!»

ربما يكـون الوقت قد حان لإغلاق اللائحة الطويلة. التي يمكن تطويلها إلى ما لا نهاية. **سـو كونغ تو Ssu Kung Tu** ترك وظيفته ليصبح ناسـكاً. عاد إلى البلاط في سـنة 905 لكنه أسقط عن غير قصد جزءاً من الشـارات الرسمية خلال لقاء-وهو خرق لا يغتفر لإتيكيت مراسـم البلاط - وسمح له بالاستقالة ليعتزل مرة أخرى في التلال، حيث مات من الجوع حزناً على قتل الإمبراطور الشاب. ويعرف عادة بلقب **التانغ الأخير،** شعره وهو ما يصعب فهمه بشكل مبالغ فيه لكنهم يضعونه موضعاً عالياً في تقدير النقاد الصينيين. القصيدة الفلسفية التالية تبدو أنها تتكون من أربع وعشرين مقطوعة غير مترابطة، لكنها كانت متكيفة بشـكل ممتاز ليوضح الشكل الذي بموجبه تقوم الطاوية النقية بمدح نفسها لعقل العالم المثقف:-

i. الطاقة – المطلق

«إن الصرف على القوة يقوم على فسادها الظاهري،

الوجود الروحي يعني الكمال الداخلي.

دعنا نتراجع إلى اللاشيء وندخل المطلق
ونكرس القوة للطاقة.
متخوف من المبادئ الأبدية،
نحرف الفراغ العظيم،
عندما تسود كتل القيم،
والرياح تصفِر دون انقطاع،
فيما وراء سلسلة من المفاهيم،
دعنا نربح الوسط، المركز
وهناك نثبت دون عنف
ونتغذى من مؤونة لا تنضب.»

ii- الاستراحة الهادئة

«إنها تسكن الهدوء، لا تتكلم،

غير مرتبة في الكون
تسقيها التوافقات الأبدية
محلقة مع طائر الكركي الوحيد.
إنه مثل النسيم اللطيف في الربيع،
برقة ينفخ الروب المنساب،
إنه مثل النوتة على مزمار البامبو
التي بحلاوتها نحن نحب أن نصنع مثلها.
نلتقي صدفة فتبدو هي سهلة الانقياد،
نبحث، نجدها صعبة التأمين
تبدل باستمرار هيئتها،
وتبدل في الفهم، وتختفي.»

iii– النحيل- القوي

«يجمع النباتات المائية
من ثراء عين الماء البرية،

بعيداً في أعماق الوادي البري
فوراً أشاهد بنتاً جميلة.
إن شجرة الخوخ ملأى بالأوراق الخضراء،
النسيم ينفخ برفق على عرض الجدول،
شجر الصفصاف يظلل الممر المتعرج،
طائر الأوريول ينطلق بجماعات
ويضغط إلى الأمام بحماس
فيما تنمو الحقيقة. ...
إنه الموضوع الأبدي
الذي وإن كان قديماً، جديد جدا.»

iv– التركيز

صنوبر أخضر وكوخ ريفي،
الشمس تغيب عبر الجو الصافي،
أخلع طاقيتي وأتمشى لوحدي،
أستمع إلى أغاني الطيور.
لا تطير الإوز إلى هناك
وهي بعيدة جداً،
لكن خواطري تجعلها حاضرة
كما في الأيام السوالف.
عبر المياه تلتف الغيوم السوداء
تحت أشعة القمر يظهر القيوط،
يتم تبادل الكلمات الحلوة
مع أن النهر العظيم يتدفق بيننا.»

v– الإرتفاع – القِدمْ

«انظر إلى الخالد، المولود في الروحانية،

يده تمسك بزهرة اللوتس

طريقة للزمن الدائم أبداً
لا يمكن اقتفاء أثره عبر مناطق الفضاء!
مع القمر يصدر من الدب الأكبر[53]
يسرع على ريح مناسب،
بالأسفل جبل **هوا Hua** يظهر معتماً،
ومنه يسمح صوت جرس بوضوح.
بالفراغ أحدق في صورته التي اختفت
وقد مرت خارج حدود البشرية. ...
آه الإمبراطور الأصفر **وياو Yao**،
هن، لا مثيل لعارضاته.»

vi- تأديب

«وعاء من اليشب ومشتريات الربيع،[54]

وحمام في الكوخ المسقوف بالقش
أين يجلس عالم محترم،
وبامبو الخيزران ينمو طويلاً من اليمين واليسار،
وسحب بيضاء في السماء الصافية الآن،
والطيور ترفرف في أعماق الشجر.
ثم توسد على قيثارته في الظل الطري
وشلال يتساقط على رؤوسنا-
أوراق الشجر تتساقط ولا كلمة قيلت،
الرجل ثابت مثل الأقحوان
بدون ملاحظات عن الزهور - مجد هذا الفضل-
كتاب يستحق بالفعل القراءة.»

vii اغتسل - انصهر

53 Ladle= الدب الأكبر.

54 النبيذ الذي جعل الإنسان يرى الربيع في كل الفصول.

«كما الحديد من المناجم،

والفضة من الرصاص،
طهري قلبك،
تحبين الرائق والنظيف.
مثل بركة صافية في الربيع،
بأشكالها المعكوسة الرائعة،
لذا أتجه للنظيف والصادق،
وأنت تمتطي أشعة القمر عُد إلى الروحاني.
دع نظرك يكون على نجوم السماء

دع أغنيتك تكون مثل الناسك المتخفي؛[55]
يومنا مثل الماء الجاري
وأمسنا القمر المضيء.»[56]

viii القوة

«العقل، كما لو كان بالفراغ،

الحيوية، كما لو كانت من قوس قزح،
بين آلاف الأذرع في قمم **وو wu،**
أطير مع الغيوم، أسابق الريح،
أشرب من الروحاني، وأتغذى على القوة،
أخزنها لاستخدامك اليومي، أحرسها بقلبك،
كن مثله في قدرته،[57]
لهذا السبب أحتفظ بطاقتك،

---

55 شعار الطهارة.

56 إن حالة الوجود السابقة لنا في المركز الأبدي الذي ينتمي إليه القمر.

57 القوة التي دون أن تفقد قوتها تتسبب في ان تكون الأشياء كما هي- الله.

كن صنو السماء والأرض،
كن زميل عمل له في التغيير الإلهي...
أسعَ لأن تكون مليئاً بهذه كلها
وتمسك بها دائماً.»

ix المطرزات

«إن كان القلب يملك الثراء والرتب،

قد يستهزء المرء بالذهب الأصفر.
إن المسرات الغنية تعطي بساط الرحمة قبل الأوان
والأفراح البسيطة تتعمق باستمرار.
إن غيمة سحابية تعلق على ضفة النهر،
زهور اللوز الوردية على الأغصان،
وكوخ مطوق بالأزهار تحت القمر،
وجسر مدهون يرى نصفه من الظل،
كأس ذهبية طافحة بالنبيذ
وصديق يده على القيثارة. ...
خذ هذه وكن راضياً،
فهي ستنفخ قلبك تحت روبك.»

x– الطبيعي

«انحن، وها هي هناك؛

اطلبها لا تبحث عنها يميناً أو يساراً.
كل الطرق تقود هناك،
لمسة واحدة، وتكون قد حصلت على الينبوع![58]

تكون كما لو أنها أتت على الأزهار المتفتحة،

---

58 يشير إلى أسلوب الرسام.

كما لو أنها تحدق بالسنة الجديدة،

حقاً لن أنتشها
إذا ما تعرضت للضغط فإنها ستتلاشى.
سأكون مثل الناسك على التلة،
مثل الأُشنة[59] التي تلتقط على الجدول،[60]
وعندما تتجمع عليّ العواطف،
سأتركهم لتناغم السماء.»

xi- إطلاق سراح

«مسروراً بالزهور دون توقف،
وأتنفس السماء السابعة،
بالرغم من أن الطاو يعود إلى الأثير،
وهناك سيكون حراً بامتياز،
ينتشر بشكل واسع كما ريح السماء،
مهيب كما قمم المحيط،
ملآن بالقوة الروحانية،
جميع المخلوقات إلى جانبي،
وأمامي الشمس والقمر والنجوم،
والعنقاء تتبعني من الخلف.
بالصباح أضرب بالسوط لوياثاني
واغسل قدمي في **فو سانغ Fu Sang**.» [61]

xii- الحماية

«دون وضع أي كلمة

---

59 نبات ينبت في الأرض الرملية / المترجم.

60 مخلوق الصدفة وفقاً لعقيدة عدم الفعل.

61 يتم تحديدها بشكل مختلف بسخالين المكسيك واليابان.

كل الظرافة يمكن الحصول عليها.

إذا الكلمات لم تؤثر بالمتحدث
تبدو أنها غير ملائمة للحزن.[62]
طيه يكمن السبب الأول.
الذي معه إما أن تغرق أو تقوم
كما النبيذ في المصفاة يعلو،
كما البرد يعيد فصل الزهور.
إن ذرة الغبرة التي تنتشر سريعا في الجو،
إن فقاقيع الرذاذ المفاجئة في المحيط
ضحل، عميق، ملموم، مبعثر،-
أنت تمسك بعشرة آلاف وتضمن واحدة.»

xiii– الأرواح الحيوانية

«حتى يعودوا بشكل متواصل
حتى يكونوا دائما معنا
النهر البراق لا يسبر غوره
الزهرة الغريبة بالكاد تفتحت،
ببغاء الربيع المورق،
شجر الصفصاف، المصاطب،
الغريب من التلال الدكناء،
الكأس الذي يفيض بالنبيذ الصافي. ...
آه، لو الحياة يمكن تمديدها،
دون رماد الكتابة الميت،
بين محاسن الطبيعي،-
من يستطيع الوصول إلى مداه؟»

xiv - محبوك بشكل جيد.

62 باللغة اللاتينية: إن كنت لا تريد أن تتألم عليك ألا تؤلم الآخرين آولًا.

«في جميع الأشياء هناك ذرات حقيقية،
بالرغم من أن الحواس لا تستطيع إدراكها

تناضل لتظهر في شكل
من روائع مهارات الله.
المياه تجري، الأزهار تبرعم،
الندى الرائق يتبخر،
طريق هام يمتد بعيداً،
وممر مظلم حيث التقدم بطيئاً. ...
لذلك الكلمات يجب ألا تصدم
ولا يعتقد أنها غير ملائمة.
لتكن مثل خضرة الربيع،
مثل الثلج تحت القمر.»[63]

xv– العَزْل.

«وفقا لرغبتنا،
نتمتع بالطبيعي، مخلّصين من أي قيد
أغنياء بالذي يأتي إلى أيدينا
على أمل أن نكون في يوم ما مع الله.
لبناء كوخ تحت الصنوبر،
دون غطاء حتى تنسكب الأشعار،
نعرف فقط الصباح والمساء،
لكن ليس أي فصل قد حل. ...
ثم، إذا كان السرور لنا،
لماذا يجب أن يكون نشاط؟
إن كنا نستطيع أن نصل إلى هذه النقطة،

---

63 كل ذرة لا تُرى تتحد لإنتاج وحدة تامة.

ألا يمكن أن يقال أننا أنجزنا؟»

xvi- افتتان

«جميلة هي حديقة السرو،
والجدول يدور في دوامة تحت
سماء صافية وضفة مغطاة بالثلج،
وقوارب صيد السمك في الجوار وما بعد،

وهي، مثلها مثل اليشب،
تتمشى ببطء، وأنا ألحقْ بها عبر الغابة المعتمة،
الآن تمشي، الآن تتوقف قليلاً،
بعيداً جداً للوادي العميق. ...
عقلي يتخلى عن مسكنه، وهو في الماضي،
غير واضح، وليس للاستدعاء،
كما لو أنه قبل وهج القمر المضيء
كما لو أنه قبل مجد الخريف»

xvii- بطرق متعرجة

«تسلقت جبل **تاي هسينغ Tai Hsing**
من عند الممر الملتوي،
الكساء النباتي مثل بحر من اليشب،
رائحة الزهور تحمل في كل مكان.
يتصارع مع الجهد ليتقدم،
وصوت هرب من شفتي.
الذي على ما يبدو عاد قبل أن يضيع،
كما لو كان مخبئاً وليس مختفياً.[64]

إن المياه التي تجري في دوامة تدفق جيئة وذهاباً،

---

64 يقصد الصدى.

فوقنا الرخ العظيم حلق وانطلق؛
الطاو لا يجد نفسه في شكل
لكنه عادل ومنصف بالتتابع.

xviii- تحقيقات

«يختار الكلمات الواضحة
ليعرب عن الأفكار البسيطة،
وفجأة بالصدفة كنت في معتكف
وكان يخيل لي أنني أرى قلب الطاو
قرب الجدول المتعرج،
وتحت ظلال شجر السرو المعتم،
كان هناك غريب يحمل حزمة حطب،
وآخر يستمع إلى القثيارة،
وهكذا، أينما قادتني مخيلتي،
أحسن مما لو أنني أفتقده،
استمعت إلى موسيقى السماء،
مندهشا بمصائبها النادرة.»

xix- اليأس

«الريح تكدر الجدول
والشجر في الغابة يتصدع؛
أفكاري مُرّة كالموت،
لأن التي سألتها لن تأتي،
مائة عام تمر مثل الماء،
الغنى والمراتب مثل الرماد البارد،
الطاو يوميا يهلك،
لمن نتوجه للخلاص،
الجندي الشجاع يستل سيفه،

وتنهمر الدموع بمراثي ليس لها نهاية،
الريح تصفر، ورق الشجر يتساقط
والمطر يقطر من خلال سقف البيت المصنوع من القش.»

xx- الشكل والميزات

بعد التحديق بثبات بالتعبير والجوهر
العقل يعود بصورة روحانية،
كما لو رأى الخطوط العامة للموج،
كما لو كان يرسم مجد الربيع،
تغيير أشكال الغيوم التي تسحبها الريح،
وطاقة الزهور والنباتات،
الكسارات التي تسير في المحيط،
الصخور والجرف الصخري في الجبال،
كل هذه تشبه الطاو العظيم،
تمت حياكته بفن لبيئة أرضية. ...
للحصول على التشابه دون الشكل،
أليس ذلك هو امتلاك الإنسان؟»

xxi- الخارق

«ليس من روحانية العقل

وليس كذلك من ذرات الكون،
لكن كما لو نصله على الغيم الأبيض،
محمول إلى هناك على نسيم شفاف.
من بعيد، يبدو وكأنه قريب
اقترب منه، فهو لم يعد هناك
نتشارك في طبيعة الطاو،
إنه يتجنب حدود الفناء البشري.
إنها في التلال المتكدسة، في الشجر العالي،

في الطحالب الغامقة، في أشعة الشمس. ...
تنغم بها، فكر بها؛
صوتها الضعيف يروغ عن الأذن.»

xxii- التجريد

«دون أصدقاء يتشوق أن يكون هناك،

لوحده، بعيداً عن القطيع العادي،
كما طائر الكركي على جبل **هو Hou،**
مثل الغيم على قمة جبل **هوا Hua.**
في صورة البطل
النار القديمة لا زالت تتباطأ؛
ورقة الشجر التي حملتها الريح
تطفو على البحر اللامحدود.
قد تبدو كما لو أنها لم تفهم،
لكن دائماً على حافة الكشف عنه.
أولئك الذين يدركون هذا لقد وصلوا للإنجاز؛
أولئك الذين يأملون، يبتعدون يومياً عنه.»

xxiii- المتنور

الحياة تمتد إلى مائة عام،

ومع ذلك كم دورتها قصيرة؛
فرحها عابر،
أحزانها كثر،
ما هو الذي لها يشبه كاس نبيذ،
وزيارات يومية لتعريشة الوستاريا (كرمة)،
حيث تتجمع الزهور حول الحواف.
وحمامات الضوء تسير فوق الرؤوس؟
وعندما ينشف كأس النبيذ،

أن تتمشى حاملاً عصا من الشوك؛
من منا سيكون في يوم ما قديماً؟...
آه، يوجد الجبل الجنوبي ببهائه.»[65]

xxiv- الحركة

مثل دولاب الماء الدوار،
مثل اللؤلؤة المتدحرجة،-
إنما كيف يستحق أولئك الاسم؟
أنهم ليسوا إلا صوراً للمجانين.
هناك المحور الجبار للأرض
وقطب السماء الذي لا يستريح؟
دعونا نفهم الدليل الخاص بهم،
ومعهم نكون اندمجنا في واحد،
أبعد من حدود الفكر،
ندور للابد في الفراغ العظيم،
مدار من ألف سنة،-
نعم، هذا هو المفتاح لموضوعي.»

65 هذا الشيء يبقى بينما تهلك الأشياء الأخرى.

الفصل الثاني
الأدب الكلاسيكي والعام

إن الدراسة الكلاسيكية لسلالة **تانغ Tang** لم تكن لا أصلية ولا معمقة. صحيح أن الإمبراطور الثاني أسس كلية التعليم، لكن أعضائها اكتفوا بمواصلة تراث سلالة هان، وبالمقارنة لم ينجزوا أي شيء في مجال الأبحاث المستقلة. من بين الأسماء في الكلية المذكورة أعلاه اسم **لو يوان لانغ Lu Yuan Lang** (550-625)، لقد كان أمين المكتبة الإمبراطورية تحت حكم السلالة السابقة، ولاحقاً امتاز بالدفاع عن الكونفوشيوسيه أمام كل من هجمات البوذية والطاوية. ونشر كتاباً قيماً في تفسيرات المصطلحات والجمل في الكلاسيكيات ولدى كتّاب الطاوية.

أقل شهرة منه كان العالم **واي تشنغ Wei Cheng** (581-643)، الذي حصل على شهرة عظيمة كقائد عسكري. تم تعيينه رئيس اللجنة لكتابة تاريخ السلالة السابقة، هذا بالإضافة إلى كونه شاعراً يحسب له حساب، عند وفاته قال الإمبراطور «يمكنكم استخدام النحاس كمرآه لتعكس الشخص، يمكن أن تستخدموا الماضي كمرآه لتعكس السياسة، ويمكنكم استخدام الإنسان كمرآه ليبين حكم الواحد منا في العلاقات العادية. هذه المزايا الثلاثة كنت دائماً أقدرها ملياً؛ لكن الآن، وقد ذهب عنا **واي تشنغ Wei Cheng**، فقد فقدت واحداً منها.»

عالم آخر مشهور جداً هو **ين شيه كو Yen Shih Ku** (549-645). كان قد تم توظيفه على وظيفة تنقيح للكلاسيكيات وأيضاً على طبعة جديدة ومنقحة لتاريخ **سلالة هان Han**، لكن تأويله للموضوع الأول سبب عدم الرضا، فتمت إعادته إلى

منصب إقليمي، ومع أنه أعيد إلى منصبه قبل دخول هذا الإذلال حيز التنفيذ، فإن طموحه كان قد جرح لدرجة أنه توقف أن يكون الشــخص نفسه، منذ ذلك الحين عاش حياة منعزلة وبسيطة.

لي بــو يــاو Li Po Yao (565-648) كان طفلاً مريضاً، وبلــع كميات كبيرة من الدواء، مما جعل جدته تصر على تسميته **بو ياو Po Yao** أي أقرباذين أي دستور الأدويــة. بينما ذكاؤه المبكر اكتســب له لقب **الأعجوبة.** عندمــا بدأ حياته العامة أهمل عمله للصيد والشرب، وبعد فترة وجيزة استقال. بعد ذلك ارتقى مرة أخرى، وأنهى **تاريخ سلالة تشي Chi الشمالية.**

أحــد أحفاد كونفوشــيوس من الدرجــة الثانية والثلاثين وعــالم متميز وموظف عمومــي كان **كونغ ينغ تــا Kung Ying Ta** (574-648). كتب تعليقاً على **كتاب القصائد الغنائية** وتم تنســيب بعض أجزاء تاريخ ســلالة **سوي Sui** له. يضاف إلى ذلك، فقد كان مســؤولاً عن الملاحظات والحواشي **لكتاب التعليم العظيم وعقيدة الوسط.**

لقــد كان تأليف المعاجم أحد دوائر العلم الخالــص الذي تم فيه أعظم التقدم. المعاجم المبنية على النظام الصوتي اللفظي، وعلى أســاس أعمال **لو فا ين Lu Fa Yen**من القرن السادس كانت رائجة جداً بالمقارنة مع النظام الراديكالي أو الجذري الذي أطلقه **هسو شن Hsu Shen.** ليس لأن العمل العظيم للثاني ترك ليعاني من الإهمال. **لي يانغ بينغ Li Yang Ping** من القرن الثامن كرس وقتاً وشُــغلاً كثيرين للتحسين والإضافة على صفحاته. التالي كان موظفاً حكومياً، وعندما ذهب لإشغال مركزه كقاضي في 753 يقال أنه استطاع أن يحصل على المطر خلال الجفاف بتهديد إله المدينة بتدمير معبده إلا إذا تمت الاستجابة إلى صلواته خلال ثلاثة أيام.

تشانغ تشيه هو Chang Chih Ho (القرن الثامن) مؤلف عمل في المحافظة على الحيوية، كان ذا نزعة رومنســية ومعجباً، على وجه الخصوص، بالتأملات الطاوية، عــين في منصبه تحت حكم الإمبراطور **ســو تســونغ Su Tsung** من ســلالة تانغ،

ووقع في بعض المشاكل فنفي، بعد ذلك بفترة وجيزة نال عفواً عاماً هرب بعده إلى الغابات والجبال وأصبح زاهداً متجولاً وأطلق على نفسه اسم **صياد السمك الكبير في السن والضباب والمياه.** أمضى وقته بصيد السمك لكنه لم يستخدم الطُعم، وكان هدفه ليس اصطياد السمك. عندما سؤل لماذا يتجول، أجاب **تشانغ Chang** قائلاً، «السماء السابعة كمنزلي، والقمر المشع كمرافقي المستدام والبحار الأربعة كأصدقائي المتلازمين – ماذا تعني بالتجوال؟» وعندما قدم له صديق بيتاً مريحاً بدل قاربه البائس، أجاب، «أفضل أن أتبع النوارس إلى أرض الغمام عوضاً من أن أدفن نفسي الأبدية تحت غبرة العالم.»

إن مؤلف **تونغ تيان Tung Tien**، وهي مقالة مستفيضة حول الدستور، التي لا تزال موجودة، كان **تو او Tu Yu** (المتوفى عام 812). وهي مقسمة إلى ثمانية أجزاء تحت العناوين التالية الاقتصاد السياسي، الامتحانات والشهادات، المكاتب الحكومية، الشعائر، الموسيقى، النظام العسكري، الجغرافيا والدفاع الوطني.

بين كتاب الأدب النثري العام فقد ترك **ليو تسونغ يوان Liu Tsung Yuan** (773-819) لنا الكثير الذي لأجل نقاوة الأسلوب ولباقة التعبير، نادراً ما تم التغلب عليه. فإلى جانب كونه شاعراً، وكاتب مقالات، ورساماً للخط الصيني، كان أيضاً سكرتيراً لمجلس الشعائر. هناك تورط بمؤامرة نفي بعدها إلى منطقة بعيدة جداً، حيث توفي. أراؤه كانت مخلوطة بعمق بالفكر البوذي، الأمر الذي من أجله غالباً ما أدين بشدة، مرة في رسالة من صديقه ومعلمه **هان أو Han Yu.** السطور القليلة التالية هي جزء من إجابته على الحادثة الثانية:-

«إن السمات التي أعجب بها في البوذية هي تلك التي تنسجم مع المبادئ المنصوص عليها في كتبنا المقدسة. وأنا لا أعتقد، حتى لو عاد الحكماء الأقدمون لزيارة الأرض، أنه سيكون في مقدورهم أن يشجبوها. الآن **هان أو Han Yu** يعترض على هذه الوصايا البوذية، إنه يعترض على النافوخ الأصلع للرهبان، على ملابسهم المعتمة، على تخليهم عن روابطهم العائلية، على الحياة بشكل عام على

حســاب الآخرين. وكذلك أنا. لكن **هان أو Han Yu** يضيع البذرة بينما يتمســك بالقــشرة هو يرى المعدن لكنه لا يرى التــبر. أنا أرى كليهما، من هنا انحيازي لهذا الدين أو الإيمان.

«مــرة أخرى، إن التخالط بين الناس في هذا الدين لا يعني بالضرورة التحول عنه أو إليه. حتى لو فعل ذلك، فالبوذية لا تســمح بوجود تنافس حسود في المكانة أو الســلطة. إن الغالبية العظمى لأتباعه يحبون فقط أن يعيشــوا حياة بســيطة من التكامل في أحضان التلال والأنهــر. وعندما أدير نظري نحو الاندفاع المضطرب أي نحو العجلة في عصرنا، في ســباقها اليومي للأختام ومباهج المنصب، أسال نفسي إن رفضت كل هذه لأجل أن آخذ مكاني بين صفوف هؤلاء.

«الراهــب البوذي، **هاو تشــو Hao Chu** هو رجل ذو مــزاج هادئ وعواطف مضبوطــة. هو عالم جليل. بهجتــه الوحيدة هي أن يتأمــل الطبيعة، مع انغماس طارئ في مباهج الإنشــاء. عائلته تتبعه على الطريق نفســه هو مستقل عن جميع النــاس، ولا تكون مقارنته مع أولئك الحكــماء الهرطقيين الذين نضحك عليهم مع القطيع المبتذل للعالم الجشع والطماع من حولنا.»

على هذه يعلق المعلق أنه يجب أن يكون عندك عبقرية **هان أو Han yu** لتدين البوذية، وعبقرية **ليو تسانغ يوان Liu Tsang Yuan** للاسترسال فيها.

فيما يلي دراسة قصيرة عن مسألة عظيمة:-

«عــبر التلال الغربية تتجه الطريق إلى الشــمال وعلى الجانــب الأبعد من الممر تفــترق إلى اتجاهــين. الشــعبة الغربية مــن الطريق تقود إلى لا مــكان على وجه الخصوص، أما إذا اتبعت الإتجاه الآخر الذي يأخذ استدارة شمال شرقية، لحوالي ربع ميل، فســتجد أن الممر ينتهي فجأة، بينما النهر يتشــعب ليضم كومة من الصخور شديدة الإنحدار. على قمة هذه الكومة هناك ما يبدو على أنه برج للمراقبة، بني بشــكل رائع؛ في الأســفل، كما لو كان حائطاً مدعماً، تثقبه بوابة المدينة، حيث أن المرء يحدق منه في الظلام. لو رمي حجر من هنا، ســيقع مع صوت ترشــاش مشيراً

إلى وجود الماء، وترددات الصوت تبقى مســموعة لوقــت بعد ذلك. هناك طريق التفافية من الخلف صعوداً إلى الأعلى حيث لا يرى شيء في الأرجاء باستثناء بساتين من الشــجر المستقيم، التي وللغرابة موجودة في مجموعات منتظمة، كما لو كانت نظمت بأيدي فنان.

«أما الآن، فقد كانت تخامرني دائماً الشكوك بوجود إله، لكن هذا المنظر جعلني أفكر أنه حقيقة موجود. لكن في الوقت نفسه بدأت أتعجب لماذا لم يضعها في مركز حضــاري مقبول نوعاً ما، عوضاً عن هذه المنطقــة البربرية البعيدة، حيث لقرون لم يوجد أحد ليســتمتع بجمالها. وهكذا على الوجه الآخر، مثل إسراف الجهد هذا والتضارب في المواقف جعلني أفكر بأنه في نهاية المطاف لا يوجد إله.»

إحدى القطع المفضلة هي رســالة كتبها **ليو تســونغ يــوان Liu Tsung Yuan** بأســلوب فكاهي لتهنئة أديب ثري لخسارته كل شيء في حريق، خاصة كما يشرح، إذا كانت الضحية «قد تم افقارها بالكامل وبشــكل لا يســتعاد.» ويبين قائلاً أنها ســتوفر فرصة أخرى لتبين للعالم أنه لم يكن هنــاك أي رابط بين الأدوات الدنيوية والسمعة الأدبية.

قطعة ساخرة مشــهورة جداً كتبها **ليو تسونغ يوان Liu Tsung Yuan** عنوانها «إمساك الأفاعي،» وموجهة إلى صعوبات الضرائب الزائدة:-

«في **برية هو كوانغ Hu Kuang** يوجد نوع من الأفاعي العجيبة، لها جسم أسود بحلقات بيضاء، ســامة جداً حتى للعشب وللشــجر التي قد تلمسها مصادفة، بين الناس معروف أن عضتها لا يمكن شــفاؤها باي حال من الأحوال. لكن إذا مسكت وتم تحضيرها، عندما تنشــف، على شــكل كعكة، فإن لحم هذه الأفعى سيخفف الاهتياج، وسيشفي تقرحات البرص، وسيزيل اللحمة الميتة ويطرد الأرواح الشريرة. وهكــذا فقد حدث أن طبيب البــلاط، وكان ينفذ أمراً امبراطوريــا، انتزع من كل عائلــة عائدات اثنتين من هذه الأفاعي كل ســنة. ولكن بما أن قلة من الأشــخاص كان باســتطاعتهم أن يمتثلوا لهذا الأمر، فقد تم الإعلان أن عائدات الأفاعي سيعتبر

بديلاً عن الضرائب الاعتيادية. وبناء عليه كان هناك تراكض عام بين الناس في هذه الديار.

وقد تبين أن الإمســاك بالأفاعي كان في الحقيقة أقل خطورة من دفع مثل هذه الضرائب التي كانت تنتزع من أولئك الذي لم يتجرأوا على مواجهة المخاطر واختاروا المساهمة بالطريقة العادية. أحد الرجال كان أباه وجده قد هلك كلاهما من عضة الأفعــى. أعلن أنه رغم ذلك أحســن حالا من جيرانه، الذيــن وصلوا الحضيض من ظلم جامعي الضرائب. وشرح قائلاً، «إن مســتبدين عصاة يقتحموننا ويرمون كل واحــد وكل شيء أرضاً، حتى الحيوانــات العجماء الخرســاء، في نوبة من الإرهاب والفــوضى. لكنني، نهضت في الصباح ونظرت إلى المرطبان الذي تحفظ فيه أفاعي، وهل هي لا تزال فيه، وإن كانت لا تزال فيه أســتلقي في الليل في ســلام. في الوقت المعين أهتم بأن تكون ملائمة لتسليمها، وعندما يتم ذلك، أعتزل لاستمتع بمنتوجات مزرعتــي وأنهي الدورة المعطاة لوجودي. مرتين في الســنة خاطرت بحياتي: الباقي كان ســلمياً للغاية ولا يجب مقارنته بدورات الإزعاج اليومية التي تقع من نصيب زملائي القرويين.»

هناك قطعة هجائية مشابهة حول «المغالاة في الحكم» تُقَدِم بستانيّ مشوه باسم «ظهر الجمل.» وكان هذا الرجل ناجحاً على غير العادة كصاحب مشتل:-

في يــوم ما ســأله زبون كيف كان ذلك؛ فأجابه «أن ظهــر الجمل الكبير لا يمكنه أن يجعل الشجر يعيش أو يزدهر. هو فقط يسمح له باتباع اتجاهاتهم الطبيعية، الآن عند زراعة الشجر عليك أن تعي أن يكون الجذر مستقيماً، وأن تلمس الأرض حوله، أن تستخدم قالباً جيداً وتدكه بشكل جيد. تم لا تمسه، لا تفكر به لا تذهب للنظــر إليه، وإنما أتركه لوحده ليهتم بنفســه والطبيعــة تتكلف بالباقي. أنا فقط أتجنب محاولة إنماء الشجر. لا توجد عندي طريقة خاصة للزراعة، لا أدوات خاصة لتأمــين وفــرة النمو. أنا فقط لا أتلــف الفاكهة. ولا يوجد عنــدي طريقة لأجعلها تنمو قبل الأوان أو بكثرة. البســتانيون الآخــرون يبدأون بالجذور المثنية ويهملون

القالب. ثم يكومون فوقه كثيراً من التراب أو قليلاً منه. أما إذا لم يكن هكذا، فإنهم يتعلقون بشجرهم أو يقلقون عليه، ويركضون باستمرار إلى الأمام وإلى الخلف ليروا كيــف ينمو، وفي بعض الأحيان يقومون بحك الشــجر ليتأكــدوا أنها لا زالت حية، أو يخضونهــا ليروا إذا ما كانت ثابتة كفاية في الأرض، وبالتالي يتدخلون باســتمرار بالانحياز الطبيعي للشجر محولين اهتمامهم ورعايتهم إلى ضرر ونقمة. أنا لا أقوم بمثل هذا العمل. هذا كل ما هنالك.»

«هل يمكن أن تطبق هذه المبادئ التي وضعتها قبل قليل على الحكومة؟» سأله المســتمع. أجاب ظهر الجمل قائــلاً، «آه، أنا أفهم فقط عمل البســتنة: الحكومة ليســت تجارتي. لكن في القرية التي أعيش فيها فــإن الموظفين يصدرون كل أنواع الأوامر باستمرار كما لو كانوا يهتمون بالناس ولكن بالواقع يعملون ضد مصلحتهم. صباحاً ومســاءً يأتي التابعون لهم ليقولوا أن صاحب الاحترام يطلب منا أن نحثكم على حراثة الأرض والإسراع في الزراعة ومراقبة محصولكم. لا تأجلوا الغزل والنسيج، اهتموا بأطفالكم. ربوا الدواجن والخنازير، التحقوا مع بعض عندما تقرع الطبول. كونوا مستعدين عند سماع صوت القعقعة.' هكذا نحن الشعب المسكين معرضون للإلحاح صباحاً ومساءً. لا توجد لدينا لحظة لأنفسنا. كيف يمكن للإنسان أن يزدهر ويتطور بشكل طبيعي تحت هكذا ظروف؟

في كتابتــه للنثر أظهر **هــان أو Han Yu** تنوعاً أكبر في المواضيع منه في الشــعر. إن كلماته لوداع صديقه المتوفى **ليو تســونغ يوان Liu Tsung Yuan** قرأت، وفقاً للتقاليد الصينية إلى جانب النعش أو إلى جانب القبر، ثم أحرقت كنوع من طريقة توصيلها إلى الميت، وهذه الطريقة معروفة لابناء بلده:-

«يا حسرتي، **تســو هــو Tsu Hou**، هل فعلاً أتيت إلى هــذا الممر؟- مخبول أنا: أليس هو الممر الذي يأتي إليه البشر دائماً؟ الإنســان يولد في هذا العالم مثل الحلم: أية حاجة له لنأخذ ملاحظات عن الربح والخســارة؟ بينما الحلم يبقى، فيمكنه أن يتألم أو أن يفرح؛ لكن عندما تأتي اليقظة لماذا التشبث بالماضي ويا للأسف؟

«الأمــور كانت جيدة للجميع لكنها لم تكن تســاوي أي شيء. إن جودة خشــبها كان الــضرر للشــجرة. وأنت الذي لم تعــرف عبقريتك الأولى أي قيد، إنك نســاج الكلــمات المرصعــة بالجواهر، أنت تريد أن يتم تذكرك عندما يتم نســيان معتوه الحظ والمكان».

الغبــي غير الماهر يقطع يديه ويســبح في العرق، بينما الحــرفي الماهر ينظر إليه وهــو مكتوف اليدين. آه أيهــا الصديق إن عملك ليس لهذا العــصر؛ مع أنني أنا الغبي وجدت وظيفة في خدمة الدولة. لم تعرف نفسك خارج إطار القطيع، ولكن عندما كنت ترزح في العار فقد غادرت لا لتعود أبداً، شخص مادي النزعة اغتصب مكانك.

«يا للأســف: **تســو هو Tzu Hou**، الآن لم تعد موجوداً. لكن رغبتك الأخيرة أن أقوم بالعناية بولدك الصغير، لا تزال ترن يا للأسف، في أذني. صداقات اليوم هي تلك المصلحة الذاتية فقط. كيف يمكنني أن أتأكد من أنني سأعيش لتنفيذ وصيتك؟ أنا لم أدع لنفسي هذه المهمة. مع أنك دعوتني إلى هذه المهمة، وأقســم باســم الآلهة من العلا، أنني لن أخون ثقتك.

لقــد ارتحت إلى منزلك الأبدي ولن تعود. مع هذه الأضاحي إلى جانب نعشــك، فأنا أودعك بحب.»

الفقرات التالية تم أخذها من مقالة له عن **الطريق أو الطريقة الكونفوشيوسية:-**

«لو لم يكن هناك أي حكيم في القدم فإن الجنس البشري كان قد انتهى منذ زمن طويل. الإنســان لا يوجد عنده فرو وريش وموازين ليعدلوا حرارة أجسادهم. كما ليس لدى الإنسان مخالب وأنياب لتساعده في الكفاح للطعام. وبالتالي كان تنظيمه هكذا، الملك يصدر الأوامر، الوزير ينفذ هذه الأوامر، ويعلنها على الشعب. الشعب ينتج الحنطة والكتان والحرير، وهي مواد لتتزين بها في الاســتعمال اليومي، وهي ســلع للتبادل، ليفوا بالعهود لحكامهم. الملك الــذي لا يصدر أوامره يفقد الداعي لوجوده؛ الوزير الذي لا ينفذ أوامر مليكه أو يعلنها للشعب، يفقد الداعي لوجوده.

الشــعب الذي لا ينتــج الحنطة والكتان والحرير ومواد الزينة للاســتعمال اليومي والسلع التبادلية بهدف الوفاء بعهودهم لحكامهم يجب أن يفقدوا رؤوسهم.»

. . . .

وإذا ما ســئلت ما هي هذه الطريقة، ســأجيب أنها تكون ما اســميه الطريقة وليس فقط طريقة مثل التي لدى **لاو تســو Lao Tao** وبوذا. الإمبراطور **ياو Yuo** ســلمها للإمبراطور **شون Shun**، والإمبراطور شون سلمها لـ **أو Yu** العظيم، وهكذا حتى وصلت كونفوشيوس وأخيراً **لمانسيوس Mencius**، الذي مات ولم يسلمها لأي شــخص آخر. ثم تبعت المدرسة الهرطقية **لـِ هسون Hsun ويانغ Yang**، حيث ما روي على أنه مهم فقد تم تمريره بينما تم تشــكيل المعيار بشــكل مبهم. في الأيام التي ســبقت **تشــو كونغ Chou Kung** فقد كان الحكماء هم أنفســهم الحكام، وبالتالي كان باســتطاعتهم تأمين اســتقبال طريقتهم. في الأيام التي أتت بعد **تشو كونــغ Chou Kung**، كان جميع الحكــماء ذوي مناصب عالية في الدولة، وبالتالي ديمومتها لفترة طويلة من الزمن.

«والآن ســيتم توجيه ســؤال، ما هو العلاج؟ وأجيب ما لم تهزم المذاهب الزائفة فالإيمــان الحقيقي لن يســتقيم. ودعونــا نؤكد أن على أتباع **لاو تســو Lao Tzu وبــوذا** أن يتصرفوا كبــشر عاديين دعونا نحرق كتبهم؛ دعونــا نحول معابدهم إلى بيوت للسكن. دعونا أن نوضح طريقة ملوكنا الأقدمين على أمل أن يحتضن الناس تعاليمها.»

حول ســمة التهديد الشــهير لـ **هان او Han Yu** الموجه للتمســاح، الذي اعتبره الكتاب الصينيون جميعهم مخلوقاً حقيقياً، مع أن الاســم كان حجابا رســميا، قد يكفي المقطع التالي:-

«آه أيها التمساح، لا يمكننا أنت وأنا، أن نبقى هنا مع بعض. **وضع ابن السماء** هذه المنطقة وهذا الشــعب تحت تصرفي. وأنت يا صاحب العين الجاحظة، إن أزعجت سلام وأمان هذا النهر وافترست الناس وحيواناتهم البيتية، الدببة، والخنازير البرية،

وغزلان المنطقة من أجل تســمين نفسك وتتوالد من جنسك - فانت اليوم تتحداني في كفاح الحياة والموت. وأنا، رغم أنني من بنيان ضعيف، هل علي أن أســجد على ركبة واستســلم للتمساح؟ لا: أنا الحامي الحقيقي لهذا المكان، ويؤسفني أن أرفض تحديك، حتى لو كان سيكلفني حياتي.

«اســتناداً إلى مهمتي من **ابن الســماء**، فأنا ملزم أن أحذرك تحذيراً عادلاً، وأنت، أيها التمســاح، أن كنت حكيماً، ستستمع إلى كلماتي. هناك من أمامك يقع المحيط الواســع، وهو مكان الحوت والقريديس. اذهب هناك وعش بسلام. إنها رحلة يوم فقط.»

إن موت ابن اخ عزيز ومحبوب، قريب من عمره نســبياً فقد استجلب من **هان أو Han Yu** مقالة طويلة وحزينة بعنوان «في الذكرى،» نقلت كما قيل أعلاه، إلى مسامع الراحل من خلال الوسيط النار والدخان. التالي هما مقتطفين قصيرين:-

«إن سلالة أحفاد أخي ذو القلب النبيل قد قطعت حقيقة قبل فوات الأوان. إن الذكاء الصادق، أمل العائلة، لم يبقَ على قيد الحياة لاســتكمال تراث بيته. لا يدرك غــور التعيينات التي يدعوها الناس بالســماء، غامضة هــي أفعال اللامرئي: تجهل الغاز الحقيقة الأبدية: لا يعرفون بســهولة أولئك الذين كُتب عليهم أن يصلوا إلى السن الكبيرة.

«من الآن فصاعداً إن شــعري الأشــيب يزيد بياضاً وســوف تخونني قوتي. إنني أسرع للتعفن جسدياً وعقلياً. كم سأطول قبل أن اتبعك. إن كان هناك معرفة بعد الموت فإن هذا الافتراق ســيكون فقط هنيهة. إن لم توجد معرفة بعد الموت هكذا سيكون هذا الحزن إلا هنيهة، وبعدها سوف لا يوجد حزن بعد الآن.»

. . . .

«آه، أيتها السماء الزرقاء، متى ستنتهي أحزاني؟ فبعد الآن ليس للعالم أي محاسن. ســوف آخذ عدداً من الأكرات على ضفاف **نهر ينغ Ying**، وهناك سأنتظر النهاية،

وســأعلم ابني وابنك، إن صــدف وكبروا مع بعض – ابنتــي وابنتك حتى يأتي يوم زفافهــما. أواه! مع أن الكلمات تخونني، إلا أن الحب يدوم. هل تســمح أم هل لا تسمح؟ الويل لي، السماء تباركك!»

مــن كل كتابات **هان أو Han Yu**، نثراً أم شــعراً لم يكن هناك واحدة مثل تلك التي تســببت في كل هذه الإثــارة التي أثارتها مذكرتــه إلى الإمبراطور في موضوع عظمة بوذا. كانت الحقيقة أن البوذية تخطو خطوات جبارة في التقدير الشــعبي، ولولا مثل هذا الموقف الشجاع الذي أُخذ بهذه المناسبة من قبل رجل قيادي، فإن مكانة الكونفوشيوســية تكون قد تلقت ضربــة نجلاء. فيما يلي مقتطف من هذه الوثيقة النارية التي أرسلت الكاتب إلى المنفى وكادت أن تكلفه حياته:-

«خادمك قد ســمع الآن بــأن التعليمات قد صدرت إلى طائفــة من الرهبان أن يتوجهــوا إلى **فنغ هســيانغ Feng Hsiang** لاســتلام عظيمة بــوذا، وأن جلالتكم سيراقب من برج عالٍ إدخالها إلى القصر الإمبراطوري؛ كذلك بأن الأوامر قد صدرت إلى المعابد المختلفة تأمرون فيها بأن الأثر هذا يتم اســتقباله بالاحتفالات المناسبة. هــذا وقــد يكون خادمكم أبله إلا أنه يعي تمامــاً أن جلالتكم لا تفعلون هذا على آمــال فارغة للحصول على منافع منــه؛ ولكن في غنانا الحالي تماماً، وفي الفرح الذي يعمــر في قلوب الجميع هناك رغبة للاصطفاف مع رغبة الشــعب في الاحتفال في العاصمــة بهــذه المسرحية غير الناطقة الخادعة. كيف يمكــن لحكمة جلالتكم أن تنثني عن المشــاركة في مثل هذه العقائد الســخيفة؟ لا يزال الشــعب بعيداً عن الإدراك ويتــم تضليله بســهولة؛ وإذا ما رأوا جلالتكم هكــذا وأنتم تصلون بحرارة عند قدم بوذا، فإنهم ســيهتفون قائلين، انظروا ابن الســماء، الــكليّ الحكمة، هو مؤمن صادق؛ من نكون نحن، شعبه لكي نحافظ على أجسادنا؟ ثم يبدأون إحراق الــرؤوس وحرق الأصابع، وســتجتمع الحشــود مع بعضها البعــض يمزقون ثيابهم ويبعــثرون أموالهــم، ويصرفون الوقت من الصباح حتى الليــل وهم يقلدون مثلُ جلالتكــم. وتكون النتيجة، رويداً رويداً، شــباب وكبار في الســن، يركبهم الحماس نفسه، سيهملون بالكامل أعمالهم؛ وإذا لم تقوموا، جلالتكم بمنع ذلك، ستجد أنهم

يأتون إلى المعابد وهم على اســتعداد إن يبتروا يداً أو يقطعوا أجسادهم للتضحية لله. وهكذا ســيتم ضرب تراثنا وعاداتنا بشــكل حاد، ونحن سنصبح أضحوكة على وجه الخليقة؛ بالحقيقة، إنها مسألة لا يستهان بها!

فبوذا هذا كان من البرابرة. لغته لم تكن لغة الصين وملابســه كانت ذات تفصيل غريب. لم يســبق له أن تحدث بأمثال حكامنا القدماء ولم يتأقلم مع العادات التي أوصلوها إلينا. لم يقدر الأوامر بين الأمير والوزير، والرابطة بين الأب والابن. لنفرض أن بــوذا بالفعــل قد أتى لعاصمتنا في شــخصه، بناءً على موعد مــن دولته، عندئذ يمكن لجلالتكم اســتقباله ببضع كلمات للمعاتبــة، وتكريمه بمأدبة ومجموعة من الثياب قبل توديعــه إلى خارج البلد مع مرافقة من الجند وبالتالي يتم اجتناب أي تأثــير خطير على عقول النــاس. ولكن ما هي الحقيقة؟ عظمة رجل مات منذ زمن طويــل وتحلل، ســيتم إدخاله، في الحقيقة، داخل نطاق القــصر الإمبراطوري: قال كونفوشيوس، 'أظهر الاحترام لكل الكائنات الروحية لكن أبق مسافة بينك وبينهم. وهكذا عندمــا كان الأمراء الأقدمون يقومون بزيــارة لتعزية بعضهم البعض فقد كان من عاداتهم أن يرســلوا ساحراً بشكل مســبق وبيده عصا الساحر التي يقوم بواســطتها بطرد جميع التأثيرات المضرة قبل وصول ســيده. لكنكم الآن يا صاحب الجلالة على وشك إدخال شيء مقرف بلا سبب وشخصياً تشاركون في الوقائع دون تدخل من الســاحر أو من عصا الســاحر على حد سواء. من بين الموظفين لم يرتفع صوت واحد ضده ؛ من بين الرقباء لم يقم أي واحد منهم بتبيان فظاعة هذا العمل. لذلك، إن خادمكم، الذي يعلوه العار بسبب الرقباء، يناشد جلالتكم أن يتم تسليم هــذه العظام للتدمير إمــا بالنار أو بالماء حتى يتم اجتثاث جذر هذا الشر العظيم إلى أبد الأبدين، والشــعب يعرف كيف أن حكمــة جلالتكم تتفوق على تلك التي للناس العاديين. إن مجد هذا العمل ســيكون خارج نطاق أي مديح. لو كان اللورد بــوذا يملك القوة على الانتقام لهذه الإهانة من خلال إصابتنا بمكروه عندئذ فلتدع جميع أوعية الغضب تنسكب على شخص خادمكم، الذي يدعو الآن السماء لتشهد له بأنه لن يرجع عن قسمه.»

ترك كاتب اسـمه **لي هوا Li Hua** الذي لا نعرف عنه شـيئاً يذكر لكنه عاش في القرن التاسـع، ترك خلفه قطعة تستحوذ على الإعجاب بعنوان «على ساحة معركة قديمة»:-

«شاسع، شاسع، المدى الذي لا حدود له من الرمل المنبسط، دون رؤية أي كائن إنسـاني، محاط بنهر منقط بالتلال حيث في الغسـق الكئيب، تطلق الريح عويلها للشـمس التي تغيب. الشـجيرات اختفت، العشـب ذبل؛ كل شيء بارد صلد مثل الصقيـع في الصباح الباكر. تمر الطيور التـي تطير في الجو، وحوش المنطقة تتجنب هذه النقطة. لأنها، كما علمت من الحارس، كانت سـاحة معركة. كثير من المرات وغالباً،' قال لي هو، 'غُلبَ جيشٌ في تلك النقطة، ويمكن سماع أصوات الأموات تبكي وتنتحب في عتمة الليل.»

هكذا يستحضر الكاتب من مخيلته المنظر المروع من زمن غابر:-

«الآن يعمل الرمح القاسي عمله، الرمل المذهول يعمي المتحاربين المحبوسـين في الكفـاح من أجل الموت؛ بينما التلال والوديان والجداول تئنّ تحت لمعان الأسـلحة وتكسيرها. تدريجياً إن ظلال الليل الباردة الصلدة وقعت عليهم، ركبتهم عميقة في الثلج، ولحاهم متجمدة من الثلج، الطيور الجارحة تبحث عن أعشاشها: قوة حصان الحـرب انكسرت. الثياب، لا فائدة منها؛ الأيدي ضربها الصقيع، اللحم تكسر. حتى الطبيعة تمد يد المسـاعدة للتتار، مؤدين ضربـة مميتة، الأفضل أن تنهي ما بدأته عن عمل المجزرة، عربات الإسـعاف تسـد الطريق، ورجالنا يستسلمون للهجمات من الجانب، لقد استسـلم ضباطهم وقائدهم الجـنرال قد مات والنهر معبأ حتى الاختناق بالجثث حتى أعلى الضفاف: إن قوات **السور العظيم** فاضت بالدماء. كل الفروقات قد محيت في تلك الكومة من العظام المتعفنة. ...

«بضعيف متزايد تضرب الطبلة، القوة اسُـتهلكت والسـهام طارت، ووتر القوس انقصف والسـيوف تهشـمت، والجيشـان انقضا على بعضهما البعـض في النضال الأسمى للحياة أو الموت. أن تستسلم يعني أن تصبح عبداً للبرابرة: أن تقتل يعني

أن تختلط عظامنا مع رمل الصحراء.» ...

«لا صوت للطيور يخرج من جنبات التلال الساكتة. كل شيء ساكن باستثناء الرياح تصفر طوال الليل. أشباح الموتى تتجول هنا وهناك كئيبة: الأرواح من العالم الآخر تجتمع تحت الغيوم السوداء. الشمس تشرق ببرودة على الحشيش المداس بينما القمر الواهن لا يزال يلمع على رقاقة الصقيع المبعثرة حولنا. أي منظر أكثر شناعة من هذا!»

الدمار الذي عمل من قبل التتار المخيفين هو بالفعل موضوع عدد من الأشعار، نثراً وشعراً. الأبيات التالية هي للشاعر **تشن تاو Chen Tao**، الذي عاش في هذا الزمن يسجل قسماً وطنياً لمتطوعين ساخطين، كذلك هو موضوع للحزن لبسالة لا تنفع.

«لقد أقسموا أن **الهون Hun** يجب أن يهلكوا
هم سيموتون إذا لم يكن من ذلك بد. ...
الآن خمسة آلاف، مكسووين بالسواد.
قد قضموا غبرة التتار.
على طول ضفة النهر تقع عظامهم
أينما أرادت،
لكن لا يزال شكلهم ينهض في الأحلام
للجميلات البعيدات.»

من بين أمجادهم الأخرى يمكن أن يقال أن **التانغ Tang** شهدوا ميلاد الأدب الشعبي الذي سرعان ما تسلم سوية مع الدراسات الكلاسيكية، حافزا لم يتم الإحساس بشبيهه قطعياً.

لكن يجب علينا الآن أن نستودع هذه السلالة حيث أن اسمها لا يزال باقياً على قيد الحياة في اللغة العامية حتى هذا اليوم. كما أن الشماليين يفتخرون بتسميتهم

«**أبنــاء الهان**» **Han**، ما يزال الصينيون مــن المقاطعات الجنوبية يبتهجون عندما يعرفون باسم «رجال تانغ.»

الكتاب الخامس

سلالة سونغ (900-1200 ميلادية)

الفصل الأول

اختراع الطباعة بالقوالب الخشبية

انتهت سـلالة تانغ في 907 وخلال الخمسين سنة اللاحقة عاشت الإمبراطورية ما لا يقل عن خمسـة تغيرات أسرية مستقلة. لم يكن الوقت مناسباً للجهود الأدبية؛ لكن الإنتاج لم يتوقف بالكامل، وظهرت بعض الأسماء الثانوية التي وصلت إلينا.

لا نعرف، على سـبيل المثال شـيئاً عن **تشـانغ بي Chang Pi** من سـلالة **تشـو Chou** المتأخرة، باستثناء أنه قدم مرة لمليكه مذكرة ضخمة على أمل تلافي الإنهيار السـياسي. وكانت المذكرة، كما وصل إلينا، موضع إعجاب كبير، إلا أنه لم يجر الأخذ بالنصيحـة الموجودة بها. هذه الأبيـات التي قالها جاءت في عـدد من المختارات الشعرية:-

«بعد افتراقنا، ركبتني الأحلام

وذهبت أتجول، أنت تعرفين أين،

وجلسنا في الفرندة،

وأنت غنيت اللحن العذب القديم.

ثم استيقظت، لم أجد أحداً قربي

سوى القمر، لا يزال يشع،

ويضيء البتلات الميتة

التي مثلك مرت وذهبت.»

هناك على الأقل اسـم واحد مشـوق للطالب الأجنبـي، إن **فنغ تاو Feng Tao** (881-954) اشتهر شـهرة عظيمة عند الصينيين كسياسي متفنن ومتنوع القدرات الذي خدم في النهاية ما لا يقل عن عشرة أباطرة من أربع سلالات مختلفة، وأطلق على نفسـه اللقب الذي يمكن أن نشـير إليه بالمرادف الإنكليزي «The Vicar of Bray.»[66]

وقدم نفسه في بلاط الإمبراطور الثاني لسلالة **لياو Liao** وطلب وظيفة وكان واثقاً أنـه سـيحصل عليها. وقال لا يوجد له بيت ولا مال، وعقـل قليل، ويبدو أن هذه الجملة أعجبت جداً ملك التتار، الذي عينه فوراً المربي الأول لولي العهد، بالنسـبة للأجانب سيتم تذكره بالأساس على أنه مخترع فن الطباعة بالألواح الخشبية. ويبدو أنه من المحتمل أن نوعاً مـن الإخـتراع البسـيط كان معروفاً مـسبقاً في أوائـل سلالة **تـانغ Tang** ولكن حتى أيام **فنغ تاو Feng Tao** لم تستخدم بكل تأكيد في إنتاج الكتب. بعد موته بسـت سـنوات تم وضع سلالة سونغ «النارية» أخيراً على العـرش، ومنذ تلك اللحظة أصبحت طباعة الكتب من الألواح، مهنة معروفة لدى الشعب الصيني.

ومع قدوم هذا الخط الجديد، نمر، كما تقول القصص الخرافية الصينية إلى «سماء وأرض أخرى.» فمختلف دوائر التاريخ، والدراسة الكلاسيكية، والأدب العام، ووضع المعاجم والشـعر تم مرة أخرى ملؤها بعمل متحمسين، يتشجعون بلهفة من قبل سلسـلة من الحكام المسـتنيرين. وعلى الرغم من أنه حصل تراجع بسبب غزوات التتار الذهبيين في سني 1125-1127. عندما أُخذ الإمبراطور السابق وخليفته المعين مأسورين إلى الشمال، ومع ذلك أن **سونغ Sung** استطاعوا أن يصنعوا فترة عظيمة، ووضعوا عن جدارة في الصف الأول من بناة الأدب الصيني.

---

66 إنه وصف ساخر لشخص يقوم بتغيير مواقفة ليبقى في وظيفته الدينية كلما تغيرت المتطلبات الخارجية حوله، وبراي هذه هي قرية من أعمال بيركشاير، في بريطانيا / المترجم.

الفصل الثاني
التاريخ-الأدب الكلاسيكي والعام

الخطــوة الأولى التي اتخذت في دائرة التاريخ لم تكن أقل من إعادة كتابة جميع أخبـــار ســلالة **تـــانغ Tang**. إن المشروع الاعتيادي كان قد نفذه **ليو هسو Liu Hsu** (897-946)، عالم مثقف من ســلالة **تشـــن Chin** المتأخرة، ولكن وبناء على أســباب كثيرة كانت النتيجة التــي أعطيت له هي غير مــرضٍ، واتخذت خطوات لإلغائه. أن تنفيد هذا المشــــروع أوكــل إلى **أو يانـــغ هســـــيو Ou Yang Hsiu وسونغ تشي Sung Chi** كان كل منهما رجلاً قيادياً في عالم الأدب. لقد تربى أو يانغ هسيو فقيراً، وأمه علمته الكتابة بالقصبة. وعندما أصبح في الخامسة عشرة بدأت قدراته تستجلب الأنظار، وبعد ذلك جاء اسمه الأول على لائحة الترشيحات للشــهادة الثالثة أو أعلى شهادة. كانت حياته العامة حياة متقلبة بسبب المواقف الجريئة التي اتخذها في الدفاع عن ما اعتقد أنه صحيح، بغض النظر عن المصلحة الشــخصية. إلى جانب تاريخ الســلالة فقد كتب في شــتى المواضيع، الجسيم منها والمبهج، بما في ذلك عرض **لكتاب الشــعر**، وعمل عن التدوين القديم ونوادر رجال عــصره، ومقالة مفصلة عن نبــات الفاونيا أو عود الصليب، والشــعر ومقالات لا نهايــة لها. التالي هو عينة عن عمله الأخف الذي يبعث كثيراً على الإعجاب لجمال أســلوبه، ويثابر على قراءته جميع طلاب الإنشــاء. الموضوع كما سيرى القارئ هو المؤرخ نفسه:-

«إن مقاطعــة **تشــو Chu** محاطة كاملاً بالتــلال، والقمم مــن الجنوب الغربي يكسوها نمو للشــجر كثيف وجميل، الذي عليه تتجول العين بانبساط حتى تخوم **شان دونغ Shan Dong**. إن المشي لميلين أو ثلاثة أميال على هذه التلال يضع المرء على مسمع من صوت المياه المتساقطة التي تتدفق من مجرى يعرف باسم **نافورة**

النبيذ؛ بينما، على قاب قوســين، يقع في ركن عند ثنية في الطريق كيوسك، يصفونه عادة **بعريشــة السكير الكبير في السن.** لقد بناها راهب بوذي اسمه **الحكمة التي لا تمــوت،** حيث عاش بين هذه التلال واســتلم الاســم المذكور أعــلاه من الحاكم، والأخير كان يجلب أصدقاءه إلى هذا المكان ليتناولوا النبيذ، وبما أنه شــخصياً كان يفقد أهليته عندما يتناول عدة كاســات، وكان فوق ذلك، طاعنا بالســن فقد أخذ لنفســه لقب **السكير الكبير في السن.** إلا أن الذي جلبه إلى هذا المكان ليس النبيذ، إنه المنظر الساحر الذي مكنه النبيذ من التمتع به.

«إن أشعة الشمس تختلس النظر عند الفجر عبر الشجر، لكي يتم حجبها تدريجياً خلف الســحب التي تتجمع تاركة وراءها لا شيء ســوى العتمة حولها مما يعطي المكان تغيرات الصباح والليل. الزهور البرية تبعث زفير عطرها من الوادي الظليل، وأوراق النباتــات الوارفة للغابة الكثيفة، للشــجر الجميل، لريــح الصقيع الواضح والصخور المعراة من الســيل المتضائل – هذه مؤشرات الربيع والصيف والخريف والشــتاء. الصباح هو الوقت المناســب للذهاب إلى هناك، عائــداً مع ظلال الليل، وعــلى الرغم من أن المكان يعطي ناحية مختلفة مع تغيرات الفصول، فإن مفاتنها لا تخضع لأي مقاطعة، لكنها تســتمر دوما. إن الحمالين يغنون على طول الطريق، المســافرون يســتريحون فترة تحت الشــجر، واحد يصيح والآخر يرد، الناس الكبار بالســن يعرجون طوال الطريق، الأطفال تحملهم الأيدي، وأطفال آخرون يمسكون اليد، في كل الســاعات دون توقف – هؤلاء هم شــعب **تشــو Chu.** مجموعة في الجداول، والسمك الظريف أخذ من مكان ما حيث تبدأ برك التيار المعاكس بزيادة العمــق، وشربة من النبيذ المبرد من النافورة، وعــدد من صحون اللحمة والفواكه كما توفرها هذه التلال، - كل هذه يتم توزيعها سلفاً، تلك تشكل احتفال الحاكم، وفي اللهو الصاخب لســاعة المأدبة لا تفكر في العمل أو المشــاكل. كل نبّال يصيب هدفه وكل لاعب يربح دستته. الكاسات تلمع وهي تنتقل من يد إلى يد؛ وحيوية المحادثــات تســمع بينما يتنقل الضيوف دون قيد هنا وهنــاك. بينهم يوجد رجل طاعن في الســن وله شعر أبيض، أصلع بأعلى الراس، هذا هو الحاكم السكير الذي

عندمـا تقبل الشـمس رؤوس التلال وعندما تمتد الظلال السـاقطة وتغبش، تثني خطواتها باتجاه البيت برفقة أصدقائه. ثم بالظلام الذي يكبر تسمع أصوات بالعلى وأصوات من تحت؛ حيوانات الحقول وطيور السـماء تبتهج لمغادرة الإنسان. فهم كذلـك يريدون الابتهاج كما الإنسـان. كذلك أصدقاء الحاكـم. يبتهجون معه، غير أنهم لا يعرفون على ما هو يبتهج. إذ سـكر يسـتطيع أن يبتهـج معهم، وإذا كان صاحياً يمكنه أن يتناقش معهم، هكذا هو الحاكم. وإذا ما سـألت، من هو الحاكم أجبت، **أو يانغ هسيو Oh Yang Hsiu من لو لنغ Lu Ling.»**

إلى جانـب تركيز الاهتمام عـلى جمالية هذه القطعة لأنها تصـور بحيوية روح العصر الذي كتبت فيه، فإن المعلق يشير بفخر إلى أنه فيها حرف **Yeh**، بتأثير لبق كذلك الذي في اليونانية YE، يأتي ذكره ما لا يقل عن عشرين مرة.

القطعـة التالية بعنوان «مرثاة خريفية،» وتشـير إلى الانهيـار المفاجئ للصيف، وهي ظاهرة عادية في الشرق:-

«في إحـدى الليـالي ما كدت أجلس إلى كتبي عندما سـمعت صوتا بعيداً باتجاه الجنوب الغربي، وإذ استمع إليه باهتمام شديد، كنت أتعجب ما قد يكون. بالإضافة إلى ذلك أتى عليه أولا صوت يشبه تنهدة النسيم العليل... وبالتدريج تعمّق إلى أن أصبح مثل الاصطدام بسطح ماء الأمواج المتكسرة على الشاطئ... وهدير الكاسرات الضخمـة في الليلة المروعة، وضمـن عواء إعصار الرياح والمطـر. انفجرت كلها في الجرس المعلق، وترك كل واحد من متولياتها ترن بشكل متناغم. كانت مثل المسير المكتوم للجنود، الذين يسرعون في التقدم، الشكيمة في الفم، للهجوم عند اصطخاب الأوامر لا يشق الأجواء، لكن فقط عندما يسمع وقع الخطى للرجال والأحصنة.

«"يا ولد،" قلت، "ما هذا" الصوت؟ اذهب واستقصِ الخبر.' ' يا سيدي،' رد الولد عنـد عودته،' القمر والنجوم تشـع نورها بقوة: النهر الفضي يمتد عبر السـماء. لا صوت إنسان يسمع في الخارج: إنه فقط هسيس الشجر.»

«يا لهفي! 'صحت، لقد داهمنا الخريف. أو هكذا يأتي الخريف يا ولد؟ - الخريف

– القـاسي والبـارد، الخريف فصـل الألم والغيم؛ الخريف فصل السـماء الصافية؛ الخريف فصل الحاصب الخارق، فصل اليباب والآفات! الارتعاش هو الصوت الذي يعلـن قربه، ثم ينقض علينا وهـو يصرخ. كل وفرة الأخـضر الغني تتغير، جميع أوراق الغابة الفخورة ذبلت وسـقطت على الأرض، ذبلـت من نفس الثلج عليها. فالخريف جلاد الطبيعة الرئيسي وشـعاره هو الظلام. له صفة الفولاذ وشـعاره هو السـيف البتار إنه الملاك المنتقم يركب عـلى جو من الموت. بما أن الربيع هو قمة العطاء فالخريف هو قمة النضوج. وحزينة هي السـاعة التي فيها يفوِّت النضوج، لأن ذلك الذي يفوِّت أوله يجب أن يموت.

«مع ذلك، ما معنى كل هذا للنبات وللشـجر التي تذبل في فصلها المستحق؟ ... لكن أبق؛ يوجد رجل، أكثر إنسـانٍ إيماناً مـن كل شيء. أعطه مائة أمانة فإن ذلك سـيحطم قلبه، قلق لا يحصى، يتعقب التجاعيد على جبينه حتى تنثني نفسه من صميم قلبه تحت وزر الحياة. وبأسرع ما يمكنه هو يسرع باتجاه التعفن في الوقت الذي يسـعى فيه سـدىً الحصول على الشيء الذي لا يمكـن الحصول عليه أو أن يحزن على جهله على ذلك الذي لا يمكن معرفته أبداً، ثم يأتي الشـعر الأشـيب - لم لا؟ هل الإنسـان له إطـار صلب يمكنه به أن يدوم أكثر من شـجر الحقول؟ لكن، وبعـد هذا كله، من هو الذي، باسـتثنائه يسرق منه قوته؟ قل لي يا صبي أي حق لدى الإنسان لاتهام الخريف بالتفجر أي بالانطلاق؟

« الولد لم يبد أي جواب. كان مستغرقاً بالنوم. لم يصلني أي صوت باستثناء صوت صرصار الليل يجيب على لحني الحزين.

المـؤرخ البارز الآخر في هذه الحقبة كان **سـونغ تشي Sung Chi** (998-1061)، الـذي بدأ عمله بضرب أخيه الأكبر في امتحانـات المتخرجين. إلا أنه احتل المنصب العـاشر عوضاً عـن الأول، بأمر امبراطوري ووفقاً لأسـبقية الأخـوة. ثم ارتقى إلى المناصب العالية وكان كذلك كاتباً غزيراً، وكان من المفضلين لدى البلاط وقد قيل أنه كان مرة في إحدى احتفالات الإمبراطورية عندما بدأ يشعر بالبرد. طلب الإمبراطور

من إحدى السـيدات في حريم الإمبراطور أن تعيره لفاعها، وبناء على ذلك عرضت دزينة من البنات لفاعتها عليه. لكن **سـونغ تـشي Sung Chi** لم يعجبه أن يكون معجباً بأي واحدة منهن، وبالأحرى عوضاً عن أن يزعل الجميع، اسـتمر بالجلوس والارتعاش. ما يسـمى **بالتاريخ الجديد لسـلالة تانغ**، الذي أنتجه بالتعاون مع **أو يانغ هسـيو Ou Yang Hsiu**، يعتبر بشكل واسع تحسـيناً واضحاً على عمل **ليو هسو Liu Hsu**. لكنه لم يقم بإحلاله محل العمل الأخير، الذي لا يزال بين تواريخ العترات المعترف بها، وأخذ مكانه جنباً إلى جنب منافسه.

في هـذه الأثناء برز نجـم آخـر، بالـعظمة يمـكـن مقـارنتـه فـقـط بالعبـقرية المتـألقة لـ **سـو ما تشـين Ssu Ma Chien**. **سو ما كوانغ Ssu Ma Kuang** (1019-1086) التحق بالسـلك الرسمي وارتقى إلى أن أصبح وزير دولة. لكنه عارض المصلح العظيم **وانغ آن شـيه Wang An Shih** فاضطر إلى الاستقالة في 1070. وكرس حياته الباقية إلى إتمام عمله الشهير المعروف باسم **تونغ تشيان** أو **مرآة التاريخ**، وهو العنوان الذي منحه إياه الإمبراطور في عام 1084 لأن «مشاهدة العصـور القديمة كما كانت في المـرآة هو أمر مسـاعد في إدارة الحكومة.» **فمرآة التاريخ** تغطي الفترة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى بداية سلالة **سونغ Sung** في عام 960 وتم ردفها بعدة أعمال مهمة بيد الكاتب نفسه، كلها لها علاقة بالموضوع. في صباه كان الأخير طالباً ملتزماً وكان يضع ذراعه على مخدة خشـبية مسـتديرة التـي كانت توقظه بحركتها كل مرة بدأ بها يغفو عن عمله. في إحدى المناسـبات، خلال طفولته، مرافقه الصغير وقع في زير ماء وكاد يغرق لولا وجود عقل **سـو ما كوانغ Ssu Ma Kuang**. حمل حجراً كبيراً وبه كسر الإناء مما فرغ الماء منه. كعالم كان عنده مكتبة كبيرة، وكان دقيقاً جداً في معاملة كتبه حتى أنها بعد سنوات عدة من الاستخدام كانت لا تزال كأنها جديدة. كان لا يسمح لطلابه أن يقلبوا الصفحة بخدش الصفحة بأظافرهم بل جعلهم يستخدمون السبابة مع الأصبع اليمنى لليد الأيمن. في 1085 كان مصراً على العودة إلى الحياة العامة، لكنه منذ عدة شـهور لم يكن في العاصمة، مجاهداً كما العادة لخير بلاده، قبل أن يستسلم للمرض ويموت،

وكان موضع احترام في كل مكان وموضع تأسف من جميع أبناء بلده الذي كان يعرف عندهم بمحبة باسم بوذا الحي.

المقتطف التالي من كتاباته يشير إلى تطور جديد وخطير في مكتبة الرقابة، وهي مؤسسة لا تزال تلعب دوراً مميزاً في إدارة الصين:-

قديماً لم يكن يوجد إدارة باسم المراقب من أعلى سياسي نزولاً حتى الغني والتاجر، كان كل إنسان له الحق بتوبيخ العرش. منذ زمن سلالة **هان Han** وما بعدها هذا الامتياز أعطي لمكتب، له مسؤوليات جسام لمناقشة حكومة الإمبراطورية، والناس في العالم أجمع، والنجاحات والتقصير والمحاسن والنقائص، وفقاً لأهميتها وملحاحيتها. والهدف الوحيد من كل هذه الترتيبات هو منفعة الدولة، وليس تلك الخاصة بالرقيب الذي أزيلت عنه كل أفكار الشهرة والمكاسب. في عام 1017 صدر مرسوم يعين بموجبه ستة مسؤولين لشغل مهمات الرقيب، وفي عام 1045 كتبت أسماؤهم لأول مرة على اللوائح، وبعد ذلك في عام 1062، وعلى ما يبدو للمحافظة عليها بشكل أفضل حفرت الأسماء على الحجر. وهكذا تستطيع الأجيال القادمة أن تشير إلى هذا الشخص وتقول، "هذا رجل ذو ولاء؛ ولآخر تقول ذاك خائن؛ 'ولثالث تقول' ذاك رجل مستقيم. ولرابع، 'ذاك وغد". ألا يسبب ذلك الخوف؟

كان أحد مجايلي **سو ما كوانغ Ssu Ma Kuang تشو تون أي Chou Tun I** (1017-1073) الذي زاوج بين مهمات القيادة العسكرية الصغيرة والدراسة المطولة والشاقة. وقد جلب لنفسه الأمراض بسبب عمله الزائد عن الحد والاهتمام البالغ بمصلحة الناس ومهما كانت المخاطر له. إن أعماله الرئيسة كتبت لتوضيح الغاز **كتاب التغيير** ونشرت بعد موته من قبل تلامذته، ومع تعليقات **تشو هسي Chu Hsi**. القطعة الساخرة القصيرة التالية، المستترة تحت حجاب رمزية الورود، كتبت بالأسلوب الذي يقدره كل صيني مثقف، معروفة جداً:-

«عندنا محبو النبات المورد والشجيرات بأعداد كبيرة، لكن **تاو تشيان Tao Chien** وحده الذي كرس نفسه للأقحوان. منذ الأيام الأولى **لسلالة تانغ Tang**،

كان أمــراً رائجاً أن تعجب بالفاوانيا، لكن المفضل لدي كان زنبق الماء. كيف تخرج مصقولة من سريرهــا المزهر اللزج! كيف تتواضع في هدوئها على البركة الصافية - وهو شــعار الطهارة والحقيقة. ملائمة بشكل متناسق، رائحتها أخاذة تنطلق في كل الأرجاء، حيث ترتاح في حالة من النظافة وهو أمر يبعث على الاحترام من مســافة ولا يجــب أن يدنس بمنهــج عادي. برأيي أن الأقحوان هو زهــر التقاعد والثقافة؛ والفاوانيا هي زهرة الريبة والثراء؛ وزنبق الماء، **طهارة السيدة** دون منازع.

«واأســفاه! قلة هي التي تحب الأقحوان منذ **تاو تشــيان Tao Chien**، ولا أحد يحــب زنبق الماء بقدر ما أحب، بينما الفاوانيا تبقى المفضلة بشــكل عام لدى كل الناس.»

تشــنغ هاوCheng Hao (1032-1085) **وتشنغ أي Cheng I** (1033-1107) كانا شقيقين شهيرين بسبب علمهما، وخاصة الأخ الأصغر لأنه نشر تعليقاً ثميناً عن **كتاب التغيير.** الأخ الأكبر جذب إليه بعض الانتباه لأنه قمع بشــجاعة تمثالاً حجرياً في معبد بوذيّ، قيل عنه أنه كان يبث إشعاعات من رأسه فكان يسبب التجمعات الفوضوية من الرجال والنســاء، عينة من شِــعره سنعطيها في الفصل القادم. كتب **تشنغ أي Cheng I** عدداً من الفصول المثيرة للاهتمام في فن الشعر. في إحدى هذه يقول، «عندما سئل هل يستطيع إنسان ما أن يصنع من نفسه شاعراً إذا قام بعمل شــاق، أجيبه أنه فقط بالعمل الشاق يمكن لأي إنسان أن يتم تصنيفه هكذا، على الرغم، من وجهة أخرى، إن القيام بعمل شاق بحد ذاته قد يكون مناهضاً للنجاح.

ويذكرنا بالبيتين القديمين:-

«قبل أن يتم الحديث بوزن التفاعيل الخمسة

كم عدد القلوب البشرية التي تكسرت.»

وهناك بيتان قديمان آخريان:-

«إنه لمن المحزن أن تأخذ قلبي

وتحطمه على الوزن من خمسة تفاعيل.»

كلاهما صحيح حتى الثمالة. كونفوشيوس نفسه لم يكتب الشعر لكنه لم ينصح الآخرين عن الامتناع عن فعل ذلك.

المصلح الكبير والاقتصادي السياسي **وانغ آن شيه Wang An Shih** (1021-1086)، الذي عاش ليرى أن كل سياساته عكست، كان عاملاً مجتهداً في صباه، وفي الإنشاء كان يقال عن قلمه أنه كان «يطير فوق الورق.» كرجل امتاز بالتوفير وبعناده. كان يلبس الثياب القذرة وحتى أنه لم يغسل وجهه، وكان **سو هسون Su Hsun** قد ندد به كوحش. لقد كان واثقاً من جميع أفكاره لدرجة أنه لا يمكن أن يعترف بإمكانية خطئه، الذي أكسبه لقب **الوزير العنيد.** حاول أن يصلح نظام الامتحانات، لم يطلب من المرشح كثيراً من تألق الأسلوب بالقدر الذي طلب منه معرفة واسعة بالمواضيع العملية،» ووفقاً لذلك، «قال أحد الكتاب الصينين «حتى طلاب المدارس في القرية بدأوا يرمون كتبهم المدرسية في البلاغة وبدأوا يدرسون كتب التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسي.» كان هو نفسه مؤلف عمل في الأحرف الصينية المكتوبة، مع إشارة خاصة إلى تلك التي يتم تشكيلها عبر إشراك اثنين أو أكثر، والتي معناها، إذا أخذت مع بعضها البعض، يقرر معنى الحرف المركب. التالي هو رسالة كتبها لصديق عن دراسة المذاهب الخاطئة:-

«لقد منعت بسبب المرض من الكتابة لكم لمدة طويلة الآن، مع أن أفكاري كانت دائماً معكم طول الوقت.

«رداً على كتابي الأخير لكم، الذي أعربت فيه عن مخاوفي من أنكم لا تتقدمون في دراستكم للقانون، لقد استقبلت الكثيرين منكم، حيث أنه يبدو أنكم تفكرون أنني عنيت قانون بوذا، وإنكم قد اندهشتم لتوصيتي لتلك الأعمال الضارة. ولكن كيف يمكنني أن أكون قد عنيت أي عمل غير **قانون حكماء** الصين؟ وبالنسبة لكم أن تكونوا قد أخطأتم مقصدي من رسالتي هو توضيح جيد عما عنيته عندما قلت أنا متخوف من أنكم لا تتقدمون في دراستكم للقانون.

«إن المعرفة الكاملة لقانوننا لم يتم الحصول عليها من قبل أي شخص لفترة طويلة من الزمن. إن دراسة القانون لوحده لا تكفي للمعرفة الكاملة للقانون، وبالتالي أنا شخصياً كنت قارئاً نهماً للكتب بجميع أنواعها حتى، على سبيل المثال، لتلك الأعمال الطبية والمتعلقة بعلم النباتات. وزيادة على ذلك، غطست في المقالات عن الزراعة وعن التطريز، جميعها. وجدتها مفيدة في مساعدتي للإمساك بمشروع القانون الكبير نفسه، فالتعليم في هذه الأيام يختلف اختلافاً كاملاً في متابعته عما كان عليه في الأيام الخوالي؛ أما الآن، فمن العسير جداً أن تتعرف على المعنى الحقيقي لحكمائنا الأقدمين.

«هناك **يانغ هسيونغ Yang Hsiung**، لقد كره جميع الكتب التي لم تكن تقليدية. إلا أنه عمل دراسة شاملة عن كتاب الهراطقة. بقوة التربية كان بإمكانه أن يأخذ ما هو جيد منها ويرفض ما هو سيء فيها. التأثير الضار لم يفهمه قطعياً؛ بينما، من وجهة أخرى، كان على استعداد بشكل أكثر فعالية لتوضيح ما نعرفه من الحقيقة. الآن هل تعتقد أنني أُفسدتُ بهذه التأثيرات الضارة؟ إن كان كذلك، فأنت لا تعرفني.

«لا! إن التأثيرات الضارة للعصر لا يمكن البحث عنها في قانون بوذا. إنها توجد في فساد ورذيلة أولئك الذين في المناصب العليا، في التصرفات الخاطئة والمعيبة التي أصبحت مألوفة بيننا. ألا تتفقون معي في ذلك؟»

سو شيه Su Shih (1036-1101) المعروف بشكل أفضل باسمه الذي اختاره وهو **سو تونغ بو Su Tung Po** الذي كان تعليمه الأولي تحت إشراف والدته، انجز قطعاً إنشائية ممتازة في امتحانات الدرجة النهائية له مما دعا الممتحن أو **يانغ هسيو** Ou Yang Hsiu يرتاب بأنها من عمل بديل محترف. وفي النهاية جاء ترتيبه الأول على اللائحة. وارتقى ليصبح رجلاً سياسياً سبب له أعداء أكثر من الأصدقاء، وكان دائماً يناضل ضد مكائد أعدائه عديمي الضمير، الذي نتج عنه، في مناسبة ما إقصاؤه إلى جزيرة **هاي نان Hai Nan**، التي كانت في ذلك الزمن

همجيــة ومنطقة غير معروفة تقريبــا. وكان كذلك كاتب مقالات رائعاً وشــاعراً، وكتاباتــه لا تزال تقدم البهجة للصينيين. القطعة التالية هي حكاية نزهة منتصف الليل إلى منطقة على ضفاف نهر دارت حولها معارك فظيعة قبل تسـعمائة سـنة تقريباً، وحيث حرق أحد الأسـاطيل حتى حافة المياه، ومسـبباً احمرار حائط على الأغلب كان صخرة على الجانب:-

«في العام 1081، وكان قد خفت ضوء القمر السابع، ذهبت مع صديق في رحلة في القارب إلى الحائط الأحمر. وكان نسيم صافٍ يضرب بلطف، نادراً ما كدر النهر، بينــما أنا كنت أملأ كأس صديقي وطلبت منه أن يضع الطعم في السـنارة في ضوء القمر ويغني أغنية "الفتاة المتواضعة."

«تدريجيــاً طلع القمر فـوق التلال الشرقية متجولاً بين العربـة والماعز[67] ورامياً بأشعته الفضية ورابطاً الماء بالسماء. وعلى الأسكف[68] أخذنا مقاعدنا وانطلقنا على السـطح السائل، بيسر ورشاقة كما لو كنا مسافرين عبر الفضاء، راكبين الريح دون أن نعــرف إلى أين نحن متجهـون. ويبدو أننا كنا نتحرك في مجـال آخر، مبحرين عبر الهواء مثل الإلهة. فسـكبت كاسـاً للفرح، وكنا نمرر الوقت بالضرب على جنب الأسكف فغنيت الأبيات التالية:-

'بمجاديف ضاحكة، وبمقدمة القارب الفرحة

أنطلق بسهولة عبر المرج اللامع-

إن قلبي في داخلي ينمو بجلل حزين

أبطال عظام ماتوا، أين هم الآن؟ '

«تابـع صديقي هــذه الكلمات على النــاي الصغير الذي يحملــه، محاولاً ضبط النوتــات ليعرب عن المشــاعر المتباينة من الشـفقة والأسـف، دون أدنى انقطاع

67 أسماء نجوم في التراجيديا والكوميديا اليونانية / المترجم.

68 مركب شراعي صغير/ المورد / المترجم.

في الصــوت الذي بدا أنه التف حولنا مثل شــلة من الحريــر. إن وحوش الأعماق استسلمت إلى تأثير متاعبه، بينما الملاّحة، التي كانت قد فقدت زوجها، انفجرت في البكاء، أما أنا فغلبتني مشــاعري فلجأت إلى مزاج جدي وسألت صديقي أن يشرح لي فنه هذا. على هذا السؤال أجاب، ألم يقل **تساو تساو Tsao Tsao**

'النجوم قليلة والقمر مشع،

الغراب باتجاه الجنوب رفرف في طيرانه؛ '

«اتجــاه الغرب إلى **هســيا كو Hsia Kou** باتجاه الشرق توجد وو **تشــانغ Wu Chang**، حيــث تندمج التلال والنهر باندماج صرف-ألم يهزم **تســاو تســاو Tsao Tsao** من قبل **تشــو او Chou Yu**؟ **تشينغ تشو Ching Chou** كان على رجليه: كان يندفع في النهر باتجاه الشرق. مراكبه الحربية امتدت من المقدمة إلى المؤخرة حتى ألف لي: راياته جعلت الســماء مظلمة. سكب كأساً عندما اقترب من **تشيانغ لينغ Chiang Ling** وهو جالس في السرج مســلح من رأسه حتى أخمص قدميه. ومع ذلك، أين هو اليوم؟»

«الآن، أنت وأنا، اصطدنا السمك وجمعنا المحروقات سويا على الجزيرة الصغيرة النهرية. وقد تآخينا مع الروبيان (جراد البحر)؛ وعملنا صداقة مع الغزال. وانطلقنا سويا في قاربنا الضعيف. وقد حصلنا على الإلهام سوية من زجاجة نبيذ، -عدد من المذكرات أطلقناها في المحيط في قشرة أرز: يا لهفي، فالحياة ليســت ســوى لحظة من الزمن. أنا أشــتاق لكي أكون مثــل النهر العظيم الذي يتدحرج في طريقه دونما نهاية. آه، لو اســتطعت أن أتعلق بجناح ملاك مــا وأتجول معه للأبد! آه، لو أنني أســتطيع أن أمسك بالقمر المشع بين ذراعي، وأسكن معه للأبد، يا لهفي، يبقى لي فقط أن ألفّ هذا الأسف بصوت اللحن الرقيق.»

" لكن هل تفهم حقاً، لغز هذا النهر وهذا القمر؟" اســتفسرت منه. الماء يجري من هنا لكنه لا يذهب أبداً. القمر يخفت ثم يعود ليشــتد مرة أخرى بالقياس إلى غيره، فإن الزمن نفســه ما هو إلا لحظة من الوقت ومن ناحية مطلقة، أنت وأنا،

بالشراكة مع كل المادة سـنبقى عائشـين حتى أبد الآبدين. لماذا إذاً الاشتياق الذي تتحدث عنه؟

«الأشـياء التي نراها حولنا هي، الواحد منهـا وجميعها، هي ملك أفراد. إذا كان الشيء لا يخصني لا يمكن لذرة منه أن استمتع بها. لكن النسيم الصافي الذي يضرب في عرض النهر، القمر السـاطع الذي يسـبح فوق تلكم التلال – هذه هي أصوات ومناظر يجب الاسـتمتاع بهـا دون إجار أو عراقيل من قبل الجميـع، إنها الهدايا الأبدية من الله إلى كل الإنسانية والاستمتاع بها لا ينتهي. وبالتالي أنت وأنا نستمتع بها الآن؛

«ابتسـم صديقي وهو يرمي التفل من كاس النبيذ الخاصة به، وملأه مرة أخرى حتى حافة الكاس، ثم بعد أن انتهى احتفالنا، وبين القمامة من الكؤوس والصحون، اضطجعنا لكي نرتاح في القارب: وإذ بشـعاع من الضوء قادم من الشرق قد أخذنا على حين غرة.»

الانتهاء من مقصورة كان **سـو شـيه Su Shih** يبينها «كمأوى من شغل الحياة،» تزامن مع هطول المطر الذي وضع حداً لجفاف قاسٍ، اسـتدعى سجلا للشكر على هذه الظاهرة الإلهية تجاه شـعب يتألم. المقصورة سميت نسبة إلى المطر للاحتفاء بالفرحة.» السجل ينتهي بهذه الأبيات:-

«لو أمطرت السماء لؤلؤاً فالبرد لا يستطيع أن يلبسها كثياب،

لو أمطرت السماء يُشباً، فالجوعى لا يستطيعون أكله.

لقد أمطرت دون توقف لثلاثة أيام-

تأثير من هذا؟

هل عليك أن تقول لقد كان من فعل الحاكم،

والحاكم نفسه يحيله على **ابن السماء.**

لكن ابن السماء يقول، «لا! لقد كان الله.

والله يقول، لا! لقد كانت الطبيعة. ’

وبما أن الطبيعة تقع خارج نطاق معرفة الإنسان.

أنا أسمي هذه التعريشة عوضاً عنه.»

قطعة أخرى تشير إلى منعزله الذي-

«احتفـظ بطائريـن من طيور الكركي، قـام بتدريبهما بدقـة، وكل صباح يطلق سراحهما باتجاه الغرب من خلال الفجوة ليطيرا وبخفة في المسـتنقع في الأسفل أو يحلقا في الغيوم كما توجهها وتسـتهويها قدرة الطيور، وعندما يحلق الليل يعودان بانتظام شديد جداً.

هذه القطعة تنتهي أيضاً ببعض أبيات من الشعر:-

بعيداً: بعيداً طيوري تطير باتجاه الغرب الآن

اندفع إلى الأعلى وحدق بالجميع في الأسفل؛

انقضوا مع بعض، القوادم مغلقة، إلى الأرض؛

يحلقون مرة أخرى بين الغيوم؛

يطوفون اليوم كله في الوادي المليء بنبات السعادى؛

لتجميع طحالب الحزاز في المستنقع الحجري.

عودوا: عودوا: تحت الظلال الممتدة،

إن المعلم المكسي بنسيج صوفي يقف وغيتاره بيده.

إن هو الذي يطعمكم من مخزنه الرقيق:

عودوا: عودوا: ولا تتأخروا في الغرب.»

إن روايته عن بلد النوم مبنية على أساس بلد السكارى **لـ وانغ تشي Wang Chi**:-

«إدارة خالصة، وأخلاق تعجب بها هي الباقية هنا، فالكامل يكون مسرى واسعاً، ولا يوجد فيه شـمال، جنوب، شرق أو غرب. السكان هادئون وأنيسون، لا يشكون من أي نوع من الأمراض، وكذلك هم لم يتعرضوا إلى تأثيرات العواطف السـبعة. لا يوجد لهم اهتمام بشؤون الحياة العادية، لا يستطيعون التمييز بين السماء والأرض والشـمس والقمر. لا يكدحون ولا يغزلون لكنهم يضطجعون وينبسطون، لا توجد عندهم سفن ولا عربات؛ لكن تجوالهم يكون طيران التصور غير المحدود.»

أما أخاه الأصغر سـو تشه Su Che (1039-1112)، فكان شاعراً وموظفاً رسمياً، ومعروفاً أساساً بالتزامه بالطاوية. وقد نشر طبعة بتعليق عن **طاو ته تشينغ Tao Te Ching**.

أحـد العلـماء الأربعة في هـذا القرن هـو **هوانغ تينغ تشـيان Huang Ting Chien** (1050-1110) الذي تميز كشاعر وخطاط صيني. وكان قد وضع بين الأربع والعشرين نموذجاً للبر بالوالدين، حيث أنه عندما مرضت والدته ظل جالسـاً عند سريرهـا يراقبها لمدة سـنة كاملة دون أن يبـدل ثيابه البتة. التـالي هو عينه من أسلوبه الرسولي:-

«إن أشعار **هسي كانغ Hsi Kang** فوراً بليغة وجميلة تماماً دون أي أثر للعادي فيهـا. على كل طالب من فن الشـعر أن يعرفها ملياً وهكذا يجلب الشـاعر مركز الاهتمام.

«أولئـك الذين غرقوا في اهتمامات وهمـوم النزاعات العالمية، حتى بمجرد نظرة عابرة سيربح من ورائها ما فيه الكفاية ليمحو بعض النقرات في الشبكة العنكبوتية للفنائية البشرية، وكم بالحري أولئك الذين يخترقون ويتمسكون بكل معنى مخفي ويستمتعون بطعمها حتى النهاية؟ لذلك، يا ابن أخي؟ أرسل هذه الإشعار لتقرأها للعائلة، حتى يمكنك أن تغسـل قلبك وتتسلى في ساعة قلقة من خلال التفكير بها. " كلما لاحظت مؤخراً إلى الشـباب عندي، على البطـل الحقيقي أن يكون متعدد الجوانـب، لكن يجب عليه أن لا يكون عادياً: من الصعب شـفاء ذلك. وعن ذلك

ســأل أحدهم بأي خصائص يمكن تمييز هذا الغيــاب العادي. فأجبته من الصعب قول ذلك. الإنسان غير العادي هو تحت الظروف العادية مثله مثل الناس الآخرين. لكن ذلك الذي في لحظات التجارب الباهظة لا ترمش له عين هو غير العادي."

تشنغ تشــياو Cheng Chiao (1108-1166) بدأ حياته الأدبية بانعزالية تامة، وكان منقطعاً عن جميع العلاقات الإنســانية. بعد ذلك قضى بعض الوقت في زيارة الأماكن المثيرة المتعددة، مكرساً نفسه للبحث عن الأعاجيب، باحثاً ومنقباً عن الآثار وقراءة (واستذكار) كل كتاب وقع في طريقه. في عام 1149 تم استدعاؤه لمقابلة في البلاط وأعطي وظيفة شرفية كما أرســل إلى منزله لينسخ كتابه **تاريخ الصين،** الذي غطى فترة زمنية من حوالي 2800 قبل الميلاد إلى 600 ميلادية. وقد صدرت عن هذا العمل طبعة جميلة في ستة وأربعين مجلداً كبيراً نشرت في 1749 بأمر امبراطوري، مع مقدمة من الإمبراطور تشــيان لونغ Chien Lung. وقد كتب المقالات والشعر بالإضافة إلى مقالة أظهر فيها أن الكتابات الحفرية على الطبول الحجرية، الموجودة الآن في بكــين تعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد وليس من القرن العاشر أو القرن الحادي عشر قبل الميلاد كما كان مقبولاً في العادة.

إن اســم تشــو هسي Chu Hsi (1130-1200) اســم شعبي تســتعمل كلماته بشــكل عادي في الصــين الأدبية في طول البلاد وعرضها. تخرج **تشــو هسي** وعمره تســعة عشر عاماً وبدأ عملاً رســمياً ناجحاً جداً. ويبدو أنه كانت لديه ميول قوية تجــاه البوذية – يقول البعض أنه بالواقع أصبح راهباً بوذيا، على أي حال فقد رأى أخطــاء طرقه وكرس حياته كاملاً لدراســة المذهب الأرثوذكسي أي التقليدي. وكان كاتبــاً كثير الكتابة. بالإضافة إلى مراجعته لتاريخ **ســو ما كوانغ Ssu Ma Kuang** تحت عنوان **تونغ تشــيان كانغ مــو Tung Chien Kang Mu** فإن هذا الكتاب لا يــزال يعتبر التاريخ القياسي للصين. ووضع نفســه الأول في الصف الأول لجميع المعلقين على القانون الكونفوشــيوسي. وقدم تفســيرات إما كاملــة أو جزئية على اختلاف مع أولئك الذين تقدموا الصفوف من قبل علماء **ســلالة هان،** ومنذ ذلك الحين كانوا يستقبلون على أساس أنهم معصومون، وبالتالي عدل نوعاً ما من معيار

الأخلاق السياســية الاجتماعية التي كانت سائدة. مبدأه كان ببساطة الثبات. وقد رفض أن يفسر كلمة في فقرة ما بمعنى معين، والكلمة، نفســها تذكر في مكان آخر بمعنى مختلف. وكانت النتيجة في جملتها، بلا شــك أن تسرّع في وضوح الكثير من الفقــرات، التي كان معناها مســتتراً عوضاً من أن يكــون موضحاً من قبل العلماء الأوائل **لســلالة هان،** لكن في بعض الأحيان تداخل المعلق العظيم مع نفســه، هنا نصين لفقرة واحدة في المختارات كما تفسرها المدارس المتنافســة ويبدو أن الأقدم هي المفضلة بلا منازع:-

تشو هسي	الهان
مينع وو سأل كونفوشيوس فيما يتعلق بالبر بالوالدين. قال المعلم، «لدى الوالدين اسى بالتفكير بقلق بأمراض أطفالهم.»	منغ ووMeng Wu سال كونفوشيوس فيما بتعلق ببر الوالدين. قال المعلم، «إنها تتكون من عدم إعطاء والديك أي سبب للقلق باستثناء أمراضك الطبيعية.»

الترجمة الثانية تبدو بوضوح إنها غير مكتملة. تشو هسي أضاف تعليقاً يقول فيه أن على الأطفال واجب أن يتخذوا الحيطة.

في مقدمة عمله عن **الكتب الأربعة،** كما شرحه **تشو هسي،** والذي نشر في 1745 كان لـــ **وانغ بو تشــينغ Wang Pu Ching** (المولــود في 1671) الفقرة التالية:- حاول **شاو يونغ Shao Yung** أن يشرح قانون التغيير بالأرقام **وتشينغ آي Cheng I** بلياقة الأشياء الدائمة لكن **تشو هسي Chu Hsi** الوحيد الذي استطاع أن يخترق إلى المعنــى ويأخذ فكر الأنبياء الذين ألّفــوه. إن أفضل الأعمال المألوفة الأخرى لـ **تشو هسي Chu Hsi** هي مقالة ما وراء الفيزيائيات أو الطبيعية، وتتضمن جوهر تأملاته اللاحقة، **والتعليم للصغار،** وهو كتاب للناشئة، وقد أدعى البعض أن كلمة

«الصغار» في العنوان الأخير لا تعود على المتعلمين الشباب، وإنما على أولئك الذين بالمستوى الأدنى الذين كتب الكتاب من أجلهم، مقارنة مع **التعليم الأعظم.** إن المقتطف التالي، على ما يبدو، يشير باتجاه التعليم للشباب كالتعبير الصحيح للعنوان:-

«عندما تكون في منزل صديق لا تصر على طلب أي شيء ترغب بالحصول عليه. عندما تصعد إلى الأعلى قل كلمة «إحم!» عندما ترى زوجين من الأحذية بالخارج، وتسمع أصواتاً، يمكنك الدخول ولكن إن لم تسمع أي شيء، أبق في الخارج لا تدعس أحذية الضيوف الآخرين، ولا تدعس على البساط الموضوع من أجل الطعام وإنما أمسك ثيابك وأعبر بسرعة إلى المكان المخصص لك. لا تكن مسرعاً لتصل ولا مستعجلاً لتهرب.

«لا تقلق الآلهة بالصلوات الكثيرة. لا تعمل لك أتعاباً لتسد بها قصورك. لا تحاول أن تعرف ما لم يحدث حتى الآن.»

لقد كان **تشو هسي Chu Hsi** محظوظاً أن التقى مصادفة مع رسام صور شخصية ذكي. وهي خدمة نادرة في الصين في الوقت الحاضر وفقاً للسيد جيه. بـ كوفتري J.B. Coughtrie، الذي كان مؤخراً من هونغ كونغ والذي أعلن أن الأسلوب والمذاق الخاص بالصينيين تجتمع كلها لكي لا تعطي تشابهاً قريباً من الحياة ولتجعل من الصورة التي انتهى رسمها غير جذابة، الفنان يضع على ورقته مجموعة من الألوان لتلائم ملامح الجالس عنده، وبناء على هذه يرسم خريطة للملامح ولا يقوم بأي محاولة للحصول على تدوير أو على شكل مجسم من خلال إلقاء الضوء والظلال عليها، ولا يعمل على إيصال الاقتراحات البسيطة لأي حياة أو تعبير.» **تشو هسي Chu Hsi** أعطى الفنان شهادة ساطعة يقول فيها أن الأخير لا يرسم القسمات فقط «لكنه يمسك بالتعبير ذاته ويعيد إنتاج سويداء قلب النموذج، كما يقال. ثم يضيف كلاماً محبباً شخصياً كالتالي:-

«أنا شخصيا، جلست ليرسم لي صورتين، واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، وقد كان ممكناً أن تراه يعيد رسم وجهي البشع الخشن والقروي السفيه حتى أولئك الذين سمعوا عني فقط، ولكنهم لم يروني أبداً كانوا يعرفون

فـوراً لمـن هـذه الصورة مخصصـة.» وقـد يكون من المثـير والشـيق أن نعرف إن كانـت أي مـن هذه الصـور لا تـزال باقية ضمـن أوراق عائلة **تشـو Chu.**

عند وفاة **تشو هسي Chu Hsi**، يقال أن نعشه اتخذ موقعاً متدلياً في الهواء حوالي ثلاثة أقدام من الأرض. وبناء عليه، ركع زوج ابنته على ركبتيه إلى جانب النعش، وذكّر الروح المغادرة من أنه كان شارحاً ممتازاً في الحياة – فنزل النعش بهدوء إلى الأرض.

الفصل الثالث
الشعر

إن شعر **سونغ Sung** لم يجلب الاهتمام الكافي مثل شعر **تانغ Tang** . ويعود ذلك أساساً إلى حقيقة أنه على الرغم من أن جميع الناس المتفقين في سلالة سونغ يمكن أن يقال عنهم أنهم أدّوا حصتهم من الشعر، إلا أنه لا يزال هناك البعض، إن وجد، الذين يمكن تصنيفهم كشعراء محترفين أي يقرضون الشعر ولا شيء غيره، مثل **لي بو Li Po**، **فو تو Fu Tu**، وكثيرون غيرهما في سلالة تانغ. بدأ الشعر أن يكون، ما بقي عليه، بدرجة حادة حتى يومنا هذا، إدارة للتربية الدمثة، بغض النظر عن جزيئات الريح الهوجاء المقدسة. وقد أعطى اعتباراً أكبر للشكل، والتصريح الذي أعطى للمعلمين السابقين تمت التضحية به من أجل التقليدية. القصائد الغنائية التي جمعها كونفوشيوس هي، كما راينا، أغان شعبية بدائية، عن الحب والحرب والفلاحة تحمل مباشرة بساطتهم إلى قلب الإنسان. يُظهر الشعر في سلالة تانغ تركيبه ممتازة يتم فيها تشغيل الفن، غير المرئي، لدعم الأفكار، وليس تقييدها أو تحقيرها، التي تستمد من المشاركة الحقيقية من الطبيعة. مع سقوط سلالة **تانغ Tang** عانى الفن الشعري من انحطاط لم يستعاد منه أبداً؛ والآن وفي الأوقات الحديثة مع أن كل طالب «يمكنه أن يكتب بيتين من الشعر،» لأنه كان قد «تعلم ذلك كما ينبغي،» فالأشعار التي صدرت، كشفت عن تكلف عار يترك القارئ مخيب الآمال وبارداً.

الشاعر **تشن توان Chen Tuan** (المتوفى عام 989 ميلادية)، بدأ حياته في ظروف ملائمة. وقد تم إرضاعه من سيدة غامضة بلباس أخضر، التي وجدته يلعب كطفل صغير على ضفة النهر. وأصبح إثر هذه التغذية غير الطبيعية ذكياً جداً وامتلك ذاكرة مدهشة مع ملكة شعرية مذهلة. وبالرغم من ذلك فشل في الحصول على

درجة، فأسلم نفسه «لفرح التلال والأنهر.» بينما كان في الجبال يقال أن كائنات روحية كانت تأتي وتعلمه فن السبات مثل الحيوانات حتى أنه كان يذهب للنوم لمائة يوم متواصلة. كتب مقالة حول إكسير الحياة، وبشكل عام كان يميل إلى الطاوية. عندما مات بقي جسده ساخنا لسبعة أيام، ولمدة شهر ظلت ترتيلة «التمجيد» تلعب حول قبره. وقد استدعي عدة مرات للقصر، ولكن إذا حكمنا من القصيدة التالية نخلص أن طبقة الموظفين الرسميين لم تكن تغريه:-

«لعشر سنوات طويلة، تثاقلت بمشيتي

عبر واد من الشبق والاضطراب.

ثم عبر أحلامي ومض قبس

من الحياة السلمية الحلوة القديمة. ...

لا قبعة محبوكة بالخيط القرمشي

يمكنها أن تتسابق مع راحة هادئة،

الدور الفخمة لا تتذوق الأفراح

التي يعرفها كوخ الرجل الفقير

أنا أكره التهديد باستعمال السلاح

عندما يزدحم الحراس الأشداء،

أنا اشمئز من عربدة السكارى

وصوت العزف والأغنية،

لكن أنا أحب أن أجد ركناً هادئاً

وأجلب مُجلداً نوعاً ما

حيث يمكنني أن أشاهد الزهور البرية تتفتح

وأسمع عصافير الربيع.»

شاعر آخر **يانغ آي Yang I** (974-1030) لم يستطع الحديث وهو طفل حتى في يوم من الأيام، عندما أخذ إلى أعلى الباغودا، فجأة انفجر صائحاً بالأبيات التالية:-

«على قمة هذه الباغودا الطويلة

يمكن ليدي أن تطال النجوم؛

لا أجرؤ على رفع صوتي للحديث

لأنني أخاف أن أقلق راحة الله.»

لقد ذكرنا سابقاً **شاو يونغ Shao Yung** (1011-1077) فيما يتعلق بـ **تشو هسي Chu Hsi** والدراسة الكلاسيكية. لقد كان مسافراً عظيماً يحب السفر ومتحمساً لقضية التعليم، أنكر على نفسه أن يتخذ مدفأة في الشتاء ومروحية في الصيف. لمدة ثلاثين سنة لم يستخدم المخدة، ولم يكن له حتى فرش ينام عليه. العينة التالية من شعره تتعارض مع شخصيته كناسك:-

«زهور جميلة تلمع في كأسي من العلا

وتضيف عبر التأمل استمتاعاً لا محدوداً؛

عبر جيلين عشت دون تشك

بينما أربعة حكام أقوياء خلدوا للراحة الأبدية.

«جسمي من ناحية صحية لم يفعل شيئاً ليغيظني،

وكانت اللحظات حلوة التي مرت فوق رأسي؛

لكن الآن، مع هذا النبيذ وهذه الزهور لتبهجني

كيف يمكنني أن أبقى يقظاً لأصل إلى البيت لأنام.»

كان **شاو يونغ Shao Yung** أستاذا كبيراً في المظاهر الطبيعية، وشروحاتها

استخرجها هو من مبادئ موجودة في **كتاب التغيير.** في مناسبة ما، كان يتمشى مع بعض أصدقائه عندما ســمع صرخة طائر السُّبْد. فوراً أصابه اكتئاب وقال، «عندما تهم الحكومة الجيدة أن تسود فالتيار المغناطيسي يتدفق من الشمال إلى الجنوب، وعندما تقود الحكومة الســيئة فإنه يجري من الجنوب للشــمال، والطيور تشــعر أول ما تشعر بتأثيره. الآن، حتى الآن هذا الطائر لم يُرَ في **لو يانغ Lo Yang** والذي منه اســتنتج أن التيار المغناطيسي كان يجري من الجنوب للشــمال، وأن جنوبياً ما سيتســلم الســلطة مع نتائج عديدة على الدولة.» وأن الظهور اللاحق لـِ **وانغ آن شيه Wang An Shih** اعتبر تثبيتاً لمهارته.

المصلــح العظيــم المذكور هنا، وجــد الوقت ضمــن اهتماماته للعنايــة بثورته الاقتصادية، وجد الوقت ليطلق العنان لتأليف الشــعر. هنا رواية عن ليلة بيضاء، وهي تمثل مثلاً ممتازاً لصعوبة «توقف قصير»:-

«إن عصي البخور أحترقت حتى صارت رماداً

الساعة المائية توقفت،

إن نسيم منتصف الليل يضرب بقوة،

وكل شيء حوله تجمد.

«ومع ذلك، أنا منعت من الإغفاءة

مع قبل جمال الربيع.

اشكال حلوة من الزهور عبر البراري

إن أشعة القمر المرتعشة تندفع!»

هنا أيضاً قصيدة قصيرة كتبها عالم كلاســيكي، **هوانغ تينغ تشــيان Huan Ting Chien**، بمناســبة الزيارة الســنوية للصلاة في قبور الأقدمين وبمنظر كامل للمقبرة على سفح التل:-

«إن شجر الخوخ والبرقوق يبتسم مع الزهور

في هذا اليوم الشهير من الربيع،

والمقابر في البلاد كلها

تنم عن المراثي.

الرعد قد أرعب حياة الحشرات.

وأثار البعوض والنحل،

مطر ناعم حث المحصول

ولطف الزهور والشجر. ...

ربما على هذا الجانب تنام عظام

بائس لا أحد يعرفه؛

وعلى الآخر، يضطجع الرماد

المقدس لوطنيٍ.

لكن من هو عبر القرون

يأمل بتعليم كل بقعة

حيث المجنون والبطل يجتمعان في الموت

تحت العليق المتعفن؟»

الطالب الجاد **تشنغ هاو Cheng Hao** كتب الشعر مثل الآخرين. وأحياناً يتنازل ويلقي نكتة:-

«أتجول شمالاً، أتجول جنوباً

أنا أريح نفسي كيفما رغبت....

أنظر كيف قرضت ضفاف النهر

تحت نسيم الخريف!

ولكن لماذا أهتم إذا ما الخريف انطلق

إن فقدان الألوان من ضفاف النهر

هي قضية تخص ضفاف النهر.»

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر اشـــتهر **هونغ تشـــييه فان Hung Chueh Fan** كشـــاعر وخطاط، ولكنه في النهاية استسلم إلى الافتتان بالبوذية وتم تنصيبه راهباً. وهذه محنة ليس بالبســيطة. من ثلاثة إلى تســعة أقراص توضع على الرأس المحلوق للمرشـــح وتترك لتحترق في اللحم، تاركــة بذلك ندبات لا تمحى. التالي هو شعر منه كتب على الأرجح قبل أن ترطب الرهبانية حماسه الطبيعي:-

رَوبان حريريان أخضران، مع حمالة مدهونة،

وتهتز من عالي سماء،

وهناك خارج البيت توجد فتاة.

تسلي نفسها في الربيع.

على الأرض ثيابها بلون الدم الأحمر

تطير بخفة وبحفيف

كما لو أنها ستحملها

لتكون مثل الملاك في السماء

منثورة بكثافة بزهر اللوز الذي يرفرف

تكون الحمالة قد شوهدت.

الأرواب المطرزة ملائمة جيئة وذهابا

بين خضرة الصفصاف.

بعد إذ تتوقف وإلى الخارج تقفز

لتقف بعينيها الحزينتين،

وتعتقد أنت أنها ملاك ما

كان لتوه أبعد من السماء.»

كان **يه شــيه Yeh Shih** (1150-1223) معروفاً كرجل دولة أكثر منه كشــاعر. كانــت «التوقف القصير» التالي تشــير إلى بوابة الدخول لمنتــزه جميل وتعتبر بين الأفضل من نوعها:-

«إنه مغلق-حتى لا تدوس الأقدام

مجد الأخضر.

طرقنا طرقنا المرة تلو المرة؛

لم نر البواب

الترابيس والقضبان لا يمكنها عزل

غطاء وقت الربيع الجميل:

وردة شجر اللوز الزهرية تبرز

من الحائط المائل الحسود.»

يبدو أننا لن نعرف شــيئاً عن **كاو تشــو نيــان Kao Chu Nien**. لكن قصيدته عــن عبادة قبــور الأجداد التي يحتفل فيها ســنويا في الربيع يمكن إيجادها في كل المجموعات.

«التلال الشمالية والجنوبية

هي مدافن كبيرة واحدة،

وكل شيء فيها مليء بالحياة والنشاط

عندما يأتي اليوم المقدس

إن النقود الورقية المحروقة، مثل الفراش

تطير قريباً وبعيداً،

بينما أرواب الحزانى بدموع من الدم

ملونة باللون الأرجواني.

الشمس تغرب والثعلب الأحمر يجثم

قرب القبر؛

يأتي الليل، والشبان والفتيات يضحكن

حيث القناديل تضيء الظلمة.

دع من يجلب الحظ له النبيذ،

يسكر ريثما يستطيع ذلك.

لأنه لا يوجد إنسان حيث تحن الليلة الطويلة،

يستطيع أن يأخذ منه حتى نقطة واحدة.»

الفصل الرابع
المعاجم- الموسوعات - الطب الشرعي

لقد صدرت عدة معاجم مهمة من قبل علماء مختلفين خلال سلالة **سونغ Sung** ناهيــك عن الأعمال اللغوية الكثيرة ذات القيمة المتفاوتة. لقد كان الصينيون دائماً طلاب لغتهم الخاصة بهم، جزئيا، وبلا شك، لأنهم لم يتنازلوا أبدا عن النظر إلى لغة أخــرى. هم يُسرون عندما يعودون إلى الأيام عندما كان تبادل الرســائل يقوم على الصور فقط لا غير؛ والحقيقة أن هناك شــواهد قليلة بوجود هكذا نظام نتج عنه إثارة الاختراع والتزييف.

لقد كان **تشــن بنغ نيان Chen Peng Nien**(961-1017 ميلادية) خادماً ذكياً، عرف باسمه الشعبي "الثعلب أبو السبع ذنبات،» وارتقى إلى أن أصبح وزير دولة. لقد تم تشغيله لينقح معجم **كوانغ يون Kuang Yun**، وهو معجم لغوي لمؤلف غير معروف، تضمن أكثر من ستة وعشرين ألفاً من الحروف الصينية. الأخير أنتجه **ســونغ تــشي Sung Chi** المذكور في الفصــل الثالث، بالشراكة مــع عدد كبير من العلماء المرموقين.

تخــرج **تاي تونغ Tai Tung** في عام 1237 وارتقى ليصبح حاكم **تاي تشــو Tai Chou** في **تشــه كيانغ Cheh Kiang** . بعد ذلك سيطر المغول أو المنغول وبما أن **تــاي تونغ** كان غير مســتعد للعمل عندهم تذرع بعلة صحتــه. فتقاعد في 1275 وعــاد إلى الحياة الخاصة. هناك انشــغل في تأليف **ليو شــو كــو Liu Shu Ku أو المخطوطات الســتة** وهي بحث في أصل وتطور الكتابــة وفقا للبعض، نشر حوالي 1250 ميلادية، ولكن وفقا للبعض الآخر لم يجر نشره أبعد من 1319.

منذ صعود **سلالة سونغ** يمكن أن نؤرخ لأول ظهور للموسوعات، التي كتب عليها أن تحتــل فضــاءً كبيراً في الأدب الصيني. **وو شــو Wu Shu** (947-1002 ميلادية)

الــذي كانت حياته «لحظة ذات قيمة من الفقــر المكبوت،» يمكن أن يعتمد دون وجــل بإنتاج أول عمل من نوعه. إن عملــه **شي لاي فو Shih Lei Fu** المتخصص الظواهر السماوية والأرضية، وبعلم التعدين، وعلم النبات، التاريخ الطبيعي، وتم ترتيبه حســب الموضوعات لعدم وجود الأحرف. ومن الغريب أنه كتب بالأسلوب الشعري النثري وشكل الأساس لكتاب مرجعي مشابه قيد الاستخدام في أيامنا هذه. وقد وضع وو **شــو Wu Shu** في لجنة أنتجت عملاً واســعاً جداً معروفاً باسم **تاي بنغ أو لان Tai Ping Yu Lan**. وكان يرأس هذه اللجنة **لي فانغ Li Fang** (924-995 ميلاديــة) وزيــر الدولة، ومحظي كبير لدى الإمبراطور في آخر ســنة في حياته دعي لمشــاهدة الاحتفال بالفوانيس من القصر. في تلك المناسبة أمر، الإمبراطور لي أن يكون إلى جانبه وبعد أن ســكب له كأســاً من النبيذ وزوده بأنواع مختلفة من الطيبات التفت إلى مجالســيه وقال،» لقد خدمنــا **لي فانغ Li Fang** مرتين كوزير دولــة، ومع ذلك لم يؤذ أبداً، بأي شــكل، مخلوقاً إنســانياً واحــداً. حقاً إنه لرجل صالــح.» تمت إعادة طباعة **تاي بينــغ أي لأن Tai Ping Yu Lan** في عام 1812، في اثنــين وثلاثين مجلــداً كبيراً، وكان يُســمى كذلك لأن الإمبراطور راجع شــخصياً المخطوطة، وهو عمل شــغله لمدة عام تقريباً، ويقدم هذا العمل لائحة من حوالي ثمانمائة سلطة وكشاف ملأت أربعمائة صفحة.

كملحــق لهذا العمل، صمم **لي فانغ Li Fang** **تــاي بينغ كوانغ تشي Tai Ping Kuang Chi** وهو موســوعة تعالج السيرة الذاتية ومعلومات أخرى التقطت من الأدب العام ويقدم لائحة من حوالي ثلاثمائة وستين اسماً وكشافاً من مائتين وثمانين صفحة. إن طبعة سنة -1566 وهي عمل نادر- مجلدة في اثني عشر مجلداً سميكاً وموضوعة على رفوف مكتبة جامعة **كيمبردج.**

وموســوعي آخر كان **ما توان لين Ma Tuan Lin** ابن موظف رفيع المســتوى، وكان قد أعد ليتبعه في خطواته. إن تواريخ ميلاده وموته غير معروفة، لكنه ازدهر في القرن الثالث عشر. وعندما انهارت سلالة سونغ اختفى من الحياة العامة والتجأ إلى مكان مولده وســلم نفسه للتعليم، جاذباً العديد من التلاميذ من أماكن قريبة وبعيدة فاتناً الجميع بمهارته الديالكتيكية التي لا تتعب. وقد ترك وراءه **ون هسيان**

تونغ كاو Wen Hsien Tung Kao، موســوعة كبيرة مبنية على أساس **تونغ تيان Tung Tien لـِ تو او Tu Yu**، ولكن بنســخة مزيدة ومدعم بخمسة أقسام، وهي البيليوغرافية والســلالة الملكيــة، التعيينات، وعلم الفلك المختص برســم الخرائط للنجــوم والمجــرات وباقي الأجرام الســماوية المعــروف بالأورانوغرافيا والظواهر الطبيعية. هذا العمل الذي كلف مؤلفه عشرين سنة من الجهد المتواصل معروف لدى الأوروبيين منذ فترة حيث استقوا من ينابيعه البحث التاريخي الموجود فيه.

عند نهاية ســلالة ســونغ نشر كتاب عجيب عن الطب الشرعــي، مثير للاهتمام بالرغــم من الحماقــات المتعددة الجوانب فيه كونه يعترف به كدليل للاســتعمال الرســمي في الوقت الحــاضر. لا يوجد قاض، يعتقد أبــداً في مواصلة القيام بعمله كقاضي تحقيق دون أن يصطحب نســخة من هذه التعليمات معه. العمل الحالي تم جمعه من قبل قاضٍ اسمه **سونغ تسو Sung Tzu** من أعمال سبق إن وجدت، وقيل لنا في مقدمة طبعة جميلة مؤرخة في 1842، إنه «قد أخضع لعدة أجيال من اختبارات عملية من قبــل مجلس العقوبات، مما جعله مضبوطاً أكثر وأكثر يومياً. مقتطفات قليلة منه ستكفي لتقرير قيمته الحقيقة:-

1. «لدى الإنســان ثلاثمائة وخمس وســتون عظمة، وهو مماثل لعدد الأيام التي تحتاجها السماء للدوران.

«إن جمجمــة الذكر من مؤخرة الرقبة إلى أعــلى الرأس، تتكون من ثمانية قطع- ولإنسان **تســاي تشو Tsai Chou** تسع قطع. هناك خط التحام أفقي عبر مؤخرة الجمجمة، وأخر عامودي إلى المنتصف. جمجمة الأناني تتكون من ســت قطع ولها خط التحام أفقي وليس عامودياً.

«الأســنان عددها أربعة وعشرون، ثمانية وعشرون واثنين وثلاثون وستة وثلاثون، يوجد كذلك ثلاث عظام مشكلة بالطول على الصدر.

«هناك عظمة واحدة تعود للقلب في شكل وبحجم الكاش.

«يوجد أيضاً عظم للكتف وعظمة مجوفة على كل جانب. «الذكور لهم اثنا عشر

ضلعاً على كل جانب، ثمانية طوال وأربعة قصار. الإناث عندهن أربعة عشر على كل جانب.

2. «الجروح التي تصيب العظم تترك علامة حمراء ومنظر تشبيع خفيف وحينما ينكسر العظم هناك على كل جانب أثر للدم يشبه الهالة. خذ عظمة عليها أثر للجروح، وانظر إليها في الضوء، إن كانت هذه لونها أحمر نضر فيكون الجرح قد أصيب قبل الموت وخرمها إلى العظم؛ لكن إذا لم يكن هناك أي أثر للتشبع، مع أنه يوجد جرح، قد أصابه بعد الموت.

3. «يمكن أن يتم تحديد عظام الوالدين من قبل أطفالهما بالطريقة التالية. دع الممتحن يجرح نفسه أو نفسها بسكين واجعل الدم ينقط على العظم، إذا كانت العلاقة حقيقة واقعة فإن الدم سينزل إلى العظم، وإلا فلن ينزل. ملاحظة، - لو كانت العظام مغسولة بماء مالح، حتى لو كانت العلاقة قائمة إلا أن الدم لن ينزل أبداً. هذه خدعة يحب الإنتباه لها مسبقاً.

«وقد قيل أيضاً إن كان الوالدان والأطفال، أو الزوج والزوجة، يجرحان نفسيهما ويتركان الدم ينزف إلى وعاء الماء فالدمين سيختلطان بينما لن يختلطا إن كان من انسانين لا تربطهما رابطة.

وإذا ما كان شقيقان قد يكونا فصلا عن بعضهما البعض منذ الطفولة، يرغبان بإقامة العلاقة بين هويتهما، لكن لا يستطيعان فعل ذلك بأدوات عادية، يطلبان من بعضهما البعض أن يجرح كل واحد نفسه ويترك الدم ينزف في وعاء. إن كانا شقيقين فالدمين سيتخثّران في وحدة واحدة؛ وإلا فلا. لكن لأن الدم الطازج سيتخثر دائماً بمساعدة قليل من الملح أو الخل يقوم الناس غالباً برش الوعاء بهذه المواد للحصول على أهدافهما، وبالتالي سينظفون الوعاء الذي سيتم استخدامه أو يشترون واحداً جديداً من الدكان وهكذا سيتم هزيمة الخدعة.

4. «هناك عدد من الأوغاد الفظيعين عندما يقتلون إنساناً يحرقون جسده ويرمون الرماد، حتى لا يكون هناك عظام لتختبر. في مثل هذه الحالات عليكم أن

تجـدوا بتأن في أي وقت اقترفت الجريمة وأين تم حـرق الجثة. ثم بعد أن تعرف مكان الجريمة، وبعد أن يتفق جميع الشـهود عـلى هذه النقطة، يمكنك أن تباشر دون أدنى تأخير لاختبار الجروح. إن طريقة الكشف هي التالي. ضع سقيفتك قرب الجثة حيث حرقت واجعل المتهم والشـهود يدلون على المكان الصحيح. تم اقطع الحشـيش والأعشاب التي نمت في المكان تم أشعل النار في المحروقات حتى يصبح المـكان حـاراً جداً راميا عدة مكاييـل من بذور القنب. ثم قـم تدريجياً بتنظيف المكان بالفرشاة ثم إذا كانت الجثة قد حرقت في هذا المكان ستجد أن زيت البذور قد غاص في الأرض على شكل إنسان، وحيثما يوجد جروح على الرجل الميت، ستجد أنـه على الصورة قد تجمع الزيت، بشـكل كبير أو صغير، بشـكل مربع أو مدور، بالطول أو القصر، مائلاً أو مسـتقيماً تماماً كما قد أصيب بها. الأجزاء حيث لم يكن عليها جروح ستكون خالية من هذه الظواهر.

الكتاب السادس
سلالة المنغول (1200-1368 ميلادية)

الفصل الأول
الأدب المتعدد-الشعر

شهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر ثورة سياسية مميزة. الصين كانت احتلت من المغول، ولأول مرة في التاريخ دخلت الإمبراطورية تحت حكم ملك غريب، لا يمكن وضع تاريخ محدد لانتقال السلطة الإمبراطورية. في 1264 حدد قبلاي خان العاصمة في بكين، وفي 1271 تبنى **يوان Yuan** كأسلوب له في حكم عترته. لكن لم يحدث أن قام أحد في 1279 مثل رجل الدولة الوطني **تشاو بينغ Chao Ping**، الذي قطع عزلته يائساً من بلاده فحمل على ظهره الصبي الإمبراطور، آخر من بقي من سونغ فقفز من سفينته المنكوبة في النهر، خاتماً بذلك تاريخ السلالة.

قبلاي خان الذي كان بوذيا ملتزماً كان يجل كثيراً كونفوشيوس، وكان راعياً ثابتاً للأدب. في 1269 طلب من **باشبا Pashpa**، راهب تيبيتي تأسيس أحرف للغة المنغولية، وفي 1280 تم إعادة تنقيح الرزنامة؛ وفي عام 1287 ثم افتتاح الأكاديمية الإمبراطورية. لكنه لم يستطع أن يسامح **ون تيان هسيانغ Wen Tien Hsiang**، ذلك الوطني والعالم المشهور الذي قاتله ببطولة لكنه لم ينتصر عليه. في العام 1279 نقل الأخير إلى بكين وهي الرحلة التي أمضى فيها ثمانية أيام دون أن يأكل. وقد بذل جهداً كبيراً لإقناعه بالولاء للإمبراطور المنغولي، لكن دون نجاح. بقي في السجن لمدة ثلاث سنوات. في نهاية المطاف استدعي إلى حضرة قبلاي خان الذي سأله «ماذا تريد؟» أجابه **ون تيان هسيانغ Wen Tien Hsiang** قائلاً ببركة من إمبراطور آل سونغ أصبحت وزيراً لجلالته. لا يمكنني أن أخدم سيدين. أنا أطلب فقط أن أموت.» وفقاً لذلك تم إعدامه، ملاقياً حتفه بكل وقار، وقام بسجدة أخيرة باتجاه الجنوب، كما لو أن مليكه لا يزال حاكماً عاصمته. القصيدة التالية كتبها **ون تيان هسيانغ Wen Tien Hsiang** وهو في الاسر:-

«في الكون توجد هالة تتغلغل في جميع الأشياء وتجعلهم أن يكونوا ما هي عليه. في الأسـفل، تشكل الأرض والمياه؛ وفي الأعلى تشـكل الشمس والنجوم. في الإنسان تسمى الروح؛ ولا توجد مكان لا توجد فيه.

«في أوقات السلامة الوطنية هذه الروح تبقى بعيدة عن النظر بسبب الطمأنينة التي تسيطر. فقط في زمن الاضطرابات الكبيرة تظهر بوضوح بالخارج.

(وهنا يتبع عشرة مواقف تاريخية من الورع والبطولة.»

«هكذا هـي هذه الروح العظيمـة والمجيدة التي صمدت لعـدة أجيال والتي عندمـا تربط مع الشـمس والقمر، لا تعـرف البداية ولا النهاية. هي أسـاس كل الأشياء العظيمة والجيدة في السماء وعلى الأرض. إنها نفسها مولودة من الواجبات الدائمة التي هي مستحقة من قبل الإنسان للإنسان.

«يا ويلتي، إن القدر ضـدي. كنت دون موارد مربوط بالأغلال، وبسرعة أبعدت إلى الشمال، فالموت كان سيكون حلواً حقاً؛ لكن العطية رفضت.

«إن زنزانتـي يضيئها الـسراب فقط؛ لا نفس ربيعي يبهـج الوحدة القاتمة التي أعيش فيها. الثور والحصان يأكلان العلف سـوياً في اسـطبل واحد، الديك والعنقاء يأكلان سـوياً من صحن واحد. وتعرضت للسحاب وللندى، ووجدتني أفكر بالموت عدة مـرات؛ ومن خلال الفصول لسـنتين دوارتين، حامت الأمراض فوقي سـدى. الدانغ اي، الزبل، التربة غير الصحية بالنسـبة لي، أصبحت الجنة نفسـها. فقد كان هناك داخلي ذاك الذي لم يسـتطع سوء الحظ أن يسرقه مني. وهكذا بقيت ثابتاً، محدقاً بالغيوم البيضاء التي تسبح فوق رأسي، وحاملاً في قلبي أسىً لا محدوداً مثل السماء.

«إن شـمس هـؤلاء الأبطال الموتى قـد غابت منذ فترة، لكن سـجلاتهم لا زالت أمامـي. وبينما الريح تصفر تحت الحواف، أنتـج كتبي وأقرأ، آه، في حضرتهم فإن قلبي يتوهج بنار مستعارة.»

«أنا نفسي،» أضاف المعلق الشهير، **لين هسي تسونغ Lin Hsi Chung** من القرن السابع عشر، «كنتيجة للتمرد في **فوكيان Fuhkien**، سجنت في السجن سنتين، بينما الأمراض القاتلة كانت تهتاج من حولنا. يومياً سمّعت هذه القصيدة عدة مرات، ونجوت بسرور، التي منها أصبح واضحا أن الجهود العظيمة في الآداب تحرك الإله، وأن ذلك لا يشكل الأبيات الشعرية **لتو فو Tu Fu** وحدها التي انتصرت على حمى الملاريا.»

في الامتحان النهائي للحصول على شهاداته في 1256 نال **ون تيان هسيانغ Wen Tien Hsiang** الدرجة السابعة. ولكن كان الإمبراطور حينذاك، بعد أن أطلع على أوراق المرشحين قبل إعلان النتائج، كان مدهوشاً بشدة من عمله، وأرسل وراء كبير الممتحنين لكي يعيد النظر في وسام الاستحقاق. «هذه المقالة،» قال جلالته، «تظهر لنا القانون الأخلاقي للقدماء كما يتم في المرآه؛ أنها تدل على ولاء يعيش مثل الحديد والحجر.» اعترف كبير الممتحنين بسرعة بعدالة انتقادات الإمبراطور، وعندما نشرت اللائحة أتى اسم **ون تيان هسيانغ Wen Tein Hsiang** الأول عليها إن شهرة ذلك الممتحن **وانغ ينغ لين Wang Ying Lin** (1223-1296) ستدوم على أحسن تقدير لوقت طويل. ليس بسبب علاقته مع واحد من عظماء الوطنيين في الصين، ولا بسبب مساهماته الكثيفة للآداب الكلاسيكية، بما فيها موسوعة شاملة يوجد منها نسخة نادرة في جامعة لايدن، ولكن بسبب كتاب تمهيدي صغير لتلامذة المدارس، الذي بموافقة دولية منسوب إلى قلمه. لمدة ستمائة سنة هذا الكتاب التمهيدي كان ولا يزال حتى اللحظة، الكتاب الأول الذي يوضع بين يدي كل طفل في الإمبراطورية كلها. إنه ملخص المعرفة كلها، ويعالج الفلسفة، والأدب الكلاسيكي، والتاريخ، والسيرة الذاتية والأشياء العامة. وقد أطلق عليه رُدْن **مرآة التاريخ Mirror of History**. وقد كتب بأبيات من أحرف صينية ثلاث لكل بيت، ولأنه كتب بأسلوب هزلي فمن السهل حفظه عن ظهر قلب من كل صيني تعلم القراءة. هذا الشعر الكلاسيكي من أحرف صينية ثلاث، كما يسمى، قد تم تقليده من قبل الأرساليات المسيحية، بروتستانتية وكاثوليكية؛ وحتى من قبل ثوار **تاي بينغ Tai Ping**، الذين وعوا تأثيره بعيد المدى، فنشروا كتاباً مزوراً له خاص بهم. التالي هو

عدد، من الأبيات كعينة وهو مقفى حتى يتماشى مع الأصل:-

«الإنسان، الواحد والجميع، في الطفولة

هم بارون في القلب؛

إن ميولهم الأخلاقية هي نفسها؛

إن خبرتهم بعيدة كل البعد عن بعض.

دون تعليمات نرجو المساعدة.

طبيعة الإنسان التي تكبر أقل بهاء؛

في التعليم يجب أن تكون الشمولية ذات

اهتمام لا يهدأ.»

يمكن أن نضيف أن معنى الأشعار الكلاسيكية ذات الأحرف الصينية الثلاث لا يتم شرحها للطفل وقتئذ، كل ما على الطفل أن يفعله هو حفظ الصوت والتشـكيلات لـ 560 حرف صيني مختلف يتألف منهـا الكتاب. كان **ليو ين Liu Yin** (1214-1293) ولداً ذكياً جلب آلية الأهتمام من خلال البر بالوالدين عن طريق زوج أمه. حصل عل منصب لكنه استقال منه لكي يهتم بأمه المريضة، وعندما تم تعيينه مرة أخرى، انهارت صحته فذهب إلى المعتزل.

المقطوعة التالية هي بقلمه:-

«عندمـا خلق الله الإنسـان، أعطاه قوى ليذلل متطلبات بيئتـه، وأعطاه موارد داخل نفسه حتى لا يحتاج أن يكون عالة على الظروف الخارجية.

«وهكذا في الأقاليم التي يكثر فيها السـم، تكثر فيهـا المضادات أيضاً، وفي غيرها حيث توجـد الملاريا، فإننا نجد الدواء مثل الخل وجوزة الطيب وشـجرة الفرانيا. مرة أخرى، فالسـمك والسلاحف والمحار هي أكثر أشياء الحمية الملائمة للصحة في المناخات الأكثر رطوبة، مع أنهم هم أنفسـهم القاطنون في الماء، والمسـك وقرون

الغزلان هي وقائية بامتياز في المناخات الأرضية حيث هي بالحقيقة تنتج. لأنه إن كانت هذه الأشـياء غير قادرة أن تسـيطر على محيطها، فإنها لن تكون قادرة على الإزدهـار حيث هم موجودين، بينما حقيقة أنهم يزدهرون تبرهن بشـكل إيجابي إنها سيمت أو رسمت كمواصفات ضد محيطها.

قال **تشـو هسي Chu Hsi**، «عندما يكون الله على وشـك إرسال المصائب علينا فإنه يقيم أولا البطل الذي بعبقريته سوف يسيطر على هذه المصائب.» من وجهة النظـر هذه لا يمكن أن يكون هناك إنسـان دون اسـتخدامه المعين، ولا حالة أي مجتمع لا يستطيع الإنسان أن يصححه.»

إن نظرية أن الإنسـان يلعـب دوره المعين في الكون هـي نظرية تلاقي صداها لدى الصينيين؛ وإن العملية التي يتم فيها فصل الزؤان عن الحنطة تثبت استخدام المحن، قد تم ذكرها، يا للغرابة، من قبل راهب بوذي من ذلك الزمن:-

إن كان الواحد إنسـاناً، فإن طواحين السـماء والأرض تطحنـه طحناً متقناً، وإلا فطحنا تدميرياً.»

لقد صدرت كمية لا بأس بها من الشعر تحت حكم المونغول، وإن لم تكن بكثير من التناسب، أو بمستوى عالٍ، كما كان تحت حكم العترات المحلية. نشر الإمبراطور **تشـيان لونغ Chien Lung** في العالم 1787 مجموعة من عينات الشـعر لسـلالة **يوان Yuan**، تعبئ ثمانية مجلدات كبيرة، لكنها لم تقرأ كثيراً.

أحـد أفضل شـعراء هذه الفترة هو **ليو تـشي Liu Chi** (1311-1375 ميلادية) الـذي كان قارئاً عميقاً للكلاسـيكيات وكذلك كان طالبـاً لعلم الفلك. وعاش حتى شـاهد سـلالة **مينغ Ming Dynasty**، حيث سـاعد على تأسيسـها، وكان لعدة سنوات المستشار الموثوق لحاكمها الأول، ولكنه فقد الرضى وسمم من قبل منافس له، ويقال أن ذلك حدث بتآمر الإمبراطور. الأبيات التالية التي تشير إلى زيارة مبكرة إلى دير جبلي، تكشف عن نوع من التعاطف مع البوذية:-

امتطيت عندما الديك قد بدأ،

ووصلت الدير قبل إسكات الأجراس؛

نسيم عليل همس فوق المرج،

وخلف الغابة، القمر أعطى مكانه للفجر.

وفي هذه الوحدة الحلوة الصافية اضطجع،

ممدداً أطرافي منتظراً النهار،

لا صوت على ممر الصفصاف المعتم

سوى رد الصدى الناعم لترتيلة الراهب البوذي.»

هنا توجد مقطوعة، تقتبس بكثرة، ويمكن إيجادها في كل كتاب تمهيدي للشعر:-

المئوي بين الناس

نادر جداً؛ وإذا أتى أحدهم، ماذا بعد؟

إن أقوى الأبطال من القدم

أخيراً ينامون على جانب التلة.»

إن الكتابات النثرية لـ **ليو تشي Liu Chi** يتم الإعجاب بها لأسلوبها الصافي الذي قيل عنه أن رائحته مثل «رائحة الأقدمين.» إحدى القطع تتحدث عن نبيل فقد كل شيء بسقوط **سلالة تشين Chin Dynasty** في سنة 206 قبل الميلاد، وأجبر على زراعة البطيخ ليعتاش فاستنجد بعرافة، وذهب ليستشير منجماً بخصوص أوضاعه.

«يا للعجب،» صاح المنجم، «ماذا هناك يمكن للسماء أن تعطيه سوى تلك التي تعطيها الفضيلة؟ أين فاعلية الكائنات الروحية خارج نطاق ما أعطاه الإنسان لها؟ إن النبات الذي يتكهن ما هو إلا قصبة ميتة، إن صدفة السلحفاة هي عظمة ناشفة. ما هي إلا مادة مثلنا. والإنسان الذي يتكهن الأشياء كلها، لماذا لا يبحث عن الحكمة في الداخل عوضاً عن هذه الأشياء الجافة؟

«ومن ثم، يا سـيد، لماذا لا تتأمل الماضي- ذلك المــاضي الذي أنجب الحاضر؟ إن سـقفك المكسـور وحيطانك المتداعية الحالية ما هي سـوى تتمة لبستان الشجر الجميل. إن الجندب وحشرة السـيكادا ما هي إلا تتمة للاورغون والمزمار، السراب والذبابة المضيئة، للمصباح المذهب والشمع الملون.

إن الهندباء والجرجير ما هي إلا تتمة لأوتار الفيل وسـنامة الجمل لأيام ذهبت، إن ورقة القيقب ورشالقة أروابك التي كانت غنية وزيك الجميل. لا تشتكي من أن أولئك الذين لا يملكون مثل هذه الرفاهيات في حينه يسـتمتعون بها الآن. لا تكن منزعجاً من أنك الذي اسـتمتعت بها في حينه، لا تملكها الآن. في غضون يوم وليلة الزهرة تزهر وتموت. بين الربيع والخريف تموت الأشياء وتتجدد. وراء هدير الشلال هنـاك بركة عميقـة، ووديان مظلمة توجد عند قدمي التلال العالية، هذه الأشـياء تعرفها ما هي الأشياء التي يمكن لعرافة أن تعلمك إياها؟».

توجد قطعة أخرى بعنوان «في الخارج» وهي قطعة هجائية خفيفة عن الفساد في أيامه:-

«في **هانغ تشو Hang Chow** كان يعيش بائع الفاكهة المتجول الذي كان يعرف كيـف يحافظ على برتقاله طوال السـنة دون فسـاده. وكانت فاكهتـه تبدو دائماً طازجة، ومتينة مثل اليشـب ولونها ذهبي جميل؛ ولكن من الداخل - جاف مثل الشرنقة.

«في أحـد الأيام سـألته قائلاً،' هـل برتقالـك للمذبح أم لأهـداف التضحية أم للاسـتعراض في مآدب الطعام؟ أم هل تقوم بكل هذا الاسـتعراض الخارجي فقط لتغش المغفلين؟ وتغشـهم كما تفعل بشكل شـنيع.' 'يا سيد 'أجاب بائع البرتقال، «لقـد قمت بهذه التجارة لعدة سـنوات الآن. إنها مصدر رزقـي. أنا أبيع والعالم يشـتري. وعلي أن أعلـم بأنك الوحيد الرجـل الأمين في الجوار وإننـي أنا الوحيد الغشـاش. ربمـا قد لا يكون الأمر قد خطر على بالك هكـذا. إن حملة عصا القائد هذه الأيام، وهم يجلسـون على جلود أنمارهم يعرضون أنفسـهم على أساس أنهم الحماة العسـكريون للدولة' ولكن من يكونون لو قارناهم مع القادة القدماء؟ إن

وزراء اليوم عريضي المنكبين وطويلي الأرواب، يعرضون أنفسهم كأعمدة الدستور؛ ولكن هل بهم حكمة مستشــارينا الأقدمين؟ إن الأشرار ينهضون ولا أحد يستطيع أن يســيطر عليهم، الشــعب في يأس ولا أحد يســتطيع أن يخفــف عنهم. الكتبة فاســدون ولا أحد يستطيع أيقافهم. القوانين تفســد، ولا أحد يستطيع تجديدها. إن موظفينا يأكلون خبز الدولة ولا يســتحون. يجلسون في قاعات مهيبة ويركبون أحصنة جميلة، ويســكرون من شرب النبيذ، ويتصيدون الأسعار الغالية الثمن. أي منهــم يضع نظرة مهيبــة، ومحيا وقــور؟ - كل الذهب والجواهــر إلى الخارج إلا الشرانق الجافة من الداخل أنت تدفع، أيها السيد، لا تستمع إلى هذه الأمور بينما تكون حريصاً جداً على برتقالاتي."

"لم يكــن عنــدي جواب لأقدمه. هل كان خارج نطــاق الغرور مع العمر أم كان يختبرني دفاعاً عن فاكتهه."

الفصل الثاني
الدراما

إن كانت سلالة المونغول قد أضافت القليل من القيمة الدائمة لكمية الشعر الواسع من الآداب العامة والتفسير الكلاسيكي، فإنه سيتم تذكرها فيما يتعلق بمنحيين هامين في التاريخ الأدبي للأمة. ضمن القرن الذي غطى حكم المونغول يمكن أن نقول إن الدراما والرواية قد وجدتا، بالذهاب إلى أيام ما قبل كونفوشيوس أو الأيام الخرافية نجد أن الصينيين منذ الزمن الغابر قد رقصوا رقصات موضوعة على أنغام الموسيقى في المناسبات الرصينة والحفلات البهيجة للتضحية أو للاحتفالات وهكذا نقرأ في القصائد الغنائية التالي:-

«بخفة، ورشاقة،

اذهب إلى الرقص،

الشمس تشرق ببهاء

في الساحة بالأسفل.»

إن حركات الراقصين كانت ممنهجة، بطيئة، ووقورة. الريش الطويل والمزامير (مفرد مزمار) كانت تمسك باليد ويلوحون بها بينما المؤدون يتحركون يمنة ويساراً. أضيفت الكلمات التي ستغنى ثم تدريجياً هيمنت الموسيقى والغناء على الرقص، والإيماءات ثم استبدالها. كانت النتيجة لصالح الأداء الأوبرالي عوضاً عن الدرامي، والكلمات التي تم غناؤها كانت من طبيعة الأغاني أكثر منها من المسرحيات الموسيقية. في **تسو تشوان Tso Chuan**، تحت سنة 545 قبل الميلاد، نقرأ عن محاولة هاو من هذا النوع، تم تنظيمها من قبل العاملين في الاسطبلات، مما أرعب أحصنتهم وسبب لها فراراً مذعوراً. وقد ذكر كونفوشيوس أيضاً تكبر أحد

النبلاء الذي شــغّل في معبد أسلافه عدداً يســاوي عدد المغنين الذين حجزوا **لابن السـماء** وحده. ويبدو أنه مــن غير الضروري أن أذكر طــرد الأرواح الشريرة التي تنفذ ثلاث مرات ســنوياً من قبــل موظفين يرتدون جلد الدب ويحملون ســلاحاً مــن الرماح والترس، والذين كانوا يقومــون بالزيارة من بيت إلى بيت ويحيط بهم الناس وهم يصرخون مهتاجين. وقد ذكرت ذلك هنا لأن عدداً من الكتاب يربطون هــذه التجربة ببدايات الدراما في الصين. كل ما نعرفه حقاً هو أنه في تلك الحقب الأولى جداً شكلت الموسيقى والأغنية والرقص مرافقة اعتيادية للاحتفالات الدينية وغيرها، وأن هذا الأمر استمر لعدة قرون.

باتجــاه منتصف القرن الثامن ميــلادي، الإمبراطور **مينغ هوانغ Ming Huang** من ســلالة **تانغ Tang**، وهو المغرم بالموســيقى، أســس كلية عرفت باسم **حديقة الكمثرى**، لتدريب حوالي ثلاثمائة شاب وشابة من كلا الجنسين. هناك أسطورة تقول أن هذه الكلية جاءت نتيجة زيارة قام بها جلالته للقمر، حيث أعجب جداً بفرقة فن المؤدين المهرة، مرتبطين بقصر اليشب الذي أسسه هو هناك. وعلى ما يبدو كان مؤسسة أو معهداً لتزويد القصر بعازفين، ومطربين وربما راقصين، من أجل حفلات اللهــو في القــصر، مع أن البعــض كان يتبنى وجهة النظر من أن «شــباب حديقة الكمثرى» كانوا فعــلا ممثلين، والمصطلح لا يزال يطبق على أخوية الدراما. لكن لا شيء يبــدو من الــذي يمكن تحديده عن حق فن الممثــل كان معروفاً حتى القرن الثالث عشر، عندما فجأة قفزت الدراما إلى الوجود، كما نراها في مسرحيات المسرح الصيني المعاصر. في الحالة المحدودة الراهنة لمعرفتنا بالموضوع، لا يمكن القول كيف أو لماذا حدث هذا. نحن لا نستطيع أن نقتفي الأثر، خطوة خطوة لتطور الدراما في الصين من أداء كورالي بحت كما في اليونان. تواجهنا الحقيقة التامة في هذا الموضوع.

في الوقت نفســه إننا نســمع عن العــروض الدرامية بين التتار في تاريخ ســابق تقريباً. في 1031 أرسل **كونغ تاو فو Kung Tao Fu**، سليل كونفوشيوس في السلالة الخامس والأربعين، مبعوثاً إلى الكيتانيين وقد استقبل على مأدبة بشرف كبير، لكن في إحدى العروض المسرحية التي تبعت المأدبة، أدت الفرقة قطعة، قدم فيها سلفه المقدس كونفوشــيوس على أنه رجل كوميدي خسيس. وقد أقرفه ذلك مما حدا به

إلى النهوض والانسحاب، واضطر الكيتانيون إلي الاعتذار. بالإجمال، يبدو أن الدراما ليست أصيلة في الصين، بل ربما تم إحضارها من قبل مصادر تتارية. قد يكون ذلك صحيحاً، ومن المؤكد أن الدراما كما عرفت في عهد سـلالة المنغوليين كانت في واقع الأمر دراما هذه الأيام، وعدد من الملاحظات العامة لن يضر بها.

كانت المسرحيات تُمثل في المدن الكبيرة في الصين على المسارح العمومية كل أيام السـنة باستثناء شهر واحد في السـنة الجديدة وخلال فترة العزاء بموت إمبراطور. لا توجـد رسـوم للدخول لكن عـلى كل الزائرين أن يأخذوا بعضـاً من المرطبات. إن نقابات العمال أنشـأت مسـارح في مرافقها، وقدمت أداء دورياً لجميع الناس الراغبين بالوقوف في السـاحات على الهواء لمشاهدتها. كان الصينيون، الذين يطلق عليهـم، الماندرين، والأشـخاص الأغنياء غالباً ما يوظفون ممثلـين ليقدموا أداءً في بيوتهـم الخاصة، وفي العادة على مأدبة عشـاء. في الأرياف، يتم الصرف على الأداء من اشتراكات عمومية.

وتعرض في المعابد أو على مسـارح مؤقتة التي تقوم في الساحات أو على الطرق المعبدة. هذه المسـارح تكون في العادة تشبه بعضها البعض. لا توجد بها ستارة، لا توجـد فيها أجنحة ولا توجد مناظر معلقة. في مؤخـرة المسرح يوجد بابان، واحد للدخول والآخر للخروج. الممثلون الذين سيؤدون القطعة الأولى يدخلون جميعهم مـن باب الدخـول. عندما تنتهي القطعة، وبينما هـم يصطفون للخروج من باب الخروج، بينما أولئك الذين سـيؤدون القطعـة الثانية يدخلون عبر الباب الآخر. لا توجد اسـتراحة، والموسيقيون الذين يجلسون على المسرح لا يتوقفون؛ وبالتالي قال عدد كبير من الأشخاص أن المسرحيات الصينية طويلة بشكل مزعج، لكن الحقيقة تقول أن نصف ساعة إلى ساعة تشكل طول العرض المسرحي الذي يؤدى في العادة، مع العلم أن عينات أكبر بكثير قد تدوم من ثلاث إلى خمس ساعات يمكن إيجادها في الكتب. ثماني أو عشر مسرحيات غالباً ما تؤدى على مأدبة عشـاء عادية، ولائحة ربما من أربعين توزع على الناس حتى يتمكن الضيوف الرئيسيون من الاختيار فيما بينها.

يجري للممثلين تدريب جسـدي قاسٍ جداً في العادة يكون بين الأعمار التسـعة

والأربعة عشر. عليهم أن يتعلموا كل أنواع الخصال البهلوانية، وهذه يجري تقديمها بحرية في المسرحيات «العسـكرية.» عليهم أيضاً أن يتدربوا على المشي على رؤوس القدم التي تلف تقليداً لقدمي النســاء، ولم يسمح لأي امرأة أن تظهر على المسرح منذ أيام الإمبراطور **تشيان لونغ Chien Lung** (1736-1796 ميلادية) الذي كانت والدتــه ممثلة. بالإضافة إلى ذلك، عليهم أن يتمشــوا في الهواء الطلق لمدة ســاعة أو بعض الســاعة، كل يوم، الــرأس إلى الخلف والفم مفتوح بهدف تقوية الصوت؛ وأخيراً إن وجبة طعامهم يجري ضبطها بدقة وفق نظام محدد من التدريب. ســتة وخمســون ممثلاً يعملون فرقة كاملة، كل واحد منهم عليه أن يعرف بالتمام من 100-200 مسرحية، خاصة إنه لا يوجد هناك ملقن. ولا تتضمن هذه مسرحيات من أربع إلى خمس مشاهد كما توجد في الكتب ولا طبعات تمثيلية لها، صُغرت لتلائم متطلبــات المسرح، أو مسرحيــات هزلية قصيرة كتبت خصيصــاً. يصنف الممثلون لخمســة أبواب وفقاً لمقدراتهم، وبالتالي كل واحد منهم يعرف الجزء الذي يتوقع أن يأخذه في أي مسرحية مطروحة. وبعيداً من أن يكون الممثل شخصية مهمة، كما في اليونان القديمة، فإن الممثل يقع تحت حرمان اجتماعي؛ ولمدة ثلاثة أجيال فإن سلالته غير مسموح لها أن تشارك في الامتحانات العامة.

ومــع ذلك عليه أن يمتلــك قدرة خارقة في توجه محدد؛ لأنــه طالما أنه لا توجد ملــكات ولا توجــد واقعية، فإنه يعتمــد كلية لتحقيق النجاح عــلى قواه الخاصة لإســباغ الكمال المثالي عليها. وهنا يكون هو الأعلى درجة. وهناك ســيقوم بالخبب عــلى المسرح ممتطياً ظهر حصان، وينزل عن ظهره، أو يســلم الحصان لسايســه. ســيقوم بالتجوال في شارع، وســيتوقف على فترينا ليغازل بنتاً جميلة. وسيختبىء في غابة أو ســيقاتل من وراء حائط حصين. هو يستحضر بواسطة مهارته التاريخية جميع الحاجيات المتنوعة لمشهد كان في البلدان الغربية يعبر عنه بجفاء من الدول العظمى قبل أن تفتح الســتارة، إن الغياب العام للممتلكات يعوض عنه بطريقة ما من خلال ملابس الممثلين التي هي بصفات عظيمة، أرواب للإمبراطور أو للنبلاء الذين يزيد عدد الأشخاص بشكل سوف يصدم مدير «الوست اند.»

من الواضــح أن الممثل يحب أن يكون بهلواناً جيــداً وعليه أن يمتاز بالإيماءات،

يجــب أن يكون لديه صــوت جيد، ويكون الجزء الذي له مكــون من أغنية وكلام «محكي» بنســب متســاوية تقريباً. وحتى تظهر كيف لا يهتم الصينيون بالواقعية تحتاج فقط أن تقول أن الرجال الموتى يقومون ويغادرون المسرح؛ في بعض الأحيان يفوضــون بتمثيل دور الحمالــين، ويقومون بحركات كأنهم يحملون أنفســهم. أو خادم يذهب إلى ممثل رئيس ويناوله فنجان شاي لتنظيف صوته.

إن مزيــة المسرحيــات التي تمثل تكــون على مســتوى مهارة المــؤدي. جمهور المستمعين الصينيين لا يذهب للاســتماع إلى المسرحية بل لمشاهدة الممثل. في عام 1678 في إحــدى البلــدات التجارية كانوا يعرضون مسرحية تمثــل إعدام الوطني، الجنرال **يو فاي Yo Fei** (1141 ميلادية) الذي سببه خيانة منافس له، **تشين كواي Chin Kuei**، الذي زور أمراً لهذا الغرض. الممثل الذي كان يمثل تشن كواي (وهو مصطلح أصبح منذ ذلك الحين يستعمل باحتقار كمبصقة) أنتج إحساساً عميقاً؛ إلى حد أن أحد المشــاهدين فقد السيطرة على نفسه، فقفز إلى المسرح وطعن الرجل البائس حتى الموت.

معظم المسرحيات الصينية بســيطة في بنيانها وضعيفــة في حبكة المؤامرة. فهم منقســمون بين «العسكرية» و«المدنية» وهما مصطلحان فُهِما بشكل خاطئ على أنهما التراجيديا والكوميديا، بينما التراجيديا بحد ذاتها كانت غير معروفة في الصين. الأولى عــادة تعالــج أحداثاً تاريخيــة وأعمالاً بطولية أو أعمال الــبر بالوالدين من قبل شخصيات تاريخية؛ الأباطرة والجنرالات، وجيوش صغيرة يتحركون بعنف على المسرح في بعض الأحيان يشتبكون في اشتباك فردي وفي بعضها الآخر يقلبون المسرح رأســاً على عقب. المعارك تخاض والمتنافسون أو الخونة يعدمون أمام أعين جمهور المشاهدين. أما المسرحيات «المدنية» تتعلق بتشابكات الحياة اليومية وهي بالعادة ذات طابع هزلي. كما تظهر في المجموعات الكلاســيكية أو في طبعات التمثيل، فإن المسرحيات الصينية لا اعتراض عليها مثلها مثل الشعر والأدب العام الصينيين. على المسرح، كان يســمح للممثلين برخصة واسعة للنكات الإباحية، الاتجاه الذي تسير فيه النكتة هو السبب الرئيس الذي يبعد النساء المحترمات عن المسارح العامة.

لذلك يجب أن يبقى دائماً في الذاكرة أن المسرحية أو التمثيلية توجد كما تقرأ في

المكتبة، وأيضاً كما تظهر في طبعة التمثيل التي يجب أن تحفظ، وأخيراً كما يفسرها الممثل. هؤلاء الثلاثة غالباً ما يكونون مختلفين عن بعضهم البعض.

المقتطف التالي سـيقدم فكرة واضحة عن القطـع الموجودة على برنامج الحفلة المسرحية لأي مسرح صيني كان:-

الشـكوك الثلاثة

عند نهاية سلالة مينغ، كان جنرال مشهور مشغول في الصباح وفي الليل في معسكر لوضـع الترتيبات لمقاومة تقدم جيـش المتمردين الذي في النهاية احتل بكين. بينما كان هـو مؤقتـاً بعيد عن البيت أصيب المعلم الخاص الذي شـغله من أجل ابنه، بمرض مع نوبات من القشعريرة، والولد كان تواقاً أن يعمل شيئاً ما للتخفيف عن المتألم، ذهب إلى غرفة والدته واسـتعار لحافاً ثقيلاً. في وقت متأخر من تلك الليلة عاد الجنرال دون سـابق إنذار إلى البيت، وسـمع من إحدى الجواري، التي كانت حاضرة عند مرض المعلم الخاص وعن اقتراض اللحاف الثقيل. وبناء على ذلك توجه مباشرة إلى غرفة المريض ليرى كيف دبر المعلم الخاص أموره، لكنه وجده مستغرقاً في النـوم. وعندما كان على وشـك أن يغادر، لمح على الأرض زوجاً من المشـايات النسـائية الذي أحضر مع اللحاف الثقيل مصادفة، وفوراً تعرف على من صاحبته. فترك بسرعة الأسـتاذ الخاص النائم وتزود بسـيف أحدب ماضٍ واندفع إلى شـقة زوجته. وأمسك بشعر المرأة المرتعدة وأخبرها أنها يجب أن تموت، وأخرج، رداً على اعتراضاتها، زوج المشـايات القاتل. لكنه استسلم إلى تدخلات الجواري المجتمعات وأجل ثأره حتى يضع الاختبار التالي. أرسل جارية إلى غرفة المعلم الخاص، وهو كان يتابعها عن قرب من خلفها وكان سـلاحه المجرد جاهزاً للاسـتعمال، حاملة رسالة من سيدتها تقول فيها أنها تنتظره في غرفتها الخاصة؛ ورداً على هذه الدعوة سمع صوت المعلم الخاص من الداخل يقول، «ماذا! في هذه السـاعة من الليل؟ اذهبي، أيها البنت السـيئة، أو سـأقول للمعلم عندما يعود!» وما يزال الجنرال الغيور غير مقتنع، فطلب من زوجته المرتعدة أن تذهب بنفسـها وتستدعي حبيبها؛ وكان قد أقر بأنه إذا وضع رجله فقط على العتبة، فستكون حياته الثمن. لكن لم يكن هناك مناسـبة للعنف القاتل. فأجاب المعلم الخاص مرة أخرى من خلف الباب المغلق،

«يا سـيدتي، أنا قد لا أكون قديسـاً، لكنني سـأحاول أن أقلد **تشاو ون هوا Chao Wen Hua** الفاضل (يوسـف الصين)، اذهبي، واتركيني بسـلام.» الجنرال غير الآن نبرته، والزوجـة المكلومة غيرت هي ايضاً نبرتها. حاولـت الانتحار، وقد ثنيت عن ذلـك باعتذار مذل من قبل زوجها؛ وفي منتصف تلـك العملية، وبينما كان الأخير على ركبتيه، عملت جارية من الجواري على أضحاك الجميع عندما جلبت لسيدها. بالخطأ كأساً مليئاً بالخل عوضاً عن النبيذ، وهو الشعار الصيني للغيرة الزوجية.

التالي هو ترجمة من طبعة التمثيل لمسرحية قصيرة، كما هي تمثل عادة، مظهرة، لكـن دون تضخيم، الفن الأدبي غير الكافي والضئيل الذي يشـبع الجمهور الصيني، والأبيات الشعرية للأصل هزلية بالقدر الكافي كما في النسخة الإنكليزية:-

الحفلة الراقصة الوردية
الشخصيات الدرامية

سو تاي تشين	**Su Tai Chin**	خطيب
هو ماو يوان	**Hu Mao Yuan**	خطيب
بينغ كواي	**Ping Kuei**	شحاذ
بو سا	**Pu Sa**	الملاك الحامي للشحاذ
الليدي وانغ	**Leady Wang**	ابنه موظف ماندرين سامٍ

الخُطاب والخدم، الخ...

المشهد: خارج مدينة **تشانغ آن Chang An**:-

سو تاي تشين: في مدينة تشانغ أن أسكن:

وأبي موظف ماندرين؛

أواه، لو أحصل على حفلة الرقص الوردية،

سيفيض كأس السعادة لدي.

اسمي المتواضع هو سو تاي تشين.

اليوم ستقيم الليدي وانغ،

حفلة الرقص الوردية للحصول على عريس؛

وإذا بالصدفة هذه الحفلة الراقصة تصيبني،
سأكون رجلاً محظوظاً بالفعل.
أما الآن يجب أن أذهب في طريقي.
يذهب باتجاه المدينة.

دخول هو ماو يوان

هو ماو يوان: إن أبي رجل نبيل،
وأنا رجل أحب التجوال
اليوم الليدي وانغ ستقيم
حفلة راقصة لتحصل على عريس،
كل شيء يعتمد على القدر
إن كانت هذه الحفلة الراقصة ستصيبني،
اسمي المتواضع هو **هو ماو يوان؛**
ولكن ما دامت الحفلة الراقصة ستقام اليوم
يجب أن أعاود السير على الطريق.
لماذا، ذاك يشبه كثيراً الصديق سو!
سأنادي: «أيها الصديق سو، لا تمشي بهذه السرعة.»
سو: إنه هو ماو يوان: أين أنت ذاهب؟
هو: إلى قصر الحاكم لاجد لي زوجة.
سو: إلى الحفلة الراقصة الوردية؟ جيد، أنا ذاهب أيضاً.

(يغني) الليدي وانغ ستقيم الحفلة الراقصة الوردية،
حتى يرى العالم كله عريسها المختار،
وبين العرسان النبلاء تحت-
ولكن من يعرف من سيكون هذا الرجل المحظوظ؟
هو (يغني): اعتقد أن حظك سيأخذك بالتأكيد حتى النهاية.

سو (يغني): وجهك الجميل سيجلب لك الحفلة الراقصة لعندك.
هو(يغني): على أي حال فالمسألة تقع بيننا الاثنين.
سو(يغني): بالكاد هناك أي كائن آخر سينفع.
هو(يغني): إذا: دعنا نذهب دعنا نسرع ونركض.
سو(يغني): لنذهب لكن لا تكن بطيئاً،
وإلا لن نكون في الوقت المناسب من أجل المتعة.

(خروج)

دخول بينغ كواي

بينغ (يغني): آه، في ذلك اليوم في الحديقة.
عندما وعدت الليدي حبيبتي التي تشبه الإلهة،
ابنة نبيل ثري،
أنها ستكون لي.
على بوابة الحديقة وعدتني،
وطلبت مني أن أكون هنا اليوم؛
من عليتي البائسة،
انسحبت لتوي،
وبينما أمر من أبواب المدينة،
فتحت عيني ورأيت.
جمهرة من الشباب النبيل متراصين
كأوراق الشجر.
ويضغطون إلى الإمام، لكن من يعرف أي منهم
سيكون الرجل المحظوظ؛
عبثاً أجهد المتلهفين-
أواه: ستفطر قلبي-
بين الفراشات الجميلات الأنيقات

لا أجد بديلاً لها.
دعها ألا تكون أمينة، أو أمينة،
فأنا سأخسر الحفلة الراقصة كما أني متأكد من القدر؛
حتى لو تكلمت معي بكلمات فارغة،
لماذا أضاعت الوقت عند بوابة الحديقة؛
ومع ذلك أنا مصمم على الذهاب
إن كنت نجحت في الحفلة الراقصة أم لا!
وستكون طاستي والعيدان جاهزة في يدي - فقط لذلك.
الرتبة والحظ غالباً ما يأتيان
من الشؤون النسوية؛
سأفكر في كل شيء وأنا سائر إلى-
وربما من الأفضل أن أقول صلواتي،
ماذا! أنا هنا في المكان نفسه!
سأقوم بالدخول

البواب: قل لي، أنت لن تدخل!
بينغ (يغني)، آه يا غالي! لقد أوقفني، لماذا، السماء تعرف!
يجب أن يتعلق ذلك بطاقيتي وملابسي الرثة.
سابقى هنا وأثير ضجة جهنمية.
حتى يقبلوا ويسمحوا لي بالدخول.
البواب: لا يوجد عندي شيء لكي أعطيك إياه،
لذلك تعال مرة أخرى في يوم آخر،
بينغ: آه! اسمح لي فقط أن أذهب لألقي نظرة.
البواب: بين أبناء النبلاء.
ماذا يمكن أن يكون هناك لكي تراه،
اذهب فوراً أو أجعلك تفعل ذلك.

بينغ: أواه! أواه! ماذا يمكنني أن أفعل؟
إن لم أستطع الدخول إلى الساحة،
فإن الليدي وانغ ستتعب من الانتظار

يدخل بو سا

بو سا (يغني): بأمر من القيادة العليا في السماء طرت
عبر الفضاء الأزرق في السماء والجو،
لأن روحاً معذبة قد بكت بحزن،
والسماء استمعت إلى صلواته،
إلى الليدي وانغ هو تقريبا منفطر القلب.
لكن القدر القاسي لا يزال يبقي الحبيبين مفترقين.
هبيري جيبيري سنوبري سناي Hebbery Gibber Snobbery Snay! (واحد، اثنان، تكون الآن)
على أجنحة الريح سأركب،
وسأجعل البواب العجوز يفتح الطريق
حتى أستطيع أن أدخل الشحاذ الفقير إلى الداخل.
الليدي وانغ لا تزال في القاعة.
بانتظار أن يرسل الإمبراطور الكرة الزهرية.

يزيد سرعة الريح.

البواب: آه يا عزيزي كم بارد هو الهواء القادم.
أنا لا أرى الليدي قادمة،
وهكذا أعتقد أنني سأدخل إلى الداخل.

تدخل الليدي وانغ

الليدي وانغ (تغني): بملابس الاحتفال أنا أترك مخدع النساء،
أفكر طول الوقت بك.
أيتها السماء ما أتمنى توق كائن بشري
واربطي حبي بي.
إن طاقيتي المدهشة طُرز عليها
رف من الطيور البراقة:
هناك تضيء النجوم السبعة وهناك
ولد يدندن بالكلمات المقدسة.
صدريتي تبهر ببريقها الأخاذ:
وثيابي عملت بكثير من المناظر الصاخبة.
(تعرض الحفلة الراقصة للمشاهدة.)

لقد حملني جلالته هذه الحفلة الراقصة
وطلب إلي من بلكون أن أدعها تسقط،
ومن ثم آخذ زوجاً أيّاً كان تصيبه،
أميراً أو تاجراً أو شحاذاً كما قد يكون الحظ
وقد تركت والدي وغادرت منزلي.
وهنا إلى هذا البرج المدهون قد جئت.
وبينما أنا أصعد الدرج ببطء،
أفتح عيني وأرى.
جمهرة من الشباب النبيل متراصين
كأوراق الشجر.
ولكن آه! من بين الاشكال العديدة
التي تلاقي عيني المتلهفة،
إن شكل حبي الحقيقي.

لا أستطيع أن ألمحه بعد،
الوعد الذي أعطيته له عند بوابة الحديقة
هل يمكن أن ينساه؟ الساعة تشير إلى تأخر الوقت
والجمهور تحت
معجب بي بشكل
يجعلني في حالة ميؤوس منها.
آه! بينغ كواي أن كنت حقا تحبني
أسرع إلى جانبي:
إذا كانت الكلمات التي تحدثت بها فارغة،
لماذا تسألني أن أكون عروسك؟
هو، ربما، تسيطر عليه أريحيته،
بينما قلبي المجنون ينفطر.
لا أستطيع العودة حتى يتم إنجازه
هذا العمل بدأ بالتعاسة،
وهكذا أتناول حفلة الرقص الزهرية.
وبتنهيده أدعها تسقط.

تسقط كرة الحفلة الراقصة

بو سا: هكذا أمسك بالجائزة المحسودة،
وأعطيها للذي تقع حمايتها عليّ
سأرميها في صحنه المصنوع من الفخار
يرمي الكره لبنغ كواي
الليدي وانغ (تغني): ابقى، اسمع الناس تنادي-
ماذا، الكرة وقعت على شحاذ ما؟
يحب أن يكون بينغ كواي المخلص لي-
سأذهب إلى المنزل وأخبر عن حظي!
يا بنات! أشعلن في كل جوانب المعبد

البخور من أجل قدري المحظوظ؛
وسيكتشف حبي الحقيقي
من أنني أستطيع أن أفرق.

الخروج للجميع

دخول لكل من **هو ماو يوان وسو تاي تشين**

هو: في الثاني من القمر الثاني
ينهض التنين مليئاً بالحياة والقوة؛
اليوم رمت الليدي وانغ
الكرة من البرج المدهون.
لم يتم تخصيص أي شاب صاحب منبت جيد،
فخبطت بمغفل قذر متسكع.
صديقي سو، أنا ذاهب: لقد انتهى أمرنا، كما ترى،
مع أنني بالنسبة للمومس الحقيرة الصغيرة لا أكترث مطلقاً.
يخرجان

يدخل البواب والشحاذ

البواب: فقط شحاذ فقير واحد بقي الآن داخل القاعة،
من كان يعتقد أن هذا المتسكع الفقير كان
سيأخذ الكرة.

موجهاً كلامه إلى بينغ كواي:
أيها السيد لقد حققت شيئاً
جيداً هذا الصباح:
أنت رجل محظوظ.
تعال معي لنطالب بعروسك،
وقم بأسرع ما تستطيع.

الخروج للجميع

حتى المسرحيات الطويلة والأكثر إسـهاباً تعوزها نسـبياً كل ما يعمل الدراما لها طعم حاد بالنسبة للأوروبي، وهي قلما تنتج كما هي في الطباعة. وقد نشرت عدة مجموعات مـن هذه، هذا لم يذكر الطبعات التمثيليـة لكل مسرحية، التي يمكن شراؤها في كل كشـك لبيع الكتب بكلفة لا تزيـد عن بنس لكل ثلاثة كتب. واحد من أحسـن تلك المجموعات هي تلك التي تحمل عنوان **يوان تشو هسي يان تسا تشي** أو **المختارات المتنوعة لمسرحيات المونغول**، مجلدة في ثمانية مجلدات ضخمة. وتتضمـن ما مجموعه مائة تمثيلية، مع تصوير لكل واحد منها وفقاً لطبعة 1615. نسـبة عالية من هذه لا يمكـن تخصيصها لكاتب واحد، وبالتـالي تم وضع علامة «مجهول.» حتى عندما يوضع اسـم الكاتب فهم يمتلكون أناساً غير معروفين البتة فيما يسميه الصينيون الأدب، والذي تستثنى منه الدراما بصراحة.

التـالي هو ملخص مختصر لمسرحية مشـهورة جداً في خمسـة فصول كتبها **تشي تشـون هسـيانغ Chi Chun Hsiang** بعنوان «**يتيم عائلة تشـاو**،» وتأسسـت بدقـة على الحقيقة. إنه المنهج الأقرب الذي قام به الصينيون ليصلوا إلى التراجيديا الحقيقية:-

وزير خسـيس من القرن السـادس قبل الميلاد تآمر على تدمير منافس له اسمه تشـاو **تون Chao Tun**، وجميع عائلته. ويروي في المقدمة الاسـتهلالية كيف أنه حاول سـدى تدريب كلب شرير لقتل منافسه، حابسـاً إياه لأيام دون طعام ومن ثم يطلقه على دمية بلباس يمثل الضحية المبتغاه، ومحشـوة بقلب وأمعاء خروف. لكنـه في النهاية، تمكن مـن الخلاص من جميع الذكور أعضـاء العائلة، حتى عدد ثلاثمائة عندما سـمع – وعند هذه النقطـة تبدأ الحقيقة - أن زوجة الممثل الأخير للعائلة ولدت صبياً. فوراً أرسـل في البحث عـن الطفل الذي حمل في هذه الأثناء إلى بر الأمان، وقام بعد ذلك خادم أمين للعائلة بالاختباء على تلة ومعه طفل آخر، بينما قام متآمر آخر بإبلاغ الوزير أين اليتيم المفترض لبيت تشاو كان يختبىء. ذبح الطفل وفقاً لذلك وعلى يد الوزير نفسه؛ الخادم انتحر. لكن الوريث الحقيقي نجا وعندما كبر ثأر للضحايا من عائلته بقتل الوزير القاسي وإبادة عرقه بالكامل.

منـذ البداية وحتى النهاية لهـذه المسرحيات وشـبيهاتها لا يوجد على ما يبدو

أي محاولة كانت للشــغف أو للتأسي في اللغــة – على أي حال ليس بالمعنى الذي تفهــم منه هــذه المصطلحات مــن قبلنا. حتى أنــه لا يوجد أيضاً زهــور بديعية لتخفي تعبيرات الفكر العام. الممثل الصيني يســتطيع أن يفعل الكثير بهكذا نص، أمــا المترجم فلا. وهناك أيضاً كثير من الشــخصيات البدائيــة في تركيب المسرحية. ولهذا يصبح الاســتهلال التوضيحي عادياً والممثلون يبدأون في العادة بالإعلان عن أسمائهم الشــخصية، وأيضاً يفســحون الطريق لمصلحة جمهور المتفرجين. القصة المثالية تعطى فكرة ضعيفة حول كل ما يسمح به لممثل المسرحية.

جلب انتباهي في إحدى المناســبات في أموي **Amoy** جمهور من الصينيين ضخم على غير العادة، مشــغول بمشــاهدة التقــدم في عرض مسرحي في الهــواء الطلق. وزمجــرة من الضحك كان يتردد صداهــا في جميع الجوانب، وبعد أن وجهنا نظرنا لنرى الســبب وراء هذا الانفجار غير العادي من الانبســاط، رأيــت، ويا للعجب، اثنين من الأجانب في ثيابهم الرثة يشغلون المسرح، وعلى ما يبدو كانا يمثلان بروح جعلــت المسرح، يغشى من الضحك على كل كلمــة. وبعد لحظة، أصبح واضحاً أن هــؤلاء الرجلين من الغرب لم يكونا أغراباً بالمرة، وإنما صينيون يرتدون ملابس لهذا الغــرض من المسرحية. المنظر العام كان بالرغم من ذلك جيداً بامتياز. حتى لو أنه جرى تضخيمه نوعاً ما ولكن دون شــك كانــت النية هي عمل كاريكاتير أو تقليد ســاخرٍ عوضاً عن أن ينتج تقليداً مضبوطــاً. كان هناك طاقية ذكر الدجاج وتحتها وجه متورد مجهز بشكل جيد بشوارب حمراء وذقن، ومعطف مقور قصير وبنطالٌ خفيف، وكرافتة زرقاء، وأخيراً، وليس آخراً، عصا المشي المميزة جداً، ونصف مساحة المسرح بالحقيقة اســتخرجت من الملحق الأخير هذا؛ لأنه بها كان كل واحد منهما يهدد الآخر باســتمرار وكان كلاهما متحد بالإيماءات العنيفة الموجهة ضد أقرانهم الممثلــين، وفي بعــض الأحيان كانت توجه ضــد الجمهور الجالس عنــد أقدامهما.

قبل الذهاب بعيداً قد يكون من المناسب إعطاء ملخص قصير للمسرحية نفسها، التي لا تبدو غير ممتعة، وهي معروفة على نطاق واسع من هذا إلى ذاك الطرف من الصين. وعنوان المسرحية هو «ذبح ابن على بوابة يامن،» والحبكة، لا بل القصة تجري هكذا:-

جنرال معين من **ســلالة ســونغ Sung اســمه يانغ Yang**، كان مسؤولاً عن أحد

الممــرات الحدودية، أرســل ابنه للحصول على عصا خشــبية معينة من عند قبيلة بربرية تســكن الحدود، في هذه الحملة لم يفشــل الولد بامتياز فيها، بل إنه أخذ ســجيناً من قبــل امرأة بربرية، التي أصرت عليه أن يأخذهــا إلى المذبح. بعد هذا العــرس أو الفرح عاد إلى معســكر أبيه، والأخير في ثــورة غضب يأمر أن يؤخذ إلى خــارج بوابة القيــادة وأن يعدم فــوراً، وبينما الجنود يأخذونه بعيــداً، وصلت أم الشاب التي رمت بنفسها عند قدمي الجنرال مناشدة إياه أن يبقى على ابنها، هذا الطلب رفض الأب الشــديد الاستجابة له بثبات مع أن صلوات زوجته كانت تعزز بتلــك التي من والدته، من أمير ذو دم إمبراطــوري، وأخيراً من التماس الإمبراطور نفســه، عند هذا المفصل اندفعت الزوجة البربرية لابن الجنرال المدان، وكما حدث في مرة ســابقة فإن الجنرال نفسه أخذ ســجيناً من قبل المرأة نفسها وافتدي فقط بدفــع مبلغ ضخم من الأموال، وكان مرتعبا جداً لدرجة أنه جلس دون أدنى حراك وغير قادر عــلى التفوه بأي كلمة بينما هي كان معها خنجر فقطعت الحبال التي تكبــل زوجها وأطلقت سراحــه أمام الفرقة المجتمعة وهــل يجرؤ أحد على المس به، فتلك ســتكون نهايته. الإمبراطور فقد الآن مزاجه مغتاظاً من فكرة أن الجنرال يانــغ يجــب أن يكون قد تهيــب عن إعطاء المــرأة البربرية حياة التــي كان لتوه يرفض التماس ابن الســماء من أجلها. ومن هنا، حرم جلالته فوراً الأب من قيادته وأعطاها للابن، وتختتم المسرحية مع مغادرة الجنرال يانغ الشاب وزوجته البربرية لكي يخضعوا القبائل الشرســة التي تغير على حدود الصين، الاجنبيان كانا معاونان للزوجة البربرية ويرافقانها بالصيغة تلك عندما تقوم باللحاق بزوجها إلى معســكر أبيه.

إن خدعة إكساء المعاونين ليقوما بكاريكاتور للأجانب في القرن التاسع عشر وقت مشــاهدتي للمسرحية، كانت فقط قطعة هزلية للمــسرح، لكنها قطعة قادت إلى تســلية الناس كثيراً وحازت على عاصفة من التصفيق. ولكن عندما نجحت الزوجة البربريــة بإنقاذ زوجها من براثن الموت، كان هنــاك عدم رضى كبير في عقول عدد من الشخصيات على المسرح. الإمبراطور كان غاضباً من الإهانة التي لحقت بكرامة الإمبراطورية؛ بزوجة وأم الجنرال، ولا ننسى قرابة الأمير بالدم للوالدة، شــعروا أنهم

أهينوا، ولو بدرجة أقل، والأب الهائج كان لا يزال منفعلاً من أخذ قيادته منه، ورأى نفســه ملتحياً في مقره من قبل امرأة بربرية، وبناء على ذلك شعر جميع الأطراف أنهم كانوا يفتقدون شــيئاً مثل الذبح للتخفيف من مشــاعرهم، ولإشباع الوحدة الدرامية، واشــتياق جمهور المشــاهدين لخاتمة حماســية؛ وهذه النهاية المرغوب فيهــا تم الحصول عليها بأمر مــن الإمبراطور من أنه على أي حال من الأحوال فإن المعاونين الأجنبيين يمكن التضحية بهما لمصلحة جميع المعنيين. الأجنبيان التعيسان أجبرا على الركوع على المسرح فتم على الفور قطع رأســيهما من قبل الجلاد وســط هتافات تصم الأذن للمشاهدين المحيطين.

في عام 1885، عرضت مسرحية في مسرح في **شنغهاي Shanghai** وكان لها تقليد فظ لكســب جمهور المشــاهدين وهو بآخرة تدفع بدواليب مريشــة محشو فيها رجال ونســاء أجنبيات. تم جرها عبر مؤخرة المسرح والرجال الأجانب ونســاؤهم الذين كان من المفروض أنهم قد أتوا ولهم مآرب في **المملكة الوســطى، أي الصين** قد سجنوا كلهم وأعدموا.

مــن جميع تمثيليات ســلالة المنغــول التمثيلية الوحيدة الجديــرة بالقراءة هي بــلا أدنى شــك هسي هســيانغ تــشي أو **قصة المقصــورة الغربية** في تســعة عشر مشــهداً. هــي بقلــم **وانغ شــيه فــو Wang Shih Fu** الذي لا يبــدو أننا نعرف عنه شــيئاً ســوى أنه ازدهر في القرن الثالث عشر وكتب ثــلاث عشر تمثيلية، كلها موجــودة في المجموعة المذكــورة أعلاه. وكتب ناقد صيني يقــول، «إن حوار هذه المسرحية يتعامل أساســاً من الريح، والزهور، والثلج وضوء القمر» وهي ببســاطة طريقــة تلطيفيــة للقــول أن القصة فيهــا هي قصــة عواطف ومؤامــرات. إنها تلاقي شــعبية عنــد الطبقات المثقفة الذيــن يعتبرونها رواية أكــثر منها مسرحية.

ســيدة وابنتها تقيــمان في معبد حيث، وفقاً للعادة العامــة، يقوم راهب بتأجير الغرف للمسافرين العاديين أو للزوار الذين يرغبون في القيام بالتمرينات التعبدية. طالب شــاب وجميــل كان أيضاً مصادفة نازلاً في المعبــد، ووافاه الحظ بالنجاح في

إنقــاذ الســيدتين من قبضة قطاع الطرق، والذي كان قد وعــد أنه إذا ما قام بأداء هــذه الخدمة ســوف يعطى يد البنت ليتزوجهــا. إلا أن الأم سرعان ما عادت عن الخطوبة وتركت هذا الباحث حزيناً. في هذا المفصل نجحت وصيفة السيدة الإبنة بسلسلة من المناورات الماهرة بإعطاء القصة نهاية سعيدة.

بما أنه كان هناك دائما شــاعرات في الصين فإننا نجد أيضاً نساء بين صفوف كتاب المسرحيات، هناك دراما من أربع مشــاهد بعنوان «الانضمام إلى القمصان» كتبت من إحداهن باســم **تشــانغ كوو بين Chang Kuo Pin** وكانت محظية مثقفة في تلك الأيام وهو ما جعل الاهتمام الرئيس في المسرحية ربما جنس الكاتبة.

أب وأم وابنهما وزوجة الابن يعيشــون بســعادة مع بعض عندما ســاعدوا شاباً غريبــاً معدوماً، ومن ثم دون استفســار عنــه يقومون بالفعل بتبنيــه في العائلة، وبعد ذلك بقليل الابن الجديد يقنع الأخ الأكبر وزوجته بمغادرة البيت سراً آخذين معهم كل الممتلكات التي تقع عليها أيديهم وأن يسافروا إلى مكان بعيد من البلاد حيث يوجد إله قدير ستصلي له الزوجة وتحصل على ابن بعد أن مر على زواجهما ثمانيــة عشر شــهراً. في الطريق الأخ الجديد يدفع الــزوج من على ظهر القارب إلى نهر **اليانغ تســه Yang Tse**، ويختفي هو والزوجة التي بعد فترة قليلة تلد صبياً، تمــر ثمانية عشر عامــاً. الزوجان العجوزان أصيبا بفقر مدقع وانطلقا يشــحذان في طريقهما للبحث عن ابنهما. الصدفة – صدفة كاتب المسرحية – ترميهما في صحبة حفيدهما، الذي تخرج ككبير الدراسات الكلاسيكية، وقد كان أيضاً مدفوعاً من قبل والدته ليبحث عنهما. التعرف أتى عن طريق نصفين من قميص، أحدهما كان دائماً مــع الرجل العجوز وثانيهــما كان مع الابن المفقود. وبعد موته كان مع زوجته، في هــذه النقطة يظهر الابن المفقود، وكان قــد أنقذ من الغرق من قبل بحار وأصبح راهباً بوذياً. هو الآن يعود إلى الحياة المدنية وتنتهي المسرحية بإعدام المجرم.

إنها حقيقة غريبة أن تكون جميع فرق الممثلين لا تنحدر من بكين فحسب وإنما يمثلون بلهجتهم الخاصة بهــم وهي اللهجة غير المفهومة من قبل جماهير الأجزاء العديدة في الصين. هؤلاء الممثلين تدفع بالطبع لهم أجور جيدة حتى يكون السفر بعيداً عن البيت أمراً مستحقاً لمخاطر الحياة والممتلكات.

الفصل الثالث
الرواية

نتحول الآن إلى الإنجاز الأدبي الثاني للمونغوليين وهو إدخال الرواية، فنجد أنفسنا وجهاً لوجه مع اللغز نفسـه كالذي يحيط بميـلاد الدراما. إن أصل الرواية الصينية غير معروف. وقد تكون أتت من وسـط آسيا، جنة رواة القصص في أعقاب احتلال المونغوليين. ثلاثة قرون كان عليها أن تختفي قبل الوصول إلى مرحلة التطور العليا. الأساطير والنوادر وحتى القصص القصيرة كانت معروفة للصينيين منذ عدة قرون، ولكن بين هذه والرواية بحد ذاتها هناك الهوة التي حتى الآن لم يتم جسرها بشكل مرضٍ، وبالفعل ادعى البعض أن الرواية تطورت من المسرحية أو التمثيلية معززين نظريتهم بالإشـارة إلى **هسي هسـيانغ تشي Hsi Hsiang Chi** أو قصة المقصورة الغربية كما وصفناه في الفصل السـابق. لكن هذا يعني ببساطة أن هسي هسيانغ تـشي **Hsi Hsiang Chi** ملائمة أكثر للقراءة الخاصة منها للقراءة العامة، كما هي الحال لكثير من المسرحيات أو التمثيليات.

يصنف الصينيون رواياتهم تحت أربعة عناوين تعالج (1) الاغتصاب والتآمر، (2) الحب والمؤامرة، (3) الخرافات، (4) قطاع الطرق أو شخصيات متمردة خارجة على القانون بشكل عام، وسنعطي الأمثلة على كل منها.

إن **سـان كوو تشـيه ين أي San Kuo Chih Yen I** المنسوبة لشخص اسمه **لو كوان تشـونغ Lo Kuan Chung**، هي روايـة تاريخية مبنية عن حروب الممالك الثلاثة الذين كانوا يتقاتلون على السـيادة في بدايـة القرن الثالث قبل الميلاد. إنها تتألف أساساً من مناظر مؤثرة من الحروب، من خطط ماكرة لجنرالات مهرة، وعن المآثر التي قام بها المتحاربون الملطخة أيديهم بالدماء. جيوش وأساطيل لا تعد ولا تحصى كانت تباد من وقت لآخر من قبل هذا الجانب أو ذاك، كل هذا بأسـلوب

سهل ومشوق، يعطي للكتاب بهجة لا حدود لها للكبير وللصغير على حد سواء. لو أن التصويت أعطي لشـعب الصين ليقـرروا من هي أعظم رواية من بين رواياتهم غير المحدودة، فإن قصة الممالك الثلاث سـتكون الأولى بـلا منازع. يقال أنه بهذه الطريقة قام القائد العظيم **تشو كو ليانغ Chu Ko Liang** بإعادة تجديد مخازنه المتناقصة من السـهام. أرسل قوة من عشرين سـفينة أو أكثر ليقوم بهجوم كاذب على أسطول منافسه القوي **تساو تساوTsao Tsao.** كان ظهر السفن على ما يبدو مغطى بأعداد كبيرة من المقاتلين، ولكن هؤلاء لم يكونوا في الحقيقة سوى شخوص من القش مكسـيين في ثياب جنود. على كل سفينة كان يوجد فقط عدد قليل من البحارة وعدد من الجنود الحقيقيين يحملون الطبول وغيرها من أدوات مزعجة.

وعند وصولهم إلى هدفهم كما كان محسـوباً بدقة من قبل، وفي منتصف ضباب كثيف بدأ الجنود يضربون على الطبول كما لو كانوا سيبدأون عملية؛ على أثر ذلك قام **تسـاو تسـاو Tsao Tsao**، الذي بالكاد اسـتطاع أن يتبين الخطوط العريضة للسفن المليئة بالمقاتلين الذين انصبوا عليه، أعطى أوامره لرماته، أن يبدأوا بإطلاق السهام، قام أولئك بفعل ذلك، وبقوا على هذه الحالة لساعة أو أكثر، حتى شعر تشو **كو ليانغ Chu Ko Liang** بالرضى عما حصل عليه، ثم أعطى أوامره بالانسحاب.

في مكان آخر نقرأ عن منافسة بين الرماة التي تذكر بالألعاب الهوميرية الملحمية. يعـين هدف، وتوضع الجائزة، وهي روب على غصن في الأعلى. ومن مسـافة مائة خطوة يبدأ الأبطال بإطلاق أسـهمهم. بالطبع كل متنافس يصيب منتصف الهدف، واحد مثل البارتيين أو الفرس القدماء، يطلق السهم من خلف ظهره، وهو منسحب، وآخر يطلق السهم من فوق رأسه، وبالطريقة نفسها بالطبع، البطل المفضل يطلق على الغصن، يقطعه ويغادر بالروب.

القطعـة التالية ربما تكون مفيدة، فهي تعالج موضـوع التخدير قبل قرون من الحلم به في هذا البلد (أي بريطانيا). **تساو تساو** ضرب على الرأس بسيف من قبل روح شـجرة الكمـثرى التي حاول أن يقطعها. وكان يعـاني من الآلام حتى أن أحد معاونيه نصحه بمراجعة طبيب ما أصبح شائعاً جداً في تلك الأيام:-

قــدم الضابط شرحاً فقال: «'إن د. **هــوا Hua** هو طبيب ماهر وقوي وهو رجل لا تجد مثله رجلاً آخر. إن استخدامه للدواء واستخدامه للإبر الصينية وللمهيجات المضادة كلها دائماً يتبعها الشــفاء العاجل للمريض. إن كان الإنســان المريض يعاني من شــكوى باطنية والــدواء لا يحقق النتيجة المطلوبة، يقــوم الدكتور **هوا Hua** بوضع جرعة من الحشــيش، وتحت تأثير هذا يصيح المريض وكأنه ثمل بالنبيذ. ثم يأخذ ســكيناً حادة ويفتح البطن، فيقبل على غسيل الأحشاء بسوائل طبية، ولكن دون التسبب باي ألم له. بعد الانتهاء من الغسيل يخيط الجرح بخيط طبي ويضع فوقه قطعة «بلاســتر،» وبعد مرور شــهر أو عشرين يوماً يكون الموضع قد شفي. هكذا هي المهارة العادية.

في أحد الأيام، وهو ســائر في الطريق ســمع د. **هوا Dr. Hua** أحدهم يئن كثيراً وبعمق، فأعلن فوراً أن الســبب هو عــسر الهضم. وبعد البحث وجد أن الموضوع كان كذلــك؛ وبالتــالي أمر د. **هوا Hua** المتألم أن يشرب ثلاثة بيانتات[69] من ســائل مغــلي فيه الثوم ونبات الكراث، هذا ما فعلــه فتقيأ فوراً حية طولها من اثنين إلى ثلاثة أقدام، وبعدها كان قادراً أن يأكل الطعام مثلما في السابق. وفي مناسبة أخرى، كان الحاكــم **كوانغ لينغ Kuang Ling** مكتئباً جداً في نفســيته، بالإضافة إلى أنه كان منزعجاً من تورد في وجهه ومن فقدان الشــهية تماماً. استشــار د. **هو Hua**، وكانت نتيجة بعض الدواء الذي وضعه سبباً في تقيؤ المريض لكمية من الشراغيف **(جمــع شرغوف)** التي تتلوى من ذوات الرأس الأحمر، التي قال عنها الطبيب أنها نتجــت في كيانه من انغماســه العظيم في الســمك، والتي عــلى الرغم من طردها مؤقتــاً، ســتظهر ثانية بعد فترة ثلاث ســنوات، حيث لا أحد يقــدر على تخليصه. وبالفعل توفي الرجل بعد ثلاث ســنوات لاحقــة. وفي قضية أخرى، كان يوجد رجل

نمــاً بين حاجبيه دمــل، وكان الحكاك منــه لا يحتمل. عندما عاينــه د. **هوا Hua** قــال، «هنــاك طائر في داخلــك» فضحك منه الجميــع. ولكنه أخذ ســكيناً وفتح الدمــل فطار منــه كناري، فبــدأ المريض يتعافى من تلك الســاعة. مــرة أخرى،

69 البابنت هو وحدة لقياس السائل تساوي نصف لتر / المترجم.

رجــل آخر عضه كلب في أصبــع رجله، والنتيجة كانت كتلتين مــن اللحم نمتا من الجــرح، إحدهما كانــت مؤلمة جداً والثانية كانت تجعلــه يحك بطريقة لا تطاق.

«هنــاك عشرة إبر، «قال د. هوا ‘في كتلة الخُراج واثنتين ســوداوين ونواة بيضاء اسمها **واي تشي Wei Chi** في الأخرى.’لا أحد صدق ذلك حتى فتحها د. **هوا Hua** بســكين وأظهر لهم أن ذلك حقاً. وحقاً أنه من الســلالة نفســها مثل **بيان تشياو Pien Chiao وتسانغ كونغ Tsang Kung** من الزمن القديم، وبما أنه يسكن الآن ليس بعيداً من هنا، أنا أتعجب أن سموكم لم يستدعه بعد.

هنا، أرســل **تساو تساو Tsao Tsao** مراســلين كان عليهما أن يسافرا ليلاً ونهاراً، حتى يعودوا بالدكتور هوا Hua ليمتثل أمامه، وعندما وصل مســك **تســاو تساو TsaoTsao** نبضه وطلب إليه أن يشخص مرضه.

«الألم الــذي في رأس ســموكم، ’ قال د. **هوا Hua**، ‘ ناتــج عن الهواء ومقر المرض هو في المخ حيث يتجمع الهواء لأنه لا يستطيع المغادرة، الدواء لا ينفع في وضعكم الحالي الذي له بلسم واحد، عليك أولاً أن تبلع جرعة من الحشيش، ومن ثم أقوم ببلطة حادة، بفلق مؤخرة رأســك وإخراج الهواء. وهكذا ســوف يتم القضاء على المرض. ’

هنا ثار **تساو تساو Tsao Tsao**، وأعلن أنها مؤامرة تستهدف حياته، وعلى هذه أجاب د. هوا،‘ ألم تســمع ســموكم عن جرح **كوان أو Kuan Yu** في كتفه الأيمن؟ أنا كشــطت العظم وأزحت السم الذي فيه دون أي إشارة واحدة من الخوف من جانبه. إن مرض سموكم ما هو إلا مسالة بسيطة؛ لماذا إذا تشك كثيراً؟ ’

«قد تســتطيع كشــط عظمة الكتف المتقرحة، ’ قال **تســاو تساو،‘** دون خطورة كبيرة؛ لكن أن تفلق جمجمتي هي مســألة مختلفة تماماً. اكتشفت الآن بأنك هنا فقــط لتثأر لصديقك **كوان أو Kuan Yu** مســتغلاً هذه الفرصة، فأعطى بناء على ذلك الأوامر أن يتم إلقاء القبض على الطبيب ويوضع في السجن.»

هنــاك، بعد وقت قصير مات الطبيب المنحــوس، ولم يمض وقت طــويل حتــى

مـات **تــساو تــساو Tsao Tsao** نفسه.

يقال أن رواية **شــوي هو تشــوان Shui Hu Chuan** كتبها **شيه ناي آن Shih Nai An** مــن القرن الثالث عشر؛ لكن هذا الاســم لا يظهــر في أي مجموعة من السير الذاتية، ويبدو كذلك أنه لا يعرف شيئاً عن الرجل أو عن تأليفه هذا. القصة التاريخية تقوم على أســاس الأعمال التي تقوم بها عصابة من قطاع الطرق الذين أرهبــوا في الواقع مقاطعتــين، حتى تم قتلهم، في أوائل القــرن الثاني عشر. بعضها مضحك جداً وكلها ثمينة للرؤية التي تقدمها عن الأخلاق والعادات الصينية. هناك حادثــة هزلية عن متبجج كبير التجأ إلى معبد بــوذي وأصبح راهباً. بعد فترة ارتد إلى عادات في الحياة أقل تقشفية، وعاد في يوم من الأيام إلى المعبد، وبلغة صينية، ســكيراً حقيراً، مفتعلاً اضطراباً عظيماً ومسبباً فضيحة كبيرة، وقام بالعمل نفسه في مناســبة أخرى؛ وعندما حال البواب بينه، وبين الدخول حاول الاندفاع إلى الداخل وفي فورة ســكره كسر تمثالاً ضخماً عند المدخل لأنه لم يتدخل ليســاعده. وعندما نجــح بالتهديد بالنار في إقناع الرهبــان بفتح البوابة، التي «يمنع من خلالها إدخال النبيذ أو اللحمة،» وقع هو في الساحة، ومن ثوبه سقطت نصف رجل كلب مأكولة خرج بها من مطعم حيث ســكر ســكراً مجنوناً. وتســلى بنزع قطعــة من اللحم وحشاها في فم واحد من زملائه الرهبان.

إن الأســلوب الغرافيكي، والتصويري الذي كتب به الكتاب، بالرغم من أنه يقترب من اللهجة العامية ضمن له مكاناً أبعد من الاستحقاق الحقيقي.

إن **هسي أو تشي Hsi Yu Chi** أو **ســجل الرحلات في الغرب،** هو رواية مفضلة كتبت بأســلوب شعبي وسهل. إنها تقوم على أســاس الرحلة التي قام بها **هسوان تسانغ Hsuan Tsang** إلى الهند، للبحث عن كتب وصور وآثار ليصور بالرسومات التوضيحيــة الديانة البوذية؛ لكــن أبعد من حقيقة أن الشــخصية الرئيس يدعى من قبل **هســوان تسانغ Hsuan Tsang** باســمه بعد مماتة ومن أنه كان يسافر بحثاً عــن الكتب البوذية، فالرحلة والرواية لم يكن هناك من ناحية إيجابية جامع يجمعهــما مع بعضهــما. الأخير هو عينة جيدة من الخيال الذي يُسرّ به الشــعب

الصيني، ويمكن أن يستبقينا معه لفترة.

قــرد حجري يولــد على جبل غامض من بيضة حجرية وسرعــان ما ينتخب ملكاً للقرود. ثم يقرر السفر من أجل البحث عن الحكمة، وهكذا ينطلق. كانت خطوته الأولى اكتساب المعرفة عن الفن الأسود من ساحر، والتي بعدها يصبح سيد حصان الــرب، أي أنه يصبح الإله الأعلى في البانثيون الطــاوي.[70] وبعد أن تخلص من هذا المنصب المقرف قام بسلسلة من الاضطرابات في العالم بشكل عام حتى - بعد حين - اضطر الرب للتدخل وأرســل جنرالات سماوية متعددة لإخضاعه. هؤلاء بسهولة يهربــون منه، عائداً فقط إلى ولائه حالماً يتعين هو **الواحد العظيم المقدس لجميع الســماوات.** وسرعان مــا يعود إلى حيلة فيــسرق كمثرى الخلود مــن كائن خرافي معروف باسم **الأم الملكية في الغرب،** وبعضاً من إكسير الحياة ويستهلك كليهما.

جميع الآلهة الأدنى تتذمر إلى الله من شر أفعاله الكثيرة. فترسل الجيوش السماوية ضده، لكن سدى. حتى ابن أخ الله لا يستطيع الصمود ضده حتى يرميه **لاو تسه Lao Tzu** بخاتم ســحري فالقاه أرضاً مجندلاً. بعد ذلك يُحمل اســيراً إلى السماء، ولكن بما أنه خالد لا يمكن إيذاؤه.

في هذا المفصل يضع الله المســألة في أيدي بوذا الذي يتم إعلامه حالاً من القرد بأنــه يجب الإطاحة بالله، وأنه هو القرد يجــب أن يكون الملك القادم عوضاً عنه. النص يسير بهذا الاتجاه: -

«عندما استمع بوذا لهذه الكلمات، ابتسم بشكل محتقر وقال، وماذا! قرد شرير مثلك يريد أن يقبض على عرش الله، الذي منذ سنواته الأولى درب ليحكم، ويعيش منذ 1750 أيون من الدهور اللامنتهية، وكل واحد منها يدوم 129.600 سنة! فكر بكم دهر من التلمذة كان عليه أن يخدم قبل أن يصل إلى هذه الحالة من الحكمة التامة. أنت وحش بشــع فقط؛ مــاذا تعنى هذه الكلمات المغــرورة؟ اذهب، ولا تتفوه هكذا بعد الآن، حتى لا يصيبك مكروه ويكون كل وجودك مهدد.

70 البانثيون هو معبد لجميع الآلهة.

صرخ القــرد قائــلاً، «' مع أنــه أكبر مني فهذا ليس ســبباً، لماذا هــو دائماً يأخذ المنصب. قل له أن يخرج وأن يتنازل عن مكانه لي أو أنني سأعرف السبب لذلك. '

«أي كفاءات عندك، ' سأل بوذا،' حتى تطالب بالقصر المقدس؟ '

«الكثير، 'أجاب القرد. «أســتطيع أن أغير شــكلي اثنين وســبعين مرة. وأنا خالد، ويمكنني أن اتشــقلب على بعد 18.000 لي (ســتة الآف ميل). الست مؤهلاً حتى احتل عرش السماء؟ '

«جيــد، 'أجاب بوذا، ســأعمل رهاناً معك إن كنت تســتطيع أن تقفز من خارج يدي، ســأطلب من الله أن يغادر إلى الغرب ويترك الســماء لك؛ ولكن إن فشلت، ستنزل مرة أخرى إلى الأرض لتصبح شيطاناً لعدة إيونات أخرى آتية.

«القرد وافق على هذا بسرعة، مشــيراً إلى أنه يستطيع القفز بسهولة 18.000 لي، وأن يد بوذا ليست بطول قدم. بعد أن جعل بوذا يعد بتنفيذ الاتفاق، مسك سيفه وصغر نفســه حتى صــار بإمكانه الوقوف على اليد التــي كانت ممدودة له كأنها ورقــة اللوتس. «أنا منطلق!» صاح وبعد لحظــة كان قد ذهب. لكن تحديق بوذا المستنير كان دائما عليه بالرغم من أنه كان يدور بسرعة مثل دوامة.

بفــترة قصيرة وصل القرد إلى مكان حيث كانت توجد خمس أعمدة حمراء وهنا قــرر أن يتوقف. لكنه فكــر بأنه من الأفضل له أن يــترك أي أثر كان كبرهان على زيارته، فاقتلع شــعرة من شــعره وغيرهــا إلى قلم رصاص فكتب بــه على العمود الأوســط بأحرف صينية كبيرة **الواحد المقدس العظيم لكل الســماوات** وصل هذه النقطة. في اللحظة التالية عاد إلى يد بوذا واصفاً قفزته ومطالباً بجائزته.

«آه! ' قال بوذا، كنت أعرف أنك لن تستطيع فعلها. '

«لماذا!' قال القرد 'ذهبت إلى حدود الكون وتركت هناك بصمة وأنا أتحداك لكي تفحصها.»

«لا داعي للذهاب بعيداً، أجاب بوذا، فقط احن رأسك وانظر هنا.

«حنى القرد رأسـه وهناك على الأصبع الأوسط لبوذا قرأ الحفرية التالية **الواحد المقدس العظيم لجميع السماوات** وصل إلى هذه النقطة.»

وفي النهاية يتم تحويل القرد إلى الإيمان الحقيقي، ويوافق على مرافقة **هسـوان تسـانغHsuan Tsang** في رحلته إلى الغرب. وقام هو بدوره في المساعدة لتحويل الخنزير الشـبح الذي تغلب عليه أولا من خلال تغيير شخصه إلى حية والتي يقوم الخنزير الشبح بابتلاعها عن طريق الخطأ، وبالتالي أعطى خصومه فرصة لمهاجمته مـن الداخـل. ينضم إلى هذيت الاثنين شـخص لا لون له يقال أنـه يمثل الجانب السـلبي للطبيعة الإنسـانية بينما القرد والخنزير يمثلان الجانب الفعال والحيواني بالتتابع. ثلاثتهم يقودون **هسـوان تسـانغ Hsuan Tsang** عبر المخاطر والهروب المتعدد ليصل بأمان حتى في النهاية يسـتلموا تعليمات نهائية من شخص سرمدي عن موقع قصر بوذا الذي منه يأملون الحصول على الكتب المرغوبة. المشهد الذي يتبع يستدعي تقريباً **تقدم الحج:-**

وبناءً على ذلك، ودع **هسـوان تسانغ Hsuan Tsang** وانطلق في طريقه. ولكنه لم يقطع سـوى ميل أو ميلـين حتى وصل نهراً تتدفق مياهـه تدفقاً ويبلغ عرضه فرسخاً ولا أثر فيه لرؤية أي مخلوق. ولذلك فزع نوعاً ما وأدار وجهه إلى **وو كونغ Wu Kung** (اسم القرد) قائلاً، «بالتأكيد ضللنا دليلنا. انظر إلى ذلك النهر العريض الجيـاش، لا يمكننـا أبداً أن نعبر دون قارب؟ **وو كونـغ Wu Kung** صرخ، «هناك جسر يمكن أن تمر عليه حتى تكمل خلاصك.» بعد قول هذا تقدم **هسـوان تسانغ Husan Tsang** والآخرين في الاتجاه المشـار إليـه، وقرأوا إلى جانب الجسر لوحة إعلانات كتب عليها، «مخاضة النهر السـماوية أما الجـسر فكان معمولا من لوح خشبي بسيط، علق عليه **هسوان تسانغ Husan Tsang** قائلاً، «أنا لن أثق بنفسي على هذه الألواح الخشـبية الضعيفـة والزلقة لأعبر ذلك النهر الواسـع والسريع. لنجـرب مكاناً آخر؛ لكـن هذا هو الطريق الصحيح.» قـال **وو كونغ Wu Kung** انتظر لحظة وسـتراني أعبر هذا الجسر. بعدئـذ قفز إلى الجسر، وركض عبر الالواح الخشـبية المتأرجحة والمتذبذبة حتى وصل الجانب الآخر، حيث وقف ينادي على الآخرين ليأتوا. لكن **هسوان تسانغ Hsuan Tsang** لوح بيده سلباً، بينما مرافقوه

وقفوا يعضون أظافرهم ويصيحون،'لا نستطيع! لا نستطيع! لا نستطيع! 'لذلك قام **وو كونغ Wu Kung** بالعودة راكضاً، فامسك بالخنزير **با تشيه Pa Chieh** من الذراع وبدأ يجره على الجسر واصماً إياه كل الوقت بالمجنون لألمه. ثم رمى **با تشيه Pa Chieh** نفسه على الأرض مزمجراً «إنه زلق - إنه زلق جداً. لا أستطيع أن أقوم بذلك، جنبني ذلك! جنبني ذلك! عليك أن تقطع هذا الجسر، 'أجاب وو كونغ، «إذا كنت تريد أن تصبح بوذا، فرد عليه **با تشيه Pa Chieh** «إذا لا أستطيع أن أصبح بوذا يا سيدي لقد انتهيت من ذلك فانا لا يمكن أبداً أن أقطع هذا الجسر.»

«بينما هذان الاثنان كانا في منتصف مشاحناتهما، نظر وأبصر قارباً يظهر للعيان وعليه رجل يسيّره وينادي، «القارب! القارب!» وعلى هذه كان **هسوان تسانغ Hsuan Tsang** مسروراً جداً ونادى على تلامذته من أنهم الآن سيستطيعون العبور. من خلال تلميذه المتحمس والزنبقة الذهبية علم **وو كونغ Wu Kung** أن النوتيّ ما هو سوى **نامو باو تشانغ كوانغ وانغ بوذا Namo Pao Chang Kwang Wang Buddha**، لكنه احتفظ بالمعلومة لنفسه ونادى على القارب ليأخذ الجميع على ظهره. وفي لحظة كان القارب على الضفة عندما، يا للرعب الذي لا يوصف، اكتشف **هسوان تسانغ Hsuan Tsang** أن القارب لا قعر له، وسأل البحار فوراً ما هو اقتراحه لنقل الجميع إلى الضفة الأخرى. « إن قاربي، جاب البحار «قد اشتهر منذ حلت الفوضى لتصبح نظاماً وتحت مسؤوليتي لم يعرف أي تغيير. بثبات لا تهمه العواصف إذا ثارت والبحار إذا ماجت، لا يوجد أدنى خوف ما دام الراكب خفيفاً. حراً من غبار البشرية البائدة فالمرور سهل للغاية. عشرة آلاف ايون من الكائنات البشرية تقطع الجسر بسلام. إن سفينة دون قعر تستطيع بالكاد أن تعبر المحيط العظيم؛ إلا انني على مدار العصور الماضية نقلت ضيوفاً مسافرين لا يعدون ولا يحصون.

«عندما استمع **وو كونغ Wu Kung** إلى هذه الكلمات نادى قائلاً، يا معلمي، أسرع إلى ظهر القارب. فهذا القارب على الرغم من أنه دون قعر فهو آمن بما فيه الكفاية ولا يوجد ريح أو بحر يمكن لهما أن يقلبانه. 'بينما **هسوان تسانغ Hsuan**

Tsang لا يــزال متردداً أتى **وو كونغ Wu Kung** ودفعه إلى الأمام على الجسر؛ إلا أن الأول لم يســتطع المحافظة على توازنه فوقع رأســاً عــلى عقب في الماء لكنه تم إنقاذه فوراً من البحار الذي ســحبه على ظهر القارب. الباقون دبروا أمرهم كذلك، بمســاعدة **وو كونغ Wu Kung** اندفعوا مذعورين. والبحار اندفع مكملاً طريقه، لكنهم نظروا وإذا بجســد تســحبه مياه النهر. **هسوان تسانغ Hsuan Tang** كان مرتعبــاً جــداً من هــذا؛ لكن **وو كونــغ Wu Kung**ضحك وقال لــه، لا تخف يا معلمي، إن الجسد الميت هو نفسك القديمة! 'فاشترك الآخرون جميعهم في الجوقة وغنوا، إنها أنت، أيها السيد، إنها أنت؛ ' وحتى البحار قال له،' نعم، إنها أنت؛ تقبل مني أجمل التهاني. '

«بعد لحظات كانوا قد قطعوا النهر، عندما قفزوا إلى الشاطئ، وقبل أن يتمكنوا من النظر كان القارب والبحار قد اختفيا.»

القصة تنتهي بلائحة من "الســترا" والطقوس البوذية التي سمح للمسافرين أن يحملوها معهم وهم عائدين إلى بلدهم.

الكتاب السابع
سلالة مينغ 1368-1644 ميلادية

الفصل الأول
الأدب المتنوع - المادة الطبية - موسوعة الزراعة

الإمبراطور الأول لسلالة مينغ، المعروف شعبياً باسم الملك الشحاذ، بالإشارة إلى فقرة في أيامه الأولى حالما أخمد الآمال الأخيرة للمونغول، ودعم سلطته، أدار اهتمامه للأدب والتعليم، نظم نظام الامتحانات التنافسية العظيم الذي بقي حتى أيامنا هذه. ونشر قانون العقوبات، وألغى هكذا عقوبات مثل التشويه، وتوصل إلى عمل **كتاب يوم الحساب** الذي شهد إعادة ترتيب الضرائب. في العام 1369 عين **سونغ ليان Sung Lien**(1310-1381)، بالاشتراك مع علماء آخرين لينتج تاريخ سلالة المنغول. وكان **سونغ ليان Sung Lien** سابقاً مربي ولي العهد الشرعي. وكان اعتذر عن أي منصب رسمي وكان يقود حياة أشبه بحياة الطالب البسيط. وأرتقى ليصبح رئيس كلية **هان لين Han Lin**، ولسنين عديدة حظي بثقة سيده، لكن حفيده تورط بمؤامرة، فقط التماسات الإمبراطورة انقذت حياة الرجل العجوز وخففت الحكم عليه إلى النفي، لكنه مات في الطريق خلال الرحلة. إلى جانب التاريخ المذكور أعلاه، ومعجم للألفاظ، تم تعيينه من أجله، فإن ما تبقى له من آثار أدبية يملأ ثلاث مجلدات. القطعة التالية هي قطعة هجائية على إهمال الرجال الذين يملكون القدرة التي، وفقاً له، كانت علامة من علامات إدارة المنغول.

«**تنغ بي Teng Pi** الذي كنيته **بو أي Po I** كان رجلاً من **تشن Chin**. طوله سبعة أقدام. وعيناه الاثنتان كان لهما زوايا قرمزية، وكانت تومض مثل وميض البرق. إحدى مزايا القوة عنده أنه كان متسلطاً أي كان يمشي مثل الديك، ومرة عندما كان ثَوْران لجيرانه يتعاركان فصل بينهما بضربة من قبضته كسر ظهر واحد ودحرجه على الأرض، الطبول الحجرية في البلدة التي لم يستطع رفعها عشرة رجال، بإمكانه هو أن يحملها بيديه. لكنه كان عاشقاً للمشروبات الروحية وكان كل مرة

يشرب، يتشاجر حتى أن الناس عندما يرونه بهذا المزاج يبعدون من طريقه قائلين أنه من الأمن أن تحافظ على مسافة مع هذا الشخص المتوحش.

«في أحد الأيام كان يشرب لوحده في أحد المقاهي عندما مر صدفة أديبان، حاول **تنغ بي Teng Pi** أن يدعوهما إلى طاولته، ولكنهما رفضا الدعوة لأنهما لا يحترمان العملاق هذا.

فصاح بهما في ثورة غضب، «يا سادة، إن كان الأمر لا يناسبكما أن تعملا مثل ما أطلب، سـوف أنهيكما، وبعدها أذهب لأبحث عن الأمان في الهروب. أنا لا أتحمل هذه المعاملة منكما.»

«وبالتـالي لم يكن أمام الاثنين أي بديل سـوى أن يدخـلا. أخذ **تنغ بي Teng Pi** موقع الصدارة لنفسه، ووضع كلاً من ضيفيه على هذا الجانب وذاك. وطلب المزيد مـن المشروبات الروحية وبدأ يغني ويعمل ضجة. وأخيراً عندما سـكر خلع ثيابه وبدأ يسـتعرض قدراته. سحب سـكيناً ورماها بضربة مدوية على الطاولة، عندها نهض الأديبان، اللذان كان يعيان ضعفه، ليستأذناه بالانصراف.

«قفا، صرخ **تنغ بي Teng pi** معرقلاً إياهما: أنا أيضاً أعرف شـيئاً ما من كتبكما. ماذا تعنون بمعاملتي كالمبصقة من أفواهكم؟ إن لم تسرعوا وتشربوا أنا لا أستطيع أن أكتم غضبي وفي هذه الأثناء لكم أن تسألوني عن أي شيء تحبونه في كل الأدب الكلاسيكي، وإذا لم أستطع أن أجيب، سأقوم بإدخال هذا النصل في دمي.»

«على هذا وافق الأديبان، وأعطوه فوراً عدداً من أصعب الإيماءات التي فكرا بها وهي مأخوذة كلها من الكلاسـيكيات؛ لكن **تنغ بي Teng Pi** قام بالواجب أحسـن قيـام وأعاد تسـميع الاقتباس الكامل في كل مسـألة دون أن ينـسى أي كلمة. ثم امتحنوه في التاريخ، مغطين فترة من ثلاثة آلاف سنة؛ ولكن هنا أيضاً كانت أجوبته تتميز بالإجادة والإتقان والدقة.

«هـا! ها! ضحك **تنـغ بي Teng Pi** وقال لهما، «هل تستسـلمون الآن؟» فنظر الضيفان إلى بعضهما البعض بانشداه ولم ينبسا ببنت شفه. فصاح **تنغ بي Teng pi**

طالباً نبيذاً، وقام بفك شـعره، وأخذ يتقافز صائحاً لقد ثبتكما أرضاً يا سادة اليوم! في القــدم كان التعليــم يصنع من أمثالكما رجالاً؛ لكــن اليوم كل ما هو عليكم أن تفعلوه هو أن تضعوا عليكم كســاء العالم وتبدون بشــكل استهلاكي. أنتما تهتمان بأن تتميزا بالقلم والحبر، وتحتقرون الأبطال الحقيقيين للعصر. هل يبقى هذا الأمر بالفعل؟»

«كان هــذان الأديبان ذوي ســمعة عالية، وعند ســماعهما ما قالــه لهما **تنغ بي Peng Pi** شعرا بالخزي الشديد وتركا المقهى وهما لا يدريان كيف يغادرانه وبعد وصولهما إلى البيت عملوا تحقيقات كثيرة لكن لا أحد رأى **تنغ بي Teng pi** في أي وقت من الأوقات وفي يده كتاب.»

كان **فانغ هســياو جو Fang Hsiao Ju** (1357-1402 ميلادية) عالماً آخر زميل عمل **لِســونغ ليان Sung Lien** اللذين زينا الفترة نفســها. كطفل كان ناضجاً قبل الأوان، وبســبب مهارتــه في الإنشــاء حصل على لقب **هــان أو Han Yu** الصغير. وأصبــح مربياً لواحد من أمراء الإمبراطورية وقد منحه الإمبراطور الثاني التقديرات الشرفية، الذي بســبب وفاة أبيه خلف جده في عام 1398. تم أتى تمرد الابن الرابع للإمبراطور الأول؛ وعندما فتحت **نان كينغ Nan King** أبوابها أمام المنتصر اختفى ابن الأخ المهزوم. من المفروض أنه هرب إلى **يون نان Yun an** في ثياب راهب تركها له جده هكذا تقول الرواية، بتوجيهات كاملة. بعد أربعين ســنة من التجوال يقال أنــه عاد إلى بكين وعــاش بانزواء في القصر حتى مماته، وكان خصيٌّ قد تعرف عليه من شامة على رجله اليسرى، لكن الخصي كان خائفاً من كشف هويته. أما بالنسبة **لفانغ هســـــياو جـــو Fang Hsiao Ju**، فقد رفض رفضاً قاطعاً أن يضع خدماته تحــت تصرف الإمبراطور الجديد الذي حكم تحت مســمى **يونــغ لو Yung Lo.** لرفضه هذا قطِّع قطعاً قطعاً في الســوق، وعائلته أبيدت حيثما ســمحت الظروف بذلك وأحرقت كتاباته الفلسفية. مجموعة صغيرة من كتاباته المتنوعة حفظت من قبــل تلميذ مخلص، وتم بعد ذلك إعادة نشرها، التالي هو مقتطع من مقالة حول الاهتمام أكثر من اللازم بالغد:-

«رجــال الدولة الذين يتنبأون بأقدار إمبراطورية مــا، غالباً ما يركزون عبقريتهم على الصعوبات ويهملون ما هو سهل. إنهم يعالجون الشرور المحتملة ولا يهتمون بالتركيبات التي لا تولّد أي أرضية للشــك. لكن المأســاة غالباً ما تخرج عن الأحياء المهملــة. والفتنة تبرز من الظــروف التي وضعت جانباً لأنها تافهة. هل نعتبر ذلك واجباً لغياب الاهتمام؟ -لا. إنها تنتج لأن الأشــياء التي يمكن لإنسان أن يتقي شره هم البشر، بينما أولئك الذين يتملصون من يقظته ويخضعون قوته هم الآلهة.»

وبعد أن يعطي عدة أمثلة تلفت الانتباه من التاريخ، يتابع الكاتب قائلا.

«جميع الحالات التي ذكرت أعلاه تتضمن ناساً موهوبين والذين ألقت حكمتهم وعبقريتهم بظلالها على جيلهم. قبلوا المشورة وكتبوا منذ التعطيل في الإمبراطورية بكل حذر ممكن. إلا أن ســوء الطالع وقع عــلى كل واحد منهم، دائما ينبعث من مصدر ما حيث كان وجوده لا يشــك فيه. هذا لأن الحكمة الإنســانية تصل فقط للشــؤون الإنسانية ولا تستطيع أن تمس الإلهي. وبالتالي أيضاً سيقتل المرض أطفال أحسن الأطباء، والشياطين يؤدون حيلهم في عائلة طارد الأرواح الشريرة. كيف أذن ينجح هؤلاء الأساتذة في التعاطي مع حالات الآخرين ومع هذا يفشلون في معالجة حالاتهم؟ إنه بســبب أنهم في تلك الحالات حصروا أنفســهم على الإنســاني. أما في هذه فإنهم سوف يتدخلون بالمقدس.

(إن النــاس الأقدمــين كانوا يعلمون بأنه مــن غير الممكن أن تقــدم بطريقة لا يشــوبها الخطأ ضد اختلاجات العصر الآتي. لا توجد خطة ولا أســلوب يمكنهم من أن يأملوا بالنجاح، وبالتالي امتنعوا عن التخطيط ســدى.) كانوا ببساطة يجاهدون بقوة الحقيقة والفضيلة ليكســبوا لأنفســهم تصديق اللــه؛ أن يقوم هو كمكافأة لتصرفهم الفضيل بالســهر عليهم، كأم حنون تســهر على أطفالها إلى الأبد. وهكذا مع أن الحمقى غير مرحب بهم من قبل الخلف-حمقى يمكن أن يجروا إمبراطورية إلى المزبلــة- فإن الأجل المحتوم تــم تأجيله. كان ذلك بالفعل بصيرة من نوع بعيد الأبعــاد. لكن الذي بغض النظر عن الحظوة من الســماء، يرجــو على ضوء فهمه الضعيف لتأسيس ذلك الذي يدوم عبر كل الدهور-سيكون بالحقيقة مرتبكاً.

الإمبراطور الثالث للسلالة، الذي اختفى ابن أخيه، الإمبراطور الحاكم، اختفى بطريقة غامضة استلم العرش في 1403. وكان ابناً يستحق أن يقال عنه جدير بأبيه، فيما يتعلق بقدراته العسكرية والسياسية، وكان لا يزال راعياً متحمساً للآداب. وقد كان السبب وراء جمع أضخم موسوعة معروفة حتى الآن. **يونغ لو تا تيان Yung Lo Ta Tien**، لإنتاج ما اشتغل عليه 2196 عالماً لمدة ثلاث سنوات تحت إرشاد خمس مدراء رئيسيين وعشرين نائباً للمدير. وبالحكم من الرواية المنشورة في 1796 من المفروض أن تكون صدرت بخمسمائة ألف صفحة. لكنها لم تطبع أبداً بسبب غلاء الطباعة على الألواح؛ لكن تحت حكم إمبراطور لاحق، أخذ منها نسختين إضافيتين، وإحداهما، غير نظيفة إلى حد حوالي عشرين ألف صفحة لا تزال في كلية **هان لين Han Lin** في بكين.[71] أما المجلدات الأخرى فقد أكلتها النيران عند سقوط سلالة مينغ. لم تكتف هذه الموسوعة من احتضان وتصوير حقول كاملة من الأداب الصينية وإنما أيضاً تضمنت أعمالاً كاملة كثيرة كانت ستفقد. من هذه، ليس أقل من 66 عملاً عن القانون الكونفوشيوسي، و41 عن التاريخ، و103 عن الفلسفة و175 عن الشعر قد نسخت وأدخلت إلى المكتبة الإمبراطورية.

عدة أسماء من العلماء اللامعين يجب أن يكونوا هنا، كما في الواقع من خلال هذا المجلد، أن تتجاهلها بهدوء. فهؤلاء الكتاب تم تعويضهم بالشرف الذي نالوه من أبناء جلدتهم، الذين، يضعون التربية الكلاسيكية في قمة الطموحات الإنسانية،

ويصنفون الكاتب وكاتب الرواية كطفيليات للأدب. بين هذين الطرفين المتطرفين يوجد دائماً كمية كبيرة من الكتابة العامة التي، وإن كانت تشبع إدعاء يصعب إرضاؤه للناقد الصيني من أجل الشكل مقفلاً إياه على المادة، هو أيضاً ذو اهتمام كاف للقارئ الأوروبي.

---

71 في 23 حزيران –يونيو1900-، تقريباً عندما كتبت هذه الكلمات تم إحراق كلية **هان لين Han Lin** إحراقاً تاماً. ابن هذا الكاتب الأصغر، لاسيلكوت جايلز، الذي عاش تجربة حصار بكين كتب كالتالي:- عملت محاولة لإنقاذ **يونغ لو تا تيان Yung Lo Ta Tien** لكن أكواماً من المجلدات تم تدميرها. وبالتالي تم التخلي عن المحاولة، أنا آمنت المجلد 13.345 لي.»

كان **يانغ تشي شنغ Yang Chi Sheng** (1515-1556) رجل دولة ووطنياً، عمل في شبابه عجالا أي راعي بقر. أدخل نفسه في المشاكل أولا عندما عارض إقامة سوق للاحصنة على الحدود بين الصين والتتار[72] على أســاس أنه يهدد أمن بلده. بعد أن عاد واكتســب الرضى إثر تخفيض مؤقت لخطوته، قام باتهام زميل له، يعرف الآن بأسوأ ستة وزراء خائنين في سلالة **مينغ Ming**. إلا أن خصمه كان أقوى منه. أرسل **يانغ Yang** إلى الســجن وبعد ثلاث سنوات أعدم. لا يوجد لاسمه مكان في الأدب؛ وما كان ليذكر هنا ســوى كمقدمة تذكارية جياشــة وجهتها زوجته إلى الإمبراطور بالإنابة عن زوجها:-

«يــا صاحب الجلالــة، - كان زوجي الوزير الرئيس في إدارة الفرســان في مجلس الحرب. ولأنه أشــار إلى جلالتكم ضد إقامة ســوق تجاري، آملاً أن يمنع **تشو لوان Chou Luan** مــن تنفيذ مخططاته، أديــن فقط بعقوبة مخففة، وبعدها عندما هزم الأخير أعيد له الاعتبار وأعيدت له مناصبه.

«بعد ذلك حاول زوجي باستمرار أن يعود إلى رحمة الإمبراطور. كان يحرم نفسه النوم. وكان يمتنع عن الطعام. كل هذا رأيته بأم عيني. لكنه أخذ يستمع تدريجياً إلى إشاعات كاذبة يتم تداولها في السوق، عادت إليه بقوة عاداته القديمة. فقد توازنه العقلي. وتفوه بكلمات منفعلة، وثانية تكبد استياء العرش. إلا أنه لم يقتل مباشرة. أحيلــت عقوبته إلى المجلس. فضرب وزجّ به في الســجن. وعــدة مرات اقترب من الموت. حفر لحمه تحت السوط؛ أوتار رجليه قطعت. وسال الدم منه بغزارة راشا إياه من الرأس حتى القدم. محبوس ليل نهار في قفص، متحملاً أقسى أنواع البؤس.

«ثم إن محاصيلنا فشــلت وطعامنا اليومي كان مفقوداً في منزلنا الفقير. حاولت جهدي أن أحصل على المال من خلال الغزل، وعملت بجد على مدار ثلاث سنوات، وهــي الفترة التي خلالها خاطب المجلس العرش مرتين، مســتلماً في كل حالة قراراً أن على زوجي أن ينتظر مصيره في الحبس، ولكن الآن أسمع أن جلالتكم قررتم أن

72 منطقة شاسعة تمتد من أسيا إلى شرق أوروبا من بحر اليابان (البحر الشرقي) إلى نهر دنيبر / المترجم.

يموت زوجي وفقا للوائح الإمبراطورية. يمكنه أن يموت كما يشــاء، فعيناه ســتغلق على جلالتكم بسلام، بينما روحه ستنشد العوالم من تحت.

«مـع أنني أعرف أن جلالتكم له قلب إنســاني ووديع؛ وعندما تشــارك الزواحف على الأرض-لا بل الشــجر والشــجيرات - في الطمأنينة الوطنيــة، فإنه من الصعب التفكير أن جلالتكم ستبغضون أن تلقوا نظرة شفقة على حالتنا المتردية. وإذا ما كنا محظيين كفاية إن نجذب العطف الإمبراطوري لشؤوننا الواطية فإن ذلك سيسبب لنــا الفرحة. لكن أن كانــت جريمة لا تغتفر، أنا أطلب بتواضــع أن أدفع العقوبة برأسي وأن يســمح لي أن أموت عوضاً عنه. بعدئذ من بلاد الأرواح البعيدة، ملوحاً أنا نفسي، بالحربة والترس، سأقود جيشاً من العفاريت ليدخلوا معركة بالإنابة عن جلالتكم، راداً بعض ما عملتموه في هذه النعمة الإمبراطورية.»

يقــول المعلق، «قوة اللغة لا يمكــن أن تصل أبعد من ذلك.» إلا أن هذا التذكار الذي تناشد من خلاله القلب الحزين مباشرة» لم يسمح له أن يصل إلى الإمبراطور. بعد اثني عشر ســنة الوزير الذي أدانه **يانغ تشي شــنغ Yang Chi Sheng** طرد لسوء استخدامه الفاضح للقوة، وتمت مصادرة جميع ممتلكاته. وبعد أن خفضت مرتبته إلى الشحاذة حصل من الإمبراطور على صحن فضي جميل الذي سيجمع به الصدقات، لكنه كان مكروها من قبل العالم كله لدرجة أن لا أحد أعطاه شــيئاً أو جازف بشراء الصحن، ومات من الجوع وهو يملك ثروة.

هنــاك قضيــة مشــابهة لافتــة للنظر لكنهــا ذات نهايــة ســعيدة، وهي قصة **شــن ســو Shen Su** الــذي في تنفيــذه لمهامه كرقيــب أيضاً أدان الوزير نفســه والــذي تدخل كلمة «خائن» الآن قبل اســمه دائماً. زج **بشــن ســو Shen Su** في الســجن وبقي هناك لمدة خمســة عشر ســنة. تم الإفراج عنه بعــد هذه المذكرة مــن زوجــه التــي يقــول عنها المعلــق، «لــكل نقطة حبر هنــاك نقطــة دم.»:-

«يا صاحب الجلالة، كان زوجي مراقبا ملحقاً بمجلس الشــعائر. وبسبب حماقته لأنه أشار بتهور على جلالتكم كان يستحق بالفعل أن يموت مائة موته، إلا أنه بموجب العفــو الإمبراطــوري كان مكتوباً له أن ينتظر صدور حكم عليه في الســجن فقط.

«منــذ ذلــك التاريــخ مضــت أربعــة عــشر عامــاً. إن والديــه اللذيــن طعنا في الســن لا يــزالان عــلى قيــد الحيــاة، لكــن لا يوجــد عنــده أطفــال والرجل التعيــس لا يوجــد عنــده أحــد يمكنــه الاعتــماد عليــه. أنــا وحــدي بقيــت - أســكن في فنــدق صغير، وأعمــل ليل نهــار بالتطريــز لأوفر ضروريــات الحياة، ومحــاط بالصعوبــات مــن كل الجوانــب، والتي كل يــوم يمر عليها وكأنه ســنة.

«إن حموي يبلغ من العمر سبعاً وثمانين سنة، وهو يرجف كأنه على حافة القبر. وهو كالشــمعة في الرياح، لا يوجد عندي شيء يمكنني أن أغذيه به أو شيء أظهر بــه الاحترام عندمــا يموت. أنا امرأة وحيدة. إن اهتممــت بإحدهما فقدت الآخر. إن عدت إلى حماي، ســيموت زوجي من الجوع. إن بقيت حتى أطعمه قد يموت حماي في أي ســاعة. زوجي مجرم مقيد بالحبــس، وهو لا يجرؤ حتى على التفكير في البيت. وهــل يمكن أن يصح أنه عندما تبتهج كل الكائنات الحية بالحياة تحت الحكــم الحكيــم والكريم في هذه الأيام، يجب علينا وحدنــا أن نذوق كأس الفقر والتعاسة، ونجد أنفسنا خارج إطار السلام العالمي؟

«غالباً، وأنا أفكر بهذه الأشياء، تكتسحني الرغبة بالموت؛ لكني أبلع حزني وأستمر بالحياة، واضعة ثقتي بالعناية الســماوية لتحقيق نهاية ســعيدة، تبلل أيضاً بندى الرحمــة الإمبراطورية. أما الآن إن حماي يواجه المــوت وجهاً لوجه، وأن زوجي لا يتوقع أبداً أن يعيش-أنا أجرؤ وأقدم هذا الجســد كرهينة، تربط في السجن، بينما زوجي يعود ليســهر الســاعات الأخيرة على والده. بعدئــذ عندما ينتهي كل شيء يعود هو إلى مكانه وينتظر تعليمات جلالتكم. وهكذا ســيتمكن زوجي من تحية والده مرة أخرى، وسيتم التخفيف بمقياس ما من المشاعر بين الأب وطفله. وهكذا يمكنني أن أعطي لحماي الراحة من أجل ابنه وســيتم تحقيق واجب الزوجة تجاه زوجها.»

تســونغ تشــن Tsung Chen، حصل على نوع من الشــهرة خــلال هذا القرن الســادس عشر؛ في شبابه بســبب جماله الأخاذ، وخاصة بســبب عيونه التي قيل عنها إنها تتوهج حتى من الجوانب؛ وبعد ذلك من خلال مشــاركته بنفقات جنازة

المذكــور أعلاه **يانغ تشي شــنغ Yang Chi Sheng**، وأخيراً بســبب دفاعه عن **فو تشــو Foo Chow** ضد اليابانيين، حيــث غرر بقواتهم ليدخلــوا المدينة بخديعة استســلامهم، ثم إبادتهم من على الأســوار. القطعة التالية التي تقع في راي المعلق «على تخوم التوافه،» هي من مراسلاته. عدد من جملها له نكهة انتقادية مزاجية.

«كنت مسروراً أن أســتلم على بعد هذه المسافة، رســالتكم، التي أراحتني، هي والهدية التي تلطفتم بإضافتها. أشكركم شكراً جزيلاً على تمنياتكم لي بالخير وخاصة لإشاراتكم عميقة التفكير حول والدي.

«بالنســبة لما تقولونه بخصوص الشعبية الرســمية والملائمة للمنصب، أنا أشكرك على ملاحظاتك. أنا أعي عدم ملائمتي لها بشكل جيد؛ وبالنسبة للشعبية مع رؤسائي فأنا غير مؤهل البتة أن أضمن مثل هذه العطية.

«كيف بالفعل يحصل موظف الحظوة عند رئيسه في هذه الأيام؟ في الصباح وفي المســاء عليه أن يســتفز حصانه ويذهب ليرقص على وقع حضوره على باب الرجل العظيم، إن رفض البواب إدخاله، يمكن له اســتخدام الكلمات المعســولة، أو خلق جو مقنع أو ســحب الأموال من الكم. يأخذ البــواب البطاقة؛ لكن الرجل العظيم لا يخرج. ينتظر في الاســطبل مع السائســين حتى تمتلىء ثيابه بالرائحة بالرغم من الجوع، بالرغم من البرد وبالرغم من الســخونة الســاطعة. في الليل يخرج البواب الذي أخذ المال ويقول أن ســيده تعب ويطلب أن يُعذر، وســوف تكون فرصة في اليــوم التالي. وهكذا يجبر على المجيء مــرة أخرى كما طلب. فيجلس كل الليل في ثيابــه. عند صياح الديك يقفز واقفاً، يذهــب إلى الحمام، ويذهب خببا تم يطرق على بوابة الدخول.‹من هناك؟› يصرخ البواب بغضب، وعندما يشرح يزداد غضب البــواب ويأخذ بشــتمه قائلاً «أنت مســتعجل جداً، أليس كذلــك! هل تعتقد أن ســيدي يســتقبل الناس في هذه الســاعة؟› هكذا يجري خزي الزائر، لكن عليه أن يبتلع غضبه محاولاً إقناع البواب الســماح لــه بالدخول. فيقوم البواب الذي ناوله فلوس، ويســمح له بالدخول، ثم يذهب لينظر مرة أخرى في الاســطبل كالســابق، حتى ربما يخرج الرجل العظيم ويستدعيه لمقابلة.

الآن وبكثير من الاحترام والإجلال، يتذلل بشكل خجول باتجاه رجل درج المنصة؛ وعندما يقول الرجل العظيم 'تعال!' ينطرح أرضاً مرتين ويبقى لفترة طويلة منطرحاً دون أن ينهض. وأخيراً ينهض ويصعد ليقدم هديته التي يرفضها الرجل العظيم. هو يستجدي قبولها؛ لكن سدى. ثم يستجدي مرات أخر؛ وبناء عليه يطلب من خادم أن يرفعهـا، ثم ينبطح مرتين أخريين، ويطيل بالانبطاح، وبعدها ينهض وبخمس أو ست تحيات يخرج بعد أن سمح له.

«وعندمـا يخرج ينحني للبواب قائلاً، 'الأمر كان جيداً مع سـيدك. المرة القادمة عندمـا آتي لا داعـي أن تأخذني.' البواب يرد بانحناءة وهـو مسرور لدوره في هذا التطـور. في هذه الأثناء يقفز صاحبنا ويمتطي جـواده وعندما يلتقي أحد معارفه يضرب بالسـوط ويصيح' كنت لتوي مع فخامته. عاملني بلطف، الحقيقة بلطف كبـير.' ثم يفصـل الحادثة، وبناء على ذلـك يصبح أصدقاؤه أكـثراً احتراماً إلى تُبَّعِ فخامته. ويقول الرجل العظيم بنفسه، «فلان الفلاني إنسان جيد، رجل جيد بحق؛» والذي يرد عليه المتفرجون بالطبع بأنهم هم كذلك يعتقدون ذلك.

هكذا هي الشعبية مع رؤساء الواحد منا في هذه الأيام. هل تعتقد أنني أستطيع أن أكون واحداً منهم؟ لا! أكثر من إرسال بطاقة شكر ومباركة في احتفالات الصيف والشتاء، لا أتقدم قرب العظماء من سنة لأخرى. حتى عندما أمر ببيوتهم أملأ أذني وأغطي عيناي واخب خبباً وكأن واحداً يلاحقني. وبناءً على هذا الافتقار للهواء أنا بالطبع لست محظياً لدى السـلطات، لكن لماذا أهتم؟ هناك قدر يشكل أهدافنا، وقد شكلت هدفي باتجاه ممر الواجب فقط، وبلا شكك تعتبرني لذلك حماراً.

حصل **وانـغ تاو كون Wang Tao Kun** على شـهادته الثالثة في 1547. وكانت غرائزه تدل على أنه يسـعى لحياة الجندية، فارتقى إلى أن أصبح آمراً ناجحاً. لكنه وجد الوقت الكافي للكتب، وأصبح يحتل مكاناً مرموقاً بين كتاب عصره. إن أعماله التـي كانت، وفقاً لأحد النقاد، «مهذبة في أسـلوبها وعظيمة في نبرتها،» قد نشرت في طبعات أنيقة وهي لا تزال تقرأ. التالي هو نص تهكمي عن النساء في أيامه:-

«كان وكيل المحامي يشـتكي لـ **بو تسـو Po Tzu** أنه لا أحد في المقاطعة يعرف كيف له أن يتقدم.

'أنتم أيها السادة،' قال لهم،'مثل المقابض المربعة التي تريدون إدخالها في الإبريز المدور وبالتالي لا أحد منكم يتطابق مع الواقع. '

رد **بو تسو Po Tsu** قائلاً' أنت صادق، أرجو أن تشرح كيف تم ذلك.

«قال وكيل المحامي، «هناك خمسة أسباب لماذا أنتم على خلاف مع العمر، وهي كالتالي:-

«'1. إن الطريق إلى الشعبية أمامكم مباشرة، لكنكم لا تريدوا اتباعه.

«'2. إن ألسـنة الرجال الآخرين تصل إلى الأماكن الحساسة في قلوب مسؤوليهم، لكن ألسنتكم قصيرة جداً.

«'3. الآخـرون امتنعوا عن ارتداء أرواب الفـرو، ويتقدمون بأظهر محنية كما لو كانت ثيابهم ثقيلة جداً عليهم؛ لكنكم أنتم متصلبون مثل لوح الخشب.

«4. هناك ناس يريدون حتى قبل أن يدعوا ويحاولون استباق رغبات مسؤوليهم؛ الذيـن يتحـاشى أعداؤهم الإهانة حتى لـو كانوا هم القديسـين في العلا، والذين أصدقاؤهم حتى لو كانوا قطاع طرق ولصوصاً يثقلونهم بالمديح. لكنكم أنتم-أنتم تلتزمـون بالحقيقة وتعبرون عـن آراء تعارض تلك التي يعرب عنها مسـؤوليكم، وتجعلون المصالحة قضيتكم الخاصة.

«'5. الآخـرون يعملون من أجل الربح كما لـو كانوا مصرين على اصطياد تدرج، يراقبـون بسرية ويطلقونها باهتـمام حتى لا يفقدون هدفهم. لكـن أنتم - أنتم بالكاد تنحنون بالقوس أو تنحنون فقط من أجل ألا يصيب السـؤال الذي يقع في متناول أيديكم.

«واحدة من هذه السـقطات الخمس هي مثل الورم الـذي يلتصق بك ويعيق تقدمك في الحياة. فكيف إذاً بهم كلهم!

«إنهـا في الحقيقـة كما تقولون' أجاب **بو تسـو Po Tsu**. ولكـن أعليّ أن أرجو منكـم أن أزيل هذا الورم؟ الإنسـان قد يصاب بالورم ويعيـش. أن تقطعه يعني أن تمـوت. والحيـاة مع الـورم أفضل من المـوت دون ورم. ثـم إن الجمال هدية طبيعيـة؛ والمـرأة التي حاولت أن تشـبه **هـسي شـيه Hsi Shih** نجحت فقط في تخويـف النـاس ببشـاعتها. الآن، أنه من سـوء حظي أن يكـون عندي هذه الأورام التـي تجعلنـي قبيحاً حتى أكثر مـن تلك المرأة. ومع ذلك، باسـتطاعتي، كـما يقال، أن ألتزم بابـرتي للتطريز أو بآنية الطبخ الخاصة بي، وأسـعى لإسـعاد رجـلي الطيـب. ولا تتـاح أي فرصـة لي لأعلـن بشـاعتي عـلى الملأ في السـوق.

«'آه يا سـيدي،' قال وكيل المحامي'الآن أعرف لماذا يوجد ناس بشعون كثر ولماذا يوجد جمال قليل في البلاد. '»

تخرج **هسـو هسيه Hsu Hsieh** بالكلاسـيكيات العليا في 1601، وتعين في كلية **هان لين Han Lin** حيث يتم تحضير وثائق الدولة من جميع الأنواع تحت إشراف علماء سـامين. مات وهو شـاب لكنه ترك سـمعة أنه رجل مشاكس، كان يصعب التفاهم معه، مكرساً حياته للدراسة. أقسم مرة أنه لو ترك الأمر له، للحصول على أسـلوب لامع، فإنه سـيقفز في البحر لتوزيع كتاباته. القطعة التالية مدار إعجاب كبير. قال معلق، «لقد تمت على مدى نفس من التثاؤب (أي بجهد فردي) وأشـبه ما تكون مثل الروب السـماوي دون خياطة. القارئ يبحث سـدى عن الفقرات في هذه القطعة الملهمة حقا»:-

لسـنين عديـدة امتلكت محـبرة، تركها صديـق في بيتي. وهكذا لم اسـتخدمها الاستخدام العادي، لأنني كنت لا أعي أنها قطعة تراثية. لكن زارني في يوم من الأيام متذوق للفن الذي قال لي أن هذه القطعة عمرها ألف سنة على الأقل، وحثني على المحافظـة عليها بعناية على أنها أثر ثمين. هذا ما عملته، ولكنني لم أتكبد أي تعب لأتأكد إن كانت هكذا أم لا. ولافتراض أن هذه المحبرة يعود تاريخها حقاً إلى الفترة المعينة فيكون صاحبها قد اعتبرها ببسـاطة على أنها محبرة. لم يكن في حسبانه أن يكـون مقدراً لها أن تنجو من حطام الزمـن وأن تثمن كقطعة أثرية. وبينما نحن

نقدر ذلــك الآن، لأننا توارثناها من ماض قديم، فإننا ننسى ذلك الآن عندما تصبح القطعــة الأثرية قطعة أثرية من زمان مضى وبالتالي لا يمكنها أن تكون ذات قيمة للأثريين، الذين هم أنفســهم يشــكلون الحداثيين لما هو آثار بالنسبة لنا! الجمهور المندفع حولنا لا يفكر بشيء سوى الاستحواذ على الثروة والملذات المادية، ومشغول فقط بالنضال من أجل المكانة والقوة. الرجال يرفعون ثيابهم ويسرعون عبر الوحل؛ ويعانون من الحقارة ولا يشــعرون باي معنى للخــزي. وإذا طلع من هذه الكتلة البشرية روح واحدة تكون أنقى وأبسط من الآخرين، ساعية إلى طرق طريق أنبل من التي طرقوها، ويتسلون في فراغهم من أجل إشباع نفوسهم، وبالغيثار والكتب وبالصــور وبغيرها من آثــار من أزمان قديمة – مثل هــذا الرجل هو محب أصيل بالفعل للآثار لا يمكنه أبداً أن يكون واحداً من القطيع العام، مع أن القطيع العام يؤثر دائماً أن يعجب بأي شيء أخاذ لا يمكن إنكاره. وبالطريقة نفسها الذين يضعون نصــب أعينهم التقدم في مهنهم لا يألون جهداً في جمع النادرات المنتقاة حتى من خلال هذه الهدايا ليتوددوا لمســؤوليهم، الذين ســيقومون بدورهم في الانبســاط والتفاخر بعرض مجموعات الآثار الخاصة بهم. هكذا هو الاشــتياق المخادع للآثار. الذي ينشأ ببساطة من الرغبة لخسف جيرانه هو. مثل هؤلاء الرجال ليسوا محبين أصليين للآثار. فأذواقهم هي نفســها شــبيهة بتلك التي للقطيع العام، بالرغم من أنهم يعملون فرجة كبيرة ويسرقون ســمعة الآثاريين الصادقين، على أمل أن يميزوا أنفســهم عــن زملائهم، جهلة بما يحوزون عليه هو الاســم فقــط وليس الحقيقة. الرجل الذي أدعوه بالأثري الأصيل هو ذلك الذي يدرس كتابات الأقدمين، ويسعى لتكوين نفســه على نموذجهم بالرغم من أنه لا يســتطيع أن يصافحهم بجد، الذي دائمــاً وأبداً في تجواله صعوداً، ونزولاً عــلى طريق الماضي الطويل يلقي الضوء على شــذرات مختارة تطبعه فوراً وجهاً لوجه مع الموتى الأزليين. من هكذا انبســاط لا يشــبع المرء. أولئك الذين يحبون بصدق الآثار، لا يحبون الأشياء وإنما رجال الزمان القديم لأن الآثار في الحاضر تشبه إلى حد كبير ما كانت عليه في الماضي - هو شيء محض. وهكذا إذا لم يكن الالتزام بالأشــياء وإنما بالإنسان فحتى أنا أتوق لأصبح في يوم من الأيام آثاراً. من سيقول بعد قرون أن أثري من هذا الزمن سيتطلع إلي مثلما

أنا تطلعت لأسلافي؟ إذا هل أهمل نفسي وبغباوة أكرس طاقتي إلى أشياء تافهة؟

«هذا هو الحماس الشعبي في هذه الشؤون. إنه طبل دون محتوى. لكن الموضوع لا ينتهي وبالتالي سأكون قانعاً بسجل عابر لمحبرتي القديمة.

يمكننا إغلاق هذا الفصل على اسمي رجلين بارزين. لي **شيه تشن Li Shih Chen** أنهى في 1578 بعد ستة وعشرين سنة من العمل المتواصل موسوعته العظيمة بعنوان **علم الأدوية.** في 1596 وضعت المخطوطة أمام الإمبراطور، الذي أمر بطباعتها فوراً. فهي تعالج (1) المواد الجامدة، (2) مع النبات؛ (3) مع الحيوانات، وفيها 1100 صورة فنية منحوتة من الخشب. الفصل التمهيدي يمر على مراجعة اثنين وأربعين عمل سابق من الأعمال المهمة في الموضوع نفسه، معدداً ما لا يقل عن 950 إصداراً متعدداً في مواضيع مختلفة. إن «نظرية التواقيع» الشهيرة التي تفترض أن استخدام النبات والأشياء الجوهرية يتم معرفتها من الإنسان بمظاهر معينة خاصة به تبدو كبيرة في هذا العمل.

يعتبر **هسو كوانغ تشيه Hsu Kuang Chi** (1562-1634) بشكل عام العضو الوحيد المؤثر من طبقة الماندرين الذي أصبح مسيحياً، بعد أن تخرج الأول بين مرشحي الشهادة الثانية في 1597 وبعد أن تقدم للشهادة النهائية في 1604، سجل نفسه كتلميذ عند **ماثيو ريتشي Matteo Ricci** ودرس تحت توجيهاته حتى أنه استطاع أن ينتج أعمالاً عن النظام الجديد لعلم الفلك كما أدخله الآباء اليسوعيون، وإلى جانب مقالات في علوم الرياضيات. وكان أيضاً مؤلف موسوعة في الزراعة لها أهمية بالغة، ونشرت لأول مرة في 1640. وهذا العمل يتضمن الكثير من الرسومات المحفورة على الخشب، وكتابات عن عمليات وأدوات الزراعة، عن تربية دودة القز وعن تربية الحيوانات، وعن صناعة الطعام وحتى عن الوقاية التي يجب أن تؤخذ ضد المجاعة. إن الآباء اليسوعيين أنفسهم يوزعون الكثير من النشرات والنشرات الدعائية المكتوبة بأسلوب مدرسي منمق، والتي يمكن للمرء أن يجدها في بعض الأحيان في المكتبات القديمة.

الفصل الثاني

الروايات والتمثيليات والمسرحيات

أنتجت الروايات بأعداد كثيرة خلال سلالة **مينغ Ming**، لكن أسماء كاتبيها، فيما عدا حالات قليلة جداً، لم تعط لنا. إن العمل الرائع المعروف باسم **تشين بينغ ماي Chin Ping Mei**، الآتي من أسماء ثلاث شخصيات نسائية رئيسة نسبت إلى عالم جليل ورجل دولة، **وانغ شيه تشنغ Wang Shih Cheng** (1526-1593)؛ إلا ان هذا تخمين أكثر منه أي شيء آخر. وكذلك أيضاً الرأي أنه تم إنتاجه في القرن السابع عشر كهجاء مبطن عن أخلاقيات بلاط الإمبراطور العظيم **كانغ هسي Kang Hsi**. القصة نفسها تعود للجزء الأول للقرن الثاني عشر وقد كتبت بأسلوب سهل وبسيط يشبه إلى حد قريب لهجة بكين العامية، إنها تمتلك خاصية غير معتادة، كثير من الكلمات والتعابير يمكن أن تكون لها ترجمتان، واحدة منها من صنف يجعل مثل هذه الفقرات غير ملائمة للأذن المؤدبة، على أي حال، الكتاب مرفوض ويحتاج إلى مترجم له أعصاب بيرتون أي أنه بحاجة إلى أعصاب قوية.

إن يو تشياو لي Yu Chiao Li هي قصة من القرن الخامس عشر والتي لقيت تأييداً من لدن الأجانب، جزئياً لأنها كانت ذات طول متوسط على غير العادة. الصيني العادي يحب أن تكون رواياته طويلة، ولا يهتم للتكرار وفقاً لأسلوب هومر والصفة الأخيرة تبدو أنها تشير إلى اتجاه القصص التي تنتقل شفاهة وتكتب لاحقاً، ويمكن أن تأخذ فيما يتعلق بالآراء التي سبق ذكرها من أن الرواية الصينية أتت أصلاً من آسيا الوسطى. لكن هنا، في أربع مجلدات قصيرة توجد لدينا قصة أخاذة لخريج شاب يقع في حب، أولاً، شاعرة جميلة وضليعة وثانياً مع الأخت الساحرة لصديق أخاذ يتعرف عليه – أي الأخ – بطريقة غير رسمية على جانب الطريق. ثم يتبين أن الصديق والأخت هما الشخص نفسه، بنت حيوية جداً، تظهر

بملابس رجالية ونسـائية كما يتطلب الوضـع ذلك، وما هو أكثر من ذلك، يتبين أن الآنسـة الشابة الأخيرة هي نفسـها ابنة العم اليتيمة المحبوبة جداً للسيدة الشابة الأولى المحبوبة وندها المثقف. الخريج يحب البنتين حباً جنونياً وهما تبادلانه حباً لا رجعة فيه. إن هذا أبسـط بكثير مما لو كانت في البلدان الغربية. البطل يتزوج الاثنتين والثلاثة يعيشون بسعادة دائمة.

إن **لييه كوه تشوان Lieh Kuo Chuan**، كالعادة غير معروف كاتبها هي رواية تاريخيـة تعالج الأزمنة المثيرة لدول الاقطـاع، وتغطي الفترة بين القرن الثامن قبل الميـلاد وتوحيد الصين تحت إمـرة الإمبراطور الأول. قدمت هـذه الرواية للقارئ بالكلمات التالية:-

«إن **لييه كوه Lieh Kuo** ليسـت رواية عادية، تتألف بالأساس من الأشياء التي ليست حقيقية. وهكذا أن **فنغ شن Feng Shen** (رواية من القرن الثاني عشر قبل الميـلاد) **وشـوي هو Shui Hu وهسي أو تـشي Hsi Yu Chi** وغيرها هي محض خيـال. إن **سـان كوه تشي San Kuo Chih** الأقـرب إلى الحقيقة، تتضمن الكثير من تلك التي تفتقر قواعد راسـخة. ليس كذلك **لييـه كوه Lieh Kuo.** هناك كل حادثـة هي حادثة حقيقية، وكل خطـاب هو خطاب حقيقي. يضاف إلى ذلك، بما أنه يوجد الكثير للبوح به أكثر مما قد يقال فإنه من غير المستبعد أن يخرج الكاتب عـن الطريق ليخترع. وبالتالي على القارئ أن ينظر إلى **لييه كوه Lieh Kuo** كقصة تاريخية أصيلة وليس على أساس أنها رواية فقط.»

المقتطف التالي يشـير إلى معرض زائف، خططت له دولة **تشـين Chin** المتآمرة، اسـميا من أجل تجميع الأشياء الثمينة وتسـليمها كجزية محترمة إلى **بيت سلالة تشـو House of Chou** الملـوكي، ولكن في الحقيقة بهدف اقـتراف مذبحة عامة للنبلاء المنافسين الذين وقفوا بالطريق بين آل تشن Chin وخطتهم الخيانية:-

«تقدم الآن دوق آي من آل **تشـن Duke Ai of Chin** مع ضباطه المتعددين لتحضير مكان للمعرض المقترح، وفي الوقت نفسه وضع عدداً من الرجال المسلحين في كمائـن بهـدف تنفيذ مخططاتـه الطموحة؛ وعندما سـمع أن باقي النبلاء قد

وصلوا خرج ودعاهم للدخول. بعد انتهاء الاحتفالات المعتادة، وبعد أن أخذ النبلاء مقاعدهم وفقاً للأقدمية، خاطب **الدوق أي Duke Ai** الاجتماع كالتالي:-

«' أنا، الذي استلمت بكل تبجيل تكليف ابن السماء، افتتح هذا الاجتماع الخاص بمثل هذه الأشياء الثمينة التي ستجلب من كل أنحاء الإمبراطورية. والأشياء نفسها سيتم لاحقاً تعبئتها مع بعض ومن ثم يتم توجيهها إلى سيدنا الإمبراطور بما أنكم أيها النبلاء قد تجمعتم هنا في هذا المكان فمن الملائم أن نوجه معروضاتنا المتعددة فوراً ونقدمها للتحكيم.»

«سمعت أصوات بالموافقة من النبلاء عند الانتهاء من الخطاب، إلا أن رئيس وزراء دولة **تشي Chi**، وهو يعي أن الجو مليء جداً ببخار الموت كما لو كان كميناً خيانياً، تقدم خطوة وقال:-

«منذ القدم عندما كان يطلب من النبلاء الاجتماع كان من العادة أن يعين عضو واحد منهم، عادل ومستقيم، ليعمل كمحكم أو قاضٍ للاجتماع؛ والآن قد اجتمعنا لهدف هذا المعرض، فأنا أقترح، لصالح السلم العام، أن يتم ترشيح واحد منا ليكون المحكم بطريقة مشابهة. '

«وافق دوق **آي Duke Ai** فوراً على الاقتراح أعلاه، وطلب مباشرة من النبلاء المجتمعين من منهم سيتجرأ على قبول المنصب المشار إليه. ما كادت هذه الكلمات تخرج من فمه حتى نهض **بيان تشوانغ Pien Chuang**، جنراليسيمو قوات **تشنغ Cheng**، وأعلن أنه على استعداد ليتبوأ هذا المنصب. ثم سأله دوق **آي Duke Ai**، على أي أساس من القدرة الشخصية يستند في ادعائه، وأجابه **بيان تشوانغ Pien Chuang**،' من القدرة لا يوجد عندي الكثير منها بالفعل، لكنني ذبحت نمراً بضربة واحدة من قبضتي ولا أحد يفوقني في المقدرة العسكرية. على هذه استند في ادعائي.

«وفقاً لذلك، طلب **الدوق آي Duke Ai** أن يتم احضار لوح مذهب وكان على وشك أن يستثمره كحكم للمعرض، عندما سمع صوتاً من وكلاء المحامين لدولة **وو Wu State** يحثون بصوت عال، إن من يقتل النمر

يحتــاج فقط أن يمتلك شــجاعة جســدية؛ لكن كيــف يكون هــذا توصية كافية لهــذا المنصــب؟ أخرّ لفــترة قصــيرة، أرجوك، حتــى آتي وآخــذ اللــوح بنفسي.»

«بهذا الوقت كان دوق **آي Ai** قد رأى أن المتحدث كان **كواي هوي Kuai Hui، ابــن دوق واي Duke of Wei** واســتفسر منــه فوراً ما هو ادعــاؤه الخاص لهذا المنصب. 'أنا قطعــت رأس تنين مميت ومن أجل هذا الإنجاز فأنا أطلب المنصب.' وبنــاء على ذلك، أمــر دوق **آي Ai** **بيان تشــوانغ Pien Chuang** أن ينقل إليه اللــوح الذهبــي؛ لكنه رفض أن يفعل ذلك، مجادلاً أن ذبح التنين ما هو إلا ســحر ساحر، ولا ينفع قطعياً للهدف الحالي. وأضاف إن كان اللوح سيؤخذ منه فإن ذلك يستدعي التوجه إلى القوة بينه وبين منافسه. استمرت هذه المنافسة لبعض الوقت حتى نهض أخيراً رئيس وزراء **تشي Chi** وحل الإشكال بالطريقة التالية:-

«إن ذبح النمر يحتاج إلى شــجاعة جســدية، وذبح التنين هو ســحر ساحر، ولا واحدة مــن هاتين العمليتــين تتضمن جمع القــوة العقلية مع القوة الجســدية التــي ترغب فيها في التحكيم في هــذا الاجتماع الآن، أمام القصر يوجد هناك وعاء للأضاحي يزن أكثر من ألف باوند إنكليزي. ليعلن دوق **آي Ai** موضوعاً ما ومن ثم دع الذي يجيب عليه بوضوح أكبر وبدقة، وفوق ذلك من منهم يستطيع أن يمسك بالوعاء المذكور أعلاه ويحمله إلى المنصة التي يجلس عليها النبلاء الثمانية عشر يتم ترشيحه إلى منصب المحكم ودعه يستلم اللوح الذهبي.»

«على هذه الخطة وافق دوق **آي Ai**، وســجل موضوعاً ما وطلب من الحاضرين أن يعرضوهــا أمام أبطــال الدول المجتمعة. كان الموضوع مكتوباً شــعراً ويتضمن ثمانية أبيات شعرية:-

«قل ما هو الذي يحمل السماء؛ قل ما هو الذي يحمل الأرض؛

ما هو العدد الصوفي الذي ولد الكون!

من أين تأتي الموجات الدوامية لقوة النهر المتدحرجة!

أين علينا أن نبحث عن الجرثومة الأولى لعلو الجبل الشامخ؟

بأي من العناصر الخمسة يكون عمل الطبيعة قد تم؟

ومن بين العشرة آلاف شيء جميعها التي عملت أي واحد منها هو الأعجب؟

هكذا هي الأسـئلة السـبعة التي أطرحها عليكم الآن؛ ومن يستطيع أن يجيب عليها بصدق وبشكل جيد يكون هو الرجل الموثوق والحقيقي؟

«مـا كاد الموضوع أن يتم التنويه به إلا والجـنرال **تشي نيان Chi Nien**، جنرال قوات دولة **تشن Chin**، يصرخ' ما هذا إلا سؤال في الفلسفة الطبيعية؛ ما الصعوبة في ذلك؟' وعندئذ تقدم إلى الأمام وبعد أن طلب الإذن لكي يشارك، مسك قلم حبر وسجل الجواب التالي:

«لا شيء يدعم السماء لا شيء يدعم الأرض؛

كيف لنا أن نحزر ما هو العدد الذي ولد الكون؟

من اللسان المنبسط للنهر تخرج الموجات الدوامية لقوة النهر المدرارة:

كيف يمكننا أن نعرف أين نبحث عن جرثومة طول

الجبل الشاهق؟

بكل واحد من العناصر الخمسة يكون عمل الطبيعة قد تم؛

ومن جميع الأشياء العشرة آلاف الموجودة هناك، لا يوجد أي واحد بالخصوص؛

وهذه هي أجوبتي على الأسئلة التي وضعتها؛

وبهذا أنا أطلب بموقع المحكم كالرجل الموثوق والحقيقي. '

وبعد أن **قدم تشي نيان Chi Nien** جوابه، تقدم وهو مشمر الثوب عن ساقيه، ماراً من أمام القصر، ومسـك بكلتا يديه وعـاء التضحية، ورفعه حوالي قدمين من الأرض، وتخضـب وجهه باللون نتيجة هذا الجهد. وفي الوقت نفسـه صدر صوت عظيـم من الطبول والأبواق وجميع النبـلاء المجتمعين حيوه بصوت مرتفع؛ وبناء عليه قام دوق **آي Ai** شخصياً بإعطائه اللوح الذهبي وأعلنه محكم المعرض، وكان

تــشي نيان Chi Nien على وشــك أن يرد عليه شــاكراً عندما قفــز **وو يوان Wu Yuan** قائــد عام دولة **تشــو Chu** الذي تقدم إلى الأمــام، وصرح بنبرة غاضبة أن جــواب **تشي نيان Chi Nien** لم يتخلص مــن الموضوع بطريقة صحيحة ونهائية؛ بأنــه لم يقم بإزاحة وعــاء التضحية من مكانه، وبالتالي لم يحصل على التعيين الذي أصبح يطالب به الآن **وو يوان Wu Yuan** ويدعي أنه يجب منحه له. كان **الدوق آي Ai**، على ضوء خطته لإلقاء القبض على أشخاص النبلاء المتعددين، تواقاً بالطبع أن يقــع منصب المحكم على أحد ضباطه وقد اســتاء جداً مــن هذه المحاولة من جانب **وو يوان Wu Yuan**؛ ولكن أجاب أنه إذا اســتطاع أن يتخلص من الموضوع ويحمــل وعــاء التضحية فإن منصب المحكم ســيكون له. وبناء عــلى ذلك، تناول **وو يوان Wu Yuan** قلم ستايلوس ودون الأبيات التالية:-

«الأرض تحمل السماء؛ السماء تحمل الأرض.

خمسة هو العدد الصوفي الذي ولد الكون.

من السماء هطلت الأمواج الدوامية للنهر الذي يتدحرج بقوة.

في سلسة جبال **كون لون Kun Lun** علينا أن

نبحث عن جرثومة الجبال الشاهقة.

من خلال الصدق، من العناصر الخمسة، يمكن إتمام

الأعمال الجيدة؛

ومن كل العشرة آلاف شيء الموجودة، فإن الإنسان؛هو الأروع.

وها هي أجوبتي على الأسئلة التي وضعتموها لهذا اليوم؛

إن الأجوبة واضحة ومستقيمة وأعطيت دون تأخير.

«بمجرد أن أنهى الكتابة، ســلم إجابته للــدوق **أي Ai** الذي رأى أنه بكل الطرق قــد تخلص من الموضوع بمهارة أكبر من **تشي نيان Chi Nien**، وبالتالي طلب منه أن يعــرض قوتــه على وعاء التضحية. قام **وو يــوان Wu Yuan** بالتقدم إلى الأمام

وأمســك ثيابه بيده اليسرى، ممســكاً الوعاء بيده اليمنــى، فرفعها وحملها حول المنصــة أمام النبلاء المجتمعين، وأخيراً وضعهــا في مكانها الأصلي، دون أي تغيير في لون بشرته، حدق النبلاء بعضهم ببعض باستغراب على هذا الإنجاز، وبصوت واحد أعلنــوه بطــل اليوم؛ فلم يكن هناك أي بديل للدوق **أي Ai** إلّا أن ينيط به اللوحة الذهبية وإعلان تعيينه في منصب المحكم.

إن **تشينغ هوا يوان Ching Hua Yuan** هي عمل أقل ادعاء من التي سبقتها، لكن بالتأكد فيها شخصية أكثر إثارة للاهتمام. إنه يعالج حكم الامبراطورة **وو Wu** التي خلعت في 684 الوريث الشرعي ونصبت نفسها على العرش، الذي احتلته لمدة عشرين سنة، فهذا العمل يصف كيف أن خريجاً شاباً، اسمه **تانغ Tang**، قد قرف من مؤسســة الامتحانات ومن إعطاء النساء شهادات، ينطلق من مجموعة صغيرة في رحلة استكشــاف. مــن بين جميع الأماكن الغريبة التــي يزورها وأكثرها إعجاباً كانت «**بلد السادة**» حيث هبطوا وتوجهوا فوراً إلى العاصمة.

«هناك، فوق بوابة المدينة، **تانغ Tang** ورفاقه قرأوا النقش التالي:

' الفضيلة هي جوهرة الإنسان الوحيدة! '

«بعد ذلك، دخلوا المدينة التي وجدوا فيها تجارة عامرة ومزدهرة، وجميع السكان يتحدثــون باللغة الصينية. وفقاً لذك، دنا **تانغ Tang** من أحد المارة وســأله كيف أصبحت أمته مشهورة جداً باللياقة والاعتبار للآخرين، لكن ولاندهاشة الكبير فإن الرجل لم يفهم معنى سؤاله. ثم **سأل تانغ Tang** لماذا بلده تسمى بهذا الاسم' بلد الســادة '، وأجاب أيضاً أنه لا يعلم. وعدد من الأشخاص الآخرين الذين استفسروا منهم أعطوا أجوبة مشــابهة، إلا أن **تو To** المحترم لاحظ أن الاصطلاح قد تم تبنيه دون شــك من قبل ســكان البلدان المجاورة بسبب الأخلاق الدمثة والتصرف الذي يراعي مشــاعر الآخرين لدى هذه الشــعوب. وتابع قائلاً' لأن العمال أنفسهم في الحقول والمارة في الشــوارع يتنحون عن الطريق ليفسحوا المجال لبعضهم البعض. أصحاب المراكز العليا أو الدنيا، الأغنياء والفقراء، يحترمون مشاعر بعضهم البعض، دون إشــارة إلى الغنى أو الوضع الاجتماعي لــكل منهم؛ وهذا هو، على ما أعتقد،

الجوهر الذي يشكل السيد الحقيقي.»

ثم صرخ **تانغ Tang**، في تلك الحالة دعونا لا نســتعجل وإنما تحسين أنفسنا من خلال مراجعة طرق وعادات هذا الشعب.»

تدريجياً وصلوا إلى الســوق حيث رأوا عدّاء رســمياً واقفاً عند كشــك مشــغول بعمليــة الــشراء. وكان يحمــل في يديه البضاعــة التي ينوي شراءهــا، وكان يقول لصاحب الكشك،' أرجو أن تفتكر للحظة، يا سيدي، كيف سيكون الأمر بالنسبة لي إن أخذت هذه البضاعة الممتازة بالســعر المنخفض غير المعقول الذي تطلبه أنت. وإذا كنت ســتكرمني بزيادة الســعر مرتين، سيشرفني أن أقبلها؛ وإلا لا يمكنني أن أشعر سوى أنك لا تريد أن تتعامل معي اليوم. '

«كــم هو مضحك، همس **تانغ Tang** لأصدقائه، وهــذه الآن هي عادة مختلفة تماماً عن عاداتنا حيث يحاول المشتري أن يغلب البائع، والبائع يرفع سعر بضاعته أعلى ما يمكن. بالتأكيد هذا يبدو على أنه يأخذ مشاعر الآخرين بعين الاعتبار، التي كنا تكلمنا عنها للتو.

«هنا الرجل الذي على الكشــك أجاب، 'أعرف يا ســيدي، أن رغباتكم هي أوامر بالنســبة لي؛ الحقيقة هي أنني مغمور بالخزي بســبب السعر العالي الذي تجرأت وذكرته، يضاف إلى ذلك، أنني لا أدعي الالتزام بقســوة في أسعار السوق؛ الذي هو ببســاطة خدعة التجارة، وبالتــالي يجب أن يكون هدف كل شــارٍ أن يجعلني أن أخفض أسعاري إلى أقل رقم؛ على العكس من ذلك، فأنت تحاول رفع السعر لرقم باهظ؛ وبالرغم من أنني أقدر لطفك في هذا المجال فعلي أن أطلب منك أن تبحث عما تحتاجه في مؤسسة أخرى، إنه من غير الممكن لي أن أنفذ أوامرك.

«وعاود **تانغ Tang** الإعراب عن دهشــته لهــذا التبديل غير العادي في بديهيات صنعة التجارة، فعندما أجاب المشتري المفروض أن يشتري، «بالنسبة لك، يا سيدي، أن تطلــب هكــذا مبلغاً زهيداً لبضاعة مــن الدرجة الأولى ثم تــدور دورة كاملة وتتهمنــي بأخذ مصالحك بعــين الاعتبار أكثر من اللزوم هــو بالفعل خرق محزن

للاتيكيت أي آداب السلوك. التجارة لا يمكن القيام بها أبداً إن كانت جميع الفوائد من جانب واحد والخسائر في الجانب الآخر؛ وكذلك لا يعوزني فكر أكثر من الإنسان العادي، حتى لا أفهم هذا المبدأ وأتركك تصطادني بحيلة.»

وهكذا استمر بالمجادلة والمشاحنة، صاحب الكشك يرفض رفع السعر أكثر والعداء مصر على دفع الثمن الذي هو يحدده حتى عمل الأخير عرضاً مسرحياً فتظاهر بالاستسلام فوضع كامل المبلغ المطلوب على طاولة البيع لكنه أخذ نصف كمية الأغراض فقط. بالطبع لم يوافق صاحب الكشك على هذا وكان كلاهما سيعودان إلى موقعهما الأصلي لولا تدخل سيدين كبيرين في السن الذي صادف مرورهما من هناك فتنحيا ورتبا الموضوع لهما من خلال الإقرار أن العداء سيدفع كامل الثمن لكنه سيستلم فقط أربع أخماس البضاعة.

تابع **تانغ Tang** وأصحابه سيرهم بصمت، مفكرين بالمشهد الغريب الذي شاهدوه للتو؛ إلا أنهم لم يبتعدوا أكثر من خطوات عندما مروا على جندي كان مشغولاً بشيء مشابه في شراء أشياء في دكان في الهواء الطلق. كان يقول، عندما سألت عن أسعار هذه الأغراض، أنت يا سيدي طلبت مني أن آخذها حسب تقديراتي؛ لكن الآن بعد أن رغبت في عمل ذلك، فإنك تشكو من السعر الذي عرضته، بينما في الحقيقة فإنه أقل بكثير من قيمته الفعلية. لا تعاملني معاملة غير منصفة.

«'إن الأمر ليس متروكاً لي، يا سيدي؛ أجابه صاحب الدكان،' لكي أطلب سعراً لبضائعي؛ إن مهمتي هي أن أترك ذلك بالكامل لك. الحقيقة هي أن هذه البضائع هي مخزون قديم، وحتى أنها ليست من أجود الأنواع؛ إنك بالتأكيد ستحصل على أحسن منها في دكان آخر. لكن دعنا نقول نصف ما تريد عرضه، حتى حينئذ سأشعر أنني سآخذ منك كمية أكبر بكثير. أنا لا أستطيع أن أتصور أنني سأفترق عن بضاعتي بالسعر الذي تعرضه. '

«ما هذا الذي تقوله، يا سيدي؟ 'صرخ الجندي: «مع أنني لست بهذه التجارة، إلا أنه يمكنني أن أفرق البضاعة الجيدة من البضاعة الأدنى ولن أخطئ في تعريف

الواحدة عن الأخرى. وأن أدفع ســعراً منخفضاً لبضاعة جيدة هي ببساطة طريقة أخرى لاخذ المال من جيب الرجل.»

«يا سيدي، أجاب صاحب الدكان، «إن كنت مماجكاً بهذا القدر للعدالة من أجل هذا كله، فلنقل نصف الســعر الذي ذكرتــه أولا وتكون البضاعة لك. إن اعترضت على ذلك علي أن أسألك أن تأخذ سلعتك إلى مكان آخر، وعندها ستجدني لا أفرض أي شيء عليك.

«التــزم الجندي في البداية بما قاله، ولكن عندمــا رأى أن صاحب الدكان لا يبدو أنه سيفســح الطريق، دفع المبلغ المطلوب وبدأ يأخذ ســلعته، متناولا منها الأسوء الــذي يجده. لكن هنا اعــترض صاحب الدكان قائلاً، عذراً أيها الســيد، إنك تأخذ معك جميع الأشياء الخربة. إنه بلا شك لطف منك أن تترك لي أفضلها، لكن إن كان جميع الناس مثلك سيحدث انهيار عام للتجارة.»

«'ســيدي،' أجاب الجندي «بما أنك أصريت على قبول نصف قيمة السلعة فقط، لم يبق أمامي من مخرج إلا أن انتقي السلع الأقل قيمة. يضاف إلى ذلك أنها حقيقة فإن أفضلها لن يخدم هدفي كالنوع الثاني أو الثالث؟ ومع أنني أتفهم نواياك الطيبة أجد نفسيي مضطراً أن أطلب منك أن تسمح لي بخدمة نفسي بنفسي.»

«لا اعتراض عندي، أيها الســيد، قال صاحب الدكان، تخدم نفسك كما يحلو لك، لكن البضائع ذات المستوى المنخفض تباع بسعر منخفض ولا تستحق القيمة ذاتها مثل السلع الممتازة.»

«وهكذا استمروا بتقاذف المجادلات لوقت طويل دون التوصل إلى اتفاق محدد، حتــى التقط الجندي أخيراً أغراضه التي اختارها وحاول أن يهرب بها. إلا أن جميع المتفرجــين صرخوا الخزي لك ووصفوه بالغشــاش لدرجة أنــه اضطر في النهاية أن ينتقي عدداً من الســلع الأجود وعدداً آخر أقل جودة ووضعوا حداً لهذه المشادة الكلامية.

«بعد فترة قصيرة أصدقاؤنا المســافرون رأوا قروياً دفع لتوه ثمن بعض المشتريات

التي نجح في عملها وكان مســتعجلاً حتى يعود بهــا، عندما ناداه صاحب الدكان، «يا ســيد! يا ســيد! لقد دفعت لي بالخطأ بفضة صافية، ونحن غير معتادين على ذلك هنا، وأنا علي أن أعطيك حســماً كبيراً جداً في أعقاب ذلك، بالطبع هذا مجرد تفاهة بالنســبة لرجل محترم بدرجتك وموقعك، لكن بالنسبة لي أنا اطلب تصحيح ذلك معك. ’

«‘ أرجوك لا تذكر مثل هذه المســألة البســيطة، أجاب القروي،‘ ولكن يمكنك أن تضع المبلغ في حســابي لأســتطيع اســتخدامه في تاريخ لاحق عندما آتى مرة أخرى لشراء بعض من بضاعتك الرائعة. ’

«لا، لا، أجاب صاحب الدكان، «أنت لا تصطاد الطيور الكبيرة في الســن بعصافة الســنابل. هــذه الخدعة لعبت مرة عليّ في الســنة الماضية من ســيد محترم آخر، وإلى اليــوم لم أضــع عيني عليــه ثانية، مع أننــي عملت كل جهــد لإيجاد محل إقامتــه. كــما الوضع الآن، أنا أتطلع الآن لتســديد مــا علي له في الحيــاة التالية؛ لكن إن ســمحت لــك أن تأخذني على الطريق نفســه، لماذا، وعندمــا تأتي الحياة القادمــة أكــون قد تغــيرت ربمــا إلى حصــان أو حمار، وســأكون مشــغولاً جداً لإيجــاده، ودينك – ســيبقى يمط حتــى الحياة ما بعــد القادمــة. لا، لا، لا يوجد وقــت مثل الحاضر، بعد ذلــك يمكنني أن أنسى كمية المبلغ الــذي أدين به لك. ’

«اســتمرا في المجادلة حول النقطــة حتى وافق القروي على قبــول مبلغ مقابل الفضية الصافية الخاصة به ثم ذهب بالسلع وصاحب الدكان يصيح في أثره ما دام هو في مرمى النظر من أنه باعه ســلعاً أقل جودة بســعر عالٍ وكأنه يسرقه ماله. إلا أن القــروي قد ذهب وعاد صاحب الدكان إلى التذمر من ظلم الدهر. وفي تلك اللحظة مر بالصدفة شحاذ، وبغضب لأنه أجبر على أخذ أكثر من نصيبه قام وأعطى الشــحاذ الفرق. «من يعرف، قال هو، «إن يكن الأسى والحزن الحالي لهذا الإنسان الفقير عقاباً على تدفيع الناس ثمناً فاحشاً في حياة سابقة؟

«آه، ’ قال **تانغ Tang** عندما شــاهد الفقــرة النهائية لهذه الدراما الصغيرة،‘حقاً هذا هو تصرف السادة المحترمين.

«أجرى مســافرون حديثاً مع رجلين كبيرين في السن محترمين قالا إنهما شقيقان وقبلا دعوتهما أن يرافقا المجموعة على فنجان شاي. أما مضيفوهم فتحدثوا بحرارة عن الصين ورغبوا في أن يســمعوا خصائص كثيرة عن ‘البلد الأول في العالم، ’لكنهم وهم يبدون إعجابهم بالثقافة الأدبية العالية لسكانها ولنجاحاتها التامة في الآداب والعلوم لكنهم لم يتوانوا عن وســمها بما لا يليق بشعب عظيم استعمالات محددة كانت تبدو لهم أنها تســتحق النقد الشديد. وضحكوا من خرافة **فنغ شوي Feng Shui**، وكانوا يستعجبون كيف أن أناساً أذكياء كانوا يفرضون عليهم سنة تلو السنة من قبل أساتذة مخادعين مثل هذا الهراء الذي لا أساس له. «إن كان صحيحاً، ’قال واحــد منهم يكون اختيــار يوم ميمون وموقع ملائم لدفن والــد أو والدة الواحد منــا لجلب الازدهار للناجين على قيد الحياة كيف تتعامل مع حقيقة أن الضاربين في الرمل أنفســهم هم دائمــاً من الجماعات المتدنية والفقيرة؟ بالتأكيد ســيبدأون باستملاك أفضل المواقع وبتأمين الحظ الجيد الذي سيكون بحاجة إلى صاحب.

«ثم فيما يتعلق بتضميد أقدام النســاء لتصغير أحجامهن لا نرى الجمال في هذا العمل الجهنمي على قدمي سيداتكم. الأنوف الصغيرة تعتبر عادة أكثر جاذبية من الأنوف الكبيرة؛ ماذا ســيقال في رجل يعمل على نزع شريحة من أنفه لكي يصغره في الحجم المطلوب؟ «وهكذا مرت الســاعات حتى حان الوقت ليتمنوا لأصدقائهم الجدد السلامة وليستعيدوا سفينتهم.»

إن **تشــن كو تشي كوان Chin Ku Chi Kuan أي الروايات المدهشة القديمة والمعــاصرة** هي الأكثر تفضيلًا لدى الصيني المحب لقراءة الغراميات. إنها مجموعة مــن أربعين قصة قيل إنها كتبت بحوالي نهاية ســلالة مينغ من قبل جمعية كانت لها اجتماعات لهذا الغرض.

والترجمات لكثير من هذه القصص، إن لم يكن كلها، قد نشر. الأســلوب بســيط يختلف كثيراً عن ذاك الذي في **بينغ شــان لنغ ين Ping Shan Leng Yen**، وهي رواية معروفة جداً فيما ســيعرف تحت عنوان أسلوب أدبي رفيع المستوى، ويكون مؤلفاً من حوار متكلف وشــعر مســهب أكثر من اللازم يتم تأليفه لأبسط استفزاز

مــن قبل الأشــخاص المتعددين في القصة. كان هؤلاء هــما **بينغ Ping وين Yen**، طالبين شــابين يحبان **شــان Shan ولنغ Leng**، شاعرتين شابتين سحرتا بموهبتهما الأدبية أكثر من جمالهما الأخاذ. في إحدى المناســبات، شــاعر مدّعٍ اســمه **ســونغ Sung**، وكان طالباً يد الآنســة **لنغ Leng** كان ضيف عمها، وبعد العشــاء تجولت المجموعة في الحديقة. تم اســتدعاء الآنسة **لنغ Leng**، وعندما كشف عن أدوات الكتابة، وكما هي العادة في مثل هذه المناسبات، طلب من السيد **سونغ Sung** أن يحيي المجموعة "بســونته" أي بقصيدة من أربعــة عشر بيتاً. «المعذرة،» أجابهم، «لكنني أفرطت في شرب النبيذ لن أتمكن من تأليف أبيات شــعرية الآن.» «لماذا،» ردت عليه الآنسة **لنغ Leng**، كان هذا بعد أن شرب غالوناً من النبيذ عندما كتب **لي بو Li Po** على عجل مائة ســونته، وهكذا كســب اسماً سيظل حياً لألف جيل.» «بالطبع أنا أســتطيع التأليف،» قال الســيد **ســونغ**، «حتى بعــد الشرب لكن من المحتمل أن أصبح أجش. من الأفضل أن تكون صائماً وتشــعر بصفاء الذهن. هكذا يكون الأســلوب أسلس والشعر يبســط أكثر.» أجاب الآنسة **لنغ Leng** أن «**تساو تشــيه Tsao Chih**، ألف "الســوناتة" الخاصة به عندما مشى سبع خطوات فقط وسيتم استذكار شهرته إلى الأبد. بالتأكيد أن المناسبة ليس لها علاقة بالموضوع.» في خضم الفوضى التي ضربت الســيد **سونغ Sung** اقترح العم أن يقوم الأخير بوضع موضوع للآنســة **لنغ Leng** بدلاً عن ذلك، فوافــق عليه، وعندما نظر حواليه رأى طائرة ورقية عبر شــباك مفتوح، فاقترح هذا الموضوع فوراً مؤملاً في قلبه أن يذهل الســيدة الشــابة الســاخرة. لكن في الزمن الذي يأخذه شرب فنجان الشاي ألقت الأبيات التالية:-

«بمكر صنعت لتشبه الطائر

إنها تغش الحمقى والأطفال الصغار.

إن لها جسماً من البامبو خفيف ونحيف،

والزهور رسمت عليها كأنها شيء عجيب.

يطيرها الهواء فتتبختر في السماء،

مربوطة بحبل فهي لا تستطيع أن تتحرك.

لا تضحك من قدميها الكاذبتين

إن سقطت سترى فقط إطاراً جافاً وفارغاً.»

كان كل هذا يبتغي السخرية من السيد **سونغ Sung** شخصياً ومن مظهره الشخصي، وهو عّينة مرضية لما قد يتوقعه القارئ منها جميعاً.

إن **آر تو ماي Erh Tou Mei** أو «الكمثرى التي تزهر مرتين،» تخص القرنين السادس عشر أو السابع عشر والكاتب غير معروف. إنها رواية تهدف إلى أن تكون على ما يبدو، مخططاً لها لتصوير جمال البر بالوالدين، ومطالب الصداقة والالتزام بالجيران بوجه عام. كتب بالأسلوب البسيط دون أي ثراء بالإيماءات الكلاسيكية من أجل ترطيب مشاعر المتحذلقين وتتضمن عدة مشاهد درامية وإجمالا تقدم صورة بانورامية جيدة للحياة اليومية الصينية. بطلان كل منهما يقع في حب بطلتين، وتماماً كما في **أو تشياو لي Yu Chao Li** كل بطل يتزوج من الاثنتين. هناك خيط دقيق من الحقيقة يجري في هذه القصة، ويضع العمل في القرن الثامن وكثير من الشخصيات هي في الحقيقة شخصيات تاريخية. واحدة من البطلات الأربع الجميلات، من أجل أن تحفظ السلام بين الصين والقبائل التتارية التي تقوم بالإغارة على الحدود، تقرر التضحية بنفسها على مذبح الوطنية لتصبح عروس الخان. إن الافتراق عن الحدود يتم وصفه بحساسية رقيقة، لكن تبلغ الذروة عندما تصل إلى هدفها تندفع بقوة فوق هوة مخيفة، بدل أن تقع تحت سيطرة البربري المقيت، وكانت خادمة تنتظر تلبس لبسها وسلمت إلى الخان غير المرتاب. هي نفسها لا تموت. مسكت بها غيمة أرجوانية ورافقتها إلى بلدها مجموعة من الملائكة المعجبين بها.

هناك أيضاً مشهد فعال أخذ منه عنوان الكتاب عندما قامت شجرة الكمثرى التي تناثرت أزهارها من جراء عاصفة ريح أو مطر، بالصلاة الحارة. «إن روح الحديقة سمعت ابتهالاتهم الحارة وأعلنت عن وجودهم للملاك الحارس للبلدة الذي طار من فوره إلى السماء ووضعهن عند قدمي الرب.» الشجر تألم عندما أخرج براعم جديدة وسريعاً أزهر وكان جميلاً أكثر من أي وقت مضى.

تمت المحافظة على إنتاج التمثيليات بشــكل جيد عبر سلالة **مينغ Ming** لسبب بسيط وهو أن الدراما، إن كانت غرائبية أو تطورت داخل حدود المملكة الوسطى أي الصين، أتت لتبقى معناً بالتأكيد. لقد تكونت الفكرة، ومنذ ذلك التاريخ تشكل التســلية المثــلى للعالم المثقف والتأمــلي، وللجماهير المحبة للضحك من الشــعب الصيني.

تقــف **بي با تشي Pi Pa Chi أو** «**قصــة الغيتار**» على رأس اللائحة وتصنف من قبــل بعض المعجبين بأنها الأجــود بين كل التمثيليات الصينية، إنها مرتبة بشــكل مختلف في الطبعات المختلفة تحت أربع وعشرين أو اثنين وأربعين مشهداً، والكثير من التــصرف أدخل على النص، وفقــرات طويلة منه تم تحريفهــا وأدخلت كثيراً مــن التغيــيرات. عرضت لأول مــرة في 1704، واعتبرت تقدماً كبــيراً في فن الدراما بالمقارنة مع المسرحيات الأولى للمنغول. اســم المؤلف كان **كاو تســه تشنغ Kao Tse Cheng**، أمــا بطله قيل أنه أخذ من الحياة الحقيقية بشــخص صديق ارتقى فعلاً من الفقر إلى أعلى المراتب والرفاهية. التالي هو ملخص للحبكة.

خريج شاب لماع وزوجته الجميلة كانا يعيشان كما هي العادة مع والدي الزوج. وكان الوالد يحث الابن على الذهاب إلى العاصمة ليتقدم إلى الامتحان النهائي. قال الرجل الكهل، «عندما تصل إلى الخامســة عــشر، ادرس، وعندما تصل إلى الثلاثين، افعل.» لكن الأم كانت تعارض هذه الخطة وأعلنت بأنهم لن يستطيعوا الاستغناء عن ابنهم، وتروي قصة مثيرة للشــفقة عن شــاب آخر ذهــب إلى العاصمة وبعد عذاب لا محدود عين مســؤولاً عن إصلاحية للأحداث ليجد أن والديه قد ســبقاه هناك بصفتهم فقراء. يقرر الشــاب أخيراً أن يقوم بالتزاماته **لابن السماء**، فينطلق فــوراً تاركاً العائلة في حماية صديــق كريم. ثم يتقدم للامتحانات، والتي تتحول في المسرحية إلى استهزاء، ويخرج منها بالمنصب المرغوب ككبير الكلاسيكيين. ثم يصدر الإمبراطور تعليماته إلى أحد وزرائه بأن يأخذ كبير الكلاســيكيين كزوج لابنته، لكن بطلنا يرفض على أســاس، هكذا يهمس، أن قدمي الســيدة كبــيران جداً. تم يجد الوزير نفســه مجبراً على اســتخدام الضغوط فتم الزواج بجدية وانتهى هذا الجزء من المسرحية بمشــهد فعــال حيث تطلب فيه زوجته الجديــدة منه أن يغني لها،

فيقترح بطلنا عليها أغان مثل «بعيداً عن حبه الحقيقي،» وغيرها بالأسلوب نفسه. حتـى عندما يوافق على غنـاء «الريح تمر عبر الصنوبريـات،» فإنه يغني بتلقائية «آه لمنزلي مرة أخرى، «وعندما يتم اسـتعادة وعيـه يعاود غناء أغنية عن الزوجة المهجورة.

في هـذه الأثناء تصيب عائلته التي تركها وراءه أسـوأ الحظـوظ، فكانت هناك مجاعة واكتشـفت الإهراءات العامة فارغة عوض عـن أن تكون ملأى، وبان على الوالدين والزوجة المجاعة. والزوجة تجهد نفسـها إلى أبعد حد، وتبيع مجوهراتها لتشتري الطعام؛ وفي آخر المطاف، بعد موت حماتها وبعد موت حماها، فإنها تقص شعرها وتحاول بيعه لتشتري تابوتا، وما حال بينها وبين ذلك سوى الصديق القديم الذي كان يقدم باسـتمرار أي مساعدة يسـتطيعها. الأمر الثاني كان إقامة قبة من تراب فوق القبر. هذه تحاول أن تعملها بيديها، لكنها تقع نائمة من التعب. **عبقري التـلال** يراها في هذا الوضع، فيتأثر من البر بالوالدين، يسـتدعي القرد الأبيض من الجنوب والنمر الأسـود من الشـمال وهي أرواح قامت، بمساعدة من مرؤوسيهم، بإتمام القبة الترابية في أقل وقت ممكن. وبعد أن اسـتيقظت أدركت أنه تم تدخل فـوق طبيعي، وقررت أن تنطلق إلى العاصمة لتبحـث عن زوجها والتي يخامرها ضده مشاعر مرة. تم تبدأ بالعمل على تلوين صور والديه المتوفين، ومن ثم تستخدم هـذه الصورة من أجل العرض كطريقة للحصول على الصدقات، ومع قيثارها، تبدأ بالرحيل، قبل وصولها، سـمع زوجها من رسـالة، تم تزويرها بهدف أخذ الجائزة، بـأن أبـاه وأمه كلاهما بصحة جيـدة وفي طريقهما للالتحاق بـه. وبالتالي يذهب هـو إلى المعبد ليصلي لبوذا من أجل وصولهما بالسـلامة، وهناك يتناول الصورتين المطويتين لأبيه وأمه اللتين اسقطتهما زوجته، التي قامت ايضاً بزيارة المعبد لتطلب الصدقة، الصور أرسـلتها دون أن يتم فتحها إلى مكتبه، والآن، والزوجة مستمرة في بحثها تدخل بالصدفة بيت زوجها، ويتم استقبالها بلطف من قبل الزوجة الثانية، بعد نوع من سـوء التفاهم، تظهر الحقيقـة، تقدم المرأة الثانية، التي تتضامن مع المرأة الأولى بالكامل نصيحة لها بأن تدخل إلى مكتبه وتترك لزوجها ملاحظة. هذه الملاحظة على شـكل أبيات شـعرية تحط من قدره، يجدها الأخير مع الصور التي

علقت على الحائط؛ المرأة الثانية تقدم الأولى؛ ثم هناك توضيح وشرح؛ والستارة، لو كان هناك من هذا القبيل شيء في المسرح الصيني لكان سيسدل على السعادة النهائية للزوج ونسائه الاثنتين.

بالطبع في ملخص المسرحية أعلاه، والذي يشبه بالطول طول واحد من مسرحيات شكسبير، قد تم حذف الكثير، إن جمالها الرئيس، وفقاً للنقاد الصينيين توجد في تمجيد الالتزام للملك، وفي البر بالوالدين لوالدي الزوج، وبالسلوك المتكيف للزوجة الثانية التي تميل إلى المحافظة على السلم في الظروف المعقدة. ينظر إلى الرسالة المزورة على أنها نقطة ضعيفة لأن البطل سيعرف خط والده، وكذلك مع نقاط أخرى التي تم الاقتراح بشطبها. يقول أحد المحررين، «بما أن رقبة اللقلق طويلة شيئاً ما فإنك لن تستطيع أن تعالج هذا النقص بحذف جزء منه. ومن جهة ثانية، فإن الشخصية المريضة في المسرحية يعطيها قيمة عليا لدى الصينيين، لأنه تم إعلامنا في المقدمة «إنه أسهل بكثير أن تجعل الناس يضحكون من أن تجعلهم يبكون.» وإذا كنا سنعتقد أن كل ما يقال في هذا المجال، فإن كل جيل لاحق قد دفع الثمن بالدموع لمسرحية **بي با تشي Pi Pa Chi**.

الفصل الثالث
الشعر

مع أن الشـعر في سلالة مينغ ارتخى قليلاً، فيما يتعلق بالحجم فقط، إلا أنه كان يوجد شعراء أقل بكثير مما كان يوجد في **بيتي ال تانغ Tang وال سونغ Sung**. إلا أن الاسـم الذي يأتي الأول في معرض التتابع الكرونولوجي الزمني هو اسم معروف جداً. **هسيه تشين Hsieh Chin** (1369-1415) ولد عندما كان عمر السلالة سنة واحدة وحصل على الشـهادة العليا قبل أن يكمل سنته العشرين. وكانت باكورته قد أكسـبته السمعة أنه ولد ملهم، ولاحقاً أعجب به الإمبراطور. لدرجة أنه عندما كان **هسـيه تشين Hsieh Chin** منشـغلا بالكتابة غالباً ما تلطف جلالته ومسك لـه المحبرة. كان هو رئيس اللجنة التي نشرت الموسـوعة الضخمة التي تم وصفها سابقاً، لكنه الآن أصبح معروفاً كمؤلف لما قد يبدو أنه قصيدة تعليمية من حوالي 150 بيتاً من الشـعر التي يمكن شراؤها من أي كشـك للكتب. من الأهمية بمكان أن تقـول «حوالي 150 بيتـاً.» لأنه لا توجد طبعتان تعطيان عدد الأبيات نفسـها بشـكل متطابق، أو حتى نصاً متشابهاً في كل بيت. ومن المشكوك فيه جداً أن كان **هسيه تشين Hsieh Chin** قد كتب بالفعل هذه القصيدة. في كثير من الطبعات تمت سرقة أبيات شـعرية بجرأة من شـعر **الهان Han** القديم ووضع هناك دون قافية أو سـبب، وهذا بالتـالي يجعل الانتقال أكثر صعوبة بشـكل يفوق ما كانوا يريـدون به من ذلك، جميع المحررين كانوا عـلى اتفاق على ما يبدو حول الأربع أبيات الافتتاحية التي تقول إن ابن السماء يجل الأبطال إجلالاً عظيماً لكن جلالته يحث الجميع على الدراسة بجد، وأن كل شيء في هذا العالم هو من الدرجة الثانية باستثناء وحيد وهو الدراسـة والتعليم من الكتب. وبالحقيقة أنها القصة القديمة التي تقول-

«التعليم هو أفضل من البيت أو الأرض؛
لأنه عندما يذهب البيت والأرض أو ينفق
يكون التعليم رائعاً جداً.»
لاحقاً نأتي على أربعة أبيات غالباً ما تقتبس لأنها تعدد أعظم الأشياء السعيدة الأربع في الحياة، بمعنى،

«مطر عذب بعد جفاف طويل،
لقيا صديق قديم في مناخ غريب،
الاستمتاع بيوم الزواج
اسم الشخص على لائحة المرشحين الناجحين.»
لم تكتب هذه الأبيات أعلاه بهدف معين أو محدد، وتتم متابعتها عن قرب في بعض الإصدارات على أنها مبادئ في موضوع التطبيق الجدي. ثم بعد أن نقرأ أن الدراسات الكلاسيكية هي أفضل حقل للاستثمار نأتي إلى أربعة أبيات أخرى تحتوي على قليل من الشعر الحقيقي:-

«الإنسان في أيام شبابه يتورد،
إن الخوف الوردي يزهر في فضاء...
لماذا، عندما تهب نسمات الربيع سنوياً،
يتوهج كل واحد مثل ظل عميق؟»
إن الأوامر لحرق زيت منتصف الليل يتبعها، ويا للغرابة، اقتراح من أن ثلاث كؤوس من النبيذ تستدعي جدية للذهن، وأنه إذا كان الإنسان ثملاً جداً كل مشاكله تختفي، وهي طريقة أخرى لقول ذلك:-

«إن أفضل الحياة هو السكر.»

يبدو أن القصيدة في مجملها هي خليط، التي بعض الأجزاء منها قد تكون أتت من قلم **هسيه تشين Hsieh Chin**. فيما يلي قصيدة قصيرة له حول دفاعه عن الرشوة الرسمية التي لا يوجد شك فيها:-

« عبثاً نرى الأيدي المصممة على
التضحية أو المشبوكة في الصلاة؛
إن طرق الله ليست بالضبط
هي الطريق التي ستكون.
إن المحتال والشرير
يقودان حياة منعمة بما فيه الكفاية،
بينما الإدانات تتجاوز الجيد
والكثير من الصد القوى.
إن الثور المتبختر يلحق
بابتهاج كما تبغي،
بينما أولئك الذين لا يفوتون صلاتهم
هم شهداء المرض.
وإذا الله القدير فشل
في الحفاظ على توازن حقيقي
كيف يمكننا أن نأمل أن يتصرف
القضاة الهالكون التافهون؟»

الكاتــب لاقى نهاية تراجيديــة، بدعمه لادعاء الأمير الأكبر ســناً ليكون الوريث الشرعي، فقد عمل عداوة دائمة من ابن آخر، نجح في نفيه بقضية واحدة ومن تم حبســه في قصيدة أخرى. بعد أربع ســنوات من الحبس أسكر، وعلى الأرجح دون صعوبة تذكر دفن تحت كومة من الثلج.

الإمبراطور الذي حكم بين 1522 و1566 كالإمبراطور الحادي عشر في ســلالته لم يكن شــخصية محترمة، خاصة في آخر ســني حياته عندما صرف الكثير من الأموال عــلى القصــور والمعابد وضيع معظم وقته في البحث عن أكســير الحياة. في 1539 أرســل الجنرال ماو لقمــع انتفاضة في **أنام Annam** واعطــاه صورة عليها قصيدة لوداعه. الأبيات الشــعرية تعتبر خفيفة من قبل النقاد الصينيين، وهي غالباً تقدم في المجموعات الشعرية والتي بالتأكيد لن يكون الوضع كذلك لولا تأليفها من قبل

الإمبراطور هو ادعاؤها الوحيد:

«إلى الجنوب، بكل أبهة
مرتبة للحرب القاسية،
انظر جنرالنا البطل يشير
ويلوح بسيفه البراق!
عبر التلال والأنهار تتدحرج
الطبول من جلد السحالي بشكل رائع
بينما لمعان الرايات التي لا حصر لها
يومض في العلا من سارية إلى سارية.
اذهب، يا ابن سليل وحيد القرن.
وبرهن ميلادك السماوي،
ودمر إلى دهر الداهرين
حشرات الأرض تلك؛
وعندما تعود فاتحاً
من بلاد البرابرة المتوحشين تلك،
سوف نفك عباءتك الحربية
بأيدينا الإمبراطورية!»

إن المحظيين في الصين القديمة والعصور الوسـطى شـكلوا طبقة لم تعد موجودة على ما يبدو. مثل الهيتري[73] في اليونان كانوا في أغلب الأحيان مثقفين جداً ومارسوا قدراً كبيراً من التأثير. سيرة حياة أكثر تلك السيدات شهرة موجودة ويعود تاريخها إلى القرن السـابع للميلاد. التالي هو مقتطف من سـيرة **هسيه سو سو Hsieh Su Su** التـي ازدهرت في القـرن الرابع عشر و«التي لا يضاهيها سـوى قلة قليلة من الجمال القديم.»:-

«كان جمال **سـو سـو Su Su** ذو أناقة رفيعة جداً، ولها صوت حلو آسر وحركة

73 الهيتري: مومس يتردد على بابها الأغنياء / المترجم.

بهيــة. كانت فنانة ماهرة، تكتســح الورق ببضع لمســات سريعــة وتنتج تأثيرات كلاميــة يمكن لعدد قليــل، حتى من الدرجة الأولى أن يأمــل بالتفوق على عملها. كانت فارســة جيدة وتستطيع أن تقذف السهام من ظهر الحصان وكذلك بالقوس والنشــاب. كانت تطلق حبة خردق، وتلحقها بثانية التي تسبق الأولى وتدمرها إلى ذرات في منتصف الجو. أو أنها تلقي بحبة خردق إلى الأرض، ثم تمسك بالقوس في يدهــا اليسرى وتمرر يدهــا اليمين خلف ظهرها ثم تطير وتضربها ولم تخطأ مرة في مائة مرة. وقد كانت حريصة جداً على أصدقائها، لا تســتقبل أحداً ما لم يترك، من خلال موهبته، أي بصمة على العالم.»

إن التدفق الشــعري، وحتى المسرحيات، لكثير من هذه السيدات تمت المحافظة عليه باهتمام ويتم نشرها في العادة كملاحق لأي من مجموعات العترات. فيما يلي عينات من **تشــاو تساي تشي Chao Tsai Chi** التي عاشت بالقرن الخامس عشر والتي لا توجد لها سيرة ذاتية:-

«إن التيار في النهر بدأ بالارتفاع
لقرب ساعة الافتراق الحزينة، تجلب الدموع لأعيننا؛
أواه: لو تتركنا مسرورين على هذه الفرلونغ[74] من خيوط الصفصاف
لا يستطيع أن يسيطر على سرعة القارب الذي سينطلق قريباً!»

تتضمن عينة أخرى لسيدة اسمها **تشاو لي هوا Chao Li Hua** (القرن السادس عشر) محاولة على التلاعب بالكلمات التي صدرت بشكل أعرج في الترجمة:-

إن ملاحظاتكم على الورق، نادراً أن ترى،
عصفوراي يطيران بفرح ويتحملان؛[75]
كن مثل الطيور الأخرى وعد اليّ
ليس مثل الورق، نادراً!»

74 مقياس للطول يساوي 220 ياردة أو ثمن ميل / المترجم.

75 أوراق مالية صينية تتزين بكل أنواع الصور التي في بعض الأحيان تغطي صفحة كاملة.

هذه الأمثلــة تدل بوضوح أن هذه الدائرة الصغيرة من الأدب، وإن كان ينقصها العمل على الجدارة، فهي على كل حال لا تتضمن أي شيء من الأوصاف غير اللطيفة.

كان **فانغ شــو شوه Fang Shu Shuo** شاباً أرعن متوحشاً مثله مثل العديد من الشــعراء الصينيين، شرب النبيذ أكثر مما تســمح به صحته. كان مشهوراً بقصائده وبخطــه، وكانت عينات مــن فنه تســتجلب الثمن الغالي مــن الجامعين. في عام 1642، قيــل لنــا، أصابه مرض بأســنانه،» في آخر المطاف دخــل في التابوت، الذي يحب الصينيون جميعهم إبقاءه نظيفاً، فكتب وداعاً للعالم، وأسند الورق إلى حافة التابــوت وهو يكتب. وعند الانتهاء من كتابة القطعة رقد في التابوت ومات. هذه هي الأبيات:-

منزل أبدي ينتظرني؛
هل أتردد في الذهاب؟
لحياة سريعة الزوال تحت؟
منزل لا أستطيع أن أسمع فيه.
صدام الأسلحة ثانية!
وإن حاولت التلكؤ
في هذا العالم الشائك من الألم؟
النسيم سيهب عاجلاً بارداً مني

والقمر الساطع يضيء فوق رأسي
وعند اختلاطه مع جواهر الأرض
أنام في آخر سرير لي
قلمي والحبر سيذهبان معي
داخل عربة الموتى
وإن كان يعجبني'هناك '
قد أخفف عن نفسي بالشعر.»

الكتاب الثامن

سلالة المانتشو (1644-1900)

الفصل الأول

"لياو تشاي Liao Chai" "هونغ لو منغ Hung Lou Meng"

بحلول 1644 كانت أمجاد سلالة مينغ العظيمة قد ولّت. فساد الحكم، الذي أشار إليه الكتاب الصينيون يعود إلى صعود الخصيان، وقد انتهى إلى ثورة، وكان زعيم الثوار، بجيشه الكبير، يضغط على العاصمة. التاسع من نيسان (إبريل) سقطت بكين. وخلال الليلة الفائتة الإمبراطور الذي رفض الهروب، ذبح الأميرة الكبرى، وأمر الإمبراطورة بأن تنتحر، وأرسل أبناءه الثلاثة إلى المخبأ. عند الفجر قرع جرس البلاط للاجتماع؛ لكن لم يأت أحد. جلالته صعد إثر ذلك إلى تلة **وان سوي Wan Sun** على أرض القصر. وكتب على ياقة روبه أمراً نهائياً:- «نحن، الفقراء في الفضيلة، وفي شخصيتنا الخسيسة، تكبدنا غضب الله في الأعالي. وزرائي قد خدعوني. وأنا أستحي من لقاء أسلافي، ولذلك أنا أخلع بنفسي تاجي، وبشعري الذي يغطي وجهي أتوقع بتر أوصالي على أيدي الثوار. لا تسببوا الأذى لأي شخص كان من شعبي!» ثم قام بشنق نفسه، كما فعل ذلك خصي وفي. ومن هذه النقطة بدأ قائد القوات الصينية بالتمهيد **للمان تشو Man Chu** التتاريين الذين من مدة أخذوا بتركيز قواتهم وأصبحوا بالفعل تهديداً جدياً للصين. وتم توقيع اتفاقية على عجل وتم احتلال بكين. بالتأكيد استولى **المان تشو Man Chu** على العرش الذي طالبوا به بكل صراحة منذ 1635 وفرضوا «ذنبة» الخنزير على الشعب الصيني.

هكذا إذا هو مصير إمبراطورية الصين العظيمة، التي تحدها البحار الأربع، وتمتد إلى حدود الأرض المسكونة بالبشر باستثناء عدة جزر بربرية منتشرة هنا وهناك على تخومها، ومعها شعبها الرفيع والعليم، ورثة أدب مجيد يمتد على الأقل

لعشرين قرناً في القدم، وتحت سـلطة جنس بشري من الرعاة العنيفين الذين كان إرثهم يتأسـس على المهارة في رمي السـهام والفروسية. لا يجب توقع الكثير منهم فيما يتعلق «بالإنسانيات» ولا تتوقع الكثير من شعب لم يتم كتابة لغتهم المكتوبة إلا في وقـت متأخـر كعام 1599، وحيـث أن غرائزهم الأدبية لا تـزال بحاجة إلى تطويـر. ومع ذلك، يمكن القول دون وجل من التعارض أن لا عصر شـهد أي شيء مثل التشجيع الوافر للأدب، ورعاية رجال الأدب الذي ظهر تحت حكم إمبراطورين من هذه السلالة. ولكن سنشرح ذلك في الفصل اللاحق.

إن أدب هذه السلالة يمكن أن يقال أنه قد بدأ مع كاتب كان قبل كل شيء راوي قصـة. ولقد تم القول أن الروايات والتمثيليـات لا تدخل في مجال الأدب الخالص بالنسـبة للصينيين. هذا هو المعيار الذي يوجد له عملياً إن لم يكن نظرياً، استثناء ملحوظ جداً. ولد **بو سـونغ لينغ Pu Sung Ling** ، مؤلف **لياو تشـاي تشي أي. Liao Chai Chih I**[76] لتي يمكن ترجمتها بشـكل مناسـب تحت عنوان «قصص غريبـة،» في 1622، حصل على الشـهادة الأولى في 1641. بالرغم من أنه كان عالماً ممتازاً وكاتباً قشيباً جداً، إلا أنه فشل، مثل أناس طيبين آخرين، في أخذ الشهادات الأعلى التي كان يأمل أن ينال بها منصباً رسـمياً. ومن المفهوم، بشكل عام أن هذا الفشل كان بسبب إهمال الطرق المطروقة للدراسة الأكاديمية. على أي حال أصيب بخيبة أمل كبيرة. كل شيء آخر عندنا في سجل **بو سونغ لينغ Pu Sung Ling**، إلى جانب أنه رافق عن قرب عدداً من العلماء المرموقين في أيامه، قد جمع من أقواله هـو التي كتبت عندما وضع في 1679 القلم مع انتهائه من مهمة كانت سـترفعه خـلال فترة قصيرة إلى رتبة متقدمة في عالم الأدب الصيني. فيما يلي مقتطفات من هذا السجل:-

«مرتَدٍ الوسـيتاريا، متمنطق باللبلاب[77] هكذا غنى **تشـو يـوان Chu Yuan** في

---

76 يُذكر هذا الكاتب مرة واحدة هنا بهذا الاسم، وفي باقي المرات يذكر باسم مغاير كالتالي Pu Sung Ling، كما يظهر هذا الاسم كعنوان للجزء الذي يتناول بو سونغ لينغ) / المترجم.

77 يقال عن غيلان التلال في تلميح عن ثيابهم. هنا تم اقتباسها بالنسبة للطبقات الرسمية، تسخيفاً

لي ســاو Li Sao. عن الشــياطين التــي لها رأس ثور، وآلهة مــن الأفاعي، وهو من ذوي الأظافــر الطويلة[78] لم يمنعه الانهــاك من الحديث كل يفسر بطريقته الخاصة موســيقى السماء؛ وإن كانت نشــازاً أم لا يعتمد ذلك على أسباب سابقة. أما فيما يتعلق بي، فأنا لا أستطيع، مع الضوء الخريفي للذبابة المضيئة، أن أقارن نفسي مع عفاريت العصر.[79] أنا مجرد غبار في أشــعة الشــمس، أضحوكة ملائمة للأشرار.[80] إن مواهبي ليســت تلك التي لـ **أو باو**[81] **Yu Pao** مستكشف أنيق لسجلات الإله؛ أنا نوعاً ما متوثب من روح **ســو تونغ بو Su Tung Po** الذي كان يحب أن يســمع أحاديــث الناس عن الخــوارق. أن أطلب من الناس أن يدونوا كتابة ما يقولونه لي، ولاحقاً أن أكيف ذلك على شكل قصة؛ وهكذا مع مرور الوقت يكون أصدقائي من كل الأنحاء قد زودوني بكميات من المادة، التي تكون من عادتي في جمعها قد كبرت لتصبح كومة كبيرة.

"عندمــا عُلِّق القوس[82] عــلى باب والدي حلم أن راهباً بوذيــاً مريضاً، لكنه كان

للقب الذي بموجبه يحتلون المواقع والذي من وجهة نظر أدبية هم غير مؤهلين أن يشغلوه.

78 شاعر من سلالة تانغ، حاجبيه يلتقيان، وأظافره طويلة جداً وكان يكتب بسرعة كبيرة.

79 هذه ضربة أخرى موجهة إلى الطبقة الحاكمة. هسي كانغ Hsi Kang الشاعر المحتفى به، والموسيقار والخيميائي (262-223 ميلادية) كان جالساً في إحدى الليالي لوحده، يلعب على قيثارته عندما دخل عليه فجأة رجل له وجه صغير، وبدأ يحدق فيه ملياً وكان وجه الغريب يكبر كل الوقت. «أنا لن أقارن نفسي بالأشرار!» صاح الموسيقار بعد عدة لحظات وأطفأ فوراً الضوء.

80 عندما قرر ليو تشوان Liu Chuan، حاكم وو لينغ Wu Ling أن يخفف من فقره من خلال التجارة، رأى شيطاناً يقف إلى جانبه، يضحك ويفرك يديه مسروراً «إن الفقر والغنى هما قضايا تخص القدرة،» قال ليو تشوان Liu Chuan.» لكن أن يهزأ منك الشيطان،» وبالتالي امتنع عن غرضه.

81 كاتب اشتهر في الجزء الأول من القرن الرابع وألّف عمل من ثلاثين كتاباً بعنوان أبحاث في الطبيعة الخارقة.

82 إن ميلاد ولد كان يحتفى به رسمياً بتعليق قوس على الباب، وميلاد بنت من خلال إظهار منشفة صغيرة، وهذا يشير إلى الدور الذي سيقوم به كل منهما في دراما الحياة.

مغطى إلى نصفه بثوبه داخل الغرفة. على أحد صدريه كان يوجد قطعة كبيرة من البلاستر المادة اللاصقة بكبر عملة **الكاش Cash؛** وأبي الذي أفاق من نومة، اكتشف أنني أنا، المولود للتو، كان عندي بقعة ســوداء مشابهة على جسدي. كطفل، كنت نحيفاً ودائماً مريضاً، وغير قادر على الصمود في معركة الحياة. كان بيتنا بارداً ويبابا مثــل دير، وأن أعمل هناك لمعيشــتي بالقلم، فقد كنت فقــيراً مثل راهب يحمل كاســة للم الصدقــات، غالباً، وغالباً أركز رأسي على يــدي وأتعجب، «بالتأكيد ذاك الــذي أشــاح بوجهه إلى الحائــط[83] كان هو نفسي في حالة وجود ســابقة؛ وبالتالي حملت عدم نجاحي في هذه الحياة إلى تأثير سلالة لا زالت قائمة من الأخيرة. وقد قذفــت من هذه الناحيــة إلى تلك باتجاه الهواء الحاكم مثــل الزهرة التي تقع في أماكن قذرة؛ إلا أن الطرق الستة[84] للتقمص هي حقاً غامضة، وليس لي الحق في أن أشــكو. كما هو الوضع، يجدني منتصف الليل بضوء على وشك الانتهاء، بينما الريح تصفــر حزينة في الخارج، وعلى طاولتي الحزينــة ألملم رواياتي، وبصيص أمل لأنتج سلســلة «للمناطق الجهنمية.»[85] مع محصول وفير أنــا انعش قلمي، لكنني أنجح فقط في التنفيس عن مشــاعري المنفعلة، وبناء عليه عندمــا ألزم أفكاري بالكتابة عندها حقاً اســتحق الرثاء، واأســفاه! أنا لســت أكثر من طائر، يرتعش من صقيع الشــتاء، فــلا يجد مأوى له على الشــجرة، من حشرة الخريف التــي تزقزق للقمر وتحضن الباب من أجل الدفء، لأنه أين أولئك الذين يعرفونني؟ إنهم في البستان

---

83 يعني هنا الراهب دراما ناندي Dharma Nandi الذي أتى من الهند إلى الصين وحاول تحويل الإمبراطور وو تينغ Wu Ting من سلالة ليانغ Liang، وبعد فشله في محاولته، تراجع وهو مليء بالذل القاتل إلى معبد في سونغ شان Sung Shan، حيث جلس لمدة تسع سنوات أمام صخرة حتى طبعت صورته عليها.

84 الغاتي السادس أو شروط الوجود أي الملائكة، الرجال، الجان، الشياطين الجائعين، الوحوش الكاسرة والخطاة المعذبون.

85 عمل لكاتب مشهور، اسمه لين أي تشينغ Lin I Ching ازدهر أثناء سلالة سونغ.

المشجر وعلى الممر الحدودي،[86] ملفوفوين في كآبة لا تخترق!».

لسنين طويلة «القصص الغريبة» هذه تم تداولها فقط كمخطوطة. كان **بو سونغ لينـغ Pu Sung Ling** كـما يخبرنـا حفيده في كولوفـون أي في بيانات النشر، في الطبعة الأولى فقيراً جداً حتى أنه لم يسـتطع تغطيـة النفقات الباهظة للحطابين، ولم يحدث سـوى في وقت متأخر مثل سنة 1740 عندما أصبح الكاتب مقيماً لفترة ما في الأرض السـمراء التي أحب أن يصفها حتى قام حفيده المذكور أعلاه بطباعة ونشر المجموعة التي أصبحت مشهورة عالمياً. منذ ذلك الحين وضعت طبعات عدة أمـام الجمهور الصيني أفضلها تلك التي وضعها **تان مينغ لون Tan Ming Lun**، مفوض الملح الذي ازدهر في حكم **تاو كوانغ Tao Kuang**، والذي أنتج على حسابه الخاص طبعة ممتازة في سـتة عشر مجلداً صغيراً، مؤلف من ثمانية، كل واحد منها بمائة وستين صفحة.

أي قارئ لهذه القصص، عندما تنقل إلى لغة أخرى، قد يسـتدير ويسأل الأسئلة, لماذا ولم هذا الإعجاب العميق - حتى نسـتخدم تعبير بسـيط - الذي يمنح عالمياً لهم من المثقفين الصينيين. ويمكن إيجاد الجواب في الأسلوب الذي لا يقارن والذي فيـه حتى الأحقر بينهـم يكون مرتباً، جميع عناصر الشـكل التي تنم عن الجمال في الإنشـاء الصيني موجودة في قوة غامرة، يدفع الإيجاز إلى حدوده القصوى؛ كل شـذرة يمكن التخلص منها بأمان يتم إلغاؤها بدقـة متناهية، وكل مرة يحدث أن يوجـد، هنا أو هناك عدة تركيبات جديدة وأصيلة تسـتثمر كلمة وحيدة بقوة لا يمكن أن تكون قد أمتلكتها سـوى تحت أيـدي معلم دقيق للآداب. أضيف إلى ما سـبق ذكره الإيحاءات الوافرة والاقتباسات الملائمة من فصل للقراءة الذي يبدو أن

86 حَلِمَ الشاعر العظيم تو فو Tu Fu أن أحد أسلافه العظام وهو لي تاي بو Li Tai Po ظهر له «أتيا عندما أصبح بستان شجر القيقب مظلماً، وعائداً عندما يصبح الممر الحدودي محجوباً،» أي في الليل عندما لا يستطيع أحد أن يراه، والمعنى أنه لم يأت أبداً وأن أولئك الذين يعرفونني (بو سونغ لينغ)» أيضاً غير موجودين.

يكون متساوي الامتداد مع سلسلة الأدب الصيني كلها. غنى الاستعارة، والاستخدام الفني للشــخصيات بشكل عام التي تشكل فقط كتابات كارلايل[87] متواز ملائم لها والحصيلــة هي عمل أصبح نتيجة أســلوب من الطهارة والجــمال اليوم مقبولاً في الصــين كما بين النماذج الأفضل والأكثر كمالاً. في بعض الأحيان تجري القصة بجلاء وببساطة كافية، لكن في اللحظة التالية قد نغطس في صفحات ملؤها نص عويص، والمعنى فيه منشغل في الاقتباسات من، والايحاءات للشعر أو التاريخ للثلاث آلاف ســنة السابقة التي يمكن استعادتها فقط بعد البحث الدقيق عن التعليق والبحث الكثير في الأعمال المرجعية.

وفقــاً لأحــد المحرريــن إن تقديــم غايــة هــذه القصــص هــو «تمجيــد الفضيلــة وإدانــة الرذيلــة،» إن القصــة التاليــة المعنونــة «التلاميــذ المتكلمــون،» قــد تكــون شرحــاً عــادلاً للمــدى الــذي يفتــدي هــذا الوعد:-

في **تشانغ آن Chang An** يوجد عالم اسمه **فانغ تونغ Fang Tung** الذي تعوزه أي مقدرة، كان خليعاً لا مبدئياً تماماً وله عادة تتبع والتحدث إلى أي امرأة تســنح له الصدف الالتقاء بها. في اليوم الذي يســبق عيد **الطقس الصافي** من عيد الربيع، كان يتمشى خارج المدينة عندما رأى عربة صغيرة لها ستائر حمراء ومظلة مطرزة، يتبعها جمهرة مــن الوصيفات المنتظرات على أحصنــة، وكل واحدة فيهن جميلة بإفراط وكانت تمتطي حصاناً قصيراً عليه سرج للسيدات. وعندما اقترب ليأخذ نظره أفضل لاحظ السيد **فانغ Fang** إن ستارة العربة قد فتحت جزئياً وفي الداخل منها رأى بنتاً تلبس لباســاً جميلاً لها من العمر حوالي ســتة عشر ســنة لم ير بنتاً أجمل منها فتنة قط. بهره المنظر، فلم يستطع أن ينحي عينيه عنها، وكان يذهب مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلف وهو يتبع العربة لعدة أميال. رويداً، رويداً، ســمع السيدة الشــابة تنادي عــلى وصيفتها، وعندما صــارت الأخيرة بمحاذاتها قالــت لها،'انزلي الحجاب لي. من هو هذا الشــخص الوقح الذي يســتمر بالتحديق فيّ؟' وفقاً لذلك،

87 كارلايل ولد في 4 ديسمبر (كانون الأول) 1795 وتوفي في 1881. كان فيلسوفاً اسكوتلانديا ، وكاتب مقالات، ومؤرخاً ومعلماً / المترجم.

أنزلــت الوصيفة الحجاب ونظرت بغضب إلى الســيد فانغ وقالت له،'هذه عروس الأمير السابع في مدينة الخالدين ذاهبة إلى المنزل لتزور والديها وليست بنتاً قروية لتحــدق بها هكذا؟' ثم أخــذت حفنة من غبار ورمتها عليــه فأعمته. فرك عينيه ونظر حوله لكن العربة والأحصنة لم تكن موجودة أرعبه ذلك فعاد إلى البيت وكان يشــعر بعدم الارتياح من عينيه. طلب طبيباً وعلى بؤبؤ العينين كان يوجد شريط خفيف صغير ازداد في الصباح الباكر فأخذت عيناه تبتلان دون انقطاع كل الوقت. ظل الشريط يكبر، وفي بضعة أيام أصبح غليظاً مثل العملة الصينية **المسماة الكاش.** عــلى بؤبؤ العــين اليمنى ظهر نوع من اللولب، وبما أن أي دواء لم ينفع، فإن المتألم استسلم للحزن وأصبح يتمنى الموت. ثم فكر أن يتوب عن أعماله الشريرة وعندما ســمع أن **ســوترا كوانغ مينغ** يمكن لها أن تخفف الحزن، حصل على نســخة منها واســتأجر رجلاً ليعلمه إياها. في البداية كان العمل متعباً، ولكن رويداً أصبح أكثر رزانــة وأمضى كل ليلة في طريقة جلوس للعبادة متعبداً بحبات ســبحتة، في نهاية الســنة وصل إلى حالة من الهدوء التام عندما ســمع في يوم من الأيام صوتاً صغيراً، قــد يكون في كبر ذبابة، ينادي من عينه اليسرى، 'إنها ظلمة مروعة هنا.' ورداً على ذلك، سمع العين اليمنى تقوم،' لنذهب للخارج للتمشي والترفيه عن أنفسنا بعض الشيء. 'ثم شــعر بتلو في أنفه، مما جعله حكاكاً كما لو كان شيء ما ســيخرج من المنخارين، وبعد فترة شــعر به مرة أخرى كما لــو كان راجعاً من الطريق الأخرى. بعد ذلك ســمع صوتاً من واحدة من العينين تقول،' لم أشــاهد الحديقة منذ فترة طويلة؛ إن نباتات الســحلبيات ذبلت وماتت.' كان الســيد **فانغ Fang** محباً كبيراً لهذه الســحلبيات والتي زرع منها عدداً كبيراً، وقد أعتاد على سقايتها بنفسه، لكن منذ أن فقد نظره لم يجر أبداً أن أشــار إليها. وبعد أن ســمع هذه الكلمات ســأل زوجته فوراً لماذا تركت الســحلبيات يمتن واســتفسرت منه كيف عرف أنها ماتت، وعندمــا أخبرها، ذهبت للخــارج لترى فوجدتها حقيقة قــد ذبلت. فاندهش كل منهما لهذا الأمر. فتوجهت زوجته لتخبىء نفســها في الغرفة. ثم شاهدت شخصين صغيريــن لا يزيد طول الواحد منهما عن حبة الفاصوليــاء ينزلان من أنف زوجها ويركضــان خارجين من الباب حيث فقدت آثارهما. بعد فترة وجيزة عادا وطارا إلى

وجهه مثل النحل أو الخنافس يبحثون عن أعشاشــهم. استمر هذا لعدة أيام حتى اليوم الذي ســمع فيه السيد **فانغ Fang** من العين اليسرى، «هذه الطريق الملتوية ليســت مريحة قطعياً، إنه سيكون جيداً لنا أن نعمل بابا» على ذلك أجابت العين اليمنى، إن حائطي ســميك جداً؛ إنها لن تكون مهمة ســهلة.» سأحاول وأفتح من جهتــي،» قالت العين اليسرى، وبعد ذلك ســتخدمنا عن الاثنتين، عند ذلك شــعر السيد **فانغ Fang** بألم في عينه اليسرى كما لو كان شيء ينقسم، وفي لحظة اكتشف أن بإمكانــه أن يرى الطــاولات والكراسي في الغرفة، وقــد سر لذلك، وأخبر زوجته التي فحصت عينه واكتشــفت أن الفتحة في الطبقة اللاصقة التي كانت ترى فيها البؤبؤ الأسود يلمع من تحت، أما مقلة العين فكانت تشبه حبة الفلفل المكسورة، في صبيحــة اليوم الثاني كانت الطبقــة اللاصقة قد اختفت وعندما تم فحص عينيه بدقــة تمت ملاحظــة أن عينيه لهما بؤبؤين. اللولب في العــين اليمنى بقي كما في الســابق وعلموا وقتها أن البؤبؤين شغلا مســكنهما في عين واحدة. بالرغم من أن الســيد **فانغ Fang** كان لا يزال أعمى في عين واحدة، فإن الرؤيا في العين الأخرى كانت بقوة العينين مع بعضهما البعض. منذ هذا الوقت، أصبح السيد **فانغ Fang** أكثر حرصاً على سلوكه وحصل في ذلك الجزء من البلاد على سمعة إنسان فاضل.»

لنأخذ عينة أخرى لكن هذه المرة مع رشــة دعابة فيها، رجل معين اســمه **وانغ Wang** (بالانكليزيــة Smith) قــرر أن يدرس **الطــاو Tao** - بكلمات أخرى الفن الأســود - في معبد يتبــع المعتقد الطاوي. الراهب الذي كان يبدو أن عنده لمســة شــواذ في تكوينه، حذر **وانغ Wang**من أنه على الأرجح لن يتحمل التدريب؛ لكن بناء على إصرار الأخير سمح له الراهب أن ينضم إلى الرهبان المبتدئين الآخرين. ثم أرسله لقطع الخشب. وقد استمر في هذه المهمة لمدة طويلة حتى أنه بالكاد شعر، بالرغم من أنه استطاع أن يشاهد عدة خصال حميدة غير عادية لمهارة السحر التي قام بها الراهب، بأنه كان يحقق التقدم بنفسه.

بعد فترة لم يستطع أن يتحملها أكثر من ذلك؛ وبما أن الراهب لم يعلمه أي فنون ســحرية، قرر ألا ينتظر، بل ذهب إليه وقال، «يا ســيدي، أنا ســافرت عدة أميال طويلة للاســتفادة من تعليمكم، إذا لم تريدوا تعليمي، سر الخلود، فاسمح لي على

أي حال أن أتعلم بعض الحيل التافهة وبالتالي تشبع رغبتي في المعرفة لفنكم. لقد أمضيت حتى الآن هنا شــهرين أو ثلاثة أشــهر، لا أعمل شيئاً سوى قطع الخشب، كنــت أخرج في الصباح واعود في الليــل، عمل لم أعتد عليه أبداً في بيتي.» «ألم أقل لك،» أجاب الراهب، «من أنك لن تتحمل أبداً الاجهاد؟ غداً أنا ســوف أضعك على الطريق إلى بيتك. «يا سيدي،» قال **وانغ Wang،** لقد عملت عندك لفترة طويلة. علمنــي بعض الفن الصغير، حتى لا يكون مجيئي هنا قد ذهب بالكامل ســدى.» «أي فن،» ســأل الراهب، «جيــد،» أجاب **وانغ Wang،** لقــد لاحظت أنك عندما تمشي تقريباً في كل مكان، لا تشكل الجدران أو ما شابه، أي عقبة لك. علمني هذا وســأكتفي بذلك؛ وافق الراهب وهو يضحك وعلم **وانغ Wang** صيغة طلب منه استظهارها. عندما عمل ذلك طلب إليه أن يمشي عبر الجدار؛ لكن **وانغ Wang** بعد أن رأى الجدار أمامه، لم يرغب بعبوره. لكن ولأن الراهب طلب منه أن يجرب مشى بهدوء إلى الجدار وتم إيقافه هناك. وهنا صرخ الراهب قائلاً، لا تمشي بطيئاً هكذا. أخفض رأســك وانطلــق باتجاهه.» وهكذا تراجع **وانــغ Wang** عدة خطوات إلى الوراء وهجم عليه بأقصى سرعة، فاستسلم له الجدار وهو يمر وبلحظة وجد نفسه بالخارج. ولسروره من ذلك دخل ليشــكر الراهب، الذي قال له أن يكون حذراً في اســتخدام هذه القوة أو لن يكون تجاوب، وناوله في الوقت نفســه بعضاً من المال كمصاريــف للطريق. عندما وصل **وانغ Wang** إلى بيتــه أصبح يتفاخر بأصدقائه الطاويين وعن ازدرائه للجدران بشكل عام؛ لكن عندما لم تصدق زوجته قصته، بدأ ينفذ عرضه كما في الســابق. ابتعد عن الجدار، فأسرع بأقصى سرعة، مطأطأ رأسه، لكــن عندما لامس الطوب القــاسي أنتهى ككومة من تراب عــلى الأرض. التقطته زوجتــه ووجدت عنده كدمة في جبهته كبرها بحجم بيضة كبيرة، وهذا جعلها تزأر من الضحك؛ لكن **وانغ Wang** كان قد غلبه الهياج والخزي فشــتم الراهب الكهل لجحوده الدنيء.

حكايات لها نهايات مشــابهة غالباً ما توجد في ثنايــا هذه المجموعة. مثال على ذلك:-

«أصبحــت هي عمــوداً كثيفاً من الدخان يتجعد خارجاً مــن الأرض عندما أخذ

الراهــب قنينة على شــكل قرع غير قابلــة لوضع فلينة عليهــا ورماها مباشرة، في منتصف الدخان، سمع صوت مص فسحب عامود الدخان بأكمله إلى قنينة القرع، وبعدها أغلق الراهب قنينة القرع بفلينته ووضعها في كيسه.

عن هذه النقاط تتضمن القصة التالية مثلاً جيداً آخر:-

كان رجــل قروي يبيع في أحد الأيام كمثرى له في الســوق. كانت الكمثرى حلوة المذاق بشــكل غير عادي وبطعم رفيع وكان الســعر الذي طلبه من أجلها مرتفعاً. وقــف راهب طاوي في ثيابــه الرثة والممزقة عند عربة اليد وتســول واحدة منها، القــروي قــال له أن يذهب عنه، وبما أنه لم يفعل ذلك، بدأ يشــتمه ويحلف عليه بالإيمــان. قال الراهب، «عندك عدة مئات مــن الكمثرى على عربة اليد؛ أنا أطلب منــك واحدة فقط وفقدانها لن تشــعر بــه. إذا لماذا تغضب؟» قــال المتجمهرون للقــروي أعطه واحدة أدنى درجــة واتركه يذهب؛ لكن ذلك رفض أن يفعله بعناد. عقــب ذلك وجد مســؤول المكان، أن الحراك أكبر من اللازم، ذهب واشــترى حبة كمــثرى وأعطاها للراهب. الأخير تقبلها بانحناءة وتوجه إلى الجمهور وقال، «نحن الذيــن تركنا منازلنا وتخلينا عــن كل شيء عزيز علينا أعيتنا الحيلة لنفهم التصرف الأناني الجشــع في الآخريــن. أنا عنــدي الآن بعض الكمثرى ويشرفنــي أن أضعها أمامكم.» هنا ســأله أحدهم، « بما أنه معك بضع كمثرات فلم لم تأكلها هي؟» فرد الراهــب، «لأننــي أردت واحدة من نوى هذه كي ازرعها، بعــد أن قال ذلك مضغ بصوت عــالٍ حبة كمثرى؛ وعندما انتهى أخذ النوى بيــده، وفك معوله عن ظهره وقــام بحفر حفرة في الأرض عمقها عدة إنشــات، حيث وضع النوى فيها وســقى الأرض كما كانت سابقاً. ثم طلب من المتفرجين قليلاً من الماء الساخنة حتى يسقى النبتة، وقام أحدهم يحب النكتة بجلب قليل من الماء الساخن من دكان في الجوار. فقام الراهب بسكب الماء الساخن في المكان الذي عمل فيه الحفرة، فتركزت أنظار كل شــخص عليه عندما برزت الكرنبات الصغيرة، وأخذت تكبر تدريجياً أكبر وأكبر أصبح هناك شــجرة بالتدريج لها فروع مغطاة بشــكل متناثر بورق الشجر، وأخيراً كان هناك كمثرى جميلة وكبيرة ورائحتها حلوة تتدلى بوفرة عظيمة. هذه التقطها الراهب وســلمها بشكل مستدير للجمهور المجتمع حتى نفذت كلها، عندما تناول

معوله وقطّع الشـجرة لفـترة طويلة، وفي النهاية قطعها كلهـا. حملها على كتفيه، أوراق الشجر وكل شيء، وتسكع مبتعداً بهدوء. الآن ومنذ البداية كلها كان صديقنا القـروي بين الجمـع، مؤملاً رقبته من الشـد ليرى ماذا يجري، وقـد نسي بالكامل تجارته. عند مغادرة الراهب، استدار ليكتشف أن كل حبة من الكمثرى الخاصة به قد ذهبت. فعرف إثر ذلك، أن هذه كان يفرقها الرجل الكهل باريحية دون مقابل هي في الحقيقة كانت الكمثرى الخاصة به. وعند التدقيق بعربة اليد اكتشـف أن واحـدة من المقبضـين في عربة اليد مفقودة، وبالظاهـر كان قد قطع مؤخراً. كان يغلي من الغضب فلحق بالراهب، وعندما استدار على الزاوية رأى المقبض الضائع لعربة اليد متمدداً تحت الحائط والتي كان حقيقة شـجرة الكمثرى نفسـها التي قطعها الراهب. لكن لم يكن هناك أثر للراهب، مما سلّى الحشد في السوق.

هنـا يوجد منظـر الجزء الأخير منـه يجب أن يـبرر الاعتقاد أن السـيد **دبليو اس غيلـبرت W.S.Gelbert**. كان طالبـاً في الدراسـات الصينيـة، وأنـه اسـتعار بعضـاً مـن أفضـل نقاطه مـن «الأحبـة» لمؤلفـه **ليـاو تشـاي Liao Chai**:-

«في اليـوم التالي تمشى **وانـغ Wang** في الحديقة التي كانت مسـاحتها معتدلة بمسـطح أخضر جرى الاهتمام به والكثير من الأشجار والزهور. كان هناك تعريشة تتكون من ثلاث مرافق عليها سـقف من القش، ومغلق تماماً على جميع الجوانب بكساء نباتي وارف، وبينما هو مندفع في طريقه بين الزهور إذ به يسمع صخباً من إحدى الشـجر، نظر إلى الأعلى فرأى **ينغ نينغ Ying Ning** التي انفجرت بالضحك وتقريبا كانت ستقع. لا تفعلي! لا تفعلي!» صاح **وانغ Wang**، فستقعين!» ثم نزلت **ينغ نينغ Ying Ning** عن الشـجرة وكانت تضحك باستمرار، حتى عندما اقتربت مـن الأرض أضاعت قبضتها وسـقطت وهي ترقص. هذه أوقفت انبسـاطها وقام وانـغ بالتقاطها شـاداً على يدها بنعومة وهو يفعل ذلـك. بدأت **ينغ لينغ Yang Ning** بالضحك ثانية، وانجبرت على الاتكاء على شـجرة لتسـاعد نفسـها وقد مر بعض الوقت حتى أصبحـت قادرة على الوقوف. انتظر **وانغ Wang** حتى انتهت، ثم سـحب الزهرة من كم ردائه وسـلمها لها. «إنها ميتة،» قالت له؛ «لم احتفظت بها؟» فأجاب **وانغ Wang**، سـقطت منك يـا ابنة العم، في حفل المصابيح، وهكذا

احتفظت بها.» تم ســألته ما كان هدفــه بالاحتفاظ بها، وأجاب على ذلك بالقول. «لأظهر لك حبي وأنني لم أنسك، منذ ذلك اليوم الذي التقينا فيه فقد كنت مريضاً جــداً من التفكير بك كثــيراً وأنا تغيرت عما كنت عليه من قبل. أما الآن فإن حظي الجيد غير المرتقب بأن القاك، أرجو أن تشــفقي عــلي.» لا تحتاج أن تعمل قضية كبــيرة منها على شيء تافه.» أجابت هي، «ومع قريبتك أيضاً! أنا ســأصدر الأوامر لتزويدك بسلة كاملة من الزهور عندما تذهب.» قال لها **وانغ Wang** أنها لم تفهم، وعندما اســتفسرت ما هو الشيء الــذي لم تفهمه، قال لها، «أنــا لا أهتم بالزهور نفســها؛ أنا أهتم بالشخص الذي قطف الزهور.» «بالطبع،» قالت «كل واحد يهتم بعلاقاتــه، لا تحتــاج أن تقــول ذلك لي. «إنمــا لم أكن أتكلم عن علاقــات عادية،» قال **وانغ Wang**، «وإنما عن الأزواج والزوجات.» ما هو الفرق؟ ســألت ينغ نينغ. «لمــاذا،» أجاب **وانــغ Wang** «فالزوج والزوجة دائماً مع بعض.» وهو ما لا أطيقه، صاحت هي أن أكون دائماً مع أحدهم؛»

في النهاية تم توحيد الزوجين، وعاشــوا بســعادة بعد ذلك بالرغم من حقيقة أن الســيدة الشابة اعترفت بأنها ابنة ثعلب وتظهر قدرات خارقة. وفي مرة من المرات خدمتهــا هذه القوة خدمة جليلة. وبما أنهــا كانت تحب الزهور كثيراً فقد ذهبت إلى الحد الذي أخذت تقطف الزهور من شجرة جار لها.

في إحدى الأيام كشــفها جارها وحدق بها لبعض الوقت باندهاش جذل؛ لكنها لم تتحــرك، مفضلة أن تضحك. الرجل أغرم بها جداً، وعندما نزلت وهي تبتســم عن الحائط من طرفها، مشــيرة كل الوقت بأصبعها إلى نقطــة قوية، اعتقد أنها كانت تعطيه موعداً فقدم نفســه عند هبوط الليل في المكان نفســه وبالتأكيد كانت ينغ نينغ هناك. مســك يدها ليبثها أشواقه، ليكتشــف أنه كان ممسكاً بقطعة خشب كانــت موقوفة إلى جانب الحائط، والشيء الثاني الــذي كان يعرفه أن عقربا لدغه بقوة في إصبعه. هذه كانت نهاية الرومانســية الخاصة به سوى أنه توفي من جراء الجرح خلال الليل.

في إحدى القصص صدم زائر في معبد كثيراً من رســمة مائية تتضمن صورة لبنت

حلوة تقصف الزهور وتقف أمامها بإعجاب جذل. ثم يشعر أنه نفسه يحمل برفق إلى الرســمة على الحائط مثل «أليس عبر المرآة،» وفي الإقليم البعيد يلعب دوراً في دراما منزلية وفي النهاية يتزوج البطلة التي في الصورة. إلا أن حضور شــخص بشري شــك فيه من قبل رجل في درع ذهبي وله وجه أســود كالكهرمان الأســود.» وكان مسروراً أنه اســتطاع أن يعــود ثانية؛ وعندما انضم ثانيــة إلى صديق كان ينتظره، لاحظنا أن البنت في الصورة ضمت شعرها إلى الأعلى كالنساء المتزوجات.

هنــاك توجــد قصة **ريب فان وينــكل Rip Van Winkle** مع العودة المريضة للبطل ليجد، كما يقول الشاعر الصيني:-

«المدينة ومحيطها كما كانت قديماً

لكن القلوب التي أحبتنا منذ زمن أصبحت باردة.“

توجد قصة ثعبــان البحر، وقصة الطائر الكبير، أو طائر الرخ؛ كذلك قصة تتعلق بأيوب، الذي احتراماً منه والتزاماً بقرار تم الوميض به من خلال البرق في الســماء عندما كانت الينك، الســفينة الشراعية التي كانوا يســتقلونها، على وشك الغرق في عاصفــة، والذي نقل من قبل زملائه المســافرين إلى قــارب أصغر كان يطوف على غير هدى في البحر. ما كاد الضحية سيئة الحظ أن تستجمع قواها وتنظر حولها إلا ليجد أن الينك تغرق وكل روح عليها غرقت.

التالي هو مقتطف من قصة يقع فيها طالب شــاب اســمه ليو Liu في حب فتاة اسمها **فنغ هسيان Feng Hsien** ابنة الثعلب وبالتالي تمتلك قوة عجائبية يربطها الصينيون بذاك الحيوان:-

«إن كنت ترغب حقيقة بأخذ شيء كان يخصني ’قالت هي، ‘فستأخذه. إثر ذلك أخرجــت مــرآة وأعطتها له، قائلة، ‘في أي وقت تريد فيــه أن تراني يجب عليك أن تبحــث عني في كتبك؛ وإلا لن أكون ظاهرة للعيــان، ’وبلحظة اختفت. ذهب **ليو Liu** إلى البيت حزيناً جداً في قلبه؛ لكن عندما نظر إلى المرآة فها هي **فنغ هسيان Feng Hsien** تقــف وظهرهــا له، تحدق، كما يقال، في واحد كان مغادراً بشــكل

نهائي، وعلى بعد مائة خطوة منها. ثم فكر هو بأوامرها الصارمة وجلس إلى دروسه رافضاً اســتقبال أي زائر؛ وبعد عدة أيام عندما صدف أن نظر إلى المرآة كانت **فنغ هســيان Feng Hsien** هناك وبوجهها متوجهة نحوه مبتسمة بكل جوانحها. بعد هــذا كان دائماً يخرج المرآة لينظر إليها. لكن بعد شــهر تقريباً بدأ تصميمه الجيد يختفي، وخرج مرة أخرى يمتّع نفســه ويضيع وقته كما في الســابق. عندما عاد إلى المنــزل ونظــر في المرآة كان يبدو على **فنغ هســيان Feng Hsien** أنها كانت تبكي بحرارة؛ وفي اليوم الذي يليه عندما نظر إليها ثانية كانت تقف بظهرها في مواجهته كما كان في اليوم الذي اســتلم فيه المرآة. فعلم الآن أن الســبب في ذلك يعود إلى إهمال دروســه، وفوراً جلس للعمل مرة أخرى بكل اجتهاد، ولم يمض شــهر حتى أدارت له وجهها ثانية. ومن هنا، عندما كان أي شيء يقطع تقدمه تصبح قســمات **فنــغ هســيان Feng Hsien** حزينة؛ وعندمــا كان يتدبر أمره جيــداً فحزنها كان يتحول إلى ابتســامات. في الليل وفي الصباح كان ليو ينظر في المرآة معتبراً ذلك على ضوء مَعْلم محترم، وبعد ثلاث سنوات نال شهادته بنجاح. 'الآن 'صاح هو، 'يمكنني أن أنظر إلى **فنغ هسيان Feng Hsien** وجهاً لوجه.' وبكل تأكيد كانت هي هناك بحواجبها المائلة والمعلّمة بشــكل حساس بقلم الرصاص. وبأسنانها التي تظهر بين شــفتيها، كان يبدو أنها تتكلم **وليو Liu** يســمعها تقول، 'نحن نعمل زوجاً جميلاً، يجب أن أسمح بذلك، ' وفي اللحظة التالية كانت **فنغ هسيان Feng Hsien** تقف إلى جانبه.»

هــذه قصــة من العــالم الآخر، وهو موضــوع محبب عند **بو ســو لينغ Pu Su Ling.** وهو يصور الاعتقاد الشعبي من أنه عند الموت، يتم استدعاء روح الإنسان إلى المطهر من قبل اللكــترز[88] الروحانيين الذين يقومون أيضاً باقتراف الأخطاء. إن نوبات الإخفاق الشــامل أو الغيبوبة تنتج الكثير من هذه القصص حول أشــخاص يزورون العالم السفلي ومن ثم يتم إعادتهم للحياة.

«رجل اســمه **تشــانغ Chang** مات فجأة وتمت مرافقته فوراً من قبل اللكترز-

88 ليكترز هو موظف مهمته افساح الطريق للحاكم الروماني في الاحتفالات العامة / المترجم.

الشياطين إلى حضرة ملك المطهر. جلالته عاد إلى سجلات **تشانغ Chang** وما فيها من الصالح والطالح، ومن ثم، بغضب شديد أعلم اللكيترز أنهم جلبوا الرجل الخطأ وطلب منهم أن يعودوا به مرة أخرى. وهم على وشك مغادرة قاعة الدينونة، أقنع **تشانغ Chang** مرافقيه أن يسمحوا له بأخذ نظرة على المطهر، وبالتالي قام الشياطين بقيادته عبر الأقسام التسعة، مشيرين إليه إلى تلة السكين، والشجرة السيف، وغيرها من الأشـياء المثيرة للاهتمام. رويدا رويدا وصلوا إلى مكان حيث كان يوجد راهب بوذي معلق، يتدلى في الهواء، الرأس إلى الأسفل، بحبل من خلال ثقب في رجله. كان يصرخ من الألم ويتمنى الموت؛ وعندما اقترب تشـانغ منه، يا للهول فقد رأى أخاه. بحزن كبير سأل المرشدين الذين معه عن السبب لهذا العقاب فأخبروه أن الراهب كان يتـألم هكذا لجمعه الأموال لصالح نظـام الأخوية الذي يتبع له ومن ثم يهدر بالخفاء العائدات على لعب القمار والدعارة. وأضافوا قائلين، «لا يستطيع أن يهرب من هذا العذاب إلا إذا تاب عن سوء أفعاله.» عندما استـفاق **تشانغ Chang** كان يعتقد أن أخاه قد مات وأسرع إلى مقبرة معبد **هسـينغ فـو Hsing Fu** الذي كان الأخير ينتمي إليه. وهو داخل عبر الباب سـمع صراخاً وعندما وصل إلى غرفة أخيـه وجده محبوسـاً مع دمل سيء في رجله، وكانت رجلـه مربوطة إلى الحائط، والسبب في ذلك كما أخبره أخوه أن هذا الموضع أكثر وضع محمول يمكنه أن يستلقي فيه. أعلمه **تشانغ Chang** الآن ماذا رأى في المطهر فارتعد الراهب خوفاً حتى أنه تخلى فوراً عن شرب النبيذ وأكل اللحم وكرس نفسه بالكامل إلى التمارين الدينية. خلال أسـبوعين أصبـح وضعه جيداً وعرف بعد ذلك على أنـه أكثر راهب مثالي.»

مقتطعات غير متواصلة من أبيات الشعر يمكن إيجادها مبعثرة في صفحات هذه القصص كافية لأن تعطي المذاق لنوعية الكاتب دون إسعاف للقارئ. هذه الأبيات تعجب القارئ كثيراً:-

«بالنبيذ والزهور نحن نطارد الساعات

بقفزة أبدية واحدة

لا قمر، لا ضوء لنحيّي الليلة-

مطلوب منك أن تجلب هذا الشعاع.»

لكــن كما رأينا يبدو أننا شــاهدنا ما فيه الكفاية من **بو ســونغ لينغ Pu Sung Ling.** 'إن كان يوجــد، ' كــما ادعى **هــان أي Han Yu** «معرفة بعد الموت،» فان الاحترام العميق والشاســع الذي يجد هذا العمل نفســه فيه من قبل المثقفين في الصين يجب بالحقيقة أن يبرهن على أنه البلســم المســكن للروح المجروحة **لآخر الخالدين.**

إن **هونغ لو منغ Hung Lou Meng** التي يطلق عليها خطأ، لكن بشكل ملائم اسم **حلم المقصورة الحمراء** هي العمل الذي أشير إليه سابقاً على أنه يلامس أعلى نقطــة من التطور التــي وصلتها الرواية الصينية. وقد يكــون أنه تم تأليفها خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر اسم مؤلفها غير معروف. أنها في العادة تنشر في 24 مجلــداً مــن الحجم الثماني وتتضمن 130 فصلاً ويــتراوح عدد صفحات كل منهــا على الأقل 30 صفحة مــما يجعل مجمل عدد الصفحات أربعة آلاف صفحة. ليس أقل من 400 شخصية، وربما أكثر بالأهمية أو أقل يتم التعريف بها أولا وقبل كل شيء في القصــة، والحبكة فيها يتم العمل عليها بالكامل، كما لو كان ذلك عملاً يخص **فيلدنغ،**[89] بينما الرســم التصويري للشــخصية - أي للشــخصيات العديدة - يستذكر أفضل الجهود لأعظم راوٍ في الغرب. وبصفتها بانوراما عن الحياة الاجتماعية الصينية، التي يجري فيها تقديم كل ملمح يمكن تصوره للقارئ، فإن **حلم المقصورة الحمــراء Hung Lou Meng** لا يوجــد لها منافس أبداً. وإذا اختصرت في أبســط معانيهــا فإنهــا قصة حب أصيلة وفعالة، كتب الجزء الأكبر منها بأســلوب ســهل، تقريبــاً بلهجة محلية مليئة بحكايات مضحكة ومبكية للحياة الإنســانية اليومية، تنتشر فيها بشكل متنافر قصائد صغيرة بحلة أدبية عالية. الفصول الافتتاحية التي تهدف إلى تشكيل رابطة بين عالم الأرواح وعالم البشر ينتمي إلى الخوارق؛ بعد ذلك تجري القصة بسلاسة على خطوط أرضية، لكن باستمرار يحجب نوره من التواجد القريــب للتأثيرات الروحيــة. أن نأخذ فكرة ما عن الروايــة في مجملها ربما يمكننا

89 فيلدينغ: كاتب إنكليزي عاش بين 1707 و1754، كان معروفاً بفكاهيته وبمقدراته على الهجاء Satire، و(ناني) قصة بعنوان توم جونز .

جمعه من الملحق التالي.

قبل أربعة آلاف وستمائة وثلاث وعشرين سنة كان من غير الممكن إصلاح السماء. بالتالي قامت آلهة الأشـغال بالعمل على إصلاح 36501 كتلة من اليشـب الثمين، كل واحــد منها يســاوي 240 قدماً مربعاً ضرب 120 قدماً عمقــاً. لكنها من هذه استخدمت فقط 36500 ورمت الكتلة المتبقية على واحدة من القمم السماوية.

هذا الحجر الذي دخل مرحلة التحضير إذا جاز القول أصبح في المرحلة الروحية.

كان باســتطاعته أن يتمــدد أو يتقلــص. وكان يمكنه أن يتحــرك. كان يعي وجود العالم الخارجي، وشعر أنه قد جرح عندما لم يتم استدعاؤه لينجز مهمته المقدسة.

في يــوم من الأيــام كان راهبان، بوذي وطاوي، يمران مصادفــة في ذلك الطريق، فجلســا لفترة ليستريحا، وفوراً لاحظا الحجر الكئيب الذي كان مرمياً هناك، والذي ليس أكبر من قلادة مروحة سيدة. «فعلاً، يا صديقي، أنت لا تفتقد إلى الروحانيات، «قال الراهب البوذي للحجر وهو يلتقطه وأمسكه وهو يضحك ووضعه على راحة كفــه. ولكن لا يمكننا التأكد من أنه يمكنك أن تبرهن أبداً أنك ســتكون نافعاً حقاً؛ بالإضافــة إلى ذلك فأنت تفتقر إلى حفرية والتي بدونها ســيبقى مصيرك بالضرورة غير مكتمل. على أثر ذلك وضع الحجر في كم ردائه ووقف ليكمل الرحلة.

«وماذا تنوي أن تفعل به، إن سمح لي أن أسأل،» استفسر مرافقه، «بالحجر الذي أخذته؟»

«أنا أعني،» قال الآخر، «أرســله إلى الأســفل إلى الأرض ليلعــب دوره المحدد له في مصــير عائلة محددة تنتظــر وصولها بلهفة. انت ترى، أنــه عندما لفظت **إلهة الأشــغال** هذا الحجــر كانت معتادة أن تعبئ وقتها بالتجوال في الســماوات حتى جلبتهــا الصدفة إلى جانــب زهرة قرمزية جميلة. وقد أثــار إعجابها جمال الزهرة الأخــاذ، الحجــر بقي هناك لفترة من الوقــت يهتم بحامية بــكل العناية المحببة، ويومياً يبلل جذوره بأجود أنواع الرحيق الموجود في الســماء، حتى في آخر المطاف استسلم إلى تأثير الحب النزيه، فقامت الزهرة فغيرت شكلها وأصبحت أجمل فتاة.

«عزيــزي الحجر،» صرخت الفتاة في نشــوة الحياة التــي وجدتها من جديد،'إن النداوة التي منحتني أياماً هنا سوف أسددك إياها في حالتنا المستقبلية بدموعي! »

بعد عصور طويلة، رأى راهباً آخر، يبحث عن الضوء، الحجر ذاته ملقى في المكان القديم لكن بســجل محفور عليه - ســجل كيف لم يتم استخدامه لإصلاح السماء، وكيــف نزل لاحقاً إلى عالم البشر، مع وصف كامل لكل ما قام به ورآه وســمعه في تلك الحالة.

«أخــي الحجر،» قال الراهب، «إن ســجلك لا يتعامل بأعمال الأبطال بين الناس. إنه لا يثيرنا بقصص السياســيين الأفاضل أو بالوطنيــين الذين لا يموتون. إنها تبدو كأنما كانت رواية بســيطة عن حب البنات والشباب، وهذا بالكاد يثير انتباه العالم العظيم المشغول.

«يا سيدي الراهب،» أجاب الحجر، «ما تقوله هو صحيح بالفعل؛ وأكثر من ذلك أن قصتــي البســيطة ليس معجباً بها ازدهار بياني أو فــن أدبي. مع ذلك، فإن عالم البشر على ما هو عليه، وملامحه تقررها حتى الآن، لعبة الهوى الإنساني، لا يمكنني إلا أن أفترض أن القصة التي ربما حفرت هنا قد تكون نافعة نوعاً ما، حتى لو كانت سترمي فقط بسحر أكثر على ساعة المأدبة، أو لتساعد على انقشاع غيمات الصباح التي تتجمع فوق إفراط ليلة أمس.»

وبنــاءً عليه، نظــر الراهب مرة أخرى إلى الحجــر، ورأى أنه يحمل قصة واضحة وبسيطة:-

«الجمال والألم يسيران يداً بيد

إلى منحدر الموت هبوطاً،

يحكي قصة كيف أن الحب البريء لامرأة تطور لوعة مدمرة وعميقة؛ وكيف من عبودية حب ضائع رفعت روح واحدة إلى شيء رفيع، إن لم يكن إدراك أنقى لمهمة الإنســان على هذا الأرض. فبالتالي، قام هو بنســخها كاملة من البداية إلى النهاية. وها هي:-

في عهد ســلالة ما، التي تركها المؤلف دون تســمية، بــرز أخوين جداً من خلال تقديــم خدمات فعالة للدولــة. بالمقابل حمّلا بعلامات الــرضى الإمبراطوري. وقد جُعــلا من النبلاء ذوي مرتبة عالية. وقد جمعا ثــروة. القصور التي خصصت لهما كانت كلها بالقرب من بكين، وهناك كان خلفهما مباشر مَن يتمتعون بفوائد نجاح الســلف عندما بدأت هذه القصة. كان لكل أخ منهما ولداً ووريثاً؛ لكن في التاريخ الــذي نحن فيه الآن، تــوفى الآباء والأبناء. كانت زوجة أحــد الأبناء فقط على قيد الحيــاة، وفي أحســن حال من الصحة والعافية، امرأة عجوز تخطت الثمانين ســنة مــن عمرها. من أطفالها توجــد ابنة، وقد تزوجت وانتقلــت إلى الجنوب، وابنتها **تــاي أو Tai Yu** هــي بطلة هذه الحكايــة، ابن الابن الثاني للمــرأة العجوز وابن العم المباشر **لتاي أو Tai Yu** هو البطل وكان يعيش مع جدته. وكان اسمه **باو أو Pao Yu** كانت العائلتان النبيلتان في قمة قوتهما وثرائهما. إن مؤسســتهما الفخمة مترعة بكل أنواع الترف. إقامة الحفلات وحضور المسرحيات كانت دائما على جدول أعمالهما اليومي ولتتويج كل ذلك كان قد تم اختيار شقيقة **باو أو Pao Yu** لتكون واحدة من اثنتين وســبعين زوجــة مخصصة لإمبراطور الصــين. لا أحد توقف عن التفكــير من أن الحوادث الإنســانية يحكمها قانون التغيــير المحتوم. من هو قوي اليوم سيكون وضيعاً في الغد: الأغنياء سيصبحون فقراء والفقراء سيصبحون أغنياء. وإذا كان واحد ما يفكر أكثر من الباقين وتوقف برهة ليعرف تعيينات السماء، فهو يضعف أمام الأمل بألا يحدث الانهيار، على أي حال في يومه هذا.

كانــت الأمور هكذا عندما توفيــت والدة **تاي أو Tai Yu**، وقرر والدها أن يضع ابنته يتيمة الأم، في رعاية جدتها في بكين. وبمرافقة مربيتها انطلقت السيدة الصغيرة فــوراً إلى العاصمة، ووصلت هدفها بأمان. ليس ضرورياً أن نتوقف عند جمالها ولا عنــد عبقريتها، مع أن هذين الأمرين مشروحان بالتفصيل في النص الأصلي. يكفي القول أنه خلال الأعوام التي مرت منذ أن أصبحت معروفة لأول مرة لدى الجمهور، يقال أن العديد من الرجال الشجعان ماتوا من حب بطلة الرواية الآسرة هذه.

اســتقبلت **تاي أو Tai Yu** بلطف من الجميع. وخاصــة من جدتها التي ذرفت دمــوع الأسى المر على موت والدة **تاي أو Tai Yu** المبكر، ابنتها المفقودة والمدللة.

تم تقديمها لخالاتها وأبنــاء خالاتها، ولأبناء خالاتها وخالاتها، بأعداد كبيرة حتى أن الطفلة المسكينة راودها اندهاش كيف يمكنها أن تتذكر جميع أسمائهم، بعد ذلك جلســوا سوية وأخذوا يتحدثون سألوها كل شيء عن أمها وكيف مرضت، وأي نوع مــن الدواء تناولــت، وكيف ماتت، وكيف دفنت، حتــى أن الجدة العجوز أخذت تبكي ثانية. «وأنت، أي نوع من الدواء تأخذين، يا عزيزتي،» سألتها السيدة العجوز، بعد أن رأت أن **تاي او Tai Yu** نفسها تبدو رقيقة جداً وتحمل على خدها الواضح بقعة متوردة مشكوك فيها.

«آه، لم أفعــل شــيئاً منذ أن بدأت الأكل،» أجابت **تاي او Tai Yu**، ســوى تناول الــدواء من هذا النــوع أو ذاك. كذلك زرت أفضل الأطبــاء لكنهم لم يعملوا لي أي شيء نافع. عندما كنت فقط ثلاث سنوات من العمر أتى راهب عجوز قذر محاولا إقناع والدي أن يسمحا لي بأن أصبح راهبة. قال إنها الطريق الوحيدة لإنقاذي.»

«آه، ســوف نداويك وسوف تشــفين،» قالت جدتها وهي تبتســم،» سنعيد لك صحتك في أقل من لمح البصر.»

ثم اخذت **تاي أو Tai Yu** تتعرف على أقاربها، بمن فيهم على خالتها، والدة **باو أو Pao Yu**، التي حذرتها من مزاجه الخاص، التي وصفته بأنه غير أكيد ومتغير. «ماذا! الشخص الذي يضع عاجاً؟» سألت **تاي أو Tai Yu** لكنها أضافت بشكل فوري، «لكننا لن نكون مع بعضنا البعض،» وكانت بعض الشيء مندهشــة من هذا التحذير غير العادي. «آه، أنت ســوف تريدين، « قالت خالتها. «إن جدته تدلله بشكل مخيف وتسمح له أن تسود كلمته في كل شيء. بدل أن يكون مجداً في عمله، كما يجب أن يكون الآن، إنه يضيع وقته مع البنات، ويفكر فقط بالاستمتاع، دون أن يكون لديه أي فكرة عن احتراف أي عمل أو إضافة أي رونق جديد لاسم العائلة. أقول لك احذريه.»

لقد اقتربت ساعة تناول العشاء، وبعد الوجبة سئلت **تاي أو Tai Yu** عن التقدم الــذي أحرزته في دراســتها. كانــت متعمقة جداً في عجائب **الكتــب الأربعة**، وتم الاتفاق من قبل الجميع على أنها أحســن من أبناء خالاتها، عندما ســمع صوت في الخارج، ودخل شاب ملبسه أنيق جداً حوالي سنة أكبر من **تاي أو Tai Yu**، يرتدي

قبعة كانت تملؤها حبات اللؤلؤ بشــكل مسرف. وجهه كان مثل البدر في الخريف. وقســماته مثل زهور الصباح في الربيع، جفونه مخططــة بقلم الرصاص، وله أنف مصقول وعيــون مثل الموج المتموج، كانت هذه جزءاً مــن التفاصيل التي يتكون منهــا المظهر الخارجي الجميل الذي لا يرقى إليه شــك. وحول عنقه تتدلى قطعة يشــب غريبة؛ وحالما أصبحت **تــاي أو Tai Yu** واعية تمامــاً لوجوده مرت رجفة بجسدها النحيل. وشعرت أنها هنا أو في مكان آخر قد رأت هذا الوجه من قبل.

حيا **باو أو Pao Yu**- لأنه هكذا اسمه - جدته بكل احترام عظيم، وذهب ليرى أمــه. وبينما هو غائب قد يكون مفيداً أن نتحدث بعض الكلمات عن الأيام الأولى للسيد الشاب.

باو أو Pao Yu، الاســم الذي يعني اليشب الثمين، سمي كذلك لأنه عندما ولد، لدهشــة الجميع العظيمة، كانت في فمة قطعة يشــب صغيرة - قطعة مثل المرآة الجميلــة المنيرة، تحمل خرافة محفورة بأســلوب قديم عجيب من عدة آلاف من الســنين. اجتمعــت العائلة واتخذت قــراراً أن هذا الحجر كان نوعــاً من التميمة المقدسة، الهدف منها لم يكن واضحاً في هذه اللحظة، ولكن دون شك سيتم الإفصاح عنــه تدريجيــا، أمر واحد كان مؤكداً. بما أن هذه القطعــة أتت إلى هذا العالم مع الطفل، بالتالي يجب أن ترافقه في هذه الحياة، وبالتالي كان **باو أو Pao Yu** معتاداً على لبســها مدلاة حول عنقه. إن اخبار هذه الظاهرة انتشرت في كل مكان. حتى أن **تاي أو Tai Yu** سمعت بها قبل إن تأتي وتسكن مع العائلة.

وهكذا كبر **باو أو Pao Yu** عنيداً مشاكســاً. وكان إنســاناً ولماحاً، ومحباً للمرح، لكنه كان يكره الكتب. وقد أعلن، حقيقة، أنه لا يســتطيع القراءة إلا إذا كان لديه على كل جانب زميلة من زميلاته الطالبات وتكون ســيدة شــابة، حتى يســتطيع أن يحتفــظ بهدوء عقله! وعندما كان أبوه يضربــه، كما كانت العادة، كان يصرح «عزيــزتي البنت! عزيــزتي البنت!» كل الوقت بهدف، كــما شرح الأمر لاحقاً لأبناء خالته للتخلص من الألم. وجادل قائلاً، النســاء مصنوعات من الماء بعقول متحركة شفافة، بينما الرجال في معظمهم قد جلبوا من الطين، من كتل طينية بحته جاهلة.

عنـد هذا الوقـت كان قد عاد من رؤيـة والدته وتم تعريفه رسـمياً **بـ تاي أو Tai Yu.** وصرخ، «هـا! لقـد رايتهـا سـابقا في مكان مـا. ما الذي يجعـل عينيها حمراويـن هكـذا؟ في الحقيقة، يا ابنة الخالـة، **تاي أو Tai Yu** سـوف ندعوك ' ابـك يا طفلتي، إن كنت سـتبكين كثيراً.' هنا بعض الإشـارات قـد عملت لقطعة اليشـب، وهـذه وضعتـه في مـزاج غاضـب بشـكل فـوري. لا يوجـد من بين أبنـاء خالاته أحـد عنده منها، قـال لهم، وبالتالي لن يلبسـها بعـد اليوم، حدث خـلاف عائـلي وخلاله ذهبـت **تـاي أو Tai Yu** إلى السرير وبكـت حتى نامت.

بعد فترة وجيزة من ذلك، اضطرت شـقيقة أم **بـاو أو Pao Yu** بفعل الظروف، أن تبحث لها عن مكان إقامة في العاصمة. وجلبت معها ابنة لها **باو تشـاي Pao Chai**، ابنة خالة أخرى للسـيد **باو أو Pao Yu** حوالي سـنة أكبر منه؛ وإلى جانب أنه تم اسـتقبالهم اسـتقبالاً حاراً فقد دعيت الإثنتان لتسكنا بشكل مريح في قصر العائلة الفسـيح الذي يملكه أقاربهم. هكذا لقد كان القدر الذي جمع **باو أو Pao Yu** مع بنات خالاته تحت سقف واحد.

وعاجلا أصبح الثلاثة أصدقاء حميمين. لقد تعلمت **باو تشاي Pao Chai** بانتباه على يد والدها وكانت تستطيع أن تصمد حتى أمام **تاي أو Tai Yu** البارعة. أحب **بـا أو Pao Yu** أن يكون برفقة أي منهما أو مـع كليهما. لقد كان دائما مسروراً ما دام عنده، إلى جانبه، بنت جميلة، وفوق ذلك كان مبهوراً بفطنة هاتين السـيدتين الشابتين على وجه الخصوص.

لكـن كانت لـه نوبات عارضة من الإحباط المزاجي تتغير من خلال الأشـياء من محيطـه الأرضي الزائـد. ويقول «بماذا أنـا أفضل من خنزير يتمـرغ؟ لماذا ولدت وترعـرت بين عظمة الـثراء ومجده عوضاً عـن بيت مفروش بـبرودة، حيث كان بإمكاني أن أستمتع بالمشـاركة الخالصة مع الأصدقاء؟ هذا الحرير والساتان، هذه اللحوم الغنية والنبيذ المختار؟ أية منفعة تجلبه لهذا الجسد الفاني الذي لي؟ آه أيها الغنى: آه أيتها القوة! أنا العنكما أنتما الاثنين، أنتما اليرقة الخضراء لعملي الأرضي.»

كل هذه الأفكار السـقيمة، تم تبديدها بسرعة بوجود بنات الخالتين الجميلتين،

حيث بالحقيقة، أمضى **باو أو Pao Yu** معظم الوقت الذي كان عليه أن يمضيه مع كتبه. وكان دائماً مشـغولا بالركض بينهما ليرى الواحدة منهما أو الأخرى أو هما في اجتماع عام عند جدته. كان الاجتماع «رأسـاً إلى رأس» مع **باو تشـاي Pao Chai** التي أقنعته أن يريها قطعة اليشـب الرائعة التي له، مع الحفر التي عليها، والذي قراته كالتالي:-

«لا تفقدني، لا تنساني

الحياة الخالدة ستكون من نصيبك.»

إن حماقة إحدى الجواري جعلت **باو أو Pao Yu** يعي أن **باو تشاي Pao Chai** نفسـها كانت تمتلك تميمة ذهبية رائعة حفر عليها ببعض الكلمات؛ وبالطبع أصر **باو أو Pao Yu** على رؤيتها فوراً وعليها كان مكتوباً

«لا تدع هذا الرمز يذهب من جانبك

والشباب الدائم سيبقى معك.»

في منتصف هذا المنظر المثير للاهتمام، تدخل **تاي أو Tai Yu**، وعندما رأت مدى الحميمية المنشـغلان بها كلاهما» قالت أنها تأمل أن لا تكون قد تعدت عليهما.» حتى في هذه الأيام الأولى إن نبرة صوتها كانت تدل على وجود عوارض لتلك الغيرة التي استسـلمت لها لاحقاً. في هذه الأثنـاء كانت قد احتكرت تقريباً الاجتماع مع **باو أو Pao Yu**، وهو من جانبه يجد نفسـه يومياً أكثر وأكثر منجذباً نحو الدعابة العابثـة **لتاي أو Tai Yu** الجميلة مقارنة مع الهدوء والحيوية الأكثر أورثوذكسـية أو تقليدية **لباو تشـاي Pao Chai. فباو تشاي Pao Chai** لا تعرف معنى الغيرة. هي كذلك تحب التقاذف بالكلمات، وتبادل أبيات الشعر أو الاندهاش من الألغاز مع ابنة خالتها الزئبقية المتقلبة؛ لكنها لا تسمح لأفكارها أبداً أن تتجول نحوه على غير تطابق مع التحفظ الأنثوي الشديد.

لكن **تاي أو Tai Yu** ليست كذلك. لقد كانت لبعض الوقت المرافق الرئيس **لباو أو Pao Yu** عندما انضمت إليهما **باو تشاي Pao Chai**. وقد أصبحت تعتبر الولد

الجميــل تقريبــا جزءاً منها، مع العلم أنها لم تكن تعــي الحقيقة إلا عندما دعيت لاقتسام صحبته مع أخرى. وهكذا كان الوضع، من أن **باو أو Pao Yu** أظهر تفضيلاً مفتوحاً لها، فإنها لا زالت تحمل ضغينة تجاه إعطاء اهتمام أقل **لباو تشــاي Pao Chai**. وكالعــادة فإن هذا الاهتمام انطلق من النبض غير المحســوس للإثارة. لقد وقــع **باو او Pao Yu وتاي أو Tai Yu** بحــب بعضهما البعض انطلاقا من حقيقة أنهما كانا يتشــاجران دائماً؛ وكلما ازدادا شجاراً كلما انتهت مشجاراتهما دون تغيير، كما يجب أن تنتهي، بتجديد الحب بينهما. وكقاعدة كانت **تاي او Tai Yu** تتقهقر في نهاية المطاف مثل النســاء جميعاً - أي إلى الدموع؛ وبالطبع كانت لا تعوز **باو أو Pao Yu** إن يكون فارســاً، فكان أمامه لا يوجد أي بديل آخر ســوى أن يمســح الدموع. وفي مناســبة محددة أعلنت **تاي أو Tai Yu** أنها ســوف تموت، فرد عليها **باو أوPao Yu** في تلك الحالة سيصبح هو راهبا ويكرس حياته لبوذا؛ لكن في هذه الحالة كان هو الذي ذرف الدموع وهي التي مسحتها.

كل هــذا الوقــت كانت كل من **تــاي أو Tai Yu وباو تشــاي Pao Chai** على علاقــات من الاحترام الدقيــق. كان والد **تاي أو Tai Yu** قد توفي مؤخراً، ويبدو أن نصيبها أصبح مرتبطاً بشــكل أوثق من ذي قبل مع العائلة التي تعيش في وسطها. فقــد أعطيت زينة ذهبيــة جميلة لتتلائم مع تميمة **باو تشــاي Pao Chai**، وقد أمضى الشباب الثلاثة أيامهم مع بعضهم البعض، يفكرون فقط كيف يحصلون على أعلى اســتمتاع من كل ســاعة تمضي، لكن في بعض الأحيان، ظل من التفكير الجاد يجعــل لحظات **تــاي أو Tai Yu** من الوحدة الإجبارية أســوداً؛ وفي يوم من الأيام فاجأها **باو أو Pao Yu** بقســم منعزل من الحديقة كانت منشغلة في دفن الزهور التي ألقت بها الريح بينما كانت تغني الأبيات التالية:-

«الزهور تذبل وتطير
والطيران يملؤ السماء؛
نوارهم يغادر، ويذهب أريجهم
ولكن من يقف متحسراً؟
وشعاع لعاب الشمس المتجول

يُرى على البيت الصيفي،
زهرة الصفصاف تتساقط بهدوء يرطبها الندى
تلطخ الستارة المطرزة،
بنت داخل الغرف الداخلية،
أنا أحزن لأن الربيع قد ولى،
لفيفة حزنٍ تكبل قلبي،
والسلوى غير موجودة.
أمر بالحديقة
وأستدير لأستعمل فأسي،
أُدوس على أمجاد سقطت
كلما ذهبت وأتيت بخفة،
توجد هناك مرشات الصفصاف وزهور شجر الدردار.
وهذه لها رائحة كافية
لا أهتم كثيراً إذا الخوخ والبرقوق،
قطعت من كل غصن
شجرة الخوخ وشجرة البرقوق أيضاً
ستزهران في السنة القادمة؛
لكن في السنة القادمة، في الغرف الداخلية
أخبرني هل سأبقى فيها؟
عند القمر الثالث تعشش الرائحة العطرة الجديدة
وسيرى ضوء النهار،
طيور السنونو الجديدة ترفرف بين جذوع الشجر،
كل في طريقه الذي لا يفكر فيه.
في العام القادم مرة أخرى سيبحثون عن طعامهم.
بين الزهور الملونة،
لكن سيسمح لي الذهاب، وخيوط الأشعة ستذهب

ومعهم الأماكن التي تظللها السنونو
ثلاث مائة وستين يوماً يعملون سنة
وفيها قد كمن لي
خناجر من الريح وسيوف من الصقيع
ليقوموا بعملهم القاسي.
كم ستطول الزهور النضرة الجميلة
التي تتوقد أكثر وأكثر سطوعاً؟
في صباح ما ستعوم الأوراق التويجية بعيداً
ولكن إلى أين لا أحد يعرف.
البراعم التي تزهر وهي مسرورة تجذب العين،
لكن إن كلح لونها يضيعها البصر؛
آه، دعني أدفنها وأنا حزينة
إلى جانب هذه الدرجات هذه الليلة!
لوحدي، لا يراني، أمسك بفأسي
بالعديد من الدموع المرة؛
إنها تسقط على الساق العريانة
فتظهر نقط الدم.
طائر الليل توقف الآن عن النواح
الفجر يأتي نشطاً،
أنا أحمل فأسي وأغلق البوابات
تاركاً ورائي مكان الدفن؛
لكن ليس حتى تضرب أشعة الشمس الحائط
حتى يأتي النعاس ليهتم بي
المطر البارد ينقر بسرعة على اللوح الزجاجي
بينما أضطجع مرتعشاً هناك.
أنت تندهش أنه مع الدموع التي تذرف

فإن خدي الشاب قد تبلل؛
هم جزئيا ينهضون من الأفكار الغاضبة،
وجزئياً من النوم.
الندم - لأن الربيع يأتي فجأة؛
الغضب - لأنه لا يستطيع أن يدوم،
لا صوت ليعلن اقترابها،
أو يحذرنا أنها قد دمرت.
ليلة أمس في الحديقة
تم الاستماع بوهن إلى الأغاني الحزينة،
غُنيت، كما أعرف، من قبل الأرواح،
أرواح الأزهار والطيور.
لا نستطيع إبقائهم معنا هنا،
تلك الطيور والأزهار المحبوبة جداً،
إنها تغني ملء فضاء الموسم.
وتتفتح لساعات قصيرة جداً،
آه، لو أني على جناح مصنوع من الريش
أحلق عالياً وأطير،
برفقة أرواح الزهور سأسعى إلى
حدود السماء
لكن وأنا مرتفع في السماء
أي قبر هناك؟[90]
لا، أعطني كيساً مطرزاً
حيث أضع جمالهم،
وأمنا الأرض، وأمنا الأرض الطاهرة،
ستخبئهما في ذراعيها.

---

90 هذان البيتان قصار في الأصل.

وهكذا فإن هذه الأشكال الحلوة التي أتت دون بقع
ستذهب ثانية دون بقع
لا ممر ملطخ بالطين أو بالأوساخ
على جانب بالوعة مزعجة نوعا ما.
وداعاً، أيها الزهرات، للأبد الآن،
وكلما أسرعت كان أفضل،
لم أتألّه بعد عندما
أكون معكم سوف أغطس بالراحة
أنا الذي أستطيع أن أدفن الزهور هكذا
سأكون مضحكة للجميع؛
لا أستطيع أن أقول في الأيام القادمة
من هي الأيدي التي ستدفنني،
انظر كيف أن الربيع يبدأ بالخذلان
كل زهيرة تتفتح، تذبل مجدداً؛
وهكذا يوجد بكل عصر عمر
وموت للبنات الجميلات؛
وعندما يذهب الربيع الهارب،
وتنتهي أيام الجمال
الزهور تتساقط، والبنات الجميلات يمتن،
وكلاهما يصبح لا وجود له.»

في هذه الأثناء استلم والد **باو أو Pao Yu** تعيينا أخذه مسافة لا باس بها، وكانت النتيجة أن الحياة في المنزل أصبحت تسـير بشـكل طائش أكثر من المعتاد. لا شيء كانـت الجدة العجوز تحب مثل رحلـة أو مأدبة - وليمة، في الحقيقة من نوع ما، فيها كثير من النبيذ والمرح، لكن الآن، بطريقة ما أو بطريقة أخرى، حتى الأشـياء الصغيرة تخـرب في كل علبة مرهم الذبابة العادية كانـت تؤكد وجودها، وفي كل كأس فـوار كان شيء مـر يفور دائماً. المال لم يعد كثيراً كما في السـابق، وكان يبدو

أن هناك دائما شــيئاً غير مرئي مسلطاً لاســتنزاف مصادر العائلة. أعضاء متعددون من هذه أو من تلك العائلة الكبيرة وقعوا بمشــاكل جدية مع الســلطات، القتل أو الانتحار، أو السرقة أصبحت موجودة داخل محيط المبنى، قمة الازدهار قد وصلوا إليها وساعة الانحدار قد أتت. ومع هذا فالجميع ما يزال يلهو ويمرح، واستمر **باو أو Pao Yu** **وتاي أو Tai Yu** في لهوهما الممتع في الغزل أو صناعة الحب. وفي هذا أيضاً حبتهما الظروف صداقتها. تخلت والدة **باو تشــاي Pao Chai** عن الشــقق التي حددت لها وذهبت لتســكن في مسكن في المدينة، وبالطبع أخذت **باو تشاي Pao Chai** معها. بعض الوقت قبل هذا الأمر ألمحت إحدى الجواري بشكل عرضي **لبــاو أو Pao Yu** أن ســيدتها الصغيرة **تاي أو Tai Yu** على وشــك المغادرة لتعود إلى الجنــوب. أغمــي على **باو أو Pao Yu** في المكان نفســه، فحمل من فوره ونام، فقد تحمل مغادرة **باو تشاي Pao Chai** برصانة. وكان هو لا يريد أن يستمع إلى الافتراق عن محبوبته **تاي أو Tai Yu.**

وكذلــك كانت هــي قد وقعت في غرامه، وكانت قد همســت جاريتها منذ زمن بعيــد في أذنها الإمكانية الناعمة حول الاتحاد مع ابن خالتها. في اللـــيل وفـــي النهـــار كانـــت تـــفكر فـــي **باو أو Pao Yu**، وأســفت بمرارة أن لا يكون لها أب أو أم في هذه اللحظات التي يمكنها الاعتماد عليهما ليفعلا الموضوع الأقرب إلى قلبهــا. في إحدى الأمســيات بعــد أن أنهكتها ضربات الحــب العظيم المدمرة، رمــت بنفســها، دون أي فهم، على أريكة لتنــام، لكنها لم تكــد أن تغمض عينيها حتى دخلت جدتها وجماعة من خالاتها وأبناء خالاتها ليقدموا، كما قالوا تمنياتهم القلبية. اندهشت **تاي أو Tai Yu** وسألت ما هو الشيء الذي يهنئونها عليه، ومن ثــم شرحــوا لها أن أباها تزوج مرة أخرى وأن امرأة أبوها قد رتبت لها زواجاً ملائماً جداً، وبناء عليه عليها أن تغادر البيت فوراً. بفيضانات من الدموع ترجت **تاي أو Tai Yu** جدتها بأن لا ترســلها هي لا تريد أن تتزوج، وهي تفضل أن تصبح جارية عند قدمي جدتها من أن تقع فريســة لهكذا مؤامرة. وقد اســتنفذت كل مجادلة ممكنــة، وحتــى أنها تضرعت لروح والدتها الميتة من أجــل أن تدافع عن قضيتها، ولكن الســيدة العجوز كانت متصلبــة، وفي النهاية خرجت وهي تقول أن الترتيب

سيتم تنفيذه. ثم أن **تاي أو Tai Yu** لم ترى أي مهرب سوى الشيء الوحيد المتبقي، عندمـا دخل **باو أو Pao Yu** في تلك اللحظة وبابتسـامة عـلى وجهه بدأ بتقديم تهانية أيضاً.

«شـكراً لك، يا ابن الخالة،» صرخت هي، نهضت ومسـكت به بقوة من ناحية الساعد. الآن أعرفك على حقيقتك أيها المخلوق الأجوف والمتقلب!.»

«مـا بك، يـا فتاتي العزيزة؟» اسـتفسر **باو أو Pao Yu** باندهـاش. «كنت فقط مبسوطاً لأجلك من أنك وجدت محباً في النهاية.»

«وأي حبيب تعتقد أنني سـأهتم له ووجدته الآن؟ استفسرت **تاي أو Tai Yu**» حسناً،» أجاب **باو أو Pao Yu** «أتمنى أن أكون أنا، هذا أول شيء، وأنا أعتبرك ملكي وإن كنت تفكرين بالطريقة التي تصرفت بها اتجاهك...»

«ماذا!» قالت **تاي أو Tai Yu**، جزئياً لم تفهم كلماته، «هل يمكن أن تكون أنت؟ وهل ترغب أن أبقى معك؟»

«سوف ترين بأم عينيك،» أجاب **باو أو Pao Yu** حتى إلى سويداء قلبي وبعدها فقط ستصدقين.»

وبناء عليه، اسـتل سـكيناً وغرسه في جسده وفتحه ليكشف عن قلبه حتى تراه. بصرخة حاولت **تاي أو Tai Yu** أن توقف يده وشعرت أنها نفسها قد نقعت بتدفق الـدم الحار النضر؛ عندمـا أطلق **تاو أو Tao Yu** فجأة تأوهـاً بصوت عالٍ وصاح «أيها السـماء العظيمة، لقد ذهب قلبي!» فوقع فاقد الوعي إلى الأرض، «النجدة! النجدة!» صاحت **تـاي أو Tai Yu** «إنه يموت! إنه يموت!» «أفق!» «أفق!» قالت خادمة تاي أو Tai Yu؟ «من الذي سبب لك هذا الكابوس؟»

وهكذا أفاقت **تاي أو Tai Yu** واكتشفت أنها حلمت حلماً مزعجاً. لكن كان عندها شيء أسوأ من ذلك. لقد مرضت بمرض سيء؛ إنه من الغريب القول بان **باو أو Pao Yu** كان نائماً من المرض في الوقت نفسه. أتى الطبيب وقاس لها نبضها- في الحقيقة

كلا النبضين - وهز رأسه وشرب فنجان شاي، وقال أن **تاي أو Tai Yu** بحاجة إلى تغذية المبادئ الحيوية التي ســتحصل عليها من وصفه طبية كتبها في ذلك الزمان والمكان. أما بالنسبة **لباو أو Pao Yu** فإنه ببساطة يعاني من نوبة سوء الهضم المؤقت.

وهكذا تحسنت **تاي أو Tai Yu**، واستعاد **باو أو Pao Yu** صحته. عاد والده إلى البيت، فاضطر مرة أخرى ليظهر نفسه أنه يعمل، وبالتالي كانت لديه ساعات أقل ليقضيها في رفقة ابنة خالته. أصبح الآن رجلا شاباً، وأخذت مسألة زواجه حيزاً مهماً في تفكير والديه وجدته. عدة أســماء اقترحــت، واحدة منها اقترحها والده؛ لكن في النهايــة تم الاتفاق على أنه من غير الــضروري الذهاب بعيداً لتأمين زوجة ملائمة. لقد كان ببســاطة خياراً بين الفتاتين الشابتين اللتين سبق لهما وإن اشتركتا كثيراً في حياته اليومية. لكن الصعوبــة تكمن بالتحديد هناك. وحيث يوجد الكمال يصبح من الصعب الاختيار بسبب الحسد.

في روايــة صينية أخرى مشــهورة، ســبق أن وصفناها، تــم التغلب على صعوبة مشــابهة بهذه الطريقة-البطل يتزوج الاثنتين لكن هنا، كان كبار العائلة مشغولين بادعاءات متنافســة. من خلال أخلاقهما اللطيفة والتي كســبت الناس جعلت كل مــن **باو تشــاي Pao Chai وتاي أو Tai Yu** محبوبتان بالقدر نفســه من جميع نزلاء هذين البيتين النبيلين، من الجدة المحترمة نزولاً إلى أبخل جارية. جمالهما كان ذا أســلوب مختلف لكن في حضرة البحث عــن الرأي فيهما، كل واحدة منهما ربما تكون قد ربحت أصواتاً متســاوية. كانت **تاي أو Tai Yu** دون شــك الأذكى بينهما، لكن **باو تشــاي Pao Chai** كان لها الحصة الأفضل، وفي تقدير أولئك الذين معهم القــرار، فإن الصحة هــي المطلوبة اليوم. وتم ترتيب أن يتزوج **باو أو Pao Yu باو تشاي Pai Chai**.

الترتيبــات المصيرية هذه عملت بالطبــع بسرية تامة. ويجب أن تعمل تمهيدات متعددة قبل أن تحل الوعود الشــفهية مكان الزواج الرســمي. وإنها حقيقة ثابتة ومؤكــدة أن الأسرار يمكــن حفظها عند الرجال، أما هــذا السر فقد أسرّ على الأقل لدزينة من النســاء، وبالتالي، في إحدى الليالي عندما كانت **تاي أو Tai Yu** مريضة

ووحدها في الغرفة ترنو إلى الحب الذي أسـند إلى أخرى، سمعت جارتين تتحدثان في الخارج، تهمسـان بأسرار وتخيلت أنها سمعت اسـم **باو أي Pao Yu**. أنصتت مـرة أخرى، أما هذه المرة دون شـك سـمعتهما تقولان أن **بـاو أو Pao Yu** كان مشغولاً بالزواج من سيدة تنحدر من عائلة جيدة وإنجازات كثيرة. في هذه اللحظة صاح ببغاء، «هذه سيدتك، اسكبي لها الشاي!» مما أخاف الجاريتين بشكل فظيع، وافترقتا فوراً، إحداهما ركضت إلى الداخل لتلبي حاجات **تاي أو Tai Yu** نفسـها. فوجدت سـيدتها الشـابة في حالة من الاضطراب الشـديد، لكن **تاي أو Tai Yu** أصبحت تمرض الآن دائماً.

في هذه المرة كانت بالفعل مريضة جداً. لم تأكل أي شيء. وقد ظنتها قحة مخيفة. حتـى أن الطبيب الصيني لم يمكنه إلا أن يرى أنها في مرحلة متقدمة من الانحدار. لكن لا أحد يعلم أن مرض الجسد بدأ بمرض في القلب.

في إحدى الليالي أصبح مرضها أسـوأ وأسـوأ؛ وكانت ممددة وكأنها ميتة. ركضت جارية لاسـتدعاء جدتهـا بينما بقي عدد آخر منهـن في الـغرفة يتحـدثن عـن **بـــاو أو Pao Yu** وزواجه المزمع. «توقـف كل ذلك الآن،» قالت إحداهن. جدته لم توافق على السـيدة الشابة التي اختارها والده. لقد سبق وأن عملت اختيارها- لسـيدة شـابة أخرى تعيش مع العائلة، ونحن كلنا نحبها.» سـمعت البنت الميتة هذه الكلمات، ثم لمحت في ذهنها أنها هي نفسـها التي سـتكون العروس المنوي أن يتزوجهـا **بـاو أو Pao Yu**. «إن لم أكن أنا،» جادلت هي، «مَنْ مِن الممكن أن تكون؟» بعد ذلك، اسـتجمعت، كما يقال جهد الإرادة الأسمى، ولاندهاش الجميع الكبير طلبت أن تشرب الشاي. أولئك الذين كانوا يتوقعون أن يروها ميتة أصبحوا الآن مسرورين من التفكير أن شبابها في النهاية قد انتصر.

وهكـذا أصبحت **تـاي أو Tai Yu** مرة أخرى بصحة جيـدة جديدة ولكن ليس بصحـة أفضل. فمرض الروح لا يداويه الدواء. وفي هذه الأثناء وقعت حادثة رمت كل شيء آخر وراء ظلها. **باو أو Pao Yu** أضاع قطعة اليشب الخاصة به. بعد تغيير ملابسه، نسي أن يعلقها حول رقبته وتركها موضوعة على طاولته. لكن عندما طلب

إحضارها، كانت قد اختفت. وقد تم البحث في كل مكان في العالي وفي الأسفل، دون نجــاح. إن التميمــة الثمينة فقدت. لا أحد تجرأ عــلى أخبار جدته ويواجه غضب السيدة العجوز.

بالنسبة **لتاي أو Tai Yu** فإنه عالج الموضوع بخفة. وتدريجياً حصل عنده تغيير في ســلوكه العام. فقد أصبح غائب الذهن كثيراً. في أحيان أخرى كان لســانه يهرب منــه وكان يتكلم الهــراء. وفي النهاية لقد ســاء لدرجة أنه أصبــح لزاماً عليهم أن يفعلوا شــيئاً. وهكذا كان يجــب تبليغ جدته. بالطبع كانــت منزعجة جداً لكنها عملت خطوة بالاتجاه الصحيح، وعرضت جائزة كبيرة لاســترجاعها. النتيجة كانت أنه تم طلب الجائزة. لكن في هذه الأثناء كانت القطعة قد فقدت شيئاً من بهائها الأخاذ؛ ولكن التفتيش الدقيق أظهر في الحقيقة أنها ليســت سوى تقليد ذكي. كان ذلــك خيبة أمل مدمرة للجميع. إن مرض **باو او Pao Yu** كان يزيد يوماً بعد يوم. والده اســتلم تعييناً آخر في المقاطعات وكان من المرغوب فيه، بشكل بارز، أن يتم زواج **بــاو أو Pao Yu** قبل مغادرته. كان الاعتراف الأســاسي للإسراع في احتفالية الزواج أن العائلة كانت في حداد. ضمن المصائب الأخيرة التي أصابتهم مؤخراً هي أن الســيدة الشابة في القصر توفيت، وتأثيرها في القصر قد ولى. ومع ذلك إذا أخذ كل شيء بعين الاعتبار، كان من المستحسن إتمام الزواج دون تأخير. كان والد **باو أو Pao Yu** لا يهتم بسلوك ابنه الوحيد، قد صدم فعلا من التغيير الذي رآه الآن. وجه مرهــق وهزيل بعيــون غائرة فاقدة للمعان. يتجــول في حديث غير منطقي- كان هذا هو الوريث الذي ركزت العائلة أمالها فيه. أما الجدة العجوز، بعد أن وجدت الأطباء ذوي منفعة قليلة، استدعت قــارئ بخت، الذي كان يـــقول مـــا كـــان يــطلــب منه قولــه، أي أن **باو أو Pao Yu** عليه أن يتزوج من واحدة ذات مصير ذهبي لمساعدته.

وأخيراً إن العناصر الأساس في هذه التراجيديا التي سوف تمثل، يجب أن تستشار. بدأوا **بباو تشــاي Pao Chai** لأســباب مختلفة؛ وهي مثــل بنت متواضعة وذات تربية جيدة، تلقت أوامر أمها بســكوت خانع. يضاف إلى ذلك أنها منذ ذلك اليوم توقفت عن ذكر اســم باو أو Pao Yu. لكن مع **باو أو Pao Yu** كان الأمر مختلفاً

جداً. كان حبه **لتاي أو Tai Yu** موضع شــهرة سلبية نوعاً ما، خاصة مع الجواري، واحدة منهن ذهبت إلى الحد الذي أخبرت فيه والدته أن قلبه يقول له أن يتزوجها والتي شـعرت أن العائلة كانت ملزمة لرفضها. وبالتالي كان من المشكوك به كيف سـيتلقى أخبار خطبته من **باو تشـاي Pao Chai**. وبما أن نتائــج حالته الصحية الراهنــة لا يمكــن إهمالها. فقد تم التقدير أن يلــوذ إلى الحيلة. وهكذا تم تحضير المذبح، ولا شيء بقي سوى أن تجلب الموت الساطع إلى حنجرة الضحية.

في الوقت القصير الذي مر، تم تمرير الأخبار إلى **تاي أو Tai Yu** بطريقة قاسـية دون اسـتثناء. سمعت بالصدفة في حديث مع جارية في الحديقة بأن **باو أي Pao Yu** سـيتزوج من **باو تشـاي Pao Chai**. شعرت البنت المسـكينة أن رعداً خرق مخها. كل هيكلها اهتز من هذه الصدمة اسـتدارت لتذهب إلى غرفتها لكن دون وعــي منهــا تبعت الممر المؤدي إلى شــقة **بــاي أو Pai Yu** دون أن تلحظ الخدم الموجودين. وشــقت طريقها عنوة لتجد نفســها واقفة في حضرة ابن خالتها. كان جالســاً وينظــر إليها وضحك ضحكــة المجانين عندما رآها تدخــل؛ لكنه لم ينهض وكذلك لم يدعوها للجلوس. جلســت **تاي أو Tai Yu** دون أن يســألها أحد ودون أي كلمــة تحدث بها أي منهــما. وجلس الاثنان هكذا وحدقا ببعض ونظرا شــزراً لبعضهما البعض حتى انفجرا بالضحك الجنوني الذي لا معنى له، جنون مستشفى المجانــين. «ما الذي يجعلك تمرض، يا ابن الخالة؟» ســألت **تاي أو Tai Yu**، عندما انحــسرت أولى الدفقــات لمتعتهما المميتــة؛ «أنا متيم في حب **تــاي أو Tai Yu**،» أجابها؛ وبعدها انطلقا في صراخ أعلى من الضحك أكثر مما سبق.

عنــد هذه النقطة فكرت الجواري أن الوقت قد حــان ليتدخلن، وبعد كثير من الضحك، وهز الرأسين تم إقناع **تاي أو Tai Yu** بالخروج، وبدأت بالركض عائدة إلى غرفتها، وأسرعت بقوة اكتســبتها مؤخراً. ولكن وهي تقترب من الباب رأوها تقع، والجارية المذعورة التي أسرعت لالتقاطها وجدت أن فمها مليء بالدم.

في هــذا الوقــت، انتهــت جميع الشــكليات وتم تحديــد يوم العــرس. إنها لن تكــون حفلــة زواج كبيرة، لكــن بالطبع ســيكون هناك جهاز العــروس. في بعض

الأحيان تبكي **باو تشـــاي Pao Chai** لكنها لا تعــرف بالضبط لماذا؛ لكن الترتيبات للحــدث الضخــم في حياتهــا لا تــترك لها لحســن الحظ وقتــاً كثــيراً للتأمل. **تاي أو Tai Yu** في سريــر المــرض لوحدها باســتثناء جارية مخلصــة. لا أحد يفكر بها كثــيراً في هذه الفترة؛ عندما ينتهي الزواج ســتحظي بنصيب مزدوج من الاهتمام.

في أحــد الصباحات طلبت من جاريتها أن تجلب لها جميع أشــعارها وتذكاراتها المتعددة الأخرى عن الأيام الســعيدة التي مــرت. أخذت تقلبها مرة بعد المرة بين أصابعهــا النحيلة والضاوية حتى قررت أخيراً أن تغذي بها النار. إن الجهد هذا قد أتعبها والجارية أخذت تسر، وهي في يأس، إلى الجدة لطلب المساعدة. وجدت أن المكان كله كان مهجوراً وفكرة طرأت عليها في الحال لتذكرها أن الســيدة العجوز موجودة بلا شــك عند **باو أو Pao Yu**. إلى هناك انطلقت بقدر ما كانت قدماها تسرعــان بها، لكن لتظل مندهشــة عندما رأت أن الغرف مغلقــة ولا أحد هناك. وكانت مضطربة جــداً ولا تعرف كيف تفسر هذه الظروف التي لم تطلب رؤيتها، حين كانت تهم بالإسراع عائدة إلى غرفة **تاي أو Tai Yu** شــاهدت لحســن حظها، خــادم زميــل لها في البعيد، والذي أخبرها فوراً أن اليوم هو يوم زواج **باو أي Pao Yu**، وأنــه انتقل إلى جناح آخر من الشــقق. وهكــذا كان. وافق **باو أي Pao Yu** بــسرور عــلى الاقتراح من أنه ســيتزوج ابنة خالته، فقد تم إفهامــه بمهارة أن ابنة خالته المعنية كانت **تاي أو Tai Yu**. وإن الســاعة المبتغاه جداً قد دنت. العروس المحجبة، ترافقها الجارية نفسها التي رافقتها منذ زمن بعيد من الجنوب، نزلت من هودجها عند باب **باو أو Pao Yu**. عزفت مقطوعة مسيرة الزواج، فتقدم الزوجان الشابان إلى احتفال الصلاة النهائي الذي سيجعلهما زوجاً وزوجة لا فكاك لهما. وكما هي العادة في هذه المناسبات رفع **باو أو Pao Yu** خمار عروسه. للحظة بدا وكأنه تحول فجأة إلى حجر وهو واقف لا يستطيع الكلام وبلا حراك، وبأعين مثبتة تحدق في وجه لم يتوقع رؤيته. في هذه الأثناء تراجعت إلى الشقة الداخلية؛ وبعدها ولأول مرة عاد الصوت **لباو أو Pao Yu**.

وصرخ، «هل أنا في حلم؟» ونظر حوله إلى أقربائه وأصدقائه المتجمعين.

«لا، إنــك تزوجت،» أجابه عدد من الذين كانوا قربه. «احذر؛ والدك في الخارج. هو قام بترتيب كل شيء.»

«مَن ذلك؟ قال **باو أو Pao Yu**، برأس جاهز للصد، ومشــيراً باتجاه الباب الذي اختفت عبره **باو تشاي Pao Chai**.

«كانت تلك هي **باو تشاي Pai Chai** زوجتك...»

«أنت تعنين **تاي أو Tai Yu**؛ **تاي أو Tai Yu** هي زوجتي،» صاح مقاطعاً لهم؛ «أنا أريد **تاي أو Tai Yu!** اريد **تاي أوTai Yu!** اجلبونا مع بعض وانقذونا كلينا!» هنا أصابه انهيار عصبي. نشيج كثيف خنق أي كلام آخر حتى جاءه الغوث من انهمار فيضان الدموع.

في هذا الوقت كانت **Tai Yu** تحتضر، تحتضر بشكل يتجاوز أي أمل باستدعائها. وعرفت أن ساعة الخلاص قد دنت، وكانت ممددة هناك بهدوء تنتظر الموت. وبين الفينة والأخرى كانت تشرب ملء معلقة شــاي صغيرة من الحســاء ولكن تدريجياً اختفى الضوء من عينيها، والجارية التي أخلصت لها إلى النهاية شــعرت أن أصابع سيدتها الشابة كانت تبرد بسرعة. في تلك اللحظة بانت شفاه تاي أو **Tai Yu** وكأنها تتحرك وقد سمعت بوضوح وهي تقول «آه باي أو، آه **باي أو Pai Yu**...» وكانت هذه آخر كلمات لها.

في تلــك اللحظة اقتحمت على اللحظات الخافتة التــي تأتي في أعقاب الانحلال، أصوات موسيقى بعيدة حملها النسيم، زحفت الجارية خلسة إلى الباب، واجهدت أذنها لتســمع، لكنها لم تســمع شــيئاً باســتثناء تنهدات الريح وهي تتأوه بشكل متقطع من خلال الشجر.

لكن العريس نفسه كان قد دخل وادي الظل الأسود. كان **باو أو Pao Yu** مريضاً جداً، كان يهذي ويهذي **بتاي أو Tai Yu**، حتى في النهاية، أخذت **باو تشــاي Pao Chai** على عاتقها، عندما ســمعت الأخبار، المهمة المؤلمــة بإخباره أنها قد ماتت. «ماتت؟» بكى **باو أو Pao Yu**، «ماتت؟» وبتأوه عالٍ وقع على السرير فاقد الوعي. وعتمة أتت أمام عينيه، وكان يبدو أنه نقل إلى منطقة كانت غير معروفة له. نظر

حولــه، فرأى شــخصاً ما يتقدم باتجاهــه، ونادى فوراً الغريب وســأله أن يتلطف ويخــبره أين هو. «أنت عــلى الطريق إلى العالم الآخر،» أجــاب الرجل؛ لكن دورة حياتــك لم تكتمل بعد، ولا يوجد لك عمل هنــا.» شرح **باو أو Pao yu** للرجل أنه أتى هنــا ليبحث عن **تــاي أو Tao Yu**، التي ماتت مؤخراً؛ وعلى ذلك أجاب الرجل أن روح **تاي أو Tai Yu** قد عادت إلى منزلها في الســكون الصافي. «وإن كنت تريد أن تراهــا مجدداً،» أضاف الرجل، «عد إلى مهماتك على الأرض. أتمم مصيرك هناك، وطهــر فهمك، غذي المقدس الذي فيــك، ويمكنك أن تأمل في لقائها مرة أخرى. ثم قــام الرجــل بقذف حجر عليه وأصابه فوق القلب مــا أرعب **باو أو Pao Yu** مما جعله يستدير ليستعيد خطواته في تلك اللحظة سمع نفسه أنه يتم مناداته بصوت مسموع بالاسم؛ وفتح عينيه فرأى أمه وجدته إلى جانب سريره.

اعتقدتــا أنه قد انتهى وسرا سروراً بالغاً عندما رأتاه يعود إلى الحياة، بالرغم من أنها لا تزال الحياة نفسها كما في السابق مغلفة بحزن عظيم من اللاعقل. حتى الآن كانوا يأملون باستمرار؛ وعندما رأوه يكبر يومياً بقوة في صحته الجسدية، فيبدو انه لن يمر وقت قبل أن يستعيد توازنه العقلي. وأكثر من ذلك أنه توقف عن ذكر اسم **تاي أو Tai Yu**، وأخذ يعامل **باو تشاي Pai Chai** بكل لطف واحترام.

كل هذا الوقت وحظــوظ العائلــتين الكبــيرتين كانــت تغــطس من ســيء إلــى أسوأ. كان عم **باو أو Pao yu** متورط في عملية اضطهاد شائنة، بينما والده، كان يحاول في منصبه الجديد أن يعمل الجهد الجنوني أن يكون موظفاً غير فاســد وأمينــاً. كان يحــاول أن يضع قدمه على نظام الرشــوة القائم، لكنه ينجح فقط في أن يتم اســتدعاؤه ووقفه عن العمل بحجة ســوء إدارة الأعمال. وأن عاقبة جميع ذلــك كان صدور أمر امبراطوري لمصــادرة ممتلكات وحرمان العائلتين من رتبتهما الوراثية. إلى جانب ذلك أن الممثلين المباشرين يجب أن ينفوا؛ وضمن الجدران التي كانت لفترة طويلة من الزمن مكرســة للمرح واللهو أصبح الارتياع يســيطر عالياً. «أيتها الســماء العليا،» صرخ والد **باو أو Pao Yu**، بينما أخوه وابن أخيه ينطلقان إلى مكان النفي لهما، «نأمل ألا تتحطم حظوظ عائلتنا هكذا!»

من بين الجميع، ربما شـعرت الجدة العجوز بالضربة أكثر شيء، لقد عاشت ثلاثة وثمانين سنة برغد العيش، واعتادت على إخلاص أولادها وتملق الأصدقاء. لكن الآن أصبح المال زهيداً وصوت التملق لا يسـمع. وصوت رجال الحاشـية لم يعد يسمع ولم يعودوا يتصلون، وحتى الخدم تركوا مواقعهم. وهكذا كان أن السـيدة العجوز أصيبت بمرض وخلال بضعة أيام كانت ممدودة على سرير الموت. تحدثت بحديث لطيف مع الجميع باسـتثناء **باو تشـاي Pao Chai**. كانت عند السـيدة العجوز تنهيدة فقط تعطيها لباوشاي حيث أن المصير ربطها بزوج دفن قلبه بالقبر. هكذا ماتـت، وكان لها جنازة فخمة دفعت كلفتها مـن الأموال التي جمعت لدى محل الرهونـات. ظهرت **باو تشـاي Pao Chai** بالأبيض، ومن بـين جميع الزهور التي جمعت حول النعش، أعلنت هي بإجماع الجميع الزهرة الأجمل.

ثم أن أعضاء آخرين في العائلة قد توفوا **وباو او Pao Yu** ينتكس إلى وضع خطير كما هو معروف. وهو على شـفير المـوت عندما يعيده إعلان صارخ مرة أخرى إلى الوعـي. راهب بـوذي يقف على البوابة الخارجية وقد جلب معه قطعة اليشـب التـي ضاعت من **باو أو Pao Yu**. وكان هناك بالطبـع انفعال على كل الجبهات؛ لكـن الراهب رفض الافتراق عن اليشـب حتى يأخذ الجائـزة الموعودة. وأين الآن من الممكن أن يتم جمع مثل هذا المبلغ وفي لحظة، ومع ذلك كانوا يشـعرون بأنه يجب استعارة القطعة بكل ثمن. إن حياة **باو أو Pao Yi** بيديه المتلهفتين، أسقطها بصرخة مدوية ووقع وهو يلهث على سريره.

بعـد عدة لحظات أصبـح يتنفس **بـاو أو Pao Yi** بصعوبـة، وركض خادم إلى الخارج لينادي على الراهب على أمل أن يستطيع فعل شيء ما. لكن الـــــراهب اخـــتفى، وأثـــناء ذلك توقف باو **أو Pao Yu** عن التنفس.

فوراً بعد انفصال الجسـد والروح الذي يدعوه البشر الموت، انطلقت روح **باو أو Pao Yu** في رحلتهـا إلى المطلق، يقـوده راهب بوذي. في تلك اللحظة صوت صرخ وقـال أن **تاي أو Tai Yu** بانتظاره، وفي تلـك اللحظة وجوه عدة مألوفة تجمعت حولـه، ولكن بينما هو يحدق بهم كعلامة اعتراف، تغيروا إلى عفاريت يبتسـمون

ابتسامة عريضة، في النهاية وصلوا منطقة حيث كانت توجد زهرة أقحوانية جميلة، وتـم العناية بها لدرجة أنه لا يسـمح للنحل أو الفراشـات أن تتوقف عليها. لقد كانـت زهرة، كما قيل له، عليهـا أن تنهي مهمة على الأرض، وقد عادت مؤخراً إلى المطلق، ثم أخذ ليرى **تاي أو Tai Yu**. لقد رفعت شاشـة بامبو كانت معلقة أمام مدخل غرفة، وهناك أمامه كانت تقف معبودة قلبه، **تاي أو Tai Yu** المفقودة مد يديه وكان على وشـك أن يتحدث إليها عندما سقطت فجأة بسرعة الشاشة، دفعه الراهب دفعة فإذا به يقع إلى الخلف، مستيقظاً كما لو كان في حلم.

مرة أخرى اسـتعاد قبضة جديدة من الحيـاة؛ ومرة أخرى خرج من فكي الموت. لكن هذه المرة كان رجلاً تغير وكرس نفسـه للدراسـة من أجل الامتحانات العامة الكـبرى، على أمل أن يؤمن درجة من ماجسـتير في الآداب، تلـك الدرجة المبتغاه. مع ذلك يتكلم قليلاً ويبدو أنه غير مهتم بالأوسـمة والمجد في هذا العالم؛ وما هو أغرب من كل شيء، يبدو أنه فقد بشـكل كبير ذائقته لمجتمع النساء الساحر. لمدة من الوقت كان يبدو تحت سـحر الصرعة الدينية، وكان يتجادل باسـتمرار مع **باو تشـاي Pao Chai** حول فوائد تكريس الحياة الشخصية في خدمة بوذا. لكن قبل الامتحـان بوقت قصير حرق جميع الكتب التي جمعها والتي كانت تعالج الخلود والحالة المستقبلية، وركز كل فكرة على الشيء الكبير أمامه.

وفي النهايـة، أتى اليـوم، الذي كان فيه **بـاو أو Pao Yu** ويرافقه ابن أخيه، الذي كان أيضاً مرشـحاً، يسـتعد لدخول الحلبة. كان أبوه بعيـداً عن البيت. ذهب إلى الجنوب لأخذ رفاة الجدة **وتاي أو Tai Yu** إلى مقبرة الأسلاف، وهكذا توجه **باو أو Pao Yu** إلى والدته ليستأذنها بالذهاب، فتوجهت إليه ببعض كلمات الوداع الملأى بالتشجيع والأمل، ثم يركع **باو أوPao Yu** على ركبتيه ويستجدي أن تسامحه لكل المشـاكل التي سـببها لها. «ولا يمكنني أن أثق،» قال هو، «أنني من اليوم فصاعدا سأكون ناجحاً، ومن أنك، يا أمي العزيزة ستكونين سعيدة.» وبعد ذلك، بين الدموع والتنميات الطيبة، انطلق الشابان إلى قاعة الامتحانات، حيث مع عدة آلاف مرشح غيرهما، من المفروض أن يبقيا محبوسين لبعض الوقت.

الســاعات والأيــام تــسرع الخطى، مــلأى بالجهد الشــاق إلى أولئــك الذين في الداخــل وباللوعة إلى أولئك الذين في الخــارج، وأخيراً فتحت البوابات الكبيرة على مصراعيها ويندفع الجمهور الكبير من الطلاب المنهكين والمتعبين إلى الخارج للالتقاء بالجمهــور الكبير أيضاً من الأصدقاء التواقين والمترقبين. في الزحمة التي تتبع، ضياع **بــاو أو Pao Yu** عن ابن أخيه، وابن الأخ يصل البيت أولا. هناك احتفال الترحيب قــد نشر على الطاولات وأباريق النبيذ وضعت عــلى النار. ولذلك كل فترة وأخرى أحدهم يخرج راكضاً ليرى أن كان **باو أو Pao Yu** قد أتى. لكن الوقت يمر ولم يأت بعد. التخوف على أمنه الشــخصي بدأ يقفز إلى الواجهة وبالتالي أرســل المبعوثون في كل الاتجاهــات. لكــن **بــاو أو Pao Yu** لا يمكــن إيجاده في أي مــكان. الليالي تــأتي وتذهــب في اليوم التــالي وفي اليوم الذي يليــه ولا يزال **بــاو أو Pao Yu** لم يعــد بعد. لقد اختفــى دون أن يترك ورائــه أي دليل عن مــكان إقامته. في هذه الأثناء نشرت لائحة المرشــحين الذين نجحوا وكان اســم **باو أو Pao Yu** الســابع عــلى اللائحــة. أما ابن أخيه فقد كان رقمه على اللائحــة 130. كم كان هذا النصر يعني للعائلة، وكم كانت نشــوتهم ســتكون لولا غياب **باو أو Pao Yu الغامض.**

وهكــذا كان يظلل فرحتهم الأسى، حتى إذا جاء الأمل يقفز دوماً لينتعش فجأة. إن مقالــة **بــاو أو Pao Yu** الرابحــة جذبت انتبــاه الإمبراطور، فاصــدر جلالته أمــراً لكاتبها أن يظهــر في البلاط. إن الأمر الإمبراطوري قد لا يتم رفضه بســهولة؛ وكانــت عائلته تأمــل بحرارة أنه بهذه الأدوات يعود إليهــم. هذا هو بالضبط كل مــا كانوا يحتاجون إليه بتأمــين الازدهار المتجدد للبيتين القديمــين. وأخيراً وجدوا إن تيــار الأحداث قد وضع بشــكل ملائــم لهم. أولئك الذي نفــوا إلى الحدود قد امتــازوا ضد الخارجين على القانون الذين دمــروا البلد من حولهم. هنا كان نجاح **بــاو أو Pao Yu** وابــن أخيه؛ وفوق ذلــك الرأفة الكريمة التــي منحهم إياها ابن الســماء وتم إعطاؤها عفواً عامــاً، وأعيدت لهم ممتلكاتهم المصــادرة. والعائلتان نشــجتا ثانية في وهــج العطف الإمبراطــوري. كانت **باو تشــاي Pao Chai** على وشــك أن تصبح أماً؛ فالســلالة يمكن أن تســتمر أخيراً. لكن **باو أو Pao Yu** أين هــو؟ بقــي هذا الأمــر سراً غامضاً حتــى أن الأمــر الإمبراطوري ثبت أنه ســدى.

وكان والـد **بـاو أو Pao Yu** في رحلة العودة قد علم بنجاح وباختفاء ابنه. وكان ممزقاً بين المشـاعر المتضاربة. فأخـذ يسـرع ليصل إلـى البيـت وليـساعد في كشف سر مكان اختباء **باو أو Pao Yu**. في ليلة مقمرة توقف قاربه ورسى على الشـاطئ الذي جعلته عاصفة اليوم السابق ملفوفاً بمعطف من الثلج. كان جالساً يكتب على طاولة، عندما فجأة من خلال الباب المفتوح نصف فتحة، باتجاهه من وراء مقدمة القارب، وظله وخياله محدد بقوة على الثلج المحيط بهم، فرأى شخصية راهب بوذي حليق الرأس. ركع الراهب على الأرض وضرب رأسـه أربع مرات على الأرض، ثم دون أن ينبس ببنت شـفة، اسـتدار إلى الخلف ليلتحق براهبين آخرين كانا ينتظرانه وكما أتوا بشكل غير ملحوظ فقد اختفوا، قبل، وبالفعل، أن يستطيع الأب المندهـش أن يـدرك أنه كان وجهاً لوجه مع **بـاو أو Pao yu** للمرة الأخيرة.

الفصل الثاني
الإمبراطوران كانغ هسي Kang Hsi وتشيان لونغ Chien Lung

الإمبراطور الثاني في **سلالة المانتشو Manchu** أتى إلى العرش في 1662 عندما كان عمره فقط ثماني سنوات، وبعد ذلك بست سنوات استلم مقاليد الحكم. كان طويلاً نسبياً، ومتناسباً في حجمه، وكان يحب جميع التمارين الرجولية وكرس ثلاثة شهور سنوياً للصيد. عيون منيرة كبيرة أنارت وجهه، الذي انتشر فيه الجدري، المراقبون المعاصرون له تزاحموا على مدح فطنته وتفهمه وانفتاح فكره. لا يتعب من الحكم، وأبقى على المراقبة الشديدة لوزارئه، وكان حبه لشعبه يقوده إلى تفضيل الاقتصاد على الضرائب. كان من ناحية شخصية مقتصداً، إلا أنه صرف على الأعمال الحكومية المال الكثير. رعى اليسوعيين الذين وظفهم في مسح الإمبراطورية، في علم الفلك، وفي سبك المدافع؛ مع أنه وجد في زمان من الضروري أن يفرض قيوداً على دعايتهم. بالرغم من الحرب والثورات التي حدثت بشكل جدي في وقته، إلا أنه وجد الوقت الكافي ليبدأ وينفذ، بمساعدة العلماء القياديين في ذلك الوقت، العديد من الأعمال الأدبية العظيمة التي لم يراها العالم قطعياً من قبل. أهم هذه الأعمال هي (1) **كانغ هسي تسو تيان Kang Hsi Tsu Tien**، القاموس الموحد العظيم للغة الصينية. (2) **باي ون اون فو Pai Wen Yun Fu** وهو فهرس ضخم للأداب جميعها، مجلد في أربع وأربعين مجلداً مطبوعاً بشكل متراص؛ (3) **بيان تسو لاي بيان Pien Tzu Lei Pien** وهو عمل مماثل، بترتيب مختلف مجلد بست وثلاثين مجلداً ضخماً؛ (4) **يوان تشيان لاي هان Yuan Chien Lei Han** وهي موسوعة مجلدة في أربع وأربعين مجلداً و(5) **تو شو تشي تشنغ Tu Shu Chi Cheng**، وهي موسوعة مصورة بشكل وافر، في 1628 مجلداً كل واحد منها في 200 صفحة. وإلى ما سبق يجب أن نضيف مجموعة محترمة من الموروثات الأدبية،

نثراً وشعراً، التي كانت بالطبع من أعمال الإمبراطور نفسه. ولا يمكن القول أن هذه الموروثات كانت جميعها ذات مستوى عالٍ، أو أنها كانت معروفة لدى الجمهور ككل باستثناء واحد وتافه. ما يسمى **بالمرسوم المقدس** معروف من هذا الطرف في الصين إلى ذاك الطرف. وكان يتضمن بالأساس ستة عشر مبدأ أخلاقياً صدرت في عام 1670 في شكل من أشكال الفارامانات من قبل الإمبراطور **كانغ هسي**. وجلالته قد وصل نفسه، إلى سن النضوج السادس عشر. وربما اكتشف وقتها إن أخلاق الناس لم تكن كما كانت في أيام «الملوك الأقدمين،» وبجدية صبيانية حاول أن يعمل جهداً لطيفاً للشعب الذي كانت رفاهته مقدراً لها أن تكون لسنوات عديدة موضع اهتمامه الرئيس والمستحوذ عليه. أما المبادئ فهي عادية تماماً. ولكن لصالح الإمبراطور العظيم الذي أحب «أبناءه» أكثر من نفسه، ثم رفع هذه المبادئ إلى أقوال قاربت على المقدس. فيما يلي المبدأ الأول والسابع والحادي عشر كعينات:-

«انتبه كثيراً لحب الوالدين والطاعة الأخوية، حتى تعطي الثقل المناسب للعلاقات الإنسانية.»

«انبذ العقائد الغريبة حتى تمجد التعاليم الأورثوذكسية.»

«رب أبنائك وإخوتك الأصغر كي تعيقهم عن عمل ما هو خاطئ.»

توفي كانغ هسي Kang Hsi في عام 1722 بعد أن أنهى دائرة كاملة من ستين سنة كجالس على عرش التنين. ابنه وخليفته، **يونغ تشنغ Yung Cheng**، اختار مائة عالم وطلب منهم أن يقدموا مقالات يتوسعون فيها على مبادئ أبيه، ومن بين هذه تم اختيار الستة عشر مبدأ» الأفضل، وفي 1724 صدر أمر بوجوب أن تقرأ علناً على الشعب في اليوم الأول والخامس عشر من كل شهر في كافة المدن والبلدات في الإمبراطورية. هذا القرار لا يزال سارياً حتى الآن. ولاحقاً تم إعادة صياغة وإعادة شرح الستة عشر مبدأً في اللهجة العامية؛ والآن إن المبادئ والمقالات والصياغة المعادة، جميعها مع بعض كانت تؤلف مجلداً تقريبا يمكن أن يقال عنه أنه يحتوي على جميع مهمات الإنسان.

في 1735 تـوفي الإمبراطور **يونغ تشـنغ Yung Cheng** وخلفه ابنه الرابع الذي حكم تحت اسـم **تشيان لونغ Chien Lung.** كان حاكماً قديراً وبعطش لا يرتوي إلى المعرفـة وإداري لا يـكل ولا يتعب، وكان ينافس شـهرة جـده كملك وكراعي لـلأداب. ظهرت طبعـات جديدة للأعـمال التاريخية الهامة، وللموسـوعات بأمر امبراطوري وتحت إشراف الإمبراطور نفسه. حدث في 1772 تفتيش عام على جميع الأعمال الأدبية التي تسـتحق الحفظ، وبعد عشر سنوات صدرت مجموعة ضخمة منها تحتضن الكثير من الكتب النادرة وأخذت من الموسـوعة العظمى للإمبراطور **يونغ لو Yung Lo** وتم تأليف كاتالوغ - فهرس وصفي للمكتبة الإمبراطورية تحت عناوين أربعة من الكلاسـيكيات، التاريخ والفلسـفة، والأدب العام، ما بين 1772-1790. وتم إعطاء تاريخ كل عمل، وتم كذلك انتقاده. إن سـعة هذا الفهرس أدت إلى نشر مختصر عنه يسـقط جميـع الأعمال التي لم تحفظ، حقيقـة، في المكتبة. إن الكتابات الشـخصية لهذا الإمبراطور ضخمة جـداً، وتتكون من مجموعة عامة تتضمـن ملاحظات مختلفة عن مواضيع معـاصرة أو قديمة، مقدمات للكتب، وما شابه، وكذلك مجموعة شعرية. ومن الكتب الأخيرة هذه تم نشر تلك التي صدرت بـين 1736 و1783 ووصـل مجموعها الـذي لا يصدق إلى حـوالي 33.950 قطعة منفصلة. ولسـنا بحاجة إلى أن نضيف أن معظمها تقريبـا كان قصيراً جداً. وحتى مـع ذلك يجب اعتبار هذا الناتج رقماً قياسـياً بغض النظر عن حقيقة أنه في زمن حكمـه كان هناك مدد وافر مـن الحرب والثورة. أجبرت بورمـا ونيبال على دفع الجزية؛ والسـيادة الصينية تم تأسيسـها على التيبت؛ وخولجا وكشغار اضيفتا إلى الإمبراطورية. في 1795 عندما أتم دورته السـتين سـنة في الحكم، تنازل الإمبراطور لصالح ابنه، وتوفي بعد ثلاث سنوات من ذلك.

كانت قصائد جلالته، بالرغم من أنها صحيحة من ناحية اصطناعية، متوسطة للغاية. إن المقطع الشعري التالي، «عند سماع السيكادا،»[91] هو مثل جيد، يتلائم مع جميع قواعد قرض الشعر، لكنه فاقد لتلك الصفة التي تجعل من «التوقف القصير» ما هو عليه، أي ذلك الذي «بالرغم من أن الكلمات تنتهي، إلا أن المعنى لا يزال مستمراً»:-

91 زيز الحصاد / المترجم.

الموسم مرّ عليه شهر
في بلد النسيم الشمالي،
عندها أسمع لأول مرة صوت السيكادا الحاد
تصرخ من خلال الشجر.
أبحث عنها لكنني لا أستطيع تبيان شكلها
في وسط أوراق الشجر الكثيف، -
لا شيء لكن ومضة ظل
ترفرف هنا وهناك.»

وهنــا، عوضاً عن أن يكون منجرفاً وراء نمط مقترح من حبل الأفكار، فالقارئ له الحق أن يسأل «ماذا بعد؟»

التــالي هو نوع من الإنتاج الحاد. إنها أغنية كتبها **تشــيان لونغ Chien Lung**، لإدخالها في مسرحية بعنوان «التقاط الذهب،» ويغنيها شــحاذ كان ســعيد الحظ عندما تعثر بقطعة كبيرة من التبر:-

قبعة من اللباد ليس لها حد ملتصقة برأسي،
لا معطف - عوضاً عنه بطانية مرقعة برقع كثيرة؛
في يدي عصا من الخيزران؛
وصندل من القنب في رجليّ؛
وأنا أمشي مترهلاً على الطريق،
«أشفقوا على شحاذ مسكين،» أنادي على المارين،
متأملاً أن أحظى بكسرة طعام وتفل من النبيذ.
ثم عندما تسقط ظلال الليل المعتمة.
يا سعادتي، يا سعادتي، أضحك
وأسكر حتى أنام يأويني مقام قديم.
سوداء، سوداء الغيوم، تحاصرنا من كل جانب،
خيط رقيق من لعاب الشمس يترقرق طائراً في كل اتجاه.

أواه! أليس هو اليشب الذي يغطي فجأة الأفريز؟
آه، تبدو لي الشوارع مرصوفة بالبلاط الفضي،
آه، في أي ملبس مجيد قد تم ترتيب الطبيعة،
مظهرة قسمات خيالية على الوجه الحسن!
لكن ابق! فالليل يقترب بسرعة؛
لا شيء يبقى ليقود طريق العودة إلى البيت؛
انظر كيف أن الثلج الناعم يضع ثقله على جريد شجر النخيل!

أهذا رأسي وأصفق بيدي، ها! ها!
أصفق بيدي وأهز رأسي، ها! ها!
هناك في الانجراف توجد كتلة نصفها قد غرق؛
إن حظ الشحاذ قد أتى بالورقة الرابحة أخيراً!
أواه الذهب - لأنكم أيها الأقارب الأعزاء ستفترقون،
أيها الأصدقاء انسوا ساعة الصداقة التي مرت،
الزوج والزوجة مزقوا قلوب بعضكم بعضاً،
الأب والابن اقطعوا العلاقات الحميمة في الحياة؛
أما لك، أيها السارق الخسيس كل شريعة وقانون يتم تحديها.

إن ما يحبه ناس هذا العالم أكثر هو الذهب؛
الشياطين في أعمق بقعة من الجحيم يحبون الزبالة؛
حيثما يوجد الذهب هناك الآلهة تجري في أعقابه.
الآن هل علي ألا أنتج بعد الآن الأفاعي؛
أقف وأشحذ حيث لا تلتقي الطرق أبداً؛
أو اجعلني أرتجف لأنام في الكوخ الذي عمل على عجل
وشديد الرطوبة وبارد؛
أو أستند إلى باب الغني أو الفقير.
ابتعدي عني يا طاستي الصفراء، ويا زيري الطيني!
انظر، هكذا أمزق جرابي وأرمي بعيداً قنينتي التي تشبه حبة القرع!

طاقية وحزام رسمي سوف ألبس،
وهذا الساق الذي تقلص في الحذاء العالي الذي عليه
نعل مبيض؛
في الحفلات والأعياد كم سأكون فرحاً،
وسأنضم إلى أصدقائي في الحانة أو في المقهى على فنجان شاي؛
تبختر، تبختر، تبختر، بهذا الجو والبركة.
وفي بعض الأحيان سيحملني جواد ناعم يقول «يا صاحب
السعادة» لي؛
أو سوف أركب محفة كما يحلو لي،
أحد الخدم سيحمل علبه الطواقي ويبقى قريبا خلف الكرسي،
بينما آخر سيحمل شنطي على كتفيه.»

الفصل الثالث
الأدب الكلاسيكي والمتعدد – الشعر

في مقدمـة علماء السـلالة الحالية يأتي اسـم **كو تشـانغ Ku Chang** (1612-1681). بقي مخلصاً لآل مينغ بعد سـقوطهم فغير اسمه إلى **كو ون فو Ku Wen Fu**، ولمـدة طويلة تجـول في البلد وهو متخـفٍ. رفض أن يعمـل تحت إمرة ال مانتشو، واعتاش على الزراعة. كان طالباً متبحراً، وقد سجل له أنه في تجوالاته كان يحمل معه دائماً عدة أحمال من الكتب تحملها الأحصنة، لاستشارتها عندما تخونه الذاكرة. إن كتاباته الكلاسـيكيات، والتاريخ وعلم طبقات الأرض، والشـعر لا تزال تقـدر حتى اليوم. للأجانب إن أفضل ما عرف فيه هو أنه كان مؤلف **جيه تشـيه لو Jih Chih Lu**، الذي يتضمن ملاحظاته بالأسـاس حول الكلاسيكيات والتاريخ، التـي جمعها في قراءاته التي امتدت أكثر من ثلاثين عاماً. وكتب كذلك عدة أعمال في موضوع الأصوات والقافية القديمة.

عندما كان **تشـو يونغ شـون Chu Yung Shun** طفلا كان طري العود، وكذلك أجبرتـه أمه أن يمـارس الفن الطاوي من أجـل إطالة أمد الحياة بـلا نهاية، الذي لم يكن يعنى سـوى أنـه كان نظاماً للتنـفس الطـبيعي مـع استنشـاق عمـيق. وقـد كـان أصـيل بلـدة في مـقاطعـة **كيانغ سـو Kiang Su** والتـي عندمـا نهبها التتـار المنتصرون هلك والده عوضـاً من أن يخضع للسـلالة الجديدة، وتبعاً لوفـاة والده فقد رفض باسـتمرار أن يحتل منصباً عاماً، مكرسـاً حياته للدراسـة والتعليم. وكان مشـهوراً لتأليفه التعليقات **على التعليم الكبير ونظرة الوسـط** وغيرها من أعمال؛ لكن كل هذه الأعمال لم تكن مشـهورة شـهرة **مبادئ العائلة**، كتاب قصير الذي نسـب بسـبب اسـم المؤلـف غالباً إلى المعلق العظيم **تشـو هـسي Chu Hsi**. إن حدة هذه المبـادئ تختفي بالترجمة

بسـبب أنها تنشـغل أكثر بالشـكل الأدبي منه في الموضـوع. التالي هـو عيِّنتان:-

«انسَ الأعمال الجليلة التي قمت بها؛ تذكر اللطف الذي حصلت عليه.»

«التفـت إلى عملـك، اتبع قدرك، عـشْ وفقاً للعصر، واترك الباقـي للرب. الذي يستطيع أن يفعل ذلك هو قريب حقاً.»

وكانت أفضل مقولاته التالي:-

«أن تعـرف مـا يجب أن تعرفه وأن تعمل ما يجـب فعله، يكفي ذلك. لا يوجد وقت لأي شيء آخر.»

ثلاثة أيام قبل وفاته جاهد حتى يصل إلى قاعة الأسلاف وهناك أمام الواح العائلة نادي أرواح أجداده ليشهدوا بأنه لم يجرح أي واحد منهم لا قولا ولا عملا.

لان تينـغ يوان Lan Ting Yuan (1680-1733) الذي اشـتهر باسـمه **لان لو تشـو Lan Lu Chou** كرس نفسه كشاب إلى الشعر والأدب، والاقتصاد السياسي. ورافق أخاه إلى تايوان (فورموزا) كسـكرتير عسـكري، وروايته عن الحملة جذبت انتبـاه العامـة، أوصى به للإمبراطور، فعين حاكما لـ **بو لـين Pu lin** وامتاز بإدارته العادلة وغير الفاسدة كما بمقدرته الأدبية. لكنه استطاع أن يربي الأعداء بين الضباط السـامين، وخلال ثلاث سنوات كان قد طرد من عمله بسبب عدم الطاعة وزج به في السجن. ثم وضعت لاحقاً قضيته أمام الإمبراطور الذي لم يطلق سراحه فحسب وإنمـا عينه حاكماً **لكانتون Canton**، مانحاً إياه في الوقت نفسـه بعضاً من دواء ثمين، وصورة منسـوخة عن الشعر وثوباً أسوداً، وبعضاً من عود البخور، والماركات المبتغاة من العطف الإمبراطوري. لكن كل ذلك ذهب سـدى. فقد مات من قلب كسير بعد شهر من استلام منصبه. إن جميع أعماله نشرت في عشرين مجلداً صغير من الحجم الثماني، وأشـهر هذه الأعمال قاطبة هو رسـالته حول التدريب اللائق للنساء التي تملأ مجلدين من المجلدات المذكورة أعلاه. وهذه مقسمة تحت أربعة عناوين أي، الفضيلة، الخطابة، المظهر الشـخصي والواجبات، وتعليم ممتد بالمعنى التثقيفي لم يحسـب له حسـاب في المدى المنظور للكاتب. فصول الكتاب قصيرة،

وكثير منها يتم تقديمه ببضعة أمثال أو حكم قديمة، مشـكلةً مشـجباً ملائماً يجري عليه تعليق الدروس الأخلاقية وعمل مقتطفات وافرة من العمل المسـمى **الليدي بان Lady Pan** من سلالة هان.

قد تكون عدة سطور من مقدمته لافتة للنظر:-

«الحكـم السـديد في الإمبراطورية يعتمد على الأخلاق؛ وصحـة الأخلاق تعتمد عـلى الترتيب الصحيح للعائلة، والترتيب الصحيح للعائلة يعتمد على الزوجة.... إن كانت السـتارة التي تفرق الرجل عن المرأة شفافة جداً بحيث أنها لا تفرق بينهما، فإن سـوء الحظ سـيحط على هذه العائلة وعلى الدولـة. إن تطهير الأخلاق، منذ وقت الخليقة وحتى الآن، أتى من المرأة. ليس كل النساء متشابهات؛ بعضهن جيد والبعض الآخر سيء. وحتى جلبهن سـوياً إلى اتسـاق سليم فليس هناك أفضل من التربيـة. في الأيام القديمـة، جرى تربية الأولاد والفتيات...لكـن الكتب التي كانت تسـتعمل لم تعد موجودة أبداً، ونحن لا نعرف تفاصيل النظام. ... إن تربية المرأة ليسـت كتربية زوجها والتي يمكن أن يقال عنها أنها ستسـتمر في الحياة كلها. لأنه هو بإمكانه أن يتناول كتاباً من الكلاسـيكيات أو كتاب تاريخ أو أن يعرّف نفسـه بأعـمال كتـابٍ متعددين؛ بينما تربية المرأة لا تدوم أكثر من عشر سـنوات، وبعد ذلك تتحمل المسؤوليات العديدة في البيت. وبالتالي هي لا تستطيع أن تبحث ملياً، وتكون النتيجة أن تعليمها غير كافٍ وغير شامل ليمكنها من فهم المبادئ. إنها كما يقال، تبدو محمولة على طوفان، دون أمل في العودة، ومن الصعب عليها الاستعارة مـن أي كمية كانت من التربية التي حصلت عليها. وبالتأكيد إن العمل على تربية النساء هو أمر مرغوب فيه جداً.»

التالي يشرح كيف يتم تصوير مرحلة من الفضيلة النسائية من خلال الأطروفة:-

قتل رجل في شجار، تم إلقاء القبض على شقيقين بتهمة القتل وجلبا إلى المحكمة. كل واحـد منهما أقسـم أنه شـخصياً كان القاتل وإن الأخـير كان بريئاً. وهكذا لم يستطع القاضي أن يحكم في القضية ورفعها إلى الأمير. طلب الأمير منه أن يستدعي أمهما ويسـألها من منهما عمل الفعلة. «عاقـب الأصغر،» أجابت والدموع تنهمر

مــن عينيها. «الناس عــادة يحبون الأصغر،» لاحظ القاضي، كيــف تودين مني أن أعاقبــه؟ «هو ابني» أجابت المرأة؛ الأكــبر هو ابن زوجة زوجي الأولى. عندما توفي زوجــي رجاني أن أهتم بالصبي. ووعدته أنني ســأفعل. أمــا الآن إذا تركت الكبير يعاقب بينما أدع الصغير يهرب، فإنني بذلك أشبع مشاعري الخاصة وأظلم الميت. لا يوجد أمامي خيار.» وبكت حتى صارت ثيابها منقوعة بالدموع. في هذه الأثناء أعلم القاضي الأمير، واندهش الأخير من كرم أخلاقها فسامح كلا المتهمين.

اثنان من المجلدات العشرين كرســت لأبرز القضايا الجنائية التي حكم فيها هو خــلال عمله القصير كقاضي. مقتطف من المقدمــة (1729) لأعماله الكاملة، كتبها معجب متحمس ستعطي فكرة عن التقدير الذي حفظت فيها هذه:-

«إن المقدرة القضائية لسيدي، هي مقدرة ذات منزلة عالية على نحو لافت للنظر، كما لو كان معطف **باو هسياو سو Pao Hsiao Su**[92] نزل عليه. في القضايا الصعبة جداً يقوم بالتحري بنزاهة وبهدوء، مظهراً أنه يمتلك نوعاً من الطريقة غير النمطية لتسخين الحقيقة؛ حتى أن أكثر المحامين دهاءً وأكثر الأوغاد تجربة، الذين منطقهم لا يوقعهــم في شرك ولا يخيفهــم أي ألم، وإذا مــا ظهروا أمامه، يجدون أنفســهم قد تخلى عنهم مكرهم الســابق، فيعترفــون طواعية دون انتظار تطبيق التعذيب. وأنــا بالفعل كنت أتعجــب دائماً كيف يتم طلب الــصرف في كثير من التحقيقات القضائية. وحتى تحت تأثير الآلات الخشبية الثلاثة.» أي البراهين ستكون موجودة لا يمكن انتزاعه؟-حتى لا نقول شــيئاً عن المخاطر الناجمة عن أي خطأ والألم الذي لا يمكن الســكوت عنه والذي تم اقترافه ضد الروح المغادرة إلى العالم الســفلي. أما الآن، فمعلمي في تحقيقه وتقرير القضايا، كان متخوفاً فقط لئلا يحصل شعبه على اســتماع كامل وعادل؛ فقام بالتالي بمناقشــة كل نقطة معهم بهدوء ولطف إلى أن

تم التزامهم كلية بموقف معين، دون أي إمكانية منهم للتراجع، وبعد ذلك يقرر في القضيــة وفقاً لمزاياها كما هو منصوص. وبهذه الآلية لم يترك لأولئك الذين خدعوا ســبباً للشكوى، وأولئك الذين أدينوا بالموت، ماتوا دون استياء من حكمهم؛ الناس

92 كان قاضياً يتشبه بعدله، سليمان الملك في سلالة سونغ.

لم يستطيعوا خداعه وحتى أنهم لم يجرأوا على عمل المحاولة. وهكذا استجاب هو إلى مذهب كونفوشيوسي يقول باحترام المشاعر الشعبية.[93] وإذا كان جميع موظفي القضاء يحكمون على كل القضايا بالطريقة المشابهة الحذرة وغير المنحازة، فلن يكون هناك مدّعٍ واحد مجروحاً تحت قبة السماء.»

التالي هو عينة عن قضية تتعلق بالتأثيرات الشيطانية للمبادئ الخرافية:-

«إن الشعب في مقاطعة **تشاو يانغ Chao Youg** هم شعب عظيم فيما يتعلق بالغيلان ويحبون التحدث عن الأرواح وبوذا. الطبقة العليا ونساؤهم يكرسون أنفسهم لِـ **تا تيان Ta Tien**، لكن نساء الأحياء بشكل عام يأتون جماعات إلى المعابد ليحرقوا البخور ويعلنوا عن حبهم لبوذا. مشكلين حباً لا ينقطع على الطريق. ومن هنا، يتم نشر وتوزيع الترهات عن الأشباح والخوارق، وهكذا أخذت طائفة **هو تيان Ho Tien** تزدهر. أنا لا أعرف شيئاً عن أصل هذه الطائفة. وكانت هذه الطائفة قد بدأت لدى شعب **تشاو يونغ Chao Yung** من قبل رجلين، اسماهما **ين Yen وتشو Chou** وبالتالي قالا أنهما أُمرا من قبل أحد الخالدين وكان له لحية بيضاء، والذين عندما حصلت محاولة لإلقاء القبض عليهما من قبل سلف لهما كان لا يزال يعمل، واختفيا مع عائلتيهما وبقيا متوارين، عن الأنظار. تدريجياً عادا كلاهما وأطلقا على نفسيهما **الزئبقة البيضاء** أو **شجرة الحور البيضاء.** أعتقد أن **الزنبقة البيضاء** هي التسمية الحقيقية، والتغيير في الاسم كان ببساطة للخدع. إن «الهتهم» كانت زوجة **ين Yen**، وكانت تتظاهر أن بمقدورها استدعاء، الريح وتنزيل المطر وحبس الغيلان وتطهير الأرواح وكان يساعدها في عملها حبيبها، شخص يسمى **هو Hu** الذي كان يطلق على نفسه **الخالد على قمة قلم الرصاص.**

وكان يساعد في كتابة التعاويذ، وتدفق الماء، ومعالجة المرضى، والصلاة للورثة، وكان باستطاعته تمكين الأرامل من إجراء محادثة مع زيجانهن المتوفين. المقاطعة كلها خدعت بهؤلاء الناس، وكانوا يتبعونهم بجنون، وكان أناس يسافرون إليهم من

93 بالاستماع للمحاكمة فأنا مثل أي جسم آخر. ما هو ضروري هو أن لا تجعل الشعب يتقاضى .»(لج).

بعيــد ليتعبدوا معهم بصفتهم أدلاء روحانيــين، وبتقديمات كثيرة من المال واللحم والنبيذ ويسجلون أنفسهم كتلاميذ متواضعين لهم، حتى يقول أحدهم أن اليوم هو السوق التجاري في الحي. سمعت عن أعمالهم يوماً ما وأنا عائد من مدينة الولاية. وكانوا قد ثبتوا أنفسهم في بناية واسعة تقع إلى الشمال من المقاطعة؛ وفتحوا قاعة ليعظوا فيها، وجمعوا عدة آلاف من الأشــخاص وكانوا طوال اليومين الســابقين قد وضعوا أنفسهم تحت تصرف عدد من الممثلين ليغنوا ويمثلوا على مآدبهم. فأرسلت دركــين لإلقاء القبض عليهم، لكن الدركيين تخوفوا من تكبد اســتياء الأرواح، ولأنه كان مقبوضــاً عليهم مــن قبل جنود المناطق الشــيطانية، وبينما كثير من الحماية كان يعطى للعائلات المتعددة في الثروة والمكانة، مما مكن الأطراف المذنبة في منع اعتقــال أي واحــد من أعدادهم. ولذلك ذهبت أنا بنفسي إلى مؤسســاتهم قرعت الباب وقبضت على الآلهة التي وضعتها تحت تحقيق كامل بالنسبة لأماكن تواجد شركائهــا؛ لكن داخــل المكان كان، كما هو عليه، خليط مــن الممرات المحيرة تماماً، تتفــرع في كل اتجاه، عندما التقطت مصباحــاً وسرت في الطريق حتى وإن تعثرت باي واحد منهم، فقد فروا بلحظة قبل أن أتمكن من رؤية إلى أين فروا. كان عشــاً حقيقيــاً من الشر السري، وواحد شــعرت أنه يجب أن يتم تفتيشــه حتى الزاوية الأخيرة منــه. وبالتالي من سرير الإلهة في غرفة مظلمــة ونائية جررت حوالي عشر أو اثنا عشر رجلا، بينما من غرفة نوم الخالد جلبت معي ختماً خشــبياً وممتلكات العمل **لســيدة القمر**، وكذلك نسخة من شعائرهم السحرية، وكمية من المنومات، والبــاروكات، والثياب، والحلي والتي كنت أجهل اســتعمالاتها، إضافة إلى ذلك فقد جاهدت جهاداً عظيماً لتأمين شخص الخالد نفسه، وعندما رأى أصدقاؤه ومؤيدوه الأغنيــاء أن اللعبة انتهت ســلموه للعدالة. في التحقيق معه عزى نفســه بطريقة لا مثيــل لها، وهكذا كانت في الحقيقة الوســائل الرئيســة التــي اعتمد عليها، إلى جانب المعلومــات والثياب الجميلة، ليخدع أعين وآذان الجمهور. أما الســاذجون سريعو التصديق، الذكور والإناث منهم، عندما سمعوا لأول مرة باسم **سيدة القمر** بــدا عليهم نــوع من الرعب؛ ولكن تدريجيــاً، عندما رأوا أن الإلهــة هي بالتأكيد امرأة، بدأوا يستعيدون شجاعتهم، أما الخالد نفسه، بشعره المنتوش ووجهه المطلي

بالبــودرة وتنورته تخفق جيئة وذهاباً، كان يحوم حول الالهة ويتصرف بغرور كما الجميلة الخارقة، ولطالما أقنع المشــاهدين أنه هو **سيدة القمر** وأزاحهم عن عبق جنسه الحقيقي، تم ينفضون الآن إلى واحدة من أبعد الشقق، ليبدأوا صلاة **ميتراي بــوذا**[94] يرافقها تلاوة ســوترا، وبعدها يتم إشــعال بخور من المنومــات، والضحايا يوضعون في نوم عميق. هذا المنوم أو مشوش الروح، كما يسمى خارج هذا الإطار، يجعل الناس يشــعرون أنهم تعبون وناعســون هم يسترجعون عن طريق تعويذة وشربــة ماء بــارد، إن الورثة الموعوديــن، واللقاءات مــع الأزواج الذين توفوا من المفروض أنهم كلهم يفيقون خلال فترة الغيبوبة وهي خداع فضائي الذي من أجله ســتعلق رؤوس أولئك الأشرار في الشوارع، وهي بالكاد عقوبة كافية لهم. لكن بعد أن فكرت أن الأمر ســيكون ذا مظلمة شديدة للناس، إن وجدوا أنفسهم متورطين بقضيــة بعــد حصاد سيء، وأنــه من بين عدد كبير مــن الذين انتســبوا للجمعية ســنجد عائلات قديمة ومحترمة، قررت خطة بموجبها ســتضع حداً لعلاقاتهم دون أي إشــاعة مغرضــة. أنا حرقت جميــع الوثائق التي كتبت فيها الأســماء ولم آخذ أي خطوات غيرها ضد الأشــخاص المذكورين. أصدرت أوامــري للإلهة وحبيبها أن يتحمــلا الكأس الطافح من الكلمات أي مائــة كلمة وإن يتم معاقبتهم بالكانجو[95] الشــديد، وبوضعهم على بوابة مقر الحاكم أجعل الناس يشــتمونهم ويســبونهم ويمزقوا لحمهم ويكسروا رؤوسهم حتى تخرج أرواحهم إلى جنتهم الموعودة. الزوج وحــوالي عشرة أخرين من العصابة وضعوا في الكانجو، وضربوا بالخيزران، وعوقبوا بالطريقة نفسها؛ أما بالنسبة للآخرين، سمح لهم أن ينجوا بهذه الفرصة لآخر مرة ويقلبــوا صفحة جديدة. أنــا صادرت العمارة، ودمرت مخابئهــا الفاضحة، وغيرت المنظــر العام كله للمكان وحولته إلى مؤسســة أدبية وأوقفته على خمســة ابطال مشــهورين في الأدب، ونظفتها وطهرتها مــن كل وصمة. وفي الأول والخامس عشر من كل شهر، عندما لا أكون مشغولاً أنغمس مع علماء المقاطعة في أنشطة ترفيهية

---

94 الذي سيحل مكان بوذا، بعد خمسة آلاف عام على وفاته / المترجم.

95 إحدى أدوات التعذيب حيث يتم وضع الرقبة واليدين في فتحات في لوح خشبي ويغلق عليهم / المترجم.

أدبية. وبالحقيقة، أسســت نادياً أدبياً، واســتأجرت قطعة أرض للفلاحة وأوقفت عائداتها على المظاهرات السنوية لكونفوشــيوس ولدفع أجرة البروفسور المنتظم. وهكــذا، النظرية الحقة كان لها ســبب لتزدهر، وهذه الأعــمال الخارقة لتختفي مــن الســاحة. إن صوت الجماهــير عاد وارتفــع وأخلاقية المكان تحســنت كثيراً.

عندما ســمع الفريق واللواء ما تم عمله، فقد أثنيا على عملي قائلين، «لو لم يتم هزيمة هذه الطائفة فســتكون النتائج الشيطانية رهيبة؛ ولو أنكم راسلتم بالقضية في الطريقــة العادية، وطلبتم إعدام هؤلاء المجرمــين لكانت كفاءتكم عظيمة؛ أما الآن ودون النظر بأنانية إلى مصالحكم الخاصة لقد أظهرتم أنكم لا تريدون اصطياد ضحايــا أكــثر من اللازم أو أن تظهــروا هذه الأعمال بطريقة قد تــؤدي إلى انتحار الأشخاص المتورطين. مثل هذا الاهتمام بشهرة هؤلاء الناس يستحق كل ثناء.»

وبالرغــم من أن الأهمية الوطنية نفســها لم ترتق بعد إلى مســتوى هذه الأيام، فإنــه من غير الممكن أن لا يلاحظ المســألة الأجنبية رجل متيقظ بمقدرة **لان تينغ يوان Lan Ting Yuan**. وقد ازدهر في وقت كان فيه انتشــار الديانة الكاثوليكية الرومانيــة[96] يوفر أسســاً ثابتة للقلق لدى رجال الدولــة الصينيين عميقي التفكير. وبالتــالي نجد بين أعمالــه الكاملة ملاحظتين قصيرتين متخصصتــين لاعتبار التجارة والتبادل العام مع أمــم متعددة من البرابرة. أنهما موضع اهتمام لأنهما رأيان من الآراء الحرة لأعظم عالم صيني على قيد الحياة حتى تاريخه عندما تمت كتابتها، أي في 1732. التالي هو إحدى هذه الملاحظات:-

«أن يتم الســماح للبرابــرة أن يقيموا في كانتون كان خطأ. منذ أن ســلمنا **ماكاو Macao** في عهــد **تشــيا تشــينغ Chia Ching** (1522-1567) من ســلالة **مينغ Ming**، إلى البرابرة ذوي الشــعر الأحمر، كل أنواع الأمم استمرت، دون توقف، أن تتجمع هناك. أنهم يبنون القلاع والتحصينات ومســتوطنات كثيفة من البيوت. أن ذريتهم ســوف تلقي بظلالها على الأرض، وجميع البلدان الواقعة خلف **هســيانغ شــان Hsiang Shan** ستتحول إلى مملكة الشــياطين. «ذوو الشعر الأحمر» هو

96 المعروفة في فلسطين باسم كنيسة اللاتين /المترجم.

المصطلح العام للبرابرة القادمين مــن الجزر الغربية. من بينهم يوجد الهولنديون، الفرنسيون، والأسبان والبرتغاليون، والانكليز **وأو سو لا Yu Su La** (الإسلام؟)، وكل هذه الأمم عنيفة بشــكل شرس. أينما يذهبون يتجسسون على من حولهم بهدف الاســتيلاء على أراضي الشعوب الأخرى. هناك ســنغافورة التي كانت في الأصل بلد مالاوي. ذهب البرابرة ذوو الشــعر الأحمر إليها للتجارة، وتدريجياً اســتولوا عليها وحولوها إلى سوق تجاري كبير لهم. وكذلك مع الفلبين التي تم استعمارها من قبل المالاويــين؛ ولأن الدين الكاثوليكي كان يمــارس هناك قام الأجانب الغربيون بضمها بطريقة مشــابهة لهم. الدين الكاثوليكي ينتــشر الآن في الصين. في **هوبه Hupeh، هونان Hunan، هونان Honan، كيانغسي Kiangsi، فوكيان FuhKien وكوانغ سي Kuangsi** ولا توجــد أماكن لم يصلوها بعد. في أول ســنة من حكم الإمبراطور **يونغ تشــنغ Yung Cheng** (1736) اشــتكى نائب الملــك في **فوكيان Fuh Kien، مــان بــاو Man Pao** من أن الأجانــب الغربيين كانوا يبــشرون بدينهم ويعبثون بالناس وهو ما يشــكل انتقاصاً كبيراً من المحليات المعنية. والتمس أن يتم تحويل الكنائــس الكاثوليكية في المقاطعات المتعــددة إلى قاعات للمحاضرات أو مدارس، ويمكن إرسال جميع الأجانب الغربيين إلى **ماكاو Macao** للانتظار حتى تأتي فرصة لترحيلهــم إلى بلدانهم. لكــن نائب الملك في **كوانغ تونــغ Kuang Tung**، انطلاقا مــن لطفه الخاطئ، وجه للعرش مذكرة رســمية أن من البرابرة ناس كهول ومرضى وليســوا على اســتعداد أن يرحلوا، قد يسمح لهم البقاء في المؤسسة الكاثوليكية في كانتون، على شرط أن لا يأخذوا بالتبشير لنشر دينهم أو يرتلوا من كتبهم المقدسة، وبعكــس ذلك يتم معاقبتهم فوراً وإبعادهم. المــشروع كان مشروعاً ممتازاً ولكن ماذا كانت نتائجه؟ حالياً هناك أكثر من عشرة آلاف إنسان قد انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية في كانتون، وكذلك توجد دائرة للنســاء حيث جمّعوا بالطريقة نفسها حــوالي 2000 امرأة. هذه إهانة عظيمة للصين وتــضر تراثنا الوطني بجدية كبيرة، وتكفي لتجعل كل إنسان عنده مشاعر يصر على أسنانه بالغضب. القضية لا تسمح البتة «بالدراسة قبل العقاب.»

«الآن، هؤلاء التجار يقطعون المســافات الشاسعة بهدف جمع المال. ما هي إذا

فكرتهــم من دفع مبالغ كبيرة حتــى يجذبوا الناس إلى ديانتهــم؟ والآلاف المؤلفة ينضمون إليهم ولا يكونون راضين حتى يشــتروا المقاطعة كلها. هل هناك إمكانية أن يتم إغلاق العينين وإيقاف الأذنين عن السمع، متظاهرين أنه لا يعلم شيئاً حول الموضوع ولا يقوم بأي تحريات البتة؟ هناك قول مأثور لدى الشعب-خذ الأمور في أوقاتهــا. إن جدولاً صغيراً، أن لم يوقف، قد يصبح نهراً عظيماً.» إذاً كم من الحيطة والحــذر تصبح ضرورية، عندما يكون هناك طوفان عام، وتكون قلوب الناس قلقة ومضطربة؟ في كانتون إن عدد المتحولين إلى الكاثوليكية عال جداً؛ وأولئك الذين في **ماكاو Macao** موجودون في قلاع حصينة. هناك تبادل مستمر للسلاح بين الاثنين، وأن برزت أي مشــكلة مثل تلك في الفلبين وســنغافورة فلا أســتطيع التكهن كيف ســنجابهها. في اللحظة الحالية، وفي نســق من الفضيلة الإمبراطورية للجالس على العــرش، الذي قد تغلغلت قوته وجلاله إلى أقصى المناطق بعداً، فإن هذا المخطط الأخرق للبرابرة، يجب على أي حال من الأحوال، أن لا يتم احتماله. وسيكون جيداً للرجال الحكماء أن يكونوا جاهزين ضد اليوم الذي قد يصبح فيه من الضروري لنا أن نتقاعد قبلهم، منظفين البلد ونحن ذاهبون.»

المقتطــف التالي من رســالة إلى صديق كتبها **لان تينغ يــوان Lan Ting Yuan** في 1724، وتثبــت أن اعتراضه على المســيحية لا يعني أنــه يحتمل مثقال ذرة من البوذية:-

«من بين المقاطعات الثمانية عشرة، تشــكل **تشــيه كيانغ Cheh Kiang** المكان الوحيــد الذي يوجــد فيه الرهبان والراهبات البوذيات بكــثرة. في الولايات الثلاثة، **هانغ تشو Hang Chow. وتشــيا هسينغ Chia Hsing وهو تشو Hu Chou**، هناك يوجد عدة آلاف مؤلفة منهم قد أقسم طواعية منهم عدد لا يزيد عن العُشْر، الآخرون تم إعطاؤهم للرهبان وهم أطفال إما بســبب أن آباءهم كانوا فقراء جداً لا يســتطيعون إطعامهم، و مقابــل عمل ما من اللطافة، وعندمــا كبر الأطفال لم يســتطيعوا أن يتحرروا. أما الراهبات البوذيات تم الاعتناء بهن، في أغلب الحالات، عندما كن طفلات كطريقة لعمل عرض واســع للديانــة، وهن يمنعن من الهروب بــكل عنايــة. لا يعطون للزواج - وهي رغبة تزرع بطريقة ما في كل صدر إنســان

وموجــودة حتى لدى الأنبيــاء والحكماء. وهكذا يتم الحكــم على آلاف وعشرات الآلاف مــن الناس ليبقوا في الرتابة المضجــرة للمعبد، مع الأخذ بعين الاعتبار أنهن يمارســن بصراحة قســمهن الديني، وهذا أكثر من كاف للتدخــل بجدية في توازن الكــون. وبالتالي تحدث الفيضانات، والمجاعات والكوارث، حتى لا نقول شــيئاً عن أثام الراهبات المعنيات.

. . . .

«عندما مررت بـ **ســو تشو Soo Chow وهانغ تشو Hang Chow** رأيت عدة إعلانات مشينة قطعت أنفاسي لانحرافها الواضح؛ وقد أعلمني الناس هناك أن هذه الأعمال الوحشــية كان يقوم بها المقيمون في المعابد وهو مصطلح ينطبق ببساطة على اســم آخر للبيت سيء السمعة. إن الناس الذين يتواجدون في المعابد يقومون بأفعال كثيرة شريرة بين الســكان، يبددون جوهر البعض من جهة ويختلسون من الآخرين سمعتهم الطيبة من جهة ثانية.

ابتــدأت **مينغ تشي كانغ مــو Ming Chi Kang Mu** أو **تاريخ ســلالة مينغ،** في 1689 عندما كلفت لجنة من ثمانية وخمســين عالمــاً، ووضعت أمام الامبراطور فقط في 1742 من قبل **تشــانغ تينــغ أو Chang Ting Yu** (1670-1756) وزير دولة وأكثر كاتب مثقف، ومــحرر مشـــارك في **كتاب الشــعائر، وشــعائر سلالة تــشو Chow والكلاسيكيات الثلاثة عشرة، وتواريخ الأربعة والعشرين، وقاموس المعاني** المترادفة للأسلوب اللغوي المميز، **وموسوعة الاقتباسات، والأدب المتطابق،** وغيرهــا. إلا أن هذا العمل لم يلق الموافقة الإمبراطورية وحل مكانه **تونغ تشــيان كانغ مو سان بيان Tung Chien Kang Mu San Pien**، الذي نشر لأول مرة في 1775. من بين المشاركين الأساسيين في **تشانغ تينغ أو Chang Ting Yu** يجب أن نذكر **أو ار تاي O–ERH Tai** المونغولي (توفي في 1745)، و**تشــو شيه Chu Shih** (1666-1736)، وكلاهما كان مشاركاً وافر الإنتاج في الأدب الكلاسيكي.

ولحق بهؤلاء **تشــن هونــغ مــو Chen Hung Mou** (1695-1771)، الذي إلى جانــب كونه مؤلف أوراق الدولة الممتازة، كان معلقاً على **الكلاســيكيات،** ويعالج

فقط **الكتــب الأربعة،** وكاتباً في مواضيع متعددة، وإدارياً ناجحاً بجد. ارتقى إلى المناصــب العالية وقد عــرف عنه أن الخرائط كانت دائما تتــدلى من غرفته الملأى بخرائط المقاطعات التي كان يخدم فيها حتى يصبح على معرفة كاملة بجغرافيتها. ولكنه طرد من منصبه الهام كنائب للملك لمقاطعتين تحملان الاســم نفسه والذي يبدأ باسم **كوانغ Kuang** لعدم مقدرته المزعومة في التعامل مع طاعون الجراد.

يــوان ماي Yuan Mei (1715-1797) هو دون شــك أكثر كاتب له شــعبية في الزمن الحديث. في سن التاسعة المبكر ألهم بحب عميق للشعر ما فتىء أن برع في هذا الفن. وبعد تخرجه في 1739 تم إرســاله بعد ذلك بفترة وجيزة إلى **كيانغ نان Kiang nan،** ثــم أصبح قاضيــاً في **نانكنغ NanKing** ، حيث برز بحيوية وعدالة إدارتــه. وقد أقعده مرض خطير عن العمل لبعض الوقت؛ وعندما أخذ بالتعافي تم إرساله إلى (مقاطعة) **شان سي Shan Si** فدخل في خلاف مع نائب الملك هناك. وفي عمر الأربعين المبكر تقاعد من الساحة الرسمية وقاد حياة اتسمت بالسهولة المثقفة في حديقته الجميلة في **نان كينغ Nan King.** إن رســائله التي نشرت تحت عنوان **هســياو تسانغ شان فانغ تشــيه تو Hsiao Tsang Shan Fang Chih Tu** جداً ظريفة ومسلية، وفي الوقت نفسه تشكل نموذجاً في الأسلوب. وعدد كبير من الرسائل هي تافهة وخشنة، ما يكفي لتصنيفها مع بعضٍ من أدب القرن الثامن عشر في هذا الجزء من الكرة الأرضية؛ إن ملح الجميع يفقد طعمه في الترجمة. التالي هي عينات:-

«لقد اســتلمت رسالتكم التي تهنئوني فيها على ازدهاري الحالي، وأنني ممتن لك للغرض نفسه.

«إلا أنكم في نهاية الرســالة تذكرون أن عندكم لي كيس من التبغ ســيتم إرســاله حالما أوجه لكم مقطعاً شعرياً. بالتأكيد هذا يذكر الواحد فينا بالأيام الشريرة **لتشو Chou وتشــنغ Cheng** عندمــا أخــذت كل دولة التعهدات مــن الأخرى. وهذا بالتأكيــد مخالف لتعاليم الحكماء، أي أن على الأصدقاء أن يكونوا أول من يعطي. لماذا إذاً تهمل ذاك التعليم لصالح عادة من عصر الانحطاط؟

«إن كنــت تصر أنه من أجــل كيس من التبغ يجــب أن تحصل على مقطع من

الشـعر، فمن أجل قبعة أو زوج حذاء عالٍ فإنك ستطلب على الأقل قصيدة؛ بينما أخوك قد يرسل لي عباءة أو معطفاً ويتوقع أن يحصل على ملحمة كاملة بالمقابل! وبهذه الطريقة لا يساوي الازدهار الذي هنأتني به شيئاً.

«**شـون أو تان Shun Yu Tan** القديم ضحى بسـلطانية من الأرز وبطائر من أجل مائة عربة ملأى بالحنطة؛ لقد عرض القليل ليأخذ الكثير. أو لم تسـمع كيف أن ألـف قطعة حرير أعطيت مـن أجل كلمة واحدة؟ وبنتـين جميلتين من أجل مقطع شعري؟- مقارنة بكيس التبغ الذي سيبدو بالفعل قليلا. قد يكون هذا ناجم عن كونك رجلاً عسـكرياً معتاداً على تدريب الجنود، فأنت تكافئهم بمدالية فضية عندمـا يصيبون الهدف، ولذلك اعتبرت في النهايـة أنها المعاملة الصحيحة لصديق قديم.

ألم يمنعنا منسيوس من افتراض أي شيء طارئ؟ وإن كان الأصدقاء لا يستطيعون الافتراض على القيمة أو الموقع فكم بالحري على كيس من التبغ؟ فكيس التبغ، مهما كان جميـلاً إلا أنه لا يعدو أن يكون تطريزاً يدوياً لخادمة، بينما أبياتي الشـعرية، مهـما كانت باطلـة هي نتاج ملكتـي الفكرية. ولذلك يكون تبـادل عمل أصابع الخادمـة مع عمـلي الذهني هو بمثابة مدح عظيم ولكنه قليل بالنسـبة لي. ليس كذلك إذا أنت رميت الرمح والسيف، ومسكت الإبرة والحرير، وحولتني إلى كيس من التبغ من أعمالك. وعندها لو طلبت مني حتى عشر مقطوعات شعرية لكنت مددتها لك طواعية. لكن الجنرال العظيم يعرف قوته كما يعرف قوة أعدائه. ومن غير المناسـب لي اسـتمالتك من عمل الرجالة إلى عمل النساء، وأن أضع على رأسك طاقية ملفوفة بشريط كيف إذن تتجرأ على معاملتي **كتسـاو تسـاو Tsao Tsao** (في معاملته للمحظيات على سرير الموت)، بإعطائي كيساً من التبغ غير ذي بال؟

«وبما أنه لا يوجد شيء أعمله، فقد سـلبت نفسي، على حسـابك، بعدد قليل من أبيات الشـعر. إن أخذته بسـوء نية فبالطبع لن أحصل أبداً على الكيس. لكن إن تسـتطيع أن تسـوي طرقك الشـيطانية، إذاً أسرع بكيس التبغ وثق بحظك بشان الأبيات الشعرية.»

أرســل صديق إلى **يوان ماي Yuan Mei** رســالة مع هدية لا تشبه الصينيين في شيء، من السلطعون والبطة. بطتين وسلطعون واحد كانوا سيكونون أكثر تقليدية، وحتى ســلطعونين اثنــين وبطة واحدة. وبخطأ أو غيره وصل الســلطعون لوحده. وبالتالي أرسلت الدعاية التالية كجواب:-

«إن ثقل الإنسان إلى السلطعون هو أمر مسل للغاية للإنسان، لكن لتقل سلطعوناً لانسان هو أمر مسل لكل العائلة. وأنا أعرف أن أبنائي الاثنين في هذه الليلة سوف يثنيان ســاعديهما مثل مخالب السلطعون (أي على شكل التحية الصينية)، متمنين لك كل النجاح في الحياة.

«في قافية الشــعر لا تســتخرج نســخ (أي لا يكون الصوت نفســه مكرراً)، ولا تســتخدم جملتين حيث تكفي جملة (في الإنشاء). وحقيقة أن البطة لم تظهر بعد تعني أنك تعرف جيدا كيف «تفعل الأمر بالتدريج.» ولا داعي لذكر أنك تتســبب في أن يمد الطائر الضخم ذو الرقبة الطويلة رقبته في انتظار شيء آخر.

«أنت تذكر كيف أن الشــاعر **شــن Shen** هزم منافســه بسبب بيت واحد من الشعر:-

«لا تتأوه بسبب القمر الآفل

إن المصباح الجوهرة سوف يلحق به قريباً.»

إذن، إن ســلطعونك يشــبه القمر الآفل، بينما البطة تذكرني بالمصباح الجوهرة؛ ونحن نستخلص من ذلك أنك ستتمتع بالحظ الجيد مثل **شن Shen.**

«مرة أخرى، يضطر الســلطعون، حتى في وجود ملك المحيط، أن يســافر بشكل مائل؛ وبالعلامة نفسها فأنا أثق أنكم وبالتدريج، بشهرتكم ستسافرون بشكل مائل كل الكرة الأرضية المسكونة.

شعر **يوان ماي Yuan Mei** يعجب الناس كثيراً ويقرأ على نطاق واسع. هو واحد من قلة من الشــعراء، القلة القليلة منهم، الذين ازدهروا تحت حكم الـ مانتشــو.

فيما يلي بعض الأبيات الساخرة التي كتبها:-

«لو تفكرت مطلقاً أن الامر يبدو غريباً

كيف أن جميع الناس يبجلون رباً ما،

وكيف يقضون حياتهم سدى لمصلحته

ويحنون رؤوسهم حتى يتألموا.

من الواضح لي أن الآلهة تصنع

من المادة نفسها كالريح والظلال. ...

أواه، لو أنهم يأتون لكل من ينادي عليهم،

لكنت أعلاهم صياحاً!»

قد يكون محزناً في بعض المرات، كما أظهر ذلك في رثاء ابنته الصغيرة ذات الأعوام الخمسة، أن يستذكر جهودها الطفولية مع فرشاة الدهان، مخبراً كيف أنها قصت ثياباً من الورق، أو جلست وراقبت والدها وهو يقوم بالتأليف. وكان كذلك، مثله مثل جميع الشعراء الصينيين يتحمس في حب الطبيعة، وشتاء تزهر فيه شجرة البرقوق، أو هبة ريح شديدة تنثر أوراق الشجر الميتة، سوف يطلقون كل خيوطه الشعرية ويجعلونها مثيرة مرة أخرى. إن الأمر قد يبدو أنه هبوط مفاجئ لو أضفنا أن صاحب المقالات الرائعة هذا، وكاتب الرسائل وقارظ أبيات الشعر المنتهية ربما يدين بالجزء الأساس في شهرته إلى كتاب طبخ، إلا أن الأمر هو كذلك. **يوان ماي Yuan Mei** كان **بريلات سافارين** الصين[97] وفي فن الطبخ فالصين تقف إلى جانب فرنسا. إن كتابه في الطبخ عمل قصير ثرثار وهو مكتوب بطريقة لا يستطيع أحد غير هذا العالم أن يكتبها فيه، بأسلوب يستثمر فيه الموضوع فوراً، بكرامة واهتمام.

«كل شيء» يقول **يوان ماي Yuan Mei**، في فصله الافتتاحي، «له تكوينه الأصلي

97 هو الفرنسي جان انثلم بريلات- سافرين (1826-1755) كان محامياً وسياسياً وذواقه للطعام / المترجم.

الخاص به، تماماً مثل إنسان له مزايا طبيعية محددة. إن كانت المقدرات الطبيعية لهذا الإنسان ذات مستوى واطئ، فإن كونفوشيوس ومينسيوس بنفسيهما لا ينفعان لتلقينه أي شيء. وإذا كانت سلعة طعام هي نفسها قد فسدت فحتى **أي – يا I – Ya** (توم سوير الصين) لا يستطيع أن يطبخها بطعمها.

«إن الجومبون هو جومبون؛ من ناحية إتقان الصناعة فان اثنين من الجومبون سيفترقان بشكل شاسع مثل السماء والبحر. إن سمك الاسقمري هو سمك اسقمري، لكن من ناحية الاتقان فإن اثنين من سمك الاسقمري سيكونان مختلفين مثل الثلج والفحم الذي يوقد كالجمر. وأشياء أخرى بطريقة مشابهة. حتى يمكن تقسيم رصيد العشاء الجيد بين الطباخ والمضيف – بنسبة أربعين بالمائة للمضيف وستين بالمائة للطباخ.

«الطبخ مثل الزواج، فأي شيئين يقدمان سوية يجب أن يتوافقا. الصافي يجب أن يذهب مع الصافي، والكثيف مع الكثيف، والقاسي مع القاسي والناعم مع الناعم. وقد عرفت أناساً يخلطون الكركند المقشور مع عش العصافير والنعنع بالدجاج أو اللحم أو لحم الخنزير.

«إن طباخي اليوم لا يعتقدون بخلط لحمة الدجاج، والبط، والخنزير والأوز في الشوربة. إلا أن الدجاج والبط والخنازير والإوز لها دون شك أرواح. وهذه الأرواح ستقدم بالتأكيد شكوى في العالم الآخر على الطريقة التي عوملوا بها في هذا العالم. إن الطباخ الجيد سيستخدم الكثير من الصحون المختلفة، كل سلعة من الطعام عليها أن تظهر سماتها البارزة بينما كل صحن معمول سيتم تمييزه بطعم طاغٍ واحد. ثم يجيب حنك الذواقة دون كلل، وزهور الروح ستزهر.

«قدم السمك المملح أولاً، وبعد ذلك الطعام ذو الطعم السلبي. ودع الطعام الثقيل يسبق الخفيف. واسمح للصحون الناشفة أن تسبق تلك التي مع صلصة اللحم «الغريفي.» لا تدع أي نوع من مركبات النكهة يتغلب على الآخر. إن كان الضيوف يشبعون من أكل الطعام الشهي فإن معدتهم ستتعب. الأطعمة ذات النكهة المالحة يجري تخفيفها بإضافة طعام مر أو طعام سيجعل المعدة كسولة. وستحتاج إلى طعام حامض حلو لإعادة إثارتها وتنشيطها.

«في الشتاء علينا أن نأكل لحم البقر والخروف. في الصيف علينا أن نأكل الوجبات الناشــفة والمحفوظة. بالنســبة للتوابــل، فإن الخردل يخدم عــلى وجه الخصوص بالصيف والفلفل في الشتاء.

«لا تقطع أغصان الخيزران (وهي المعادل الصيني للهليون) بســكين عليها رائحة البصل. ... الطاهي الجيد غالباً ما يمســح سكينته، وغالباً ما يستبدل قطعة القماش الماصة، وغالباً ما يكشط اللوحة الخاصة به، ويغسل يديه باستمرار إن كان الدخان أو الرمــاد مــن غليونه، وقطرات من العرق من رأســه، أو حشرات من الحائط، أو تفحــم من طنجرة يختلــط بالطعام، مع أنــه قد يكون من أعظــم الطهاة، وهل سيمتنع الناس عن التدخل أو يتوقفون عنه.

لا تجعل صلصتك الكثيفة دســمة ولا تلك الخفيفة دون طعم. من يريد الدســم يمكنــه أن يأكل من لحم الخنزير، بينما تكون شربــة الماء أفضل من شيء ليس له طعم البتة... لا تكثر من تمليح شوربتك؛ لأن الملح يمكن أن يضاف إلى الطعم ولكن لا يمكن أبداً إزاحته.

«لا تأكل بأذنيك،» وأعني بها لا تضع نصب عينيك أن يكون عندك طعام استثنائي وغــير مألوف، فقــط لتدهش ضيوفك؛ فهذا يعني أن تــأكل بأذنيك، وليس بفمك فجبنــة فــول الصويا إن كانت جيدة، ســتكون بالفعل أطيب مــن عش العصفور وأفضــل من بزاقات البحر التي ليســت مــن المرتبة الأولى، لكنهــا صحن لأغصان الخيزران.

«إن الدجاج والخنزير والســمك والبط تشــكل الأبطال الأربعة على الطاولة، إن بزاقــات البحر وعش العصفور ليس لها مــذاق مميز. إنهم فقط مغتصبوا البيوت. حــدث مرة أن تناولت طعام العشــاء عند صديق الذي قــدم لنا عش العصافير في ســلطانيات أقرب ما تكون إلى الأحواض، تحمل كل منها حوالي أربعة أونسات من الســلعة المســلوقة تلك. الضيوف الآخرون حيّوا بقوة، لكنني ابتسمت وقلت «أنا أتيت إلى هنا لأكل عش العصافير وليس لأطلب طلبية منه بالجملة.

«لا تـــأكل بعينيك؛ واعني بذلك أن لا تغطـــي الطاولة بصحون عدة ولا تضاعف الوجبات بلا حصر لها. فهذا يعني أن تأكل بعينيك وليس بفمك.

كـــما أن الخطـــاط لا يجب أن يتعب يده ولا الشـــاعر فمـــه، فالطاهي الجيد لا يســـتطيع أن ينتج في يوم واحد أكثر من أربعة إلى خمســـة صحـــون مميزة. كنت أتناول العشاء مع تاجر صديق كان يطلب ليس أقل من ثلاث إزالات (وهي وجبة من ثمانية أطباق يتم تقديمها بشكل منفصل)، وستة عشر نوعاً من الحلويات، حتى إذا مـــا انهينا أكلنا نكون قد أكلنا حوالي أربعـــين صنفا. وكان مضيفي يتفاخر بكل ذلك، ولكن عندما كنت أصل إلى المنزل كنت متعوداً أن آخذ سلطانية عصيدة أرز. كنت أشعر أنني جائع كثيراً.

«وحتـــى تعرف الصحيح من الخطأ على الإنســـان أن يكـــون يقظاً. وفقط الرجل اليقظ يمكنه أن يفرق المذاق الجيد من السيء. وقيل أن الكلمات غير كافية لتصف الفروقات الدقيقة في الطعم. فكم بالحري كيف ستعجب سكيراً يتئتئ!

«لقـــد رأيت أنصار أصابع المخمنين يبلعون الطعام المختار كما وأنه مثل نشـــارة الخشب، فعقولهم مشـــغولة بلعبتهم. الآن أقول كُلْ أولا ثم بعد ذلك اشرب الماء. بهذه الطريقة ستكون النتائج أقوى من كل اتجاه.»

يـــوان مـــاي Yuan Mei يحتج على العادة المرهقة لإجبـــار الضيوف على الأكل، وعـــلى العادة الأكثر غباءً في تكديس قطع منتقـــاة ووضعها على الصحون الصغيرة التي تســـتعمل كصحون كبيرة، أو حتى وضعهـــا في فم الضيف كما لو أنه طفل أو عروس، وكأنهم يستحون جداً من خدمة أنفسهم بأنفسهم.

كان هناك رجل في **تشـــانغ أن Chang An** كـــما يخبرنا هو، يحب جداً أن يقيم مآدب العشـــاء، لكن الطعـــام كان مقرفاً. في أحد الأيام قام ضيف بالســـقوط على ركبته أمام هذا السيد وقال له، «ألست أنا صديقك؟»

«حقاً إنك لكذلك،» أجاب مضيفه:

«لذلك علي أن أطلب منك مزية،» قال الضيف، «ويجب أن تمنحني إياها قبل أن

أنهض من الركوع.» «حسناً، ما هي؟» استفسر مضيفه باستغراب.

«إن لا تدعوني البتة بعد اليوم إلى العشـاء!» صـاح الضيف، وهنا انفجر الجمع كله بالضحك.

لا يجب السماح لعدم الاكتراث أن يتسلل إلى أي جزء من حياتك؛ وليس إلى أقل مـن نطـاق الطبخ. الطهاة هم أناس منحطون؛ وإذا ما مـرّ يوم دون مكافأتهم أو إنزال عقاب بهم، فإن ذلك اليوم سـيظهر من خلال الإهمال أو عدم الاكتراث من جانبهم. وإذا ما تم بلع الطعام غير المطبوخ بشـكل جيد بهدوء فإن هذا الإهمال ما يفتأ أن يصبح عادة. يضاف إلى ذلك فإن المكافئات والعقوبات العادية لا تنفع. إن كانت أكلة جيدة فيجب التنبيه على لماذا وإلى أين. إذا كانت سيئة يجب القيام بجهد لاكتشاف أين كان الخطأ.

«إنني لست بشارب للنبيذ، ولكن هذا يجعلني أكثر خاصية. فالنبيذ مثل المنحة: إنهـا تنضج مع العمر؛ وأفضله يـأتي من زير فتح حديثاً. وكما يقول المثل رأس زير النبيذ وقعر إبريق الشاي.

نشر **تشـن هـاو تسـو Chen Hao Tsu** في 1783الـذي كان يعيش إلى جانب البحيرة الغربية في **هانغ تشو Hang Chow**، وأطلق على نفسه اسم ناسك الزهور، عمـلاً قصيراً فيه من القيل والقال الكثير عن البسـتنة وهوايات البلد تحت عنوان «مـرآة الزهور.» إنه نوع من القراءة غالبـاً ما تجده في أيدي القراء الصينيين. وقد كتب المقدمة بنفسه بـ :-

«منذ صباي وطالعاً لم أهتم بشيء سـوى بالكتـب وبالزهور. لقد مر علي ثمانية وعـشرون ألف يوم وصرفت الجزء الأكبر منها بالنظر بإمعان فيها على السـجلات القديمة، والباقي صرفته في الاستمتاع شخصيا في حديقتي بين النباتات والطيور.»

يتميـز الصينيـون بالبسـتنة والحـب المتقد للزهـور وهو حـب موجود لدى كل الطبقات وسـمة من السـمات الوطنيـة. لكن الصيني له وجهـة نظر خاصة بهـا. إن الباقة الصغـيرة الدارجة أو الباقـة المتعلقة بالأغنيـاء لا تجذبانه قطعياً.

أنــه يســتطيع أن يرى زهرة واحدة عــلى حدة كل مرة. إن أفضــل مزهرياته هي تلــك التــي تحمل زهرة واحدة منســقة للتزيين والمزهريات الأكــبر، لها في العادة أغطيــة، ثقــوب حتى يتــم عزل كل عينــة على حــدة. فزهرة الربيــع عند حافة النهــر بالنســبة له تصبح قصيدة كاملــة. وإذا ما حكم عليه بحياة مســتقرة، فهو يحــب أن تكــون زهرة إلى جانبه على الطاولة. أن يســتجلب مــن أوراقها السرور وحتــى الإلهام. وهــو يأخذ زهرة معه إذا ما خرج للتمــشي ويتوقف مراراً وتكراراً ليتحدث عن جمالية نموها. وهكذا مع الطيور. إنه أمر عادي أن تلتقي، في أمسية لطيفــة، بصيني يحمل قفــص العصافير الخاص به متدلياً مــن نهايته عصاً قصيرة. وســيتوقف على إحدى الزوايا البهيجة خارج البلدة، ويســتمع بطرب إلى سقسقة الطيــور. لكــن لنعود إلى المقدمــة. ويتابع مؤلفنــا قائلاً أنه في وســادته المعمولة مــن الخيــزران المجوف يحتفظ دائما بــشيء من العمل في موضوعــه المحبب له.

«الناس يسخرون مني ويقولون أني مخبول بالزهور ومجنون كتب؛ لكن بالتأكيد إن الدراسة هي الوظيفة الصحيحة لرجل مثقف، أما بالنسبة للبستنة فهذه ببساطة راحة لعقلي واسترخاء في سنواتي الآفلة. ماذا يقول **تاو تشيان Tao Chien**؟»

«أنا لا أحب الغنى والمناصب

وليس لي أمل في السماء فوقنا.»...

يضاف إلى ذلك فأنا أكرس نفسي فقط في ساعات الراحة لتنمية الزهور.

ثم أن **تشــن هاو تســو Chen Hao Tsu** يعدد الفصول الأربعة مظهراً أن كل واحدة منها لها ســحرها، مضيفة إلى نتاج تلك الملذات الصافية التي تشكل أفضل ترياق لأمراض كبر الســن. ثــم ينطلق ليتعامل مع الأزمنــة والفصول، مظهراً ماذا تعمل في كل شــهر، تماماً مثلما تفعل كتب الحدائق الخاصة بنا. بعدها تأتي فصول قصيرة عن كل شجرة رئيسية، شجيرة ونبات من الصين، مع تلميحات كيف تعاملها تحت ظروف مختلفة، ويختتم الجميع بجزء منفصل مخصص للطيور والحيوانات والأســماك والحشرات. ومن ضمن هذه تجد الكركي والطاووس، والببغاء والسّمنة،

والبوم السلوي، **والميناه Mainah**، والسنونو، والغزال، والأرنب، والقرد، والكلب والقطة والسنجاب، والسمك الذهبي – ذكر لأول مرة من قبل **سو شيه Su Shih.**

«على الجسر طوال النهار

أقف هناك أراقب لعب السمك الذهبي» –

النحل، الفراشات والحباحب (سراج الليل)، الخ... إجمالا هناك الكثير لتتعلمه من وايت أصيل سلبورن الصيني،[98] والقارئ يضع الكتاب جانباً وهو يشعر أن الكاتب لم يجنح كثيراً عندما قال، «إن كان المنزل ليس له حديقة وشجرة قديمة، لا أرى من أين ستأتيه مباهج الحياة اليومية.»

قيل أن **تشاو أي Chao I** (1727-1814) كان يعرف عدة آلاف من الأحرف الصينية عندما كان ابن ثلاث سنوات فقط، - وهو العمر الذي كان فيه جون ستيوارت ميل يعتقد أنه بدء تعلم اللغة اليونانية. ولم يحصل على شهادته النهائية إلا في 1761 وقد ظهر الثاني في اللائحة. بالواقع كان هو الأول لكن الامبراطور وضع **وانغ تشيه Wang Chieh** في ذلك المكان حتى يشجع أهل **شن سي Shensi** التي كان منها الأخير. أن يكون **وانغ تشيه Wang Chieh** موضع ذكرى يعود بالأساس إلى تلك الحادثة المذكورة أعلاه، وليس إلى مجلدين من المقالات تركهما خلفه. كتب **تشاو أي Chao I** تاريخ حروب السلالة الحالية، ومجموعة من الملاحظات على مواضيع مغامرة تهم الأيام التي كان فيها، وانتقادات تاريخية وغيرها من الأعمال. وكان أيضاً شاعراً ساهم في مجلد ضخم من الشعر أخذنا منه العينة التالية عن فنه:-

الإنسان بالفعل مخلوق سماوي،
بالرغم من أنه يبدو ترابياً من التراب؛

---

98 هو الإنجليزي جيلبرت وايت عالم للطبيعية وعالم طيور عاش من 1720 إلى 1793. أشهر أعماله التاريخ الطبيعي لآثار سيلبورن. Natural History of Antiquities of Selborn/ المترجم.

السماء ليست إلا بساط الرحمة الكثيف
من الهواء الشفاف الذي يغطي الجميع.
كما هذا الهواء كذلك السماء؛
لماذا تطلق على هذا وضيعاً وذاك عاليا؟
«إن قطرة الندى تتألق في الفنجان-
لاحظ كيف أن الزهور التواقة تنمو؛
قيدها واحبسها في غرفة،
فهي تذبل وتجد هلاكها السريع.
إنها عند أقدامنا ذاتها
الأرض والسماء تلتقيان.

«الطفل عند الولادة يشير باتجاه السماء أيضاً،
محاط بالأزرق الأبدي؛
كالسمك في الماء ينتظر،
كذلك السماء من كل صوب تحيط؛
إلا أن الناس يستمرون بالخطيئة لأنهم يقولون
الرب العظيم في السماء بعيد جداً.

كان «التوقــف القصير» ذو حظوة كبيرة عنده. يمكن أن يتم قياس مســتواه من خلال العينة التالية، التي كتبها وهو على وشك الانطلاق إلى موقع بعيد في الشمال:-

«انظر أين، مثل لطخات الربيع تتجمع في السماء،
في طريقها الشمالي الطويل تطير الإوزات البرية؛
وسويا سوف نطفو على النهر. ...
أواه، هي تتجه إلى الأمام وأنا أتجه بعيداً عن البيت!»

وفيما يلي شعر آخر لكن بنبرة فكاهية:-
المطر كان يهطل معظم النهار،
وأنا كنت أجهد وأعمل....
ما هي المشكلة، أيها الطاهي؟ ألا يوجد عندك دخن في المخزن؟
حسناً، كتبت كتاباً سيشتري لنا بعضاً منه.

إذا مـا أخذناهم مع بعض، فإن الشـعر في السـلالة الحاليـة، وخاصة تلك التي جـاءت في القرن التاسـع عشر، يجـب أن نكتب عنها أنها ليسـت أكثر من أبيات شعرية مصطنعة، وهي من ناحية فنية حتى لا تخبئ نفسها، لكنها تعرض امتيازها بشـكل فظ إلى أكثر المراقبين غبـاوة. نشرت مجموعة مـن المقتطفات من حوالي ألفي شـاعر ممثل في 1857، إلا أن ذلك شـكل قراءة بليدة، واي أفكار، فيما عدا العادية منها جداً، قليلة ومتباعدة، وكما في كل المجموعات المشابهة، خصص مكان للشـاعرات، وربما تكون **فانغ واي أي Fang Wei I** مثلا مناسـباً. إنها تنحدر من أسرة جيدة وكانت تزوجت حديثاً من موظف شاب واعد عندما توفي الأخير، وتركها أرملـة حزينة ومن دون أولاد. وأتاها النور في الظلمة، ودون اكتراث لنداءات أبيها وأمهـا، قررت أن تصبح راهبة وتكرس ما بقي لها من حياة لخدمة بوذا. هذه هي أبياتها الوداعية:-

«الحديث لدى العامة كيف أن الفراق يحزن الحياة:
فليس لنا فراق بعد الموت.
لكن دع ذلك يمر؛ فأنا لم أعد زوجة،
وسأواجه القضايا المصيرية إلى آخر نفس عندي.

«الريح الشمالي يصفر عبر بستان التوت،
ويسبب لي كل نهار وكل ليلة الأنين؛
أنظر إلى السماء المتغيرة فوقنا،

لا ثرثاراً صغيراً يبتسم على ركبتي.
«إن أحلى ما تعطيه الحياة هو أن تموت....
إن والديّ اللذان يبكيان لا يزالان يكرهان الاستسلام
ومع ذلك في الشرق وفي الغرب لا تزال الفراخ دون خبرة للطيران

والراعي في الخريف يتجول في الحقول.
«ماذا ستجلب لي الحياة حتى أبقى؟
ماذا سيجلب لي الموت حتى أبقى؟
هذه الأفكار تجيش فيّ في وضح النهار،
وتجعلني أعي بأنني أخيراً أعرف.»

أحد أعظم علماء السلالة الحالية كان **يوان يوان Yuan Yuan** (1764-1849). حصل على الشهادة الثالثة في 1789، وفي الامتحانات النهائية صعق الامبراطور الذي شاخ، **تشيان لونغ Chein Lung** من موهبته فقال باندهاش، «من كان سيفكر أنني بعد أن أقضي السنة الثمانين من عمري سأجد رجلاً مثل هذا الرجل؟» وقد استلم عدة مناصب عليا بالتتابع بما فيها منصب حاكم **تشه كيانغ Che Kiang** الذي عمل فيه بقوة ضد قراصنة ولاية **أنام Annam**، واستطاع **تساي تشيان Tsai Chien**، أن يقيم نظام العشر والكليات، والمدارس، ومطابخ الشوربة، هذا إلى جانب تكريس نفسه للحفاظ على الآثار القديمة. وبصفته نائباً للملك في المقاطعتين التي فيها كلمة **كوانغ Kuang**[99]، وغالباً ما تصادم مع المصالح البريطانية، وقام بأقصى جهده لابقاء يده محكمة على التجار البرابرة. وقد كان كاتباً غزيراً في الكلاسيكيات، وعلم الفلك والآثار الخ. ونشر عدة مجموعات مهمة متعددة تحت رعايته. ومن بين هذه يمكن أن نذكر **هوانغ تشينغ تشينغ تشيه Huang Ching Ching Chieh**، ويتضمن أكثر من 180 عملاً مستقلاً **وتشو جن تشوان Chou Jen Chuan**، قاموس للسيرة الذاتية لأشهر الرياضيين في علم الرياضيات لكل العصور بما في ذلك اقليدوس، ونيوتن، وريتشي، الأب

99 وهي كوانغ تشو Kuang Chow وكوانغ تونغ Kuang Tung / المترجم.

اليســوعي. ونشر كذلك علــم تضاريــس الأرض في **كوانغ تونــغ Kuang Tung** **وكيانــغ سي Kiang si** ومجموعــة كبــيرة تضمــن النقوش على الأجــراس وعلى

المزهريات، وكذلك حرر كشاف - كتلوج المكتبة الإمبراطورية، والموسوعة الضخمة المعروفة باســم **تاي بيــنغ أو لان Tai Ping Yu Lan** وغيرها من الأعمال المهمة.

عمــلان دينيان لهما علاقة بطاوية هذه الأيــام الحديثة، واللذان أصبح لهما منذ

مدة طويلة شــعبية عبر الصين، يمكن أن نذكرهما هنا، لا يمكن الحصول عليهما في الدكاكين ولكن يمكن الحصول عليهما في المعابد، حيث توضع أعداد كبيرة منها من قبل المحسنين لأهداف التوزيع مجاناً. الأول **هو كان ينغ بيان Kang Ying Pien،** أو كتاب **المكافئات والعقوبات،** المنسوب من قبل المجنون إلى شخص **لاو تسو Lao Tsu.** أن التاريــخ الحقيقي له غير معروف؛ والكتاب المعتدلون يضعونه بين أعمال **سلالة سونغ Sung Dynasty،** لكن حتى ذلك يبدو مبكراً كثيراً. ومع أنه اسمياً له أصــل **طاوي Taoist،** فإن هذا العمل يجري عادة تنقيحه بطريقة بوذية معروفة، والحقيقة أن الطاوية والبوذية أصبحا اليوم مخلوطين جداً لدرجة أنه من الصعب أن ترســم خطاً حدياً للحد بين الاثنين. يقول **تشــو هسي Chu Hsi،** «إن البوذية سرقت أفضل السمات من الطاوية، والطاوية سرقت أسوأ سمات البوذية؛ إنه يبدو وكان الواحد منهما سرق جوهرة من الآخر، وأن الخاسر استرجع خسارته بحجر.» في التقديم لكتاب **كان ينغ بيان Kang Ying Pien** ستجدون أن هناك طريقة بوذية لتنظيف الفم والجســد قبل البدء بقراءة النص، ويناشــد **مايترايا بودا Maitreya Buddha وأفالوكإتاســفارا Avalokitesvara.** وينصح النساء المتزوجات والبنات بــأن لا يترددن على المعابد فيصبحن فرجة للرجال. «إن كان ولا بد أن تتعبد لبوذا فتعبد إذاً لكلا البوذيين اللذين على قيد الحياة عندكم في البيت، الوالدين؛ وإن كان ولا بد أن تحرق بخور، فأحرقه على مذبح العائلة.» ويتم إعلامنا أيضاً أنه لا يوجد وقت لا يجب أن يقرأ فيه؛ ولا مكان لا يجب أن يقرأن فيه؛ ولا أي إنسان لا يمكن أن يقرأه بربح. وتتم نصيحتنا لدراســته عند الصيام، وليس بالضرورة أن نصيح به عالياً حتى يســمعنا الرجال وإنما أن نفكر فيه في قلوبنا. النص يحتوي على تهديد يقال أنه تم لفظه من قبل **لاو تسو Lao Tsu** نفسه، وموجه لكل فاعلي الشر من

جميع الأنواع. في الفقرات الافتتاحية يتم الانتباه إلى كائنات روحية متعددة الذين يســجلون الأعمال الصالحة وجرائم الناس، فيطولون أو يقصرون من حياتهم وفقاً لذلــك. ثم يلحق بها لائحة طويلة من الأعمال الشريرة التي لا مناص إلا أن تجلب لهــم العقوبة في أذيالها. وتتضمن هــذه مخالفات عادية معــترف بها من الرموز الأخلاقية في كل أنحاء العالم، كل شــكل من أشكال الظلم والقمع، الكذب والسرقة سويا مع أخرى كثيرة، لها شخصية ذات خطيئة بسيطة لترى العقل الغربي. من بين الأخيرة تعشــيش الطيور، والدعس من فوق الطعــام أو الكائنات البشرية، الطبخ بحطب قذر، والبصق على النجوم الســاقطة أو التأشــير على قــوس قزح أو حتى على الشــمس والقمر والنجوم. في كل هذه الحالات، سيتم اقتطاع فترات من حياة المذنب، وإذا اســتنفذ حياته بينما هناك لا يزال يوجد ذنب غير مســدد فالعقوبة سوف تنقل إلى حساب ذريته.

العمل الثاني من بين العملين تحت الدراسة هو **أو لي تشاو تشوان Yu Li Chao Chuan**، هــو وصف للمحاكم العــشرة في المطهر في العالم الآخر، الذي من خلاله، يصبح الجميع أو البعض، من الأرواح المخطئة عليه المرور قبل السماح له أن يولد من جديد في هذا العالم، في شكل مختلف، أو أن يبقى باستمرار منقولاً إلى السعادة الأبدية المحجوزة للبررة فقط.

في **المحكمة الخامســة** على ســبيل المثال، فإن الخطاة ينقلون على عجل من قبل شياطين لهم رأس ثور ووجه حصان إلى مصطبة شهيرة حيث يكون عقابهم الجسدي قد تفاقم بالقاء نظرة على منازلهم القديمة:-

«هذه المصطبة تكون ملوية من الأمام مثل القوس، إنها تطل شرقاً وغرباً وجنوباً. إنها تبلغ واحداً وثمانين لي من جانب إلى آخر، إن الجانب الخلفي يشبه الوتر على القوس؛ إن حائطاً فيه سيوف حادة يحيط به. إنه يبلغ بالارتفاع 490 قدماً، جوانبه هي نصلات سكاكين، وكلهم في ثلاثة وستين طابقاً. لا ظل جيد يأتي إلى المصطبة ولا أولئك الذين عندهم التوازن الدقيق بين الصالح والطالح. إن الأرواح الشريرة فقط التي ترى بيوتها قريبة وتســتطيع أن ترى وتسمع ما يدور. إنهم يسمعون الشيوخ والشــبان يتحدثون مع بعضهــم البعض، ويرون أن رغباتهــم أهملت وتعليماتهم

عُصيت. ويبدو أن كل شيء تغير. الأملاك التي جمعوها بكثير من العناء قد تبددت وذهبــت. الزوج يفكر بالزواج من زوجة ثانيــة، والأرملة تتأمل بزفاف ثانٍ، عزّاب يمتلكون المزرعة القديمة؛ لا يوجد شيء لتقســيمه بين الأطفال. الديون التي دفعت منذ زمن جلبت مرة أخرى لتســويتها، والناجون يدعون للاعتراف بالادعاءات على أولئك الذين غادروا. والديون التي لك فقدت لأنها بحاجة إلى شــهود، مع اتهامات مضادة لا تنتهي، الاساءات والفوضى العامة، التي كلها تقع على رؤوس عائلات الموتى الثلاثة. وهم في غضبهم يســيئون بالكلام عن ذلك الذي توفي. وقد رأى أولاده وقد فسدوا وأصدقائه يبتعدون عنه. البعض منهم، ربما، فقط من أجل الأيام الخوالي قد يحســون التابوت ويدعون دمعة تسقط، ويغادرون بسرعة وعلى وجههم ابتسامة صفراء. وأســوء من ذلــك الزوجة ترى زوجها يعذب في مقــر الحاكم؛ والزوج يرى زوجته ضحيته لمرض خبيث، الأراضي ذهبت، والبيوت دمرها الفيضان أو النار، وكل شيء في فوضى عارمة – مكافأة الخطايا السابقة.

المحكمــة السادســة هي جهنم شاســعة وصاخبة، كثير من العنــاصر في المدى، وحولها يوجد ستة عشر جناحاً.

«في الأول، تجــبر الأرواح عــلى الركوع لفترة طويلة تحت الــضرب. في الثاني يتم وضعهم حتى الرقبة في الأوساخ. في الثالث، يتم ضربهم حتى يجري الدم خارجاً؛ في الرابع يتم فتح أفواههم بكماشة حديدية ويعبأ بالإبر. في الخامس، يتم عضهم من قبل الجراذين. في السادس، يغلق عليهم في شبكة من الشوك ويقرضون من الجراد. في الســابع يطحنون حتى يصبحوا هلامــاً. في الثامن يتم تمزيق جلدهم ويضربون عــلى اللحم الخام. في التاســع، يتم ملأ أفواههم بالنــار. في العاشر، يتم لعقهم من الســنة النــار، في الحادي عشر يتــم اخضاعهم لروائح كريهــة. في الثاني عشر، يتم نطحهــم من الثيران والاحصنة تدوس عليهــم، في الثالث عشر، يتم خدش قلوبهم، في الرابع عشر، يتم فرك رؤوســهم حتى تســقط جماجمهم. في الخامس عشر يتم قطعهم إلى نصفين من الوسط. في السادس عشر، يتم أخذ جلدهم ولفه في رقاقات.

«أولئك غير الراضين الذين يشــتمون السماء ويلعنون الأرض، الذين يجدون دائماً أخطاء إما في الرياح، الرعد، الســخونة والبرودة، الطقس الجيد أو في المطر؛ أولئك

الذين تنســكب دموعهم باتجاه الشــمال؛ الذين يسرقــون الذهب من الداخل أو يحفون الطلاء بالذهب من الصور في الخارج؛ أولئك الذين يســمون ســدى بأسماء مقدسة، الذي لا يظهرون الاحترام للورق المكتوب، الذين يرمون الأوساخ والقمامة قــرب الباغودات او المعابد، الذين يســتعملون بيوتاً قذرة للطبخ، ومواقد لتحضير لحمــة الأضاحي، الذين لا يمتنعون عن أكل لحم البقر ولحم الكلاب؛ أولئك الذين يملكــون في حوزتهم كتبــاً فيها تجديف على الله، أو كتب فاحشــة، ولا يدمرونها، الذيــن يزيلــون أو يمزقون الكتــب التي تعلم الإنســان أن يكون صالحــاً، الذين يحفــرون على مواد الاســتخدام البيتية العامة رمز أصل جميع الأشــياء، **الشــمس والقمروالنجوم الســبعة، الأم الملكية، وإله طول العمر** على المواد نفســها، أو أي تمثيــل لأي من **الخالدين؛** أولئك الذين يطــرزون الصليب المعكوف على مطرزات فاخرة أو يضعون الأحرف على الحرير والســاتان أو القماش، على الرايات، والأسرة والكراسي والطاولات أو أي نوع من الأغراض البيتية؛ أولئك الذين يلبســون خلسة ثياباً يزينها التنين والعنقاء التي يتم دوســها تحت الأقدام، الذين يشــترون القمح كله ويمســكون به حى يرتفع إلى ارتفاعات مبالغ فيها – كل هؤلاء سيتم رميهم في جهنــم الكبيرة والصاخبة، حيث يتم التحقيــق معهم بأعمالهم الشريرة، ويتم بعد ذلك وضعهم في أحد الســتة عشر جناحاً، الذين مع انتهاء مدتهم سيرســلون لمزيد من الاستجواب في **المحكمة السابعة.**»

المحكمة العاشرة تتعامل مع مرحلة التقمص الأخيرة التي تتم قبل إعادة الولادة في العالم، ويبدو أن في العصور البدائية كان الإنســان يســتطيع أن يتذكر حيواتهم الســابقة على الأرض حتى بعد أن يمروا عبر المطهر، وأن الأشــخاص عصاة القلوب غالباً ما استفادوا من هذه المعرفة، وحتى يتم إصلاح ذلك، تم بناء **مصطبة النسيان،** وجميع الأنواع ترســل إلى هناك ويجبرون على شرب كاس النسيان قبل أن يمكنهم الولادة من جديد.

«إن كان هؤلاء يبلعون الكثير أم القليل فلا يهم ذلك؛ لكن في بعض الأحيان هناك شــياطين منحرفين الذين يرفضون أن يشربوا ذلــك جملة وتفصيلا. بعد ذلك، تبدأ تحت أقدامهم بالنمو شــفرات حادة ويتــم إجبارهم على إدخال أنبوب نحاسي في

حنجرتهم والذي من خلاله يعني أنهم مجبرون على شرب بعضه. وعندما يشربون يتــم رفعهم مــن قبل المرافقين الذين يرافقونهم إلى الطريق نفســها. ثم بعد ذلك يدفعون إلى جسر الخيزران المر العائم مع ســيول مدرارة من الماء الأحمر من كلا الجانبــين. وفي منتصف الطريق يلاحظون أنه مكتوب بأحرف صينية كبيرة على تلة حمراء في الجهة المقابلة الأبيات التالية:-

«أن تكون رجلا هو أمر هين، وإنما لتعمل وفقا لمسؤولياتك هو أمر صعب؛

لكن أن تعود إنساناً مرة أخرى قد يكون أصعب.

لأولئك الذين ســيولدون من جديد في إحدى الدول الســعيدة لا توجد صعوبة كبيرة.

إنــه ضروري فقــط أن تحفظ فمك وقلبك في انســجام.» «وعندما قرأت الظلال هذه الكلمات، حاولت أن تقفز إلى الشــاطئ، إلا أنها ضربت وعادت إلى الماء من قبل شيطانين ضخمين. واحد منهما له طاقية رسمية سوداء وثياب مطرزة؛ وفي يده يمســك بقلم رصاص من الورق، وعلى كتفه يحمل ســيفاً بتاراً. وتتدلى من وســطه أدوات التعذيب؛ وبشــدة يتوهج مخرجــاً عينيه الكبيرتين المســتديرتين فيضحك ضحكة فظيعة اســمه **الحياة القصيرة.** أما الثاني فله وجه قذر ملطخ بالدم؛ يلبس معطفــاً أبيضَ، ومعداته في يده وكيس أرز على كتفه. وحول عنقه يتعلق حبل من النقود الورقية؛ وحاجباه يتقلصان بشــكل مخيف ويتلفظ بتنهدات طويلة. اسمه لقد حصلوا عــلى مكافأتهم، ووظيفته هي دفع الظلال إلى الماء الحمراء. إن عصاة القلــوب والمجانين يفرحون من إمكانية أن يولدوا مــرة أخرى كبشر، لكن الظلال الأفضل يبكون ويحزنون لأنهم في الحياة لم يؤكدوا على تخزين أعمال فضلى، وهكذا انتقلــوا إلى مرحلة البــشر إلى الأبد. ومع ذلك، كلهم يحثــون الخطى للولادة مثل جمهور من المهووسين أو السكارى، ومرة أخرى، في طفولتهم الجديدة يشتاقون إلى الطعم الممنوع. ثم بغض النظر عن النتائج يبدأون بتدمير الحياة وبالتالي يضيعون جميــع الادعاءات لرحمة ورأفة الله. فهم لا يفكــرون بالنتيجة التي يجب عليهم إدراكها؛ وفي النهاية، إنهم يجلبون أنفسهم مرة أخرى إلى محنة شنيعة مشابهة.»

الفصل الرابع
أدب الحائط – الصحافة – الظرافة والفكاهة – الامثال والمبادئ

إن موت **يوان يوان Yuan Yuan** في 1849 يقربنا من الفترة عندما كانت الصين تبحـــث عن ذاتها لأول مرة وجهاً لوجه مع الأجانب. إن فتح مينائين في 1842 أمام التجارة الحرة نسبيا، تبعها فتح موانئ أكثر وحق الإقامة في بكين من 1860، خلقت نقاط اتصال وأثارت تعقيدات أجنبية لحكام الصين الذين لغاية الآن غير معتادين عليهــا. إن **هوراس** الصيني قد يشـــتكي بان حاضنات إنكلـــترا الجريئة قد أدخلت باحتيال خبيث الصحافة إلى الإمبراطورية، ومن أن شراً أســوأ من الاســتهلاك ومن الحمى تبعث ذلك في اعقابها.

منذ الزمن الغابر أصبح أدب الحائط صفة عن الحياة في المدينة الصينية ســابقاً بمــداه ونوعيته ذاك من أي أمة أخرى، وفي بعض الأحيان لعب دوراً محفوفاً بكثير من المخاطر للمجتمع بشكل عام. إن أدب الحائط يغطي كثيراً من الأرضية نفسها مثل أي صحيفة إنكليزية عاديـــة، من عامود «العذاب» نزولاً. لأنها وقد اختلطت مع إعلانات الممتلكات الضائعـــة التي تتكون في بعض الأحيان من بشر، وإعلانات عـــن جميع أنواع التجارة، مثل تلك التي يجدها المرء في بيان أو منشـــور أدبي لأي مدينـــة، ويمكن أن نجد إعلانات عن أدويـــة جديدة أو صاعقة لأمراض متعددة أو حبـــوب لا تخطئ من أجل شـــفاء المحرومين من مدخني الأفيـــون، ولوائح طويلة من أســـماء المشتركين بأي مهرجان قادم أو إلى ترميم ورع لهيكل محلي، وعظات لا تنتهي موجهة ضد سوء استخدام الورقة المكتوبة، وفي بعض المرات ضد وأد البنات، أو تحذيـــرات مثل تلك التي يحذر منها **كمينغ Cumming** عن ألفية قادمة، التي ســـيحصل فيها قســـاة القلوب على مكافأتهم على جرائمهم، وفقاً للترتيبات البشعة

للمطهر البوذي الطاوي. أحياناً يتم إعطاء شخص بغيض نصيحة عبر إعلان مجهول للامتناع عن نهج يشــار إليه بأنه هجومي، وبالطريقة نفســها، لكن أكثر ندرة، يتم انتقاد عمل موظف أو مســؤول بشكل قاس أو مدان. إن الإعلانات الرسمية حول النشــاطات العامة بالكاد يمكن تصنيفها كأدب حائط، ربما باســتثناء عندما، يكون هــذا غير غريب، يكتبون بأبيات هزلية بهدف جــذب القارئ غير المتعلم بطريقة أكثر مباشرة، إن الإعلان التالي الذي يؤســس لمكتب تسجيل للقوارب في **تيان تسين Tien Tsin** يعطــي فكرة عن هذه الوثائق الغريبة، والذي يوازيها في الغرب فقط أبيات من الشعر شهيرة أصدرها مجلس التجارة لاستخدام ربان البحر:-

«الأخضر إلى الأخضر والأحمر إلى الأحمر

آمنة جداً، اذهب،»

إن هدف مكتب التســجيل هذا كان ظاهريا لإنقاذ البحارة الفقراء من التعامل معهــم دون إنصــاف عندما يطبعون في خلدهم على أخذ أجرة اســمية للخدمات الحكوميــة، لكن بالحقيقة لتمكين المســؤولين من معرفة أيــن بالضبط يمكنهم أن يضعوا أيديهم على القوارب عندما يطلب ذلك منهم:

«إنها بلدة مشغولة **تين سين Tein Tsin**،
طرق برية ومائية؛
التُجار في كثافة الغيم يتهافتون عليها
السواري ترتفع في الغابات في كل مكان

«كرسي المسؤول، طاقية العداء،
تخفق مارة من أمامه مثل المطر أو الثلج المتساقط،
ويفكر في نصيب البحار
حصته المشكوك فيها في السراء والضراء،

«لاحظت الصعلوك الذي يعيش
على عصر ما يكسبه بصعوبة؛

أيها البحارة من أجلكم أنا أعطي
السجل العام لكم.

«اذهبوا فوراً هناك، واكتبوا اسمائكم
وعلى الكتاب أثيروا السجل؛
لا أحد يجرؤ على ادعاء الرشوة السيئة،
أو يهدر وقتكم في تأخير طويل.

«الخدمات التي ينادي بها بلدكم
سيتم تنفيذها من الجميع بالتناوب
إن حشد أسماء البحارة
سيتم نشره على حائط مقر الحاكم.

«وعندما تنهون عملكم الرسمي،
اعملوا لأنفسكم بكل قواكم
اجروا بقواربكم لأي كان؛
وأنا سأعطي ترخيصاً لكل انسان.

«ودع قدرك يصعب حمله
فدفع الأموال الرسمية سيكون بسخاء؛
دع هؤلاء الذين يلحظون أي شيء غير عادل
يعلموني بالقضية فوراً.

«سيردع المذنب
في المستقبل، إذا كان ذنبه واضحاً؛
لأن الأوقات صعبة، كما سمعت،
والطعام والكساء سيصبح نادراً.

«وهكذا رأفة ببليتكم،
إن ميزان العدالة بيدي،

أنا أنقذكم من العدو-المقر الرسمي للحاكم،
فرقة التهديد من جنود المعسكر.

«ولن يتجرأوا بعد اليوم أن يلعبوا
الاعيبهم المخزية، التي اكتشفت حديثاً،
المكتب يطرد
القوارب - وبناء على أوامر تم ختمها بالحق.

«وهكذا سيتم عمل قانون واحد للجميع،
فالأشياء لن تضيع بعد اليوم؛
أيها البحارة، أنا أناديكم
لإظهار امتنانكم على هذا.

«وحتى لا يكون بينكم واحد يدعي الجهل،
فأنا أصدر هذا على أمل إخافة
هؤلاء المجانين الذين يعتقدون أنهم سينجون
بمحاولاتهم تجنب القانون.

«وإذا ما قبضت عليهم، لا ينتظرهم
قدر خفيف في ذلك اليوم غير المحظوظ؛
لذلك من تاريخ هذا الإعلان
دع الجميع ينصاعون بالخوف والرعب.»

بالكاد من الضروري أن أضيف أن أدب الحائط غالباً ما كان يوجه ضد الأجانب، وبشكل خاص ضد البعثات التبشــيرية. لكن العقوبات لتعليق إعلان مجهول هي عقوبات شــديدة القساوة، وخلال السنوات الأخيرة قد تحقق الهدف نفسه بشكل أكبر فعالية من خلال توزيع مناشير فاحشة، غالباً مصورة ودائماً مقرفة.

برهنت الصحافة أنها ستكون شوكة مؤلمة للجانب الرسمي، لقد تم إدخالها لأول

مرة في الصين تحت رعاية الإنكليزي الذي كان المحرر الأسمي لصحيفة **شن باو Shen Pao** أو **أخبار شنغهاي** التي لا تزال صحيفة مؤثرة. لمدة طويلة حاربت السلطات من أجل الخلاص من هذه اليومية غير المرغوب بها، التي بين الفينة والأخرى، تحدثت ببضع حقائق محرجة، وتضمنت مقالات كثيرة كتبت بشكل مقتدر من قبل علماء وطنيين من الدرجة الأولى. وأخيراً تم نشر صحيفة رسمية في المعارضة ومنذ ذلك الحين ظهرت صحف غيرها. أسبوعية صينية مصورة قامت ببداية جيدة في شنغهاي ولكن للأسف ما لبثت أن انجرفت وراء الخرافة وعدم التسامح والابتذال.

تم القيام بمحاولات لتزويد الصينيين بترجمات لأعمال أوروبية بارزة، ومن بين أولئك التي أنتجت يمكن ذكر **تقدم الحاج The Pilgim's Progress**» مع صور توضيحية لأن الممثلين المتعددين كانوا في ثياب صينية؛ إن «التربية» لدى السيد هيربرت سبنسر قدمت فيها الجملة الأولى بشكل غير مفهوم؛ «ومغامرات البارون مونشهوزن» وغيرها. في كل حالة منها، ما عدا واحدة، رفضت هذه الجهود من قبل الصينيين بسبب الأسلوب الضعيف. وكان الاستثناء الوحيد ترجمة خرافات **إيسوب Aesop's** التي نشرت في عام 1840 من قبل **روبرت ثوم Robert Thom** كما وضعت باللغة الصينية من قبل عالم وطني مشهور. هذا العمل جذب كثيراً من اهتمام الشعب بشكل عام، لدرجة أن المسؤولين فزعوا وقاموا بجهود شاقة لقمعها. السنوات الأخيرة شهدت إصدار «**فاتيك Vathek**» باللغة الصينية التي قدم مثقف سام فيها النقد التالي:- «إن الأسلوب الذي كتبت فيه هذه ليس سيئاً، لكن الموضوع لا أهمية له.» والحقيقة هي من أجل إشباع ذائقة القارئ الصيني المثقف يكون المطلب الأول هو الأسلوب. كما رأينا في حالة **لياو تشاي Liao Chai**، فالصينيون سيقرأون تقريبا كل شيء إذا ما تم وضعه بإطار صائب. فهم لن ينظروا إلى أي شيء يخرج من مصادر أجنبية تهمل هذه الرغبة العظيمة.

إن الزمن الحالي لم يرَ مولد كاتب أصيل عظيم من أي منحىً من مناحي الأدب، ولا إنتاج أي من الأعمال الأصيلة العظيمة جدير بتلطيخه بزيت شجرة الأرز كي تبتهج لذلك الأجيال القادمة.

مــن العادة بعد المــوت، وأحياناً خلال حياته، أن يقوم رجــل دولة قيادي بنشر مجموعة من مذكراته إلى العرش، مع ربما، عدد من المــقالات وبعـــض القصـــائد، مـــثل هـــذه ســتـــلاقي احتـــراماً عـــمـــيقاً **Succes d'eastime** ثم بعد ذلك يتم اســتخدامها من قبل المجلدين لتســمين الورق المطــوي لأي من التحف القديمــة. إن المرشــحين الناجحين للحصول على الشــهادة أو الدرجة النهائية عادة يطبعــون المقالات الناجحة، وفي بعــض الأحيان القصائد، بالأســاس لتوزيعها على الأصدقاء. عــدة مفكرات لوزراء خاطبوا البلدان الأجنبية وكتب مشــابهة، ظهرت في الســنوات الأخيرة، مسجلة اندهاش الكتاب من العادات الاجتماعية غير العادية التي تســيطر بين البرابرة. لكن في هذه الأيام فالصينـــي الذي يرغب بقراءة كتاب لا يجلــس لكي يكتب واحداً منها. فهو مضغوط للغاية من الأبعاد الشاســعة لأدبه الموجود، ومن قبل قلة الأمل في منافسه، وأكثر من ذلك من قلة الأمل على التفوق، على أولئك الخالدين الذي أتوا من قبل.

ســيكون واضحــاً أنه مــن غير الإنصــاف وصف الشــعب الصيني بأنــه يحتاج إلى الطرافــة لأنــه ببســاطة يتدغــدغ من النــكات والتــي لا نتحرك مــن أجلها. وكذلــك بعــض مــن قصصنــا المســلية لا يمكــن أن تنجــح في امتحــان تحويلها إلى الصيــغ الصينيــة. التــالي هـــي عينــات مــن الطرافــة الكلاســيكية، وهــي، كــما هــي، يمكــن تقديمهــا في أي تقريــر عــن الســيرة الذاتيــة لأفــراد معينين.

تشــون أو كــون Chun Yu Kun (من القرن الرابع قبــل الميلاد)، هو الظريف الذي ســبق ذكره، والذي حاول أن يورط مينسيوس في حديثه. في إحدى المناسبات عندمــا كانت دولة **تشــو Chu** على وشــك أن تهاجم دولة **تــشي Chi** صدرت له الأوامر من أمير **تشي Chi**، الذي كان حموه، بالذهاب إلى دولة تشاو لطلب جيش قد يوافقون على إرســاله لمســاعدتهم، ولهذا الهدف زوده الأمــير بمائة باوند من الفضة وعشر عربات كعطية لحاكم **تشــاو Chao**. وهنا ضحك **تشــون أو Chun Yu** بشــكل مفرط أجبره على حل رباط طاقيته، وعندما سأله الأمير على ما تضحك قــال، «عندما أتيت هنا في هــذا الصباح، رأيت فلاحاً يضحــي بقدم خنزير وكاس واحد من النبيذ، وبعدها أخذ يصلي قائلاً «يا الله دع مصطبتي العليا تملأ الســلال

ودع مصطبتـــي الدنيا تملأ العربات؛ اجعــل حقولي تزهر بالغلال وحظائري تتدفق بالحنطــة!» فلم أســتطع إلا أن أضحك من رجل قدم القليــل ويريد الكثير.» فهم الأمير التلميح وحصل على المساعدة التي طلبها.

تــاو كــو Tao Ku (902-970 ميلادية) كان موظفاً مرموقاً وكان اســمه معروفاً شــعبياً فيما يتعلق بسرعة الخاطر التالية. بعد أن طلب خادمة تم شراؤها مؤخراً لتجلب بعضاً من الثلج وتحضر الشــاي على شرف عيد الأنوار (الفوانيس) فســألها بطريقة استعراضية، «هل كانت هذه العادة في موطنك السابق؟» فأجابت البنت، «آه، لا، لقــد كانوا جماعة خشــنين، كانــوا يلطخون الخيمة بالذهــب وبعضاً من الموسيقى والنبيذ المعتق.»

لي **تشــيا مينغ Li Chia Ming** (القرن العاشر الميلادي) كان ظريفاً في بلاط آخر حكام ســلالة تانغ. في مناســبة ما لفــت الأخير الانتباه إلى بعض مــن الغيوم التي تتجمع وتتهيأ وكأنها ستمطر. قال لي **تشيا مينغ Li Chia Ming**، «يمكنهم القدوم، لكنهم لن يجرأوا على دخول المدينة.» ســأل الأمير، «لماذا؟» «لأنه،» قال الظريف، «رســم الدخول عالٍ جداً. «صدرت الأوامر بعد ذلك بأن الواجبات يجب تخفيضها إلى النصف. في مناسبة أخرى، كان الأمير يصطاد السمك مع عدد من مرافقيه الذين كلهم اصطادوا شيئاً، بينما هو نفسه لضيقه العظيم لم يحصل على واحدة منها. إثر ذلك أخذ لي **تشيا مينغ Li Chia Ming** القلم وكتب الأبيات التالية:-

> «إنها نشوة الطرب في أيام الربيع الدافئة أن تسقط الذبابة المغرية
> في البركة الخضراء حيث تقع المياه السوداء عميقة وساكنة؛
> وإذا كانت الأسماك لم تجرؤ على لمس الطعم الذي تطرحه سموكم،
> فلأنهم يعلمون أن التنينات وحدها هي رياضة ملائمة للملوك.»

ليو تشي Liu Chi (القرن الحادي عشر الميلادي) كان شاباً نوعاً ما سيء السمعة بســبب حبه لاستخدام الكلمات الغريبة، والتـــي كانـــت مستهـــجنة بشـــكل واســـع مـــن قـــبل العظيم أو **يانغ هسيو Ou Yang Hsiu**. عندما كان الأخير كبير الممتحنين، أحد المرشحين أرسل ثلاثية مضحكة كالتالي:-

«الكون في مخاض،
جميع الأشياء تولد،
من بينها الحكيم.»
«هــذا بالتأكيد **ليو تشي Liu Chi**،» صاح أو **يانــغ Ou Yang** وحمل قلم حبر أحمر ولطخ به موضوع الإنشاء الذي كتبه ليو تشي Liu Chi مضيفاً هذين البيتين:-

«الطالب الذي لم يتخرج بعد، يمزح،

الممتحن يحرث.»

لاحقاً في ســنة 1060 كان أو **يانغ** مصدوماً جداً من مقال لمرشــح معين، ووضعه الأول على اللائحة، عندما تمت تلاوة الأسماء اكتشف بأن الرجل الأول كان **ليو تشي Liu Chi** الذي قام بتغيير اسمه إلى **ليو أون Liu Yun.**

كان **تشــانغ هسوان تســو Chang Hsuan Tsu** من ظرفاء سلالة هان Han. عندما كان عمره ثمانية ســنوات، ضحك منه أحدهم بسبب سقوط عدة أسنان له فقال له «ماذا تفعل ثقوب الكلب هذه في فمك؟» فأجابه **تشــانغ Chang** «إنها هناك لتسمح للجراء من أمثالك أن تخرج وتدخل.»

مجموعــات من الظرافة والهــزل من نوع **جو ميللــر Joe Miller** غالباً ما ترى في أيــدي القــراء الصينيين ويمكن شراؤها في أي كشــك لبيــع الكتب مثل كثير من الروايات الرخيصة وذات المستوى الرخيص، والتي لا يمكن التحدث عنها مع روائع القصة الموصوفة في هذا المجلد فهذه المجموعات لا تتلائم مع الترجمة بشكل كبير. كل الأدب في الصــين هــو أدب خالص. الروايات والقصص لا تعتــبر أدباً؛ فالكتاب لا يجــدون الرغبــة عندهم لوضع اســمهم على مثل هذه الأعــمال والنتيجة هي سقطة كبيرة عما يعتبر المستوى الوطني. حتى أن حلم المقصورة الحمراء **هونغ لو منغ Hung Lou Meng** تتضمن حكايات يشوبها بشكل كبير جمالية الكل. أحد الأعذار في هذا الصدد هو أنها حكايات من واقع الحياة. وبالتالي فإن إلغاء الضعف العادي الإنساني سيكون نتيجته إنتاج صورة غير كاملة ورديئة.

التـــالي هـــي عينات قليلة لحكايـــات ظريفة أخذت من **هســـياو لين كوانغ تشي Hsiao Lin Kuang Chi**، عمـــل حديث في أربعة كتب قصيرة حيث تم تصنيف القصص تحت اثني عشر عنواناً مثل الفنون، النساء والرهبان.

لاحظ عريس وجود تجاعيد عميقة على وجه عروسه، فسالها عن عمرها كم هو، فأجابت أنها تبلغ حوالي الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين.« فرد عليها،» إن عمـــرك المذكور في وثيقة الزواج هو الثامن والثلاثون، لكنني على ثقة أنك أكبر من ذلك، أما الآن أخبريني الحقيقة.» أجابت العروس أنه بالحقيقة أربعة وخمســـون. إلا أن العريس لم يعجبه ذلك فقرر أن يضع لها مصيدة. قال لها، «أواه، على رسلك، يجب أن أذهب وأغطي زير الملح وإلا فإن الجراذين ســـتأكل كل فتات فيه. إلا أن العروس صاحت بغتة وقالت «حسناً! أبدا! فأنا عشت ثمانية وستون عاماً ولم أسمع أبداً من قبل أن الجرذان تأكل الملح.»

امرأة كانت تســـتضيف حبيبها خلال غياب زوجها صدمت عندما دق الأخير على بـــاب البيت. فبسرعة حزمت الرجل داخل كيـــس أرز وخبأته في زاوية من الغرفة. لكـــن عندما دخل زوجها رأى الحزمة فســـأل بصوت جريء «مـــاذا لديك في ذلك الكيـــس؟» كانت الزوجة مرتعبة من الإجابة؛ إلا أنه بعد فترة حرجة ســـمع صوت من الكيس يقول «فقط أرز.»

كان هنـــاك أزعـــر يحمل ضغينة ضـــد رجل غني ففتش على ســـاحر وطلب منه المســـاعدة. «يمكنني أن أرسل جنود الشيطان وبسرية تامة يمكنني أن اقطعه، قال الســـاحر. لكن الآخر أجاب أي نعم، لكن أبناءه وأحفاده ســـيرثون. هذا لا يصح.» فقال الساحر، «يمكنني أن أسحب النار من السماء وأحرق بيته وأغراضه الثمينة.» أجـــاب الرجـــل، «حتى عندها، إن أرضه المملوكة ســـتبقى؛ فهـــذا لا ينفع.» فصاح الساحر، «أواه! إن كان كرهكم له عميق إلى هذا الحد، فأنا عندي شيء ثمين هنا أن اســـتطعتم إقناعه باغتنام الفرصة فإن ذلك ســـيحطمه تماماً. وبناء على ذلك أعطى الزبون المسرور رزمة مغلقة إغلاقاً محكماً وعندما فتحها وجدها تحتوي على قلم. فسأله الرجل، « أي مقدرة روحية توجد في هذا؟» «آه!» تنهد الساحر، «يبدو أنك

لا تعرف كم من الناس تسبب لهم بالدمار هذا الشيء الصغير.»

عن طبيب أساء التعامل مع إحدى الحالات، قبضت عليه العائلة وربطته. في الليل تمكن من تحرير نفسه وهرب عندما سبح عبر النهر. عندما وصل بيته، وجد ابنه، الذي بدأ لتوه في دراسة الطب وقال له، لا تكن على عجل مع كتبك. فأول وأهم شيء هي أن تتعلم السباحة.»

أرسل ملك المطهر مساعديه إلى الأرض ليحضروا طبيباً ماهراً. قال لهم الملك عليكم أن تبحثوا عن واحد لا يوجد على بابه أي أرواح ظلمت لمرضى متقطعي الأوصال.» انطلق المساعدون، فوجدوا أن كل منزل لطبيب زاروه هنا جمهور من الأرواح الباكية تتسكع. وأخيراً وجدوا طبيباً على بابه يوجد فقط ظل واحد، فصرخوا «هذا الرجل بكل تأكيد هو الرجل الماهر الذي نبحث عنه.» وعندما استفسروا اكتشفوا بأنه بدأ فقط ممارسة مهنته في اليوم السابق.

تم الضغط على جنرال في المعركة وكان هو على شفير الاستسلام عندما ظهر له فجأة روح جندي لينقذه ويمكنه من كسب نصر عظيم. انبطح على الأرض وسأل عن اسم الروح. فأجابته الروح،» أنا إله الهدف.» فسأل الجنرال،» بأي طريقة استحققت حظوة مساعدتكم الكريمة؟» قال الروح، «أنا ممتن لكم لأنكم في أيام التدريب لم تصيبوني أبداً.»

لم يكن عند رسام للصور الشخصية كثير من الأعمال، فأسدى له صديق النصح أن يرسم صورة له ولامرأته، ويعلقها في الشارع كإعلان. فعل ذلك، وبعد فترة قصيرة أتى حموه. فحدق في الصورة لبعض الوقت، فسأله الأخير في النهاية،» من هي تلك المرأة؟» فرد الفنان عليه قائلاً، «لماذا، إنها ابنتك،» فاستفسر والدها ثانية «ماذا تعمل، جالسة هناك مع غريب؟»

رجل حكم عليه بلبس كانغو، أو الياقة الخشبية، شاهده بعض من أصدقائه. فسألوه، «ماذا كنت تفعل حتى تستحق ذلك؟» أجاب، «أواه! لا شيء، انا فقط التقط قطعة حبل قديمة فقالوا له، «أمن الممكن أن تعاقب بهكذا عقاب قاسٍ لأنك

التقطت نهاية حبل؟» «حسناً أجاب الرجل، «الحقيقة أنه كان هناك عجل مربوط على الطرف الآخر...»

رجل طلب من صديق له البقاء وشرب الشـاي. وللأسـف لم يكن هناك شاي في البيت، لذلك تم إرسـال خادم ليسـتعير، شـيئاً منه. قبل أن يعود الأخير، كان الماء يغلي، وأصبح من الضروري سكب ماء بارد أكثر. هذا حصل عدة مرات وفي النهاية كان السخان قد طفح بالماء، لكن لا يوجد شاي. ثم قالت الزوجة لزوجها، « بما أنه يبدو أننا لن نحصل على الشاي، من الأفضل لك أن تدعو صديقك على حمّام!»

تم جلب قرد بعد موته إلى ملك المطهر، استجدى أن يبعث من جديد على الأرض كإنسـان. فقال الملك، «في تلك الحالة يجب اقتلاع شـعرك كله من جسدك،» وأمر مساعديه الشياطين أن يقتلعوها مباشرة. إلا أن القرد، في الشعرة الأولى، زعق، وقال أنه لا يسـتطيع تحمل الألم. «يا حيوان!» زمجر الملك، «كيف تريد أن تصبح إنساناً إذا لم تكن قادراً حتى عن الافتراق عن شعره واحدة.»

لاعب شطرنج مغرور لعب ثلاث لعبات مع غريب وخسرها كلها. في اليوم التالي سأله صديق كيف انتهت اللعبة. «آه،» قال هو «لم أربح اللعبة الأولى وخصمي لم يخسر الثانية، أما بالنسبة للثالثة أردت التعادل لكنه لم يوافق.»

إن أكثر المخطوطات بسـاطة في الأدب الصينـي قد لا تكون بالكاد مكتملة دون إيمـاءة لأمثال الصين ومبادئها. إن هذه لا توجد فقط وبشـكل كبير منثورة في كل فرع من فروع الكتابة، الكلاسـيكية والشعبية، ولكن يمكن دراستها في المجموعات، إجمالاً في باب العروض. وبالتالي إن **مينغ هسيان تشي Ming Hsien Chi**، لنأخذ مثـلاً على ذلك، التي يمكن شراؤها في أي مكان بحـوالي «بنس،» تتألف من ثلاثين صفحة من الأمثال وما شابه، مرتبة بمجموعات متضادة من خمس أو ستة أو حتى من سبعة أحرف صينية للسطر الواحد. يطلب من الأطفال حفظها عن ظهر قلب. والصينيون العاديون الناضجون قد نقول عنهم أنهم يفكرون بالأمثال، لا يوجد أدنى شك أنه بالنسبة للأجنبي سيكون مخزناً واسعاً من الأمثال. يحفظ في الذاكرة ويقوم بتعقل، مسـاعداً عظيماً لمحادثة ناجحة. التالي هـي مجموعة صغيرة من معين لا

ينضب، يحذف، بشكل كبير تلك التي تجد لها بديلاً متكافئاً في الإنكليزية:-

تعامل مع أخطاء الآخرين بلطف كما تتعامل مع أخطائك أنت.
بالكلمات الكثيرة تفقد الظرافة.
إن كان لا بد من أن تنحني فانحني بانخفاض.
إن أخذت الثور، فيجب أن تعطي الحصان.
الرجل يعتقد أنه يعرف، لكن المرأة تعلم بشكل أفضل
الكلمات التي يهمس بها على الأرض تبدو وكأنها رعد في السماء.
إن ضحك الحظ – من لا يفعل؟ وإذا الحظ لم يضحك من يفعل.
الرجال الأثرياء دائماً يسمع لهم.
الطبيعة أفضل من طبيب متوسط.
ابق في البيت واحترم أبويك؛ لماذا تسافر بعيداً لتعبد الآلهة؟
رجــل أنفه مثل الزجاجة قد يكون رجــلاً ممتنعاً عن تناول الخمور، لكن لا أحد يعتقد ذلك.
من الأسهل لك أن تمسك النمر على أن تطلب معروفاً.
بالمال يمكنك أن تزحزح الآلهة، دونه
لا تستطيع أن تزحزح انساناً.
اخفض رأسك إن كانت حواف السطح منخفضة
لا تسرج الحصان بسرجين.
يتم الاحتفاظ بالجيوش لسنوات، لكي تستخدم في يوم واحد.
لسوء الحظ، الذهب يبدو خافتا؛ في السعادة
فالحديد يتوهج.
هناك شجر أكثر استقامة من الرجال.
إن تخف أن الناس سوف يعرفون ما تفعله، إذا لا تفعله.
إن الزيارات الطويلة تجلب ثناءً قصيراً.
إن كنت مستقيماً ودون خداع أي إله سيحتاجك
لتصلي طالباً السماح؟

بعض الدراسات تظهر الحاجة لدراسات أكثر.
إن كلمة لطيفة واحدة ستبقيك دافئاً لثلاث فصول شتاء.
إن أطول قلعة تبدأ من الأرض.
لا توجد إبرة حادة من الجهتين.
الشجر المستقيم يقع أولا.
لا صانع صور يتعبد للآلهة. إنه يعرف من أي مادة هم مصنوعون.
نصف برتقالة طعمها حلو كما واحدة كاملة.
إننا نحب تشكيلنا، لكن زوجات الرجال الآخرين.
إن الجالسين الأحرار في مسرحية هم دائما الأكثر تأففاً.
ليس النبيذ الذي يسكر الإنسان، إنه الإنسان نفسه.
من الأفضل أن تكون كلباً في السلام عن أن تكون رجلا في الحرب.
كل واحد يعطي دفعة إلى الحائط الساقط.
نظف الثلج من أمام مدخلك.
إن الذي يمتطي نمراً لا يستطيع النزول.
الأدب قبل القوة.
الكلب ينبح على شيء والآخرين ينبحون عليه.
أنت لا تستطيع أن تصفق بيد واحدة.
اسحب قوسك ولكن لا تطلقه.
إن انسانا جيداً آخر على الأرض أفضل من ملاك إضافي في السماء.
الذهب يتم فحصه بالنار أما الإنسان فبالذهب.
أولئك الذين ذاقوا المرارة الأكثر مرارة في الحياة
لا يمكنهم أن يتذوقوا أحلى الحلويات في الحياة
المال يجعل الشخص الأعمى يرى.
الإنسان هو الله على ميزان صغير. الله هو الإنسان على ميزان كبير.
جار قريب أفضل من قريب بعيد.
دون الأخطاء لا يوجد شيء مثل الحقيقة.

ملاحظات ببليوغرافية

الـذي حققه الطلاب الأجانب في دائرة الأدب الصيني من القرن السـادس عشر نـزولاً حتى الأيام الأخيرة، ظاهر جداً في المجلدات الثلاثة الكبيرة التي تشـكل الـ Bibliotheca Sinica أو Dictionaire Bibliogaphique de Ouvrages Relatives al' empire Chinois, مـن قبل هنري كوردييه: الصادر في باريس من قبل دار النشر آرنسـت ليرواه، عام 1878؛ مع محلـق صدر عام 1895. هذا العمل تم تنفيـذه بطريقة كاملة ودقيقة لا تدع شـيئاً لترغب به، وهو ضرورة لكل العاملين المنهجيين في الحقل الصيني.

ومـن أهم الكتـب المذكـورة في المجموعة أعلاه هـو ترجمة شـاملة للقوانين الكونفوشوسـيه من قبل المرحوم الدكتور جيمس لج من أبردين بعنوان عام اسمه الكلاسـيكيات الصينيـة. إن إصدار هذا العمل، الذي يشـكل أكـبر معلم موجود للدراسات الانجلو - صينية استمر من 1861-1885.

إن منهـج الأدب الصينـي من تأليف الأب اليسـوعي بـ تسـوتوللي، شـنغهاي، 1879 - 1882 هو سلسلة شاملة من الترجمات إلى اللاتينية من جميع فروع الأدب الصينـي وهو مخطط له على وجه الخصوص أن يتم الإفادة منه من قبل البعثات التبشيرية الكاثوليكية (neo-missionariis accommodatus).

عمـل آخر مهم جـداً واقترب من الاتمام السريع هو ترجمة من البروفسـور أي. شـفانيس، كولدج دي فرانس، عن التاريخ المهم الموصوف في الكتاب الثاني الفصل الثالـث تحت عنوان المذكرات التاريخية لِـ سـيما تسـيان، المجلد الأول المؤرخ في باريس 1895.

ملاحظــات حول الأدب الصيني مــن قبل أ وايلي، شــنغهاي 1867 يحتوي على ملاحظات وصفية من حوالي 2000 عمل صيني مســتقل مرتب تحت كلاسيكيات! التاريــخ، الفلســفة والأدب كما هو بالكاتالوج الإمبراطــوري. أخذين بعين الاعتبار التاريــخ الذي كتب فيه فان هذا الكتاب اســتحق تصنيفه بــين أعلى الجهود من نوعه. إنه لا يزال من أعظم الكتب قيمة للطلاب، مع أنه بحاجة إلى إعادة صياغة حذرة.

الكاتالوجات التالية عن المكتبات الصينية في أوروبا تم نشرها في السنوات القليلة الماضية:

Catalogue of Chinese Printed Books, Manuscripts, and Drawings .in the Library of the British Museum. By R. K. Douglas, 1877

Catalogue of the Chinese Books and Manuscripts in the Library .of Lord Crawford, Haigh Hall, Wigan, By J. P. Edmond, 1895

Catalogue Of the Chinese and Manchu Books in the Library of .the University of Cambridge. By H. A. Giles, 1898

Catalogus des Livres Chinois, Coreens, Japonais, etc, in the Bibliotheque Nationle. By Maurice Courant, Paris, 1900. (Fasc. i. pp. (.vii, 148, has already appeared

إن الدوريات الرئيسة، المتخصصة بالدراسات في الأدب الصيني هي كالتالي:-

«**مخزن الإيداع الصيني**» تنشر شهريا في كانتون من أيار (مايو) 1832 إلى كانون أول (ديسمبر) 1851.

مجلة فرع الشــمال - الصين للجمعية الملكية الآسيوية، تصدر سنويا في شنغهاي من 1858 حتى 1884، ومنذ ذلك التاريخ تصدر في ملازم على فترات متقطعة خلال كل سنة.

تشــاينا ريفيو تصدر كل شــهرين في هونغ كونغ من حزيران (يونيو) 1872 إلى الوقت الحاضر.

ثم **هناك تشاينيز ركوردر،** الموجود منذ 1868 والآن يجري نشره في شنغهاي كل شهرين مرة. هذا العمل هو مجلة تبشيرية، لكنها غالباً ما تحتوي على أوراق ثمينة عن الأدب الصيني ومواضيع متقاربة.

فاريتيه ســينولوجيك «متفرقات صينية» هو عنوان سلســة مــن الأوراق حول مختلف المواضيع الصينية كتبها ونشرها على فترات متقطعة الآباء اليســوعيون في شنغهاي منذ 1892 وتميزت بالإدراك والصحة لجميع كتابها.